Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

حسين فوزي

حديث السندباد القديم

893.783
F276

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

القاهرة — III — ١٩٤٣

إلى صديق

العلّامة والجراح الكبير

الدكتور محمد كامل حسين

45-39141 4/23/45 MB

مقدمة

كنت واقفاً بظهر تلك السفينة العلمية ذات يوم من أيام نوفمبر ١٩٣٣ ، أتطلع إلى شاطىء صخرى ، وجبال مقطبة الأسارير ، شبيهة بالكثير غيرها مما رأينا على هذا الشاطىء الجنوبى لشبه جزيرة العرب . وكانت السفينة تتجه إلى جونة وسط تلك الجبال ، لتلقى بمراسيها أمام الجزيرة الوحيدة المسكونة من مجموعة جزائر « خوريا موريا » . فرأيت خلال المنظار شيخاً واقفاً إلى جوار راية حمراء ، ظهر فيما بعد أنها شال عمامته ربطه إلى عكازه . وكان الرجل شيخ جزيرة « الحلانية » . وتعداد سكانها أربعون نفسا .

لم أعرف لماذا هتف فى نفسى هاتف تلك اللحظة بكلمة « السندباد » . وهو اسم نشر بسحره موكباً من ذكريات الطفولة والمراهقة . وجعلت الكلمة والموكب يرتفعان من أطباق الشعور السفلى إلى نطاق أكثر تنبهاً ، والسفينة تقترب من شاطىء جزيرة « الحلانية » ، حتى لبست كلمة « السندباد » صورة الشيخ الواقف إلى شال عمامته . كما تلتقى الصورة المزدوجة للمرئيات ، فى أجهزة التصوير الدقيقة ، علامة على أن العدسات اتخذت موضعها الذى يسمح بتصوير واضح المعالم والحدود .

وتابعت تلك السفينة العلمية رحلتها فى البحر العربى إلى خليج عمان . ثم انحدرت إلى كراتشى ميناء السند . وعادت تذرع المحيط الهندى غرباً وشرقا ، وجنوبا وشمالا . فلم يمكن لى عملى على ظهر السفينة من أن أفكر فى أمر العلاقة بين شيخ الحلانية والسندباد البحرى بأكثر من أننى تصورت

الرحالة العربى الخيالى واقفاً بشاطىء جزيرة قفراء، بعد حادث من حوادث أسفاره، يلوح لمركب عابر بشال عمامته . كما كان يلوح ذلك الشيخ لنا .

ولكنى بعد عودتى إلى مصر فى سنة ١٩٣٤ أحسست بأننى سلكت البحار التى ركبها السندباد فى سفراته المشهورة . وكان إحساساً غريباً . لأننى فى ذلك الوقت ، وقبل أن أعرف من أمر أسفار السندباد ما عرفت ، لم يكن فى ذهنى منه إلا أنه بطل قصة مغامرات بحرية ، تبدو فيها دواب البحر للسفار جزائر ، وتخرج عليهم من الأعماق خيول تجر أعرانها على الأرض ، وحيات تبتلع الأفيال ، ومن السماء طيور تحجب وجه الشمس ، وتحمل الناس فى مخاليبها .

ومع ذلك قدرت بعد إيابى من رحلتى الهندية أن إحساسى فيما يتعلق بالسندباد جدير بالعناية والفحص . فأعدت مطالعة قصته بعيون تفتحت على أرجاء بحر الهند . ورأيت أن القصة لا بد تخفى فى ثناياها معارف إيجابية تواردت على ألسنة الرحالين العرب . وكنت أعرف من تاريخ الاكتشافات البحرية أن لهؤلاء فضلاً كبيراً على الملاحة فى البحار الشرقية إبان القرون الوسطى . وذكرت أن المعلم شهاب الدين بن ماجد النجدى كان دليل ڤاسكو داجاما فى رحلته من مالِيندى ، على الشاطىء الشرقى للقارة الإفريقية ، إلى قليقوط على الشاطىء الغربى لشبه جزيرة الهند .

كما خرجت من مطالعات عابرة فى كتابى « **عجائب المخلوقات** » للقزوينى و« **مروج الذهب** » للمسعودى بأن ثمت معارف بحرية فى كتب العرب جديرة بالمراجعة على أساس ما حققه علم البحار . وذكرت

كتاباً قرأته كثيراً فى صغرى مع قصة السندباد ، عنوانه « **عجائب الهند** » لمؤلف غريب الاسم يشبه أن يكون شهريار أو بزرجمهر . ولكنى كنت واثقاً من كلمة « الناخداه » مضافة إلى اسمه ، واسم بعض من نسب إليهم حكاياته . وهى الكلمة التى سمعتها بأذنى على ألسنة الصوماليين فى منبسة وعدن وبريم وغيرها ، يطلقونها على ربان السفينة .

انطوت نفسى عند هذا على أمنية أحققها يوما ، هى فحص تلك الكتب وما إليها لتحديد مركزها فى تطور الجغرافيا البحرية ، وللتعرف على ما تصفه من أحياء مائية ، وظواهر بحرية وجوية ، ومواضع من البحر الشرقى تبدو أسماؤها غريبة على من اعتاد سماع أسماء غيرها بالمحيط الهندى . وانضمت تلك الأمنية إلى صفوف الأمانى تنتظر دورها . ولم أكن أحسبه آتياً لولا الغمرة التى تردى فيها العالم منذ خريف سنة ١٩٣٩ ، وما أدت إليه من قيام العقبات الكبيرة فى طريق الأسفار البحرية ومتابعة بحوثها . والسفر بالبحر هو وسيلتنا الأساسية للاستقصاء ، بقدر ما هو هوايتنا وبؤرة رغباتنا الملحة نحو المعرفة .

حاقت بى من جراء ذلك أزمة نفسية لم أجد منها مخرجا إلا فى دراسة المسائل التى أنشىء على بعضها هذا الكتاب . فهو حقا وليد أزمة . عقدتها رغبة جياشة فى ركوب البحر ، دون إمكان تحقيقها والعالم على ما هو فيه من شر وفتنة .

وانصرفت الأزمة إلى ملافاة الحاضر . هروباً إلى الأزمنة الغابرة والأمكنة النائية .

«حديث السندباد القديم» رحلة خيالية فى الزمان والمكان على السواء . بقدر ما كان « سندباد عصرى » رحلة واقعية . فأنا أعود بخيالى إلى المحيط الهندى ، لا كما عرفته منـذ نحو عشر سنوات ، بل كما عرفه البحريون العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر . قبـل عصر الاكتشافات البحرية الـكبرى ، التى بدأت بوصول بارتولوميو دياز إلى رأس الأعاصير فى الطرف الجنوبى من القارة الافريقية ، ثم باقتحام ڤاسكو داجاما بحر الهند ، وتباشره بدورانه حول ذلك الرأس المفزع حتى أطلق عليه اسم رأس الأمنية الطيبة ، أو « الرجاء الصالح » . وأتبعت برحلة كولومبوس إلى العالم الجديد وهو يحسب أنه يسلك طريقاً غربياً إلى الهند و بلاد الذهب والطيب والأفاويه . و بلغت أروع أدوارها حينما استطاع ماجلان أن يذرع البحر عرضا ، ويتم دائرة الأرض بأسطوله الشراعى .

دليلى وقائدى ، فى رحلتى الخيالية ، ذلك الرحالة العظيم الذى أخرجته للناس مخيلة كاتب عربى مجهول — ربمـا كان مصريا — يعزى إليه جزء أو كل من كتاب « **ألف ليلة وليلة** » أوسع مؤلفات الأدب العربى صيتاً فى الخافقين .

والسندباد هو معلمى البحرى الأول . فأنا إذ أرجع برحلتى الخيالية إلى القرون الوسطى ، أعود بها أيضا إلى طفولتى حينما عرفت البحر أول ماعرفت فى قصة «**السندباد البحرى**» وكتاب «**عجائب الهند**» المنسوب إلى بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزى .

رأيت البحر عيانا فيما بعد . وكانت أول رحلاتى على سطحه من

الإسكندرية إلى . . . جزيرة العجمى ! وأول سفرى الكبير عبر مياهه كان إلى فرنسا لأحبس نفسى على دراسته .

ولعت بالبحر صبيا قبل أن أراه ، وعرفته مراهقا . واستغرق غرامى للبحر قبل أن ألقاه لقاء الوصال عشرين عاما من عمرى . وكان هذا اللقاء على لسان من الأرض فى الشمال الغربى من فرنسا ، فى أقرب البلاد اتصالا بالبحر ، ووقوعا تحت سحره ، وخضوعا لأهواله : البريتانى ، حيث تصطفق أمواج الأقيانوس ، وتخرج الأساطير والخرافات من بطون الأعاصير ، وهزيم الرعود .

عرفت فيما بعد بحر الشمال ، وفيورد اسكندناڤيا ، وشواطئ اسكتلندا ، ونواحى من البلطيق ، وركنا من الأطلنطى ، والبحر الأسود ومرمرة والأدرياتيك ، ومعظم البحر الأبيض المتوسط . ثم ذرعت البحر الأحمر والمحيط الهندى إلى أبعد من عشر درجات جنوبى خط الاستواء ، وشرقا إلى بحر بنغالة . قليل من كثير بنفسى أن أرتاده كاملا . لأن حب البحر يزداد قوة كلما أمعن فيه الصب تجوابا وتجوالا .

ولا أنسى فى هـذا الغرام علمين من أعلامه : أول حبى للبحر فى قصة السندباد . ووصالى للبحر على شاطئ البريتانى فى بلاد فنستير [منتهى الأرض] وقد أتكلم يوما عن لحظات الوصال فى الجو المعتم المتلبد ، وعبق اليود يملأ عرانينى ، وقتاد الشاطئ يجرح قدمى . أو فوق مراكب الصيادين بين ضجيج الآلات ، ورفرفة السمك يتساقط من الشباك على ظهر السفينة . حين أدركت أن «موجا كالجبال» ليس صورة شعرية فحسب ، وعرفت كيف ينفذ الزمهرير من أطراف الأنامل وأرنبـة الأنف إلى مخ العظام . كما رأيت الجليد فى

الصباح الباكر يتدلى من الحبال والصوارى ، ويدرج جوانب السفينة فى أكفانه الناصعة البياض .

إلا أننى لم أنته بعد من التحدث عن اللحظات الأولى فى غرامى . فعند ما كتبت رحلتى الهندية اخترت عنوانا لها اسم السندباد معلمى الأول .

واليوم أخصص للسندباد هذا الكتاب . وليس السندباد شخصا أو حكاية . إنما السندباد عهد بأكمله . قرأت قصته طفلا على أنها « حدوتة بالبحر ملتوتة » ، وشابا باعتبارها علما من أعلام الأدب فى الشرق والغرب . ثم عدت إليها فى محنة الحرب كخلاصة لعهد من أزهى عهود الدولة العربية ، عهد الملاحة الجسور ، والمجازفات الخطيرة فى مجموعة البحار الجنوبية التى عرفت فى ذلك الوقت باسم « البحر الشرقى العظيم » .

بدأت رحلتى الخيالية إلى هذا البحر الشرقى حبا فى السندباد ، ورغبة فى التقرب إليه ، وتوثيق أواصر معرفتى به ، وأنا شاعر بأن قصته تخفى الكثير مما كنت أجهل . ولكنى لم أتصور أن يكون وراءها ما وراءها من معارف وآثار وبحوث . لم أتوقع أن يكون السندباد دليلى إلى أكثر مما ورد فى حكاياته . كالمعلم الذى نحسب فى طفولتنا أن كل جعبته من العلم هى البسائط التى نتلقاها عنه .

ولست أدعى أننى أحطت بنواحى الموضوع علما ، أو أنسب لنفسى فضل اكتشاف الصلة بين السندباد والجغرافيا العربية فى القرون الوسطى . فإذا كنت قد توصلت بمجهودى الشخصى إلى تفهم هذه الصلة ، فقد اكتشفت أثناء مراجعاتى أن المستشرقين كانوا أسبق إلى ما أنا اليوم بسبيله . وإلى

أرجع الفضل لذويه إذ أعترف بفضلهم لا كبحاثة علماء فحسب ، بل كخدم أمناء للنصوص العربية الجغرافية . فبفضلهم استطعت أن أطالع تلك النصوص مراجعة مصححة ، مبوبة مشروحة . وبفضل تخصصهم وعلمهم كونت صورة للعالم كما كان يتصوره أبناء خرداذبة وسعيد وحوقل ، وأبو الفداء والبيرونى والإصطخرى والشريف الإدريسى . بل لم يكن هذا الكتاب ممكنا بشكله الحالى لولا :

Langlès, S. de Sacy, von Hammer, Reinaud, Mehren, Ed. Lane, Wüstenfeld, Quatremère, B. de Meynard, C. de Vaux, de Goeje, van der Lith, G. Ferrand.

ولعلى إذ أقدم فى ثنايا هذا الكتاب صفحات مجهولة من تلك المكتبة العربية الزاخرة التى صرفوا عمرهم فى نشر مجلداتها ، أكون نجحت فى إظهار ناحية من نواحى فضلهم على الآداب العربيـة جمعاء . وساعدت فى نفس الوقت على أن أضع بين أيدى الشباب نصوصا عربية ذات خطر علمى وأدبى وتاريخى ، لا يجدونها فى الكتب التى اعتادوا مطالعتها . وإذا أرادوا البحث عنها فى كتبها الأصلية لاقتهم صعوبة العثور على هذه الكتب . فإذا ظفروا بها نفرتهم أساليب القدماء فى عرضهم للمسائل دون تنسيق ولا ترتيب ، وأعوزتهم الحاجة إلى فهم الكثير من المعارف التى تستتر وراء تلك النصوص أكثر مما تستبين .

ولقد كنت بين أن أضحى بالخفة والطلاوة الفنية فى سبيل نشر تلك النصوص القديمة ، أو أن أتخلص من هذه دفعة واحدة فيكسب الكتاب سهولة وسلاسة . وكلا الأمرين هين على المؤلف . أما الصعب — وهو الطريق الذى جازفت بسلوكه — فهو أن ألائم بين العاملين حتى لا أفوت على القارئ

فائدة ، ولا أحرمه لذة . و بيني و بين نفسي أني كنت أكثر نزوعا إلى التخفيف .

وأخيرا أرجو أن يشترك معي من يهمه أمر تلك النصوص في إسداء الحمد ، والإقرار بالفضل لأصدقائي في مكتبتي بلدية الإسكندرية وجامعة فؤاد الأول . إذ بدونهم لم أكن لأستطيع أن أخص المراجع هادئا في عقر داري ، وأتخير منها ماتخيرت . وقد أقيمت المكاتب العامة لمثل هذا كما أظن ، لا بالمطالعة المحدودة بمكان ووقت ، خصوصا إذا كان المكان ثقيل الظل ، والوقت حكوميا أو يكاد . إلى الأساتذة إتيين كومب وحسن محمود و بشير الشندي أقدم شكري على ما طوقوا به عنقي من جميل لا أنساه .

وأقدم شكري الأخوي إلى الصديق حسن محمود ، الذي أضاف إلى جميله في مكتبة جامعة فؤاد الأول ، عنايته الشخصية بمراجعة نص الكتاب مراجعة الكاتب المتمكن ، والفنان المرهف الحس ، وتفضله بإبداء ملاحظات الصديق الوفي ، لا يغمض عينيه على هفوة ، في لباقة ورقة من أخص خصائصه .

كذلك أشكر الصديقين ، محمود طاهر لاشين ، القصصي الكبير ، الذي أفخر بصداقته ، وأعتز بوده . وصديق شيبوب ، صاحب المذهب الرفيع في النقد الأدبي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى التفاني في الأدب والوفاء لأهله ، على فضلهما في مراجعة الكتاب ، تحت ظلال حسن الظن وعطفهما الأخوي .

وكيف أؤدي واجب الحمد إلا خَجِلا ، وآيات الثناء إلا متلعثما ، لرجل نصب حياته لخدمة الثقافة عامة ، وأشاع في الشباب على تعدد نزعاته وتطورها ، والشيوخ برغم ما تنطوي عليه نفوسهم من تحرج المحافظة ، حب الفن والعلم والأدب ، على أساس خير المجموع ، وفضائل التعاون والهدى .

عرف هذا الأخ الأكبر ، صديق العلم والعلماء ، ظهير أهل الفن والأدب ، بأمر «حديث السندباد القديم» ، وبرغبتى فى إهدائه لأخ عزيز علينا سويا ، فلم يثنه عمل متواصل ، ليس أقله إنشاء جامعة فاروق الأول ، فى أوقات عصيبة ، ليس أسهلها تهديد مصر فى كيانها ، عن أن يدعونى إليه لأقرأ عليه الكتاب . فإذا أضفت إلى ذلك كيف لمست زعامة هذا الرجل للأدب العربى ، وعرفت سر قيادته للفكر المصرى المعاصر — وآيتهما حبه العميق لبلاده ، وإدراكه العالى لرسالتها — فقد أوحيت بشخصيته إلى الأذهان ، وأجريت اسمه على الأفواه . إلى أستاذنا الدكتور طه حسين أزجى كلمة شكر متواضعة ، أرجو أن تفصح عن بعض ما أحمله له فى نفسى من عرفان بجميله ، وحب له ، وإعجاب بسجاياه .

الإسكندرية . سبتمبر ١٩٤٠ — يونيه ١٩٤٢

ملاحظة : تجنبت الهوامش فيما يكاد يكون تجنباً تاما . واكتفيت فى حالات الضرورة القصوى بوضع قاعين [. . .] فى سياق الكلام ينضمان على ما كان ينبغى أن يوضع فى الهوامش ، مراعيا فى هذا عدم توزيع انتباه القارئ .

والفقرات الموضوعة بين " . . . . " نصوص منقولة عن مراجعها العربية ، أو مترجمة عن مراجع غير عربية .

حديث السندباد القديم

مقـــدمة

الكتاب الأول

بين الواقع والأساطير

صفحة	
٣	البحر الشرقي الكبير ...
١٣	التاجر سليمان ... ...
٣٣	كتب العجائب ... ...
٤٣	عجائب الهند ... ...
٥٧	بين الواقع والأساطير ... ...
٦٧	الرخ ... ...
٧٦	التنين ... ...
٩٣	شجرة الوقواق ... ...
١٠٩	جزائر النساء ... ...
١٢٠	بنات الماء وشيوخ البحر ...
١٣٦	الدرّ واللؤلؤ ... ...
١٥٧	العنبر والبال ... ...

الكتاب الثانى

القصص البحرية العربية

	صفحة
القصص البحرية العربية ...	١٨١
القرندلى الثالث	١٩٢
حسن البصرى	٢١٩
عبد الله البرى والبحرى ...	٢٣٥
رحلات السندباد البحرى ...	٢٥٦
I — الجزيرة المتحركة والحيوان البحرية	٢٦٢
II — رحلة جوية إلى وادى الماس	٢٧١
III — الغول الأسود	٢٨٢
IV — السندباد يدفن حيا ...	٢٩٠
V — شيخ البحر	٣٢٠
VI — رحلة نهرية فى كهف	٣٢٨
VII — مقبرة الأفيال... ...	٣٤٦

خاتمـــة

الكتاب الأول

بين الواقع والأساطير

البحر الشرقي الكبير

التاجر سليمان

كتب العجائب

عجائب الهند

بين الواقع والأساطير

الرخ

التنين

شجرة الوقواق

جزائر النساء

بنات الماء وشيوخ البحر

الدر واللؤلؤ

العنبر والبال

البحر الشرقى الكبير

قال أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة فى منتصف القرن التاسع الميلادى : " الأرض مدورة كتدوير الكرة ، موضوعة فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ؛ والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع نواحيها إلى الفلك . وبنية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ؛ لأن الأرض بمنزلة الحجر الذى يجتذب الحديد . والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا طول الأرض ؛ وهو أكبر خط فى كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك . وعرض الأرض من القطب الجنوبى الذى يدور حول سهيل ، إلى القطب الشمالى الذى يدور حوله بنات نعش " .

وأضاف الشريف الإدريسى فى منتصف القرن الثانى عشر : " واستدارة الفلك فى موضع خط الاستواء ثلثمائة وستون درجة ... وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضا مثل ذلك ؛ إلا أن العمارة فى الأرض بعد خط الاستواء أربعة وستون درجة . والباقى من الأرض خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود ، والخلق بجملته على الربع الشمالى من الأرض ؛ وأيضا فإن الربع الجنوبى وهو الذى فوق خط الاستواء غير مسكون ولا معمور لشدة الحرّ به ، وممر الشمس وهى فى أسفل فلكها على سمته ؛ فجفت مياهه ، وعدم حيوانه ونباته لعدم الرطوبة ، لأنه لا يكون الحيوان والنبات أبدا إلا حيث تكون المياه والرطوبات . والأرض فى

ذاتها مستديرة لكنها غير صادقة الاستدارة ، فمنها منخفض ومرتفع ، والماء يجرى فيها من أرفعها إلى أخفضها ، والبحر المحيط يحيط بنصف الأرض إحاطة متصلة دائرتها كالمنطقة لا يظهر منها إلا نصفها ؛ فكأنها عند الصفة بيضة مغرقة فى ماء ، والماء فى طست ؛ فكذلك الأرض نصفها مغرق فى البحر ، والبحر يحيط به الهواء . . . . . . وهذا الربع المسكون من الأرض قسمه العلماء سبعة أقاليم ، كل إقليم منها مار من المغرب إلى المشرق على خط الاستواء . وليست هذه الأقاليم بخطوط طبيعية ، ولكنها خطوط وهمية موجودة بالعلم النجومى ؛ وفى كل إقليم منها عدة مدن وحصون وقرى وأمم لا يشبه بعضهم بعضا ؛ وأيضا فإن فى كل إقليم منها جبالا شامخة ، ووهادا متصلة ، وعيونا وأنهاراً جارية ، وبركاً راكدة ، ومعادن ونباتا وحيوانات مختلفة " . وقسم ابن خرداذبة الأرض المعمورة على أربعة أقسام : " أروفى ومنها الأندلس والصقالب والروم وفرنجة وطنجة . ولوبية ومنها مصر والقلزم والحبشة والبربر وما والاها والبحر الجنوبى ... وإيتوفيا وفيها تهامة واليمن والسند والهند والصين . واسقوتيا وفيها أرمينيا وخراسان والترك والخزر " .

وتحدث أبو الريحان البِيرُونى فى أوائل القرن الحادى عشر عن البحار فقال : " أما البحر الذى فى مغرب المعمورة وعلى ساحل بلاد طنجة والأندلس ، فإنه سمى البحر المحيط وسماه اليونانيون أوقيانوس ؛ ولا يلجج فيه ، إنما يسلك بالقرب من ساحله ؛ وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة ؛ ويخرج منه خليج عظيم فى شمال الصقالبة ، ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين ، ويعرفونه ببحر وَرَنْك وهم أمة على ساحله ،

ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة . . . وأما امتداد البحر المحيط الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف على جنوب أرض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القُمْر التي تنبع منها عيون نيل مصر ، وفي سلوكه غزر لا تنجو منه سفينة . . . وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصي أرض الصين فإنه أيضا غير مسلوك ، ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذي يسمى في كل موضع من الأرض التي تحاذيه ، فيكون ذلك أولا بحر الصين ، ثم الهند ؛ ويخرج منه خلجان عظام يسمى كل واحد منها بحرا على حدة ، كبحر فارس والبصرة الذي على شرقيه تِيز مُكْران ، وعلى غربيه في حياله فرضة عمان ، فإذا جاوزها بلغ بلاد الشِّحْر التي يجلب منها الكُنْدُر ، ومر إلى عدن وانشعب منه هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقلزم وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ؛ ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بهما ، فيقال لجنوبيّه بحر الحبشة ، وللشمالي بحر اليمن ، ولمجموعهما بحر القلزم ؛ وإنما اشتهر بالقلزم لأن القلزم مدينة على منقطعه حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو أرض البِجا . والخليج الآخر المقدم ذكره هو المعروف ببحر البربر ، يمتد من عدن إلى سُفالة الزّنج ، ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ، ويتصل بعدها ببحر أوقيانوس المغربي . . . ثم في وسط المعمورة في أرض الصقالبة والروس بحر يعرف بنُنطُس عند اليونانيين ، وعندنا يعرف ببحر طَرَبِزُنْدَة لأنها فرضة عليه ، ويخرج منه خليج يمر على سور مدينة القسطنطينية ،

ولا يزال يتضايق حتى يقع فى بحر الشام الذى على جنوبيّه بلاد المغرب ، إلى الإسكندرية ومصر ، وبحذائهما فى الشمال أرض الروم والأندلس ؛ وينصب إلى البحر المحيط عند الأندلس فى مضيق يذكر فى الكتب بمعبرة هيرقلس ، ويعرف الآن بالزقاق ، يجرى فيه ماؤه إلى البحر المحيط . . . وبالقرب من طَبَرِسْتان بحر فرضته جُرْجان . . . وقد سمى باسم كل بقعة حاذاها ، ولكن اشتهاره عندنا بالخَزَر ، وعند الأوائل بجرجان ، وسماه بطليموس بحر أرقانيا ، وليس يتصل ببحر آخر ... "

وقال أبو الحسن المسعودى فى منتصف القرن العاشر : " البحر الحبشى هو بحر الصين والهند والسند والزنج والبصرة والأُبُلّة وفارس وكِرْمان وعُمان والبحرين والشِّحْر واليمن وأَيْلَة والقلزم — من بلاد مصر — والحبشة . وليس فى المعمور بحر أعظم منه " .

وهذا البحر كما ذكر ابن خرداذبة " هو البحر الشرقى الكبير ، طوله من القلزم إلى الوَقْواق أربعة آلاف وخمس مائة فرسخ " .

بحر كله أسرار ومخاوف ؛ ما بين أعاصيره وتياراته ، وأمواجه الهوجاء ودُرْدُوره ، وتُروشه وأقاصيره ، وفى المخلوقات التى تغشى مياهه ، أو تعيش على شواطئه وجزائره ، والبراكين التى تضطرم فى أحشائه ، أو تبدو من بعيد للسُّفّار نارا بالليل ودخانا بالنهار . وفى شرقه بحر مجهول لا يلجّج فيه ، كثيف السحاب منخفضه ، مظلم معتم ، ماؤه كدر ثقيل كالقار الذائب ، عرفه القدماء باسم البحر الزفتى أو الراكد . وسماه ابن بطوطة البحر الكاهل .

وفى غربه بلاد مصر والمغرب وأرض السودان ، أى قارة لوبيا ، وتمتد

حتى البحر المحيط الغربى ، وهو بحر الظلمات ؛ صعب المراس "لا يعلم أحد ما خلفه ، ولا وقف بَشَرٌ منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه ؛ وليس أحد من الربانيين يركبه عرضا ولا ملججا ، وإنما يمر منه بطول الساحل لا يفارقه ؛ وأمواج هـذا البحر تندفع منغلقة كالجبال لا ينكسر ماؤها" .

وقد حفظت مدينة لشبونة ذكرى شبيبة مغامرة خرجت منها لتلجج فى بحر الظلمات استكشافا لـكنهه ، وسعيا إلى منتهاه ، إذ كان بتلك المدينة حتى عهـد الشريف الإدريسى درب يعرف بدرب المُغَرَّرين ، وهم ثمانية رجال أبناء عمومة خرجوا فى مركب زودوه للملاحة أشهرا ، وأوغلوا فى البحر أول طاروس الريح الشرقية ، وجروا نحوا من أحد عشر يوما حتى وصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح ، كثير التروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ؛ لذلك ردوا قلاعهم واتخذوا سمتهم إلى الجنوب اثنى عشر يوما حتى خرجوا إلى « جزيرة الغنم » ، ونزلوا بها حيث وردوا عين ماء جارية ؛ ثم غادروها إلى الجنوب اثنى عشر يوما أخرى حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث ، فما وصلوا إلى البر حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، وحملوا إلى مدينة يسكنها رجال شقر زعر طوال القدود ، واعتقلوا فى بيت ثلاثة أيام ؛ ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى سألهم عن حالهم وفيما جاءوا فأخبروه بخبرهم ، وحملهم بين يدى الملك فى اليوم التالى ؛ فلما علم بهويتهم ضحك وقال للترجمان : "خبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيـده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهرا إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير

حاجة ولا فائدة تجدى " . وانصرفوا إلى موضع حبسهم حيث لبثوا حتى بدأ جرى الريح الغربية ، فعُمّر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجُرِىَ بهم فى البحر برهة قدرها القوم بثلاثة أيام ؛ ثم جئ بهم إلى بر وأخرجوا وكتفوا إلى خلف وتركوا على الساحل حتى سمعوا ضوضاء ، وأصوات ناس أقبلوا عليهم ، وحلوا وثاقهم ، وعرفوا حالهم ؛ وكانوا برابر فأعلموهم بأن بينهم وبين بلاد الأندلس مسيرة شهرين .

هذا كل ما عرفه القدماء عن المحيط الأطلنطى أو بحر الظلمات ، قبل أن تكتشف جزائر « الأزورِس » ، أو يقوم كولومبوس بمغامرته الهائلة نحو الغرب بحثاً عن طريق الهند ؛ فيما عدا ماحدّث به أفلاطون عن قارة الأطلانطيد التى غمرتها مياهه . وأقل منه ما عرفوه عن البحر الزفتى شرق آسيا .

ولا يلومن المغرورون إلا أنفسهم . فقديماً أقام هرقل الجبار ، وقيل ذوالقرنين وقيل تُبَّعُ ذو المنار الحِمْيَرى ، بمدينة قادس وجزائر السعادة والخالدات غرب الأندلس ، أعمدة عليها تماثيل من نحاس تشير بيديها إلى الغرب منذرة أن لا ورائى مسلك ؛ وذكر ما يشبه ذلك عن جزائر فى شرق الصين سماها الهنود « جَمَا كُوطَة » ، والفرس « كَنْكَدِيز » .

أما البحر الشرقى الكبير فقد ركبه ملاحو الفرس والعرب والصينيين من أقدم العصور ، وعرف بعضه البحريون من الفينيقيين واليونان ، وأطلق الفرس والعرب على أجزائه أسماء حسب مواضع الأرض التى تقع شواطئها عليه ؛ فهو بحر فارس فيما يعرف اليوم بالخليج الفارسى وخليج عمان ؛ وبحر لَارْ أو لَارْوِى أمام شواطئ السند والمليبار غربى شبه جزيرة الهند ، وحول

أرخبيل الكاديب والمحاديب ؛ وبحر الهرْكَنْد فيما بين جزيرة سِرَنْديب وقاع خليج بِنْغَالة ؛ وبحر كَلاَه أو شِلاَهِطْ بين جزائر النكوبار والاندمان وشبه جزيرة مَلَقَا ، وجزائر الهند الشرقية أو الزَّابَجْ ؛ وبحر كُنْدُرَنْج ، وهو خليج سيام ؛ وبحر الصَّنْف الذى يضرب شواطئ الهند الصينية ، والصَّنْف صقع منها ؛ وبحر صَنْخَىْ ، وهو بحر الصين ، سابع البحار التى يعبرها المسافر فيما بين البصرة أو سيراف و بين خانفو ميناء الصين الأكبر ؛ وإلى الشرق من الصين جزائر الوقواق .

أثار هذا البحر فى نفوس سكان العالم القديم ، ودنيا القرون الوسطى ، ثائرة العجب والروعة ؛ فقيعانه و بروره وجزائره تخرج للناس الدر والجوهر ؛ ومن الصين الحرير والفِرِنْد والكِيمُخَاو والمسك والعود والسروج والسمّور والصِّيْلبَنْج والدارصينى والخولنجان والأوانى من الغضار الطيب ؛ ومن الوَقْوَاق الذهب والأبنوس ؛ ومن الزَّابَجْ والهند العود والصندل والكافور والجوزبوا والقرنفل والقاقُلَة والكَبابَة والنارجيل ، والثياب المتخذة من الحشيش ، والثياب القطنية المخملة ، وسن الفيل وقرون الكَرْكَدّن والفضة والعود من شواطئ قَمِرُون [أى أسام] وأُورَنْشِين [أى أوريسا] ؛ والرصاص القَلَعِى من شبه جزيرة ملقا ؛ ومن سِرَنْديب الياقوت كله وأشباهه ، والماس والدر والبلور والسَّنْبَاذَج ؛ ومن كُولَمْ مَلَى وسِنْدان بساحل المَلَيْبَار الفلفل ؛ ومن السند البَقّم والخيزران والساج والقُسْط والقنا ، والعاج والذهب والحديد والنحاس من سُفَالة الزنج ؛ والعنبر واللُّبان من بلاد الشِّحْر ؛ ومن اليمن الوشى وسائر الثياب ، والعنبر والوَرْس والبغال والحمير .

بحر مخيف تهب على سطحه رياح موسمية هائلة ، كان القدماء يعتقدون بأن بعضها يندفع من أعماقه ؛ وترتاده « البوارج » وهى سفن القرصان ؛ ويسكن بعض جزائره المتوحشون آكلو لحوم البشر ؛ وتظهر من بطونه دواب مروعة بحجمها وشكلها ؛ تضرب المراكب فتحطمها ، أو هى تصعد فوقها نذرا بالإعصار ؛ وتطير فى أجوائه طيور تحجب وجه الشمس ، ذكرها الصينيون باسم «فِنْج» ، والفرس باسم «سِيمُرْغ » والعرب باسم العنقاء والرخ .

فالبال أكبر حيوانات البحر طرا ، قد يبلغ طوله مائة أو مائتى ذراع فى قول المحق ، أو أن هـذا الطول بالباع لا بالذراع ، وقد تغلو ملكة القصص عند البحريين فيجعلون رأس الوال تمر بهم اليوم وذنبه بعد أربعة أشهر .

وفى هـذا البحر سمك على قدر البقر يلد ويرضع ، وسلاحف استدارة السلحفاة منها عشرون ذراعا أو هى باعا ، حتى لتبدو كأنها جزيرة يخطئها الملاحون فينزلون بظهرها .

وبجبال الزَّابَجْ حيات عظام تبلع الرجل والجاموس ، ومنها ما يبتلع الفيل ؛ وبمملكة الزابج جزيرة بَرَطَايِيل يسمع البحريون منها العزف والطبول الليل كله ولا يرون مخلوقا ، فيقولون إن الدجال فيها ؛ ويخرج من البحر خيل مثل خيلنا لها أعراف تجرها على الأرض ؛ وبالزابج ببغاوات بيض وحمر وصفر تتكلم على ما لقنت بكلام فصيح ، ومن الطواويس خضر ورقط ، وبزاة بيض لها قنازع حمر ، وقردة بيض عظام كأمثال الجواميس ، وخلق على صورة الإنسان يتكلم بكلام لا يفهم ، وبها من السنانير ألوان ولها أجنحة كأجنحة الخفافيش من أصل الأذن إلى الذنب ، وغيضة فيها ورد

إذا أخرج من الغيضة احترق .

وبجزيرة الرامني حيوان الكَرْكَدَنْ أو الكَرْكَنْد ، دابة دون الفيل وفوق الجاموس ، تأكل الحشيش وتجتر كالبقر ، لها قرن واحد فى الجبهة طوله ذراع وغلظه قبضتان ، فيه صورة من أول القرن إلى آخره ، فيتخذه أهل الصين مناطق تبلغ المِنْطَقَة ما بين ثلثمائة وأربعة آلاف دينار ؛ ويسكنها قوم عراة يعيشون فى الغياض ، كلامهم شبيه بالصفير ، صغار الأجسام طول الواحد منهم أربعة أشبار ، شعر رؤوسهم زغب أحمر ، يتسلقون على الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها ؛ وبقربها جزيرة فيها ناس سود مفلفلون يأكلون الناس أحياء ، ويشرحونهم تشريحا .

ولقد بحث أحمد بن واضح اليعقوبي عن أصل كل تلك المخلوقات فعرف أن ملكا من ملوك الصين اسمه « عَيْثُنَان » سام أهل مملكته سوء العذاب ، ونفاهم إلى جزائر البحر . فكانوا يسيرون فى تلك الجزائر إلى مواضع فيها الثمار ليأكلوا ، ويجدون بها الوحوش فأنسوا بها وأنست بهم ، فجاءت بينهم الخلق المشوهة ؛ وباد القرن الأول وأتى قرن بعد قرن فذهبت منهم لغاتهم ، وصاروا يتكلمون ما لا يفهم . ويزعم ابن واضح أن « عَيْثُنَان » اسم تفسيره بالعربية « خلقة الشر » .

وحكى صاحب « *مختصر العجائب* » أن الله خلق عشرين وألف أمة ، بعدد الكواكب الثابتة ؛ يسكن منها فى جزائر البحار ستمائة ، وفوق القارات عشرون وأربعمائة ؛ وفى شرق العالم جنس يجمع بين الوحش والإنسان ، رأسه رأس أسد ، وآذانه طويلة وله ذيل ، وجسمه جسم إنسان ولو أن له

مخالب موضع الأيدى والأرجل ؛ وأقرب المخلوقات إلى الإنسان من كل هذه الأجناس جنس الوقواق ، وهن نساء معلقات بشعورهن إلى الأشجار يصحن « واق واق » ، ويسلمن الروح إذا فصلن عن الشجرة .

وبحر صَنْخَىْ هو أخبث البحار ، تخرج منه القذر بالإعصار مخلوقات سوداء شبيهة بصبيان الزنج طول الواحد أربعة أشبار ، يخرجون بالليل من الماء فيبيتون بالسفينة ، ويدورون فيها ولا يؤذون أحدا ، ثم يعودون إلى البحر ؛ ومجيئهم علامة الريح الكريه المسمى بالخب ، أشد الرياح عصفا وهيجانا ؛ فيستعد البحريون لذلك ، ويلقون بالمتاع وبعض الجهاز إلى البحر ليدخلوا خفافا فى الزوبعة ؛ فإذا كتبت لهم النجاة تباشروا بطائر من نور يُرَى بأعلا الدَّقَلْ كأنه شعلة نار .

وقد يُظِلّ المراكبَ سحابٌ أبيض فيخرج منه لسان رقيق طويل مع الريح العاصفة حتى يلتصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلى له ماء البحر ويضطرب كالزوبعة الهائلة ، إن أدركت المركب ابتلعته ؛ ثم يرتفع السحاب فيُمْطِر مطرا فيه قذى لا يُعْرَف جاء من البحر أو السماء .

« والدُّرْدُور » موضع من البحر يدور فيه الماء كالرحى دورانا دائما من غير فترة ولا سكون ، فإذا سقط إليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف .

هذه هى صورة البحر الشرقى الكبير وبروره كما قامت فى مخيلة العرب وغيرهم إبان القرون الوسطى .

التاجر سليمان

على جدران معبد « الدير البحرى » بمصر العليا تصاوير رائعة تمثل مناظر سفن الملكة « حتشبسوت » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، عائدة من رحلتها إلى بلاد « پونت » ، محملة بخيرات بلاد إلى الجنوب من البحر الأحمر ، هى الصومال على ما يظن بعض الباحثين ، أو بلاد الشِّحْر فى رأى البعض الآخر .

وليست لهذا الأثر قيمته الفنية فحسب ، ولكنه صورة من صور النشاط التجارى والملاحى لقدماء المصريين فى البحار الشرقية منذ نيف وثلاثة آلاف عام ؛ صورة تبدو فيها عناية الأسرات الملكية المصرية بما تنبته « بلاد الجنوب » من أشجار الطيب والأفاويه . وما تخرجه أرضها من معادن وحجارة ثمينة ، وحيواناتها من عاج وجلود .

وجاء فى كتاب « **الملوك** » من « **العهد القديم** » : " وعمل الملك سليمان سفنا فى « عِصْيُون جابر » التى بجانب « أَيْلَةَ » على شاطئ بحر « سوف » [البحر الأحمر] فى أرض « إدُوم » ، فأرسل حِيرَام فى السفن عبيده النواتى العارفين بالبحر مع عبيد سليمان ، فأتوا إلى « أُوفِير » فأخذوا من هناك ذهبا أربع مائة وزنة وعشرين وزنة وأتوا بها إلى الملك سليمان " . " لأنه كان للملك فى البحر سفن « ترشيش » مع سفن حيرام ، فكانت سفن ترشيش تأتى مرة فى كل ثلاث سنوات حاملة ذهبا وفضة وعاجا وقرودا وطواويس " .

اختلف العلماء فى تحديد موضع بلاد « أوفير » فهى عند البعض سُفالة الزنج ، وعند البعض الآخر مدينة ظَفَار على مقربة من مملكة سبأ ؛ وقال الإدريسى يصف ظفار فى عهده : "كانت من أعظم وأشهر المدن ، سكنها ملوك اليمن . وكانت بها قصور « ريدان » . أما اليوم فقصورها خربة ، وسكانها قليلون" .

وذكر هيرودوتس أن ملك مصر ، نيخاو بن بساماتيك ، من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وجه عنايته إلى التجارة فى البحر الإرتيرى ، فابتنى عمارة على شاطئ البحر الأحمر ، وعين لها البحارة من الفينيقيين ، "وأمر الفينيقيين على هذه المراكب أن يصلوا إلى البحر الشمالى [البحر الأبيض المتوسط] عن طريق أعمدة هرقليس ، ويعودوا من ذلك الطريق إلى مصر ... فسافر الفينيقيون فى البحر الجنوبى ؛ فلما وافى الخريف نزلوا بشاطئ لوبيا وزرعوا الحنطة وانتظروا الرياح الموسمية ، ثم سافروا بعد الحصاد ؛ وبعد سفرهم مدى عامين وصلوا إلى أعمدة هرقليس فى العام الثالث ، وعادوا منها إلى مصر . وحدثوا بعد عودتهم كيف كانت الشمس عن يمينهم عند ما داروا حول لوبيا . وهو أمر غير معقول ولو أن لغيرى أن يصدقه ؛ ذلك كان أول معرفة الناس بلوبيا" . هذا ما نقله هيرودوتس عن المصريين حوالى خمسين ومائة سنة بعد بعثة نيخاو بن بساماتيك الملك . وما وجده غير معقول دليل فى ذاته على أن بعثة نيخاو تجاوزت بلاد الكفرة إلى رأس الأعاصير [الرجاء الصالح] ولو أنه ليس ما يثبت أو ينفى أنها واصلت طريقها مستديرة حول جنوب إفريقيا وصاعدة إلى الشمال حتى مضيق جبل طارق .

ليست هـذه الرحلات شاهدا على أن شعوب العالم القديم حول البحر الأبيض المتوسط عرفت الكثير عن آسيا ؛ ولكنها بينة على أن صلات تجارية وجـدت فى الأزمنة الخالية ، بطريقة غير مباشرة على الأقل ، بين غرب آسيا والحوض الشرقى لذلك البحر . واتسعت معارف سكان هذا الحوض عن غرب آسيا بعد غزو الإسكندر لبلاد الفرس ووصوله إلى شمال الهنـد . ولم يترك البطالسة فى مصر ، ولا من تولى الملك بعد الإسكندر فى بلاد فارس ، أمر هـذا الغزو عند ذلك الحد ؛ وتبوأت الإسكندرية وسلوقية مركزهما العظيم فى ذلك العهد لأن البطالسة والسلوقيين تابعوا سياسة التعمير ، ووثقوا صلات البلاد التى يحكمونها بشواطئ البحر الحبشى ، وبما استطاعوا أن يعرفوه من بلاد آسـيا ؛ فأنشأوا محطات بحرية على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، وعلى طوال الساحل الإفريقى حتى بر الزنج . كما عنيت الأسرة السلوقية بمرافئ الخليج الفارسى . وكان أهمها فى ذلك الوقت ميناء «أبُولُوجُوس» [الأبلة] عند مصب مجمع الدجلة والفرات ، وبقرب الموضع الذى أنشأ فيه عمر بن الخطاب فيما بعد مدينة البصرة .

كانت السفن الأجنبية تلتزم الملاحة الشاطئية فى بحر الهند ، ولم تكشف عن سر الملاحة الموسمية التى عرفها ملاحو العرب والفرس منذ أقدم العصور حتى جاء الملاح اليونانى « هپالوس » فى القرن الأول الميلادى ولاحظ موسمية الرياح فى المحيط الهنـدى ، فأدرك انتظام هبوبها ستة أشهر فى العام من الشمال الشرقى ، والستة الأشهر الأخرى من الجنوب الغربى ؛ وتخير الموسم المناسب وعبر المحيط الهندى رأسا فيما بين مضيق باب المندب وبين

خليج « كَنْبَايَة » جنوبى بلاد السند ؛ ثم ترقب هناك موسم انعكاس الرياح وعاد إلى مبتدأ رحلته . وكانت رحلة هپالوس فتحا جديدا فى عالم الملاحة نشطت عقبه تجارة الأعطار والطيب والأفاويه بين شواطئ الهند وشواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وكانت المراكب الصينية فى ذلك الوقت ، بل قبله بزمن طويل ، تسافر إلى جاوه وشبه جزيرة ملقا ، وسيلان وجنوب الهند ، وتتبادل متاعها مع ما تجىء به مراكب العرب والفرس من الخليج الفارسى أو عبر البحر الأحمر.

ولقد طاف بالمحيط الهندى فى آخر القرن الثانى الميلادى ملاح يونانى لا يعرف اسمه ، ربما كان من أهل ميناء « بِرِنِيس » على شاطئ البحر الأحمر ، وترك أثرا مكتوبا لرحلته عنوانه : « الطواف بالبحر الإريترى » ، يدل على أن الدولة الرومانية أسست قواعد لها فى عدن ومواضع أخرى من بلاد اليمن ، وفى جزيرة سُقُطْرى القائمة عبر رأس الأعطار ، أو ما يعرف اليوم باسم رأس «حافونِى» ورأس « جَارْدَافوِى » . وكانت سقطرى قد استعمرها العرب ثم اليونان فى عصور سابقة .

ويبدو أن الصلات بين الشرق والغرب كانت وثيقة فى أوائل القرن السادس ، بدليل إشارة المؤرخ أميانوس مارِكلِّينوس ، وهو يصف تولى الإمبراطور يوليانوس ، إلى أن « وفودا جاءت ترفع إليه التهنئة من وراء البحار ، من سرنديب والمكاديب والمحاديب » .

وأرسل كسرى أنوشروان إبان هذا القرن السادس أسطولا لغزو جزيرة سرنديب ؛ وأشار الطبرى إلى أن آخر ملوك الدولة الساسانية حصنوا مدينة

الابُلّة لمقاومة غارات البوارج الهندية ، أى سفن القرصان ؛ وكانت تخرج من شواطئ السند وبلاد جُزْرَات وساحل المَلَيْبَار لقطع السبيل على مراكب التجارة .

لم يكن العرب بمعزل عن هذا النشاط البحرى الكبير ؛ فميناء عدن على بحر البربر ، وصُحَار فرضة عمان ، التى حلت مَسْقَط محلها فى العصور الحديثة ، وغيرهما ، كانت محطات تخطف إليها المراكب لتحمل منها الماء ؛ وكان أهل عمان والشِّحْر وحَضْرَمَوْت يؤلفون شطرا هاما من ملاحى المحيط الهندى ، وقد احتفظوا بمركزهم الممتاز حول شواطئ ذلك المحيط حتى أجلاهم عنه البرتغاليون ومن جاء بعدهم من رجال الإمبراطوريات البحرية العظمى ؛ ومع ذلك فما زال العرب حتى العصور الحديثة قائمين بقسط غير ضئيل من الملاحة الأهلية فى أرجاء المحيط الهندى على سنابيقهم التى يعرفها الإنجليز باسم « داو » Dhow ؛ والجاليات العربية الكبرى فى جزر الهند الشرقية والفلبين معظمها من الحضرميين ؛ كما أن العمانيين استعمروا جزيرة سُقُطْرَى وبر الزنج منذ أقدم العصور .

استقر تجار العرب والفرس على شواطئ السند والهند وجزيرة سيلان ؛ وكانت للفرس اليد الطولى على العرب إبان الدولة الساسانية ، حتى ظهر الإسلام فمهد أولئك العرب لفتوحاته الأسيوية ، وأصبح لجالياتهم المقام الأول نتيجة تلك الفتوحات .

ولم يمض ستة عشر عاما على الهجرة حتى نزل أسطول عمانى بمصبات نهر السند وشواطئ الهند ؛ وانتهى القرن السابع الميلادى وفى سيلان جالية

إسلامية هامة . وجرد الحجاج الثقفى بعثة تأديبية إلى وادى نهر السند حينما ترامى إليه أن نساء مسلمات غادرن سيلان لزيارة أهلهن فى جزيرة العرب فاعتدى عليهن بعض القرصان .

وامتد نفوذ العرب والفرس حتى الصين ؛ وقد بلغت جاليتهم بمدينة « خانفو » من الكثرة والقوة حدا مكّنهم فى سنة ٧٥٨ م من القيام بمشاغبات استطاعوا بها أن ينهبوا ميناء الصين الأكبر نهبا .

وفى العصر العباسى ، وقد ترامى سلطان الدولة الإسلامية إلى فارس والعراق وسوريا ومصر ، واحتلت البصرة المركز الذى كان لميناء الأُبُلَّة ، ازدهرت التجارة الشرقية ازدهارا جعل من بغداد عاصمة الإمبراطورية العظمى ، مدينة باذخة تفيض ثروة وترفا ؛ ثم تحولت التجارة عن البصرة إلى سيراف ، وانتقلت فيما بعد إلى جزيرة كيش أو قيس ، ثم إلى هرمز ؛ ولم يكن معنى هذا تحول التجارة عن حوض الدجلة والفرات ، إنما كان الانتقال لضرورات فنية اقتضتها صعوبة الملاحة فى الطرف الشمالى من الخليج الفارسى ، وجعلت من هذه الموانى « رءوس خطوط » ملاحية ، تحمل فيها البضائع من السفن الكبيرة إلى سفن أصغر لتسير منها مباشرة إلى مجرى نهر الدجلة .

أما الصلات التجارية بين الغرب والشرق ، فقد ترك ابن خُرْدَاذْبَة وصفا مختصرا لها فى كلامه عن "مسلك التجار اليهود الرَّاذَانِيَّة الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأندلسية والصَّقْلَبِيَّة ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان ، والديباج وجلود الخز والفراء والسمور

والسيوف ، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بالفَرَما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ؛ ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفَرَما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ؛ فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم ، وربما ساروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ؛ وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى ، فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة إلى الابُلَّة ، ومن الابُلَّة إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض" .

وصف هيوز صاحب «**قاموس الإسلام**» عصر المأمون بأنه "العهد الأغسطينى للأدب العربى" . وكان عهداً أغسطينيا من جميع الوجوه ، فلسنا ممن يعتقد بإمكان ازدهار الآدب فى عصر من العصور دون أن يكون هذا الازدهار أثراً من آثار نهضة تتناول كافة نواحى النشاط الإنسانى فرديا واجتماعيا ؛ وما كان يمتاز به عصر المأمون — كسائر العصور الحية — ويجعل له مقاماً خاصاً فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، هو حرية الفكر ، والتعطش إلى المعرفة ، والتنشط للفحص العلمى والفلسفى ، بعد نقل مؤلفات القدماء إلى العربية .

كان عصر المأمون نتيجة منطقية للفتوحات العظيمة التى بدأت فى

حياة النبي و بعد وفاته مباشرة ؛ فتغلب المسلمون على الفرس منذ أواسط القرن السابع الميلادى ، ووصلوا زحفهم فى ناحية حتى وادى مِهْران السند ، وفى ناحية أخرى حتى ضفاف سيحون وجيحون [نهر الأكسوس والياكسارات حالا] ، واختلطوا بالبراهمة والبوذيين القاطنين على ضفاف مهران فى القرن الثامن ؛ ثم جاء محمود بن سُبُكْتِكِين الغَزْنَوِىّ فى القرن الحادى عشر فأكمل فتوحات الهند ، إذ انحدر كسيل العرم حتى نهر الكَنْكْ وفى ركابه عالم من أكبر علماء القرون الوسطى ، وأعظم من فهم الفلسفة الهندية وحياة البراهمة وعلومهم ، المؤرخ والفلكى والجغرافى أبو الريحان البِيرُونى .

ويعنينا من أمر هذه الفتوحات أثرها فى تقدم العلوم الجغرافية ؛ فقبل أن توجه الإمبراطورية الإسلامية عنايتها إلى العلوم اليونانية والفارسية والهندية ، كانت معرفة البلدان لازمة من لوازم الفتح والتوسع ، وقد وجد الغزاة المسلمون سبيل التوسع ممهداً بفضل طلائع التجار والملاحين من العرب والفرس ، الذين تجشموا الصعاب فى البحر والبر ، وأنشأوا مراكز للتجارة على شواطئ البحر الشرقى الكبير قبل ظهور الإسلام . بدأت المعارف الجغرافية تتجمع حول مغامرات أولئك الرجال ؛ فلما بدأ تكوين الإمبراطورية الإسلامية ، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبُرُد ، وتعرف طرق الملاحة ؛ وكان هذا وذاك أساساً من الأسس الهامة للجغرافيا العربية اعتمد عليه أمثال ابن خرداذبة وابن قُدَامة . وعندما كان الجَيْهانى يعنى بجمع المعلومات عن البلاد الأجنبية ، لم تكن عنايته خالصة لوجه العلم ، بل كان يتم عمل أولئك الرحالين فى إعداد سبل الفتوحات وتمهيد مسارحها . فالجغرافيا العربية ، كما

قال ڤيڤيان دى سان مارتان ، شبيهة بالجغرافيا الرومانية فى أن أصحابها عرفوا الأرض عن طريق الفتح ، بل عن طريق الرحلات التجارية ؛ فهى جغرافيا وصفية عملية ، قبل أن يعنى المأمون بترجمة كتب بطليموس القلوذى ومارينوس الصورى ، أو بقياس الدرجة الفلكية فى وادى سِنْجار .

وإذا كانت الرحلات وطَّأت للفتح والغزو ، فإن الفتوحات الإسلامية أتاحت المسلمين وسائل السفر فى إمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، مما ساعد بدوره على توسيع المعارف الجغرافية ؛ وكان للحج أثر واضح فى تشجيع الرحلات ، إذ أن تأدية هذه الفريضة الهامة ألزمت المسلمين بتحمل كل عناء للوصول من أقاصى الإمبراطورية إلى الأراضى المقدسة ؛ وساعد أهل الخير على السفر بإقامة الحبوس والرباطات عبر طرقات الإمبراطورية ؛ وكان شعور الأخوة بين أبناء الملة الواحدة يفتح أبواب منازل بعضهم لبعض ينزلون ضيوفاً عليها .

ويظهر أن الفرس لم يتركوا آثاراً مكتوبة دونوا فيها رحلاتهم فى البحر الشرقى الكبير ؛ كما يبدو أن الملاحين العرب ، وقد عرفوا الكثير من سواحل هذا البحر منذُ عهود بعيدة ، لم يعنوا أكثر من الفرس بهذا التدوين فإما أن تكون آثارهم المكتوبة قد ضاعت ، أو أنهم كانوا رجالا عمليين لا يهمهم أمر المذكرات ؛ وربما كانوا راغبين عن نشر معارفهم الملاحية ضناً بها على غيرهم ، وإيثاراً لأنفسهم بالنفع التجارى .

وتنتهى هذه الحِقْبَةُ الطويلة من الصمت فجأة بعجالة كتبها صاحبها أو أملاها فى سنة ٨٥١ م ، تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية

فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن التاسع ، ربما كانت الأثر العربى الوحيد الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير ، والطريق الملاحى إليها على أساس الخبرة الشخصية ، مع التزام الموضوع ، وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب ؛ وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والإصْطَخْرى وابن حَوْقَل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التى يذكرونها ، فإنهم أيضاً ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربى الأول ، بلفظه ومعناه فى بعض الأحيان ، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه فى البعض الآخر .

ذلك الأثر العربى هو مخطوط فريد لا عنوان له ، عثر عليه الأب رينودو Renaudot سنة ١٧١٨ فى إحدى مكتبات باريس الخاصة ، التى انتقلت فيما بعد إلى دار الكتب الأهلية ، ونشر ترجمته بعنوان « **أخبار قديمة عن الهند والصين . أوردها اثنان من الرحالة المسلمين سافرا إلى هناك فى القرن التاسع الميلادى** » . ثم جاء المستشرق رينو Reinaud فنشر الأصل العربى والترجمة فى سنة ١٨٤٥ ؛ وقد ظهر أن الأب رينودو أخطأ فى وصفه المخطوط بأنه أخبار اثنين من الرحالة المسلمين ، إذ لم يكن هناك سوى رحالة واحد ، هو تاجر اسمه سليمان ، ألف شطراً من المخطوط ؛ أما صاحب الشطر الثانى واسمه أبو زيد حسن السيرافى ، فكان هاوياً جغرافياً يتسقط المعلومات عن الهند والصين من ألسنة التجار والبحريين بسيراف ، وهو لا يدعى لنفسه السفر إلى تلك البلاد ، بل هو معترف صراحة بأنه جمع بعض المعارف وبوبها وضم فصولها إلى مذكرات التاجر سليمان ،

وكان قد مضى على كتابتها ستون عاماً .

ولما كانت مذكرات التاجر سليمان مستنداً هاما جداً لفهم المعارف البحرية عند كتاب العربية فى القرون الوسطى ، وكان الحصول على نسخ من طبعة رينو صعباً حتى فى المكتبات العامة ، رأينا أن نورد هنا ما جاء بها خاصا بالبحار مبتدئين بالصفحة الثالثة من المخطوط ، إذ يبدو أن الصفحات الأولى ، ومنها صفحة العنوان ، دخيلة عليه . وقد راعى فِرّان Ferrand ، حين نشر ترجمة جديدة للكتاب فى سنة ١٩٢١ ، أن يستعير من «**مروج الذهب**» فقرات يسد بها النقص . ولكنّا نفضل هنا أن نبدأ بوصف البحر الثالث ، وهو أول ما جاء فى المخطوط مما بقى من كلام سليمان ، تاركين وصف بحر فارس وبحر لارَوِى لقراء المسعودى :

"والبحر الثالث بحر هِرْكَنْد ، وبينه وبين بحر لارَوِى جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة ، وهى فرق ما بين هذين البحرين . . . وهذه الجزائر تملكها امرأة ، ويقع فيها عنبر عظيم القدر . . . وهو ينبت فى قعر البحر نباتاً ؛ فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره . . . والجزائر عامرة بنخل النارجيل ، وبُعْدُ ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلثة وأربعة ، وكلها عامرة بالناس والنارجيل ، ومالُهم الودع ، والملكة تدخر الودع فى خزائنها . . . والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع ، وهم يدعونه «الكَبْتَج» وآخر هذه الجزائر سرنديب فى بحر هِرْكَنْد ، وهى رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الدِّيبَجات ، وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ ، وفى أرضها جبل

يدعى الرُّهُون وعليه هبط آدم عليه السلام ، وقدمه فى صفا رأس هذا الجبل قدم واحدة . . . وحول هذا الجبل معدن الجوهر الياقوت الأحمر والأصفر والاسمانجونى ؛ وفى هذه الجزيرة ملكان ، وهى جزيرة عظيمة ، فيها العود والذهب والجوهر ، وفى بحرها اللؤلؤ و « الشَّنْك » وهو البوق الذى ينفخ فيه مما يدخرونه .

"وفى هذا البحر إذا رُكِبَ إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تُضْبَط ، منها جزيرة يقال لها « الرَّامْنى » فيها عدة ملوك ، وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب ، ومعادن تدعى « فَنْصُور » يكون الكافور الجيد منها ، وفيها فيلة كثيرة ، وبها البقم والخيزران ، وقوم يأكلون الناس ، وهى تشرع على بحرين : هِرْكَنْد وشِلَاهِطْ .

"وتلى هذه الجزائر جزيرة يقال لها « النِّيَان » لهم ذهب كثير ، وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدّهنون ؛ وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج ، لم يزَوَّج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم ، فإذا قتل اثنين زُوِّجَ اثنين ، وكذلك إن قتل خمسين زُوِّج خمسين امرأة بخمسين قحفاً ؛ وسبب ذلك أن أعداءهم كثير ، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر .

"وبعد هذا جزائر تدعى لَنْجَبَالُوس ، وفيها خلق كثير عراة ، الرجال منهم والنساء ، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر ؛ فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار ، وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد ؛ ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد . ومن وراء

هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أندَمان ، وأهلهما يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين طوال الأرجل ، قدم أحدهم مثل الذراع ، عراة ليس لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ بهم ؛ وربما أبطأت المراكب فى البحر وتأخر بهم السير بسبب الريح فينفذ ما فى المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء ، وربما أصابوا منهم ولكن أكثرهم يفلتون .

”وبعد هذه الجزيرة جبال ليست على الطريق يقال إن منها معادن فضة وليست بمسكونة ، وليس كل مركب يريدها يصيبها ، وإنما عليها جبل منها يقال له الخُشْنَامِى مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له ، فلما أصبحوا وأوقدوا ناراً فانسكبت الفضة علموا أنه معدن فاحتملوا ما أرادوا ، فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منـه ؛ ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه . ومثل هذا فى البحر كثير لا يحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون ومنها ما لا يقدرون عليه .

”وربما رؤى فى هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة ؛ فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته ، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدرى أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا .

”وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيّجه حتى يغلى كغليان القدور فيقذف مافيه إلى الجزائر التى فيه ، ويكسر المراكب ، ويقذف

السمك الميت الكبار ، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم .

"وأما بحر هِرْكَنْد فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش ، فيغلى لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير ؛ وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعراً كان العنبر أجود ؛ وهذا البحر ، أعنى هركند ، إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد ؛ وفى هذا البحر سمك يدعى اللخَمْ ، وهو سبع يبتلع الناس .

[وقد يحدث أن يقل المتاع الذى يصل من الصين إلى البصرة وبغداد] . "ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بخانفُو وهو مرفق السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين ، فيأتى الحريق على المتاع ؛ وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مشقق ؛ ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة والواردة ؛ أو ينهبوا أو يضطروا إلى المقام الطويل فيبيعوا المتاع فى غير بلاد العرب ؛ وربما رمت بهم الريح إلى اليمن أو غيرها ، فيبيعون المتاع هناك ، وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل" .

وذكر سليمان التاجر أن بخانفو "رجلا مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية ، يتوخى ملك الصين ذلك ؛ وإذا كان فى العيد صلى بالمسلمين ، وخطب ودعا لسلطان المسلمين ، وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً فى أحكامه وعمله بالحق وبما فى كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام .

"فأما المواضع التى يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تُحْمِلُ من سيرَاف ، وأن المتاع يُحْمَلُ من البصرة وعمان وغيرها إلى

سيراف ، فيُعَبَّى فى السفن الصينية بسيراف ، وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه ، والمسافة بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخاً ؛ فإذا عُبِّىَ المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا — وهذه لفظة يستعملها أهل البحر أعنى أقلعوا — إلى موضع يقال له مسقط ، وهو آخر عمل عمان ، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتى فرسخ ؛ وفى شرقىّ هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بنى الصَّفّاق ، وجزيرة ابن كاوان ؛ وفى هذا البحر جبال عمان ؛ وفيها الموضع الذى يسمى الدُّرْدُور ، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية ؛ وفيها الجبلان اللذان يقال لهما « كُسَيْر وعُوَيْر » ، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير .

"فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صُحَار عمان ، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها ، وهناك فيه غنم من بلاد عمان ، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند ، وتقصد إلى كُولَمْ مَلَى ، والمسافة من مسقط إلى كُولَمْ مَلَى شهر على اعتدال الريح ، وفى كُولَمْ مَلَى مسلحة لحماية الميناء والبلاد التى تحت حكمها ، ومنها تؤدى السفن ما يفرض عليها ، فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم ، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشرة دنانير إلى دينار ... وبها يستعذبون الماء من آبار .

"ثم تخطف المراكب — أى تقلع — إلى بحر هِرْكَنْد ، وبين كُولَمْ مَلَى وبين هِرْكَنْد نحو من شهر ، فإذا جاوزوا بحر هركند صاروا إلى موضع يقال له لَنْجْ بَالُوس ، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات ،

وهم قوم بيض كواسج ، لا يلبسون الثياب ؛ وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء ، وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة فى زواريق منقورة من خشبة واحدة ، ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل ، وهو شراب أبيض ، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهو حلو مثل العسل ، فإذا ترك ساعة صار شراباً ، وإذا بقى أياماً صار خلا ؛ فيبيعون ذلك بالحديد ، وربما وقع إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد ؛ وإنما يتبايعون بالإشارة يداً بيد ، إذ كانوا لا يفهمون اللغة ؛ وهم حذاق فى السباحة ، فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئا .

"ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كَلَاه بَار ، المملكة والساحل يقال له بار ، وهى من مملكة الزَّابَج ، متيامنة عن بلاد الهند ، يحكمها والزابج ملك ، ولباسهم الفوط ، يلبس السَّرِىّ والدَّنِىّ منهم الفوطة الواحدة ، ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة ، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر ؛ والمسافة ما بين هِرْكَنْد وكَلَه بَار شهر .

"ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تِيُومَة ، وبها ماء عذب لمن أراده والمسافة إليها عشرة أيام .

"ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كُنْدُرَنْج ، المسافة إليه عشرة أيام ، وفيه ماء عذب لمن أراده ، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد بها الماء العذب .

"ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صَنْف مسيرة عشرة أيام ، وبها ماء عذب ، ومنه يؤتى بالعود الصنفى ، وبها ملك ؛ وهم قوم سمر يلبس كل

واحد منهم فوطتين . فإذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صُنْدُرْفُولات وهى جزيرة فى البحر ، والمسافة إليها عشرة أيام ، وفيها ماء عذب ؛ ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صَنْخَىْ ، ثم إلى أبواب الصين ، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب ؛ فإذا سلّم الله من صُنْدُرْفُولات خطفت المراكب إلى الصين فى شهر ، إلا أن الجبال التى تمر بها مسيرة سبعة أيام ؛ فإذا جازت السفينة الأبواب ودخلت الخَوْر ، صارت فى ماء عذب إلى الموضع الذى ترسى إليه من بلاد الصين وهو يسمى مدينة خَانْفُو ؛ وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية على شواطئها مسالح وأسواق ؛ وفيها مد وجزر مرتين فى اليوم والليلة ؛ إلا أن المد يكون فيما بين البصرة إلى جزيرة بنى كاوان إذا توسط القمر السماء ، ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه ؛ أما فيما بين الصين وجزيرة بنى كاوان فالمد يكون إذا طلع القمر ، فإذا توسط السماء جزر الماء ، فإذا غاب كان المد ، فإذا كان فى مقابلة وسط السماء جزر .

"وذكروا أن جزيرة يقال لها مَلْحَان فيما بين سرنديب وكَلَه ، وذلك من بلاد الهند فى شرقىّ البحر ، بها قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكساً ، وقطعوه وأكلوه نياً ؛ وعدد هؤلاء كثير ، وهم فى جزيرة واحدة وليس لهم ملك ، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل ، وقصب السكر عندهم شبيه بالغياض والآجام .

"وذكروا أن فى ناحية البحر سمكا صغيراً طياراً يطير على وجه الماء يسمى جراد الماء ؛ وذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على

النارجيل فيشرب ما فى النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر ؛ وذكروا أن فى البحر حيواناً يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجراً ، قال ويتخذ منه كحل لبعض علل العين .

"وذكروا أن بقرب الزّابج جبلا يسمى جبل النار ، لا يُقْدَر على الدنو منه ، يظهر منه بالنهارِ دخان وبالليل لهب نار ، ويخرج من أسفله عين باردة عذبة ، وعين حارة عذبة" .

هـذه بعض مذكرات التاجر سليمان عن البحر الشرقى الكبير والسفر فيه ؛ وكانت الرحلة تستغرق ذهاباً من الخليج الفارسى حتى بلاد الصين نحو خمسة أشهر . وقد دون سليمان عدا هذا أخبار بلاد الهند والصين ، يتحدث فيها عن عادات أهلها وملوكهم ، وطباعهم ومعاملاتهم حديث العارف الخبير ، كما ثبت للمستشرقين الصينولوجيين ، مما جعل لمذكرات سليمان مقاماً كبيراً عند جميع المشتغلين بتاريخ الحضارة الصينية .

وأضاف عليها أبو زيد حسن السيرافى معارفه التى جمعها بالسماع ، بعد أن أيد أغلب ما ذكره سلفه ؛ وحكى حكايات ورد بعضها فى « **مروج الذهب** » لأبى الحسن المسعودى ، مما رجح عنـد رينو الظن بأن أبا زيد التقى بأبى الحسن وتبادلا معارفهما ؛ ومن أهم ما اشتركا فى سرده حكاية رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هَبّار بن الأسود خرج من البصرة عند ما خرّبها الزنج فوقع إلى سيراف ، وسافر منها يريد بلاد الصين ؛ ثم نزعت به همته إلى قصد ملك الصين الأكبر ، وهو الملقب بالبغبور [بغ = سماء ، بور = ابن] فسار إلى حاضرته خُمْدان ، وهى على مقدار شهرين من خانفو ،

وسعى إلى مقابلته ، حتى عرف البغبور بأنه من أهل بيت نبوة العرب ، فاستقبله وسأله كيف أزال العرب ملك العجم ، فقال له بالله جل ذكره ، وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله ؛ وجرى بينهما حديث طويل عن ملوك العالم ، انتهى بأن أمر الملك بسفط وضع بين يديه ، فتناول منه درجاً وقال للترجمان أره صاحبه ؛ فرأى ابن وهب صور الأنبياء فحرك شفتيه بالصلاة عليهم ؛ فسأله البغبور كيف عرفهم ، قال بما صور من أمرهم ، هذا نوح فى السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه ؛ فضحك ابن السماء وقال : أما نوح فقد صدقت فى تسميته ، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه ، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ولا أرض الهند قال ابن وهب القرشى : فتهيبت الرد عليه وإقامة الحجة . ثم أشار إلى صورة فى الدرج قائلا : هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل ، فأجاب الملك : نعم ، على قلة البلد الذى كان به ، وفساد قومه عليه . قال ابن وهب : وهذا عيسى على حمار والحواريون معه . وجعل يعدد من أمر الأنبياء ما اكتفى السيرافى بذكر بعضه . " وزعم ابن وهب أنه رأى فوق كل صورة لنبى كتابة طويلة قدر أن فيها ذكر أسماء ومواقع بلدانهم وأسباب نبواتهم ؛ ثم قال رأيت صورة النبى صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم فى أرجلهم نعال عربية ، وفى أوساطهم مساويك مشدودة ، فبكيت فقال للترجمان : سله عن بكائه ، فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمى عليه السلام ، فقال : صدقت ، لقد ملك هو وقومه أجل الممالك إلا أنه لم يعاين

ها ملك ، وإنما عاينه من بعده . . . ثم سألنى عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع ووجوهها على قدر ما أعلم منها ؛ ثم قال : كم عمر الدنيا عندكم ؟ فقلت : قد اختُلِف فيه ، فبعض يقول ستة آلاف سنة ، وبعض يقول دونها وبعض يقول أكثر منها إلا أنه يسير . فضحك ضحكا كثيراً دل على إنكاره ذلك وقال : ما أحسب نبيكم قال هذا . فزلت وقلت : بلى هو قال ذلك . فرأيت الإنكار فى وجهه ، ثم قال للترجمان : قل له ميز كلامك ، فإن الملوك لا تُكَلَّم إلا عن تحصيل ، أما ما زعمت أنكم تختلفون فى ذلك ، فإنكم إنما اختلفتم فى قول نبيكم ، وما قالته الأنبياء لا يجب أن يُختَلَف فيه ، بل هو مُسَلَّم به ، فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه".

ولقد حكى أبو زيد حسن كيف تغير أمر الصين عقب رحلات سليمان ، وكيف حدثت فيها ثورة انقطع بسببها الجهاز إلى الصين من سيراف ؛ كما حكى حكاية حرب بين المَهَراج ملك الزَّابَج وبين ملك قِمار ، انتصر فيها المَهَراج فترامت شهرته وخافته الملوك .

ولم يكتف أبو زيد بهذه الحكايات ، بل أورد كثيراً من أخبار الهند والزَّابَج وقِمار والصين ؛ ثم تكلم عن بلاد الشِّحْر واليمن وبحر القلزم وجزيرة سُقُطرَى وبر الزنج ؛ وحدث بأمر المسك ونوافجه ، والعنبر ودابته ، واللؤلؤ وأصدافه .

ولنا عودة إلى رحلة التاجر سليمان ومذكرات أبى زيد حسن السيرافى فى مواضع عديدة من هذا الكتاب .

كتب العجائب

لا يمتاز مخطوط التاجر سليمان الموجود بالمكتبة الأهلية فى باريس بأنه النسخة الوحيدة المعروفة فى العالم من مذكرات ذلك الرحالة فحسب ، بل بأنه تقرير شخصى لرجل عبر البحر الشرقى أكثر من مرة إلى الصين إبان القرن التاسع . فإذا استثنينا رحلة أبى دُلَف مِسْعَر بن مُهَلْهِل من بُخارَى إلى الصين فى القرن العاشر ، وزيارته لبعض موانى الهند والملايا والهند الصينية ، كان علينا أن ننتظر حتى القرن الرابع عشر مستنداً قائماً على الخبرة الشخصية بالبلاد المصاقبة للبحر الشرقى الكبير ، وهو كتاب « **عجائب الأمصار** » لعبد الله اللواتى الطنجى ، المعروف بابن بطوطة ، هذا إذا صدقنا أن رحالة طنجة سافر إلى ما وراء الكنك وذهب إلى الصين ، وهو جزء من رحلته ما زال يثير شكوك بعض الباحثين .

فلم يتعد البِيرُونى فى رحلته بلاد الهند ، ولا يبدو أن المسعودى وصل إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكان ابن خُرْدَاذْبة صاحب البريد فى عصر الخليفة المعتمد ، فمكنت له وظيفته من جمع معارف الرحالين والتجار ؛ وبقية من نرجع إليهم ممن كتبوا فى المسالك والممالك ، والبرد ، وتقويم البلدان ، كانوا فى أحسن أحوالهم شبيهين بابن خرداذبة وأبى زيد حسن السيرافى ، أى أنهم جمعوا معارفهم من أخبار الرحالين ، وفى أسوأ أحوالهم ناقلين عن كتب غيرهم دون ذكر من نقلوا عنهم .

ولكننا لن نتعرض لمحاسبة الجغرافيين العرب على أنواع السطو الذى

ارتكبوه توسلا لملء صفحات مخطوطاتهم ، فليس هذا من اختصاصنا ، ولا هو مما يتداخل فى موضوعنا . إنما نعنى بإبراز الصور التى تخرج من كل تلك الكتب عن البحر الشرقى لأنها تساعد على دراسة الجغرافيا البحرية العربية فى القرون الوسطى ، من ناحية ، وعلى فهم القصة البحرية العربية من ناحية أخرى .

فإذا كان لا يعنينا أن نميز بين الناقل والمنقول عنه ، ما دام غرضنا المادة المنقولة فى ذاتها ، فإننا أيضاً لا نملك أن نقتصر على أنواع معينة من كتب الرحلات أو وصف البلدان ؛ بل نحن ملزمون بالرجوع إلى كل الأنواع ، ومنها تلك الكتب التى لاقت رواجاً كبيراً بين قراء العربية منذ أزهى عصور الدولة الإسلامية ، وهى التى عرفت بكتب العجائب ؛ وقد أحصى حاجى خَلْفَة ما عرفه منها فى « كشف الظنون » المؤلف فى القرن السابع عشر ، فكان عددها أربعة وعشرين كتاباً ذكرت عنواناتها فى مادة « العجائب » .

كتب العجائب فى أحسن أنواعها لا تعدو أن تكون كتباً وصفية للبلدان وأهلها ومسالكها ، وحيوانها ونباتها وتربتها ؛ هى كتب تعالج موضوعات الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ، مما لا يخرجها عن مجموعة كتب الجغرافيا الوصفية العربية التى ألفها ابن خرداذبة وقدامة وابن حوقل والإصطخرى وابن رستة وابن الفقيه ، ولكنها تحمل طابع الكتب التى ألفت لجمهرة القراء ، يغلب عليها فى أسوأ أنواعها التهريف والخرافة ، على الرغم من أن مؤلفيها لم يقصدوا بها إلى مجرد جمع الخرافات ، بل إلى التحدث بغرائب الموجودات ، تبعاً لطريقة كل منهم فى النظر إلى هذه الغرائب ، وفهمها ، ومقدار ما له من العلم بها ،

أو من العلم على الإطلاق . وكلما كان المؤلف قليل الحظ من العلم ، كانت طريقته فى إيراد ما يروى طريقة ذاتية ، إذ هو لا يجد من معارفه القليلة ما يعينه على النظر إلى ما يروى نظرة موضوعية ، ولا يملك ما يؤهله لفهم ظاهرة حيّة أو غير حيّة فهماً يسمح له بوصفها وصفاً مجرداً . وقد يضاف إلى هذا أنه وهو يكتب للعامة متأثر بما يتوقع من أن يثيره فيهم من عجب ، مما يباعد بينه و بين توخى الواقع أو توقى المغالاة . فإذا كان المحدث بالعجائب يروى عن غيره ممن شاهد بعض تلك العجائب ، أو سمع بها ، أو قرأ عنها فى مؤلفات ليست فى ذاتها إلا صورة من روايات منقولة ، كان ذلك المحدث أكثر استعداداً للمغالاة ، وأقرب للتخريف ، وقد غابت الوقائع الأصلية عنه وعمن نقل منهم ، فلم تصل إليه إلاّ مشوهة تشويهاً بالغاً عبر الألسن والأسماع والمخطوطات المغلوطة ، والأوصاف التى عبث بها العابثون جهلا ، أو رغبة فى التشويق والإمتاع .

أى أن هنالك تدرجاً وتفاوتاً كبيراً بين كتب العجائب يجعل من بعضها ما يصح أن يوضع فى مصاف الكتب ذات الصبغة العلمية ، والنظرة الأقرب إلى الموضوعية ؛ ومن البعض الآخر ما يقربها من أراجيف العوام . ولكن ليس معنى هذا أن هذه الأخيرة صفر من الحقائق العلمية ، أو أن الأولى خلو من التخريف ؛ فالكتب ذات الصبغة العلمية لم تتجرد عن العيوب الملازمة لكتب العجائب ، لأن الحقائق الموضوعية ، والمقاييس العلمية لم تكن فى القرون الوسطى من الدقة والسلامة والوضوح كما نعرفها منذ عهد النهضة والإحياء . وفى مؤلفات الجغرافيا العربية للخاصة ، أمثال كتب ابن خُرْدَاذْبة

وابن الفقيه وابن رُسْتَة وابن حوقل والمسعودى والإصطخرى والإدريسى «عجائب» لا تقل غرابة عما أورده ابن الوردى فى «**خريدة العجائب**» أو إبراهيم بن وصيف شاه فى «**مختصر العجائب**»؛ بينما نجد فى بعض كتب العجائب، كموسوعة القزوينى المسماة «**عجائب المخلوقات**» وكتاب الدمشقى «**نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر**» من المعارف الإيجابية، والأوصاف الموضوعية ما يرفعها إلى أعلى مراتب المؤلفات العلمية فى المكتبة العربية.

ويلاحظ أن المزج بين الحقائق الثابتة، والنظريات المغلوطة، وأراجيف الناس لم يكن قاصراً على الكتب العربية وحدها، وإنما كان صفة غالبة على جميع مؤلفات العهود السابقة لعصور النهضة العلميـة الحديثة، سواء فيها ما كتب بالسنسكريتية أو البهلوية أو الفارسية من لغات الشرق، أو باليونانية واللاتينية من لغات الغرب. وقد ذكرنا هذه اللغات على التخصيص لأن الكتب التى كتبت بها كانت مرجع العرب فى نهضتهم العلمية، فهى مسؤولة عن كثير من المعارف الثمينة الواردة بالكتب العربية فى القرون الوسطى، كما تتحمل تبعة الكثير من التخريف؛ ولا يمكن أن يعرف قارئ حديث لكتاب القزوينى قيمته العلمية فى زمنه إلا إذا اطلع على كتاب بلينيوس الكبير فى التاريخ الطبيعى Historia naturæ ورأى كيف كان الخلط بين الوقائع والأوهام لا محيد عنه فى المؤلفات العلميـة التى بقيت لنا من العصور القديمة والقرون الوسطى؛ ولا عبرة بمضى قرون على كتب أرسطاطاليس و بلينيوس حين كتب أمثال القزوينى والدمشقى كتبهم، ما دامت وسائل الفحص العلمى المباشر، وتحرى حقائق الكائنات والتثبت منها لم تتجه فى مسالكها الصحيحة

إلا بعد أن وضع أساساتها أمثال روجر بيكون فى القرن الثالث عشر ، وفرنسيس بيكون وديكارت فى القرن السابع عشر .

فإذا حاولنا أن نميز بين من وصف البلدان من العرب ، وجدنا فى ناحية فريقاً جمع معارف غيره من معاصرين وقدماء ، وطالع وفحص الخرائط والدوائر كالإدريسى وأبى الفِدَاء والبِيرُونى ؛ أو تنقل فى البلاد ووصف ما رأى وعرف من أمثال التاجر سليمان ، وأبى دُلَف مِسْعَر بن مُهَلْهِل والبِيرُونى أيضاً ، وابن بطوطة وابن جبير ؛ أو عنى بحكم مقره أو وظيفته بتدوين ما سمعه من الرحالين والتجار وما تحويه أضابير ديوانه من معارف ، أمثال ابن خُرْدَاذْبة صاحب بريد المعتمد على الله ، والجَيْهَانى وزير نصر بن أحمد صاحب خراسان ، وأبى زيد حسن السيرافى ؛ أو رجلا سافر فى بعض الأصقاع ولكنه لم يكتف بمشاهداته الشخصية ، بل راح يضيف إليها ما طالعه فى كتب غيره ، أو سمعه فى حله وترحاله من أفواه السفار وهواة المعارف الجغرافية ومن هؤلاء البِيرُونى مرة أخرى وأبو الحسن المسعودى مؤلف «**مروج الذهب**» وياقوت الحموى صاحب « **معجم البلدان** » .

ووجدنا فى الناحية الأخرى فريقاً عنى بجمع « العجائب » ونظر إلى الكون كمجموعة من الغرائب والخوارق ؛ أو عالماً طبيعيا مولعاً بالجغرافيا أغراه نجاح كتب العجائب بتأليف الكتب فى عجائب المخلوقات أو عجائب البر والبحر .

ومع أن « **عجائب المخلوقات** » للقزوينى ، و « **نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر** » للدمشقى من مؤلفات هذا الفريق الأخير ، فإنها فى مرتبة قريبة

من مرتبة بعض مؤلفات الفريق الأول من حيث القيمة العلمية ، برغم زيادة « كم » العجائب فيها نسبيا عما بتلك المؤلفات . فكتاب الدمشقى فى أسلوبه وترتيبه من أحسن مؤلفات الجغرافيا الإنسانية ، والتاريخ الطبيعى فى المكتبة العربية . وكتاب القزوينى موسوعة عربية هامة فى التاريخ الطبيعى تذكرنا من بعيد بموسوعة بلينيوس اللاتينية ؛ هذا إلى أن كتاب القزوينى الثانى « **آثار البلاد** » معجم جغرافى يتبع مؤلفات الفريق الأول مباشرة . أما « **خريدة العجائب** » لابن الوردى و « **مختصر العجائب** » لابن وصيف شاه وأمثالها فهى مؤلفات شعبية يغلب أن تكون كتابتها إرضاء لشغف العوام بهذا النوع من الكتب .

وبين يدى تعريفان للعجائب . أولهما للقزوينى فى صدر « **عجائب المخلوقات** » وثانيهما للبارون كارّا دى ڤو Carra de Vaux فى مقدمة ترجمته الفرنسية لكتاب « **مختصر العجائب** » .

قال القزوينى فى شرح العجب : " قالوا العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشىء ، أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه ؛ مثله أن الإنسان إذا رأى خلية النحل ولم يكن شاهد النحل من قبل تحير لعدم معرفته فاعلها ؛ فلو علم أنها من عمل النحل لتحير أيضاً من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع التى يعجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة ، ومن أين لها هذا الشمع الذى اتخذت منه بيوتها المتساوية التى لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت فى قالب واحد . ومن أين لها هذا العسل الذى أودعته فيها ذخيرة للشتاء ، وكيف عرفت أن الشتاء

يأتيها ، وأنها تفقد فيه الغذاء ، وكيف اهتدت إلى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الفأر كالبرنية المنضمة الرأس ؛ فهذا معنى العجب . وكل ما فى العالم بهذه المثابة إلا أن الإنسان يدركه العجب فى زمن صباه حين يكون فاقد التجربة ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم فى قضاء حوائجه وتحصيل شهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط العجب عن نظره بطول الأنس بها ؛ فإذا رأى بغتة حيواناً غريباً ، أو فعلا خارقاً للعادات ، انطلق لسانه بالتسبيح ، وهو مع هذا يرى طول عمره أشياء تتحير منها عقول العقلاء ، وتدهش فيها نفوس الأذكياء ، فمن أراد صحة أو صدق هذا القول فلينظر بعين البصيرة ... إلى البحار العميقة .. . ثم إلى ما فيها من الحيوان والجوهر ... ثم لينظر إلى خلق اللؤلؤ فى صدفه تحت الماء ، ثم إلى إنبات المرجان فى صميم الصخر تحت الماء ... ثم إلى السفن كيف سيرت فى البحار .. وإلى إيجاد الأنهار ومعرفة النواتى موارد الرياح ومهابها ... "

فهذا التعريف للعجب منطبق على ذلك الفريق من كتب العجائب الذى وضعناه فى مرتبة الكتب العلمية ؛ ومن السهل أن نخرج منه بنتيجة تفسر لنا كثيراً من عيوب كتاب القزوينى ، تلك هى سهولة تصديق الرجل لأغلب الخرافات والأساطير التى ترامت إليه ، فقد يكفيه أن يذكر " إدراكه العجب فى زمن صباه حين كان فاقد التجربة " ليتقبل الخرافة على أنها حقيقة لم يدركها بعد بالتجربة . على أن القزوينى لم يكتف فى مقدماته بتعريف العجب ، بل هو قد تعدى هذا إلى « معنى الغريب » وهو كما قال : " كل

أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة ، وذلك إما من تأثير نفوس قوية ، أو أمور فلكية ، أو أجرام عنصرية" . وبذلك فتح الرجل أبواب ذهنه للعجائب والغرائب ، وقد طارت عنها مزاليجها وروابطها العلمية التى كانت تبدو وثيقة فى أول الأمر .

وتعريف كارّادى ڤو يمتاز عن تعاريف القزوينى بأنه يشملها ، وينطبق على كتب العجائب عامة سواء منها ما يعتبر من كتب الخاصة أو من المؤلفات التى هبطت إلى مستوى العامة . قال : "العجائب آثار ووقائع ومخلوقات ترد فى كتب الجغرافيا والتاريخ وما إليها مما انحدر إلينا من تلك العصور ، ليس ثمت ما يثبت حقيقتها ، ولا ما يقطع ببطلانها . أبرز صفاتها صعوبة إثباتها" !!

وليس مؤلف كتب العجائب شاعراً خياليا ، إنما هو عالم قبل كل شىء ، جمع معارفه بالاطلاع والسماع ، فهو يسجل ولا يخترع ، ينبغى فى الحكم على كتاباته أن نكون صورة للعالم كما كان يبدو له ، باعتبار معارفه وحسن تقديره ، ونفاذ بصيرته وسداد رأيه ؛ ومن الميسور أن نلاحظ حينئذ كيف يخونه التقدير ويشط به الرأى وتغطى الغشاوة بصيرته ، وتتضاءل معارفه الإيجابية كلما تباعد بحديثه عن دائرة محسوساته وتجاريبه الشخصية ، أو محسوسات معاصريه وأسلافه وتجاريبهم ، إلى أطارف الرُّبع المعمور من الأرض ، أى ذلك الجزء من العالم الذى عرفه العرب أو عرفوا به عن اليونان ، وهو يضم بعض آسيا إلى شرق الصين ، وأوروبا الوسطى إلى المحيط الأطلسىّ ، وإفريقيا الشمالية ، وأرض السودان والصحراء الإفريقية الكبرى غرباً إلى بحر الظلمات ، وجنوباً حتى سُفالة الزنج [إفريقيا الشرقية البرتغالية حالا] . فإلى الشمال من الرُّبع المعمور

أرضون مجهولة يسكنها قوم لم يرهم إنسان ، قد يكونون من قبائل ياجوج وماجوج الذين سافر سلام الترجمان بأمر الخليفة الواثق لكشف أخبارهم وما فعلوا بسد ذى القرنين ، وقد لا يكونون ، إذ أن رسول الواثق شاهد السد عبر جبال القوقاز ؛ وإلى الشمال الغربى جزيرة تُولِيَـة [ايسلندة ؟] آخر العمار من تلك الناحية ، ولا عمارة بعدها .

وفى شرقىّ المعمور البحر الزفتى لا يعرف أحد نهايته من تلك الناحية ؛ وإلى الغرب بحر الظلمات لا ينتهى إلى غاية تدرك ؛ وفى جنوبىّ بلاد السودان دهاس وعرة "لا يعلم ما فيها من نبات أو حيوان ، إلا أنه قد نعلم اضطراراً أنه غير ممكن أن يكون فى المطالع التى يفرط حرها أو بردها حيوان أو نبات" ويذهب البحر الشرقى جنوباً إلى غير نهاية معروفة ، فإذا تاهت المراكب فيه جنوباً إلى ما تحت سهيل ذهبت إلى عالم الغيب .

وفى عصور انحلال الحضارة العربية اختفت الصورة العلمية للأرض وكرويتها وبحارها كما نقلها علماء الجغرافيا المسلمون عن جغرافيي اليونان وصححوا منها وزادوا عليها ، واحتلت مكانها أخلاط من الأساطير الهندية والفارسية والإسرائيلية والخرافات الكلدانية والصابئية حتى دارت العلوم دورتها ، وعادت إلينا من الغرب تمحو تلك الأراجيف وتصل بيننا وبين العلماء المسلمين فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية .

وسواء كان الكاتب العربى عالماً جغرافيا ، أو هاوياً للعجائب ، فإنه كلما عالج وصف أطراف الربع المعمور ، شط به الخيال فخلق من الشعوب آدميين وأنصافاً وأرباعاً من الآدميين أو من هم بالوحوش أشبه ، كلامهم صفير ،

وشعورهم زغب أحمر ، يتسلقون الأشجار بأذرعهم الطويلة دون سيقانهم ، أو هم ينبتون كالثمار فوق الشجر معلقين بشعورهم ، يتصايحون « واق واق » .

وجزائر البحار ، والواحات النائيـة ، والدهاس الوعرة هى مباءات العجائب الـكبرى من ناس لها رءوس السباع أو الـكلاب ، أو نسناس خلق ذا شق واحد ، كأنه نصف آدمى بالطول أو بالعرض . ومن القطرب والغيلان والسرادع والسعالى ؛ بها قبر سليمان ، وعرش إبليس ، ومنفى الجن ، ومرتقب الدجال ، وبئر بَرَهُوت .

خير ما يمكن أن نعرف به وصف العالم خارج الرُّبع المعمور فى كتب العجائب الشعبية أنه « جغرافيا الرعب والفزع من المجهول » .

عجائب الهنـــد

قدم فون دير ليت van der Lith في سنة ١٨٨٦ إلى مؤتمر المستشرقين السادس بمدينة لَيْدِنْ كتاباً عربيا مطبوعاً طبعاً جميلا في مطبعة مدينة الاستشراق العتيدة، عنوانه « *عجائب الهند، بره وبحره وجزائره* » لمؤلف اسمه بُزُرْكْ بن شَهْرِيار الناخُذَاه ، أى الربان . [ناو = سفينة . خُدَاه = رب ، سيد] . وقد نشره فون دير ليت عن مخطوط بمكتبة أيا صوفيا باستانبول يعد أقدم مخطوط معروف للكتاب ، ونشر إلى جانب النص العربي ترجمة فرنسية له قام بها مارسيل ديفيك Devic . وصدّر له بمقدمة وذيله بشروح وبحوث جغرافية ؛ وقدر أن بزرك هذا ألف كتابه فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ٩٥٠ م ، معتمداً في هذا التقدير على التواريخ التى أوردها صاحب الكتاب تحديداً للزمن الذى حدثت فيه بعض وقائعه ، ثم على قرائن استدلالية من نصوص الكتاب ، وبعض ألفاظه وحوادثه .

وعارض بعض المستشرقين في تاريخ تأليف الكتاب ، كما اختلفوا في قراءة تاريخ المخطوط ذاته ، فقرأه بعضهم سنة ٤٠٤ هجرية ، والبعض الآخر ٧٠٤ هـ . والعلّامة دى خوى de Goeje ٦٤٤ هـ وأيده في هذا كَارَابَاتْشِكْ وأخيراً قرأه هوتسما ٩٠٤ هـ . وطعن شومان في هذا التاريخ بالتزوير ، قائلا بأن الكتاب لم يوضع قبل القرن الرابع عشر الميلادى ، فالمؤلف كذب حين تحدث عن أمور وقعت في القرن الرابع الهجرى كأنها معاصرة له . ويميل فِرّان Ferrand إلى الاعتقاد بأن بزرك الناخذاه هو المؤلف الأصلي لكتاب

أضاف عليه شخص أو أشخاص آخرون حكايات بحرية أخرى ، وبذلك يمتد وضع الكتاب على مدى القرن العاشر الميلادى كله .

وسواء أصاب فون دير ليت فى تحديد تاريخ تأليف الكتاب ، وتاريخ نسخ المخطوط ، أو أصاب معارضوه ، وأقلهم وأضعفهم فى رأيى هو شومان الذى أعتبر حجاجه وجدله فى التدليل على زيف الكتاب صورة مثلى لما يسميه الإنجليز « شطر الشعرة » فإنه فيما يختص بموضوعنا واحد من كتب العجائب المؤلفة فيما بين القرن العاشر والرابع عشر ، جمع فيه مؤلفه أو مؤلفوه حكايات البحريين والسفار إلى بلاد الهند والزّابج والصّنف والصين ؛ فهو صورة من الحياة على ظهر البحر الشرقى وفوق شواطئه وجزائره تساعدنا على فهم كثير مما ورد فى كتب الجغرافيا العربية ، كما نجد فيها أكبر المعونة على شرح القصص البحرية وتحليلها فى الأدب العربى ؛ وإذا صدقنا بعض روايات صاحب الكتاب فإننا نجد فيها سجلا قيما جداً لما كانت تتناقله الألسنة والأسماع فى موانى سيراف ورَامَهُرْمُز عن ربابنة بحر الهند والصين .

والكتاب خليط من التهريف والصدق ، والوصف البليغ والمبالغة و « الفشار » ، تترادف حكاياته فى شىء من التنظيم أحياناً وفى غير تنسيق أحياناً أخرى ، وهو على أى حال مثال قائم بنفسه لكتب العجائب .

وأسلوب الكتاب سهل دارج ، تغلب عليه الركاكة ؛ وقد يكون هذا لأن مؤلفه أجنبي عن اللغة العربية ، أو أنه وضعه باللغة الفارسية ، وعربه رجل من العوام . وربما صعب على قارئ يهتم من الأشياء بجدها ، ومن اللغة برصانتها أن يواصل قراءته لما قد يرى فيه من تواتر المبالغات ما يضيق

به صدره ، ومن أسلوب عطل من البلاغة العربية التقليدية .

ولـكن المطالع المنصف ، المتحرر من قيود هذه البلاغة ، لا يتمالك أن يحس بالنفحة البحرية تهب على صفحاته ، والقوة والحركة تسرى فى أعطافه ؛ لقد طالعت أكثر ما جاء بالأدب العربى الرسمى عن البحار فلم أجد فيه ما يدانى ولو من بعد بعيد ما جاء بكتاب « **عجائب الهند** » صدقاً فى الوصف وقوة على الإيحاء بالجو البحرى ؛ وليس هذا أثراً من آثار التقعر البديعى والبيانى ، إنما هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحاً مباشراً عن تجارب شخصية ؛ فهى بلاغة كثيرة الشبه ببلاغة المشاهدة فى يوميات الرحالين والرواد فى كل اللغات ، بلاغة ترتفع باللغة إلى نوع من السهولة والصفاء يجعل من عريها جمالا ، ومن عطلها حليا نادرا لا تراه العيون وإنما تشعر به النفوس .

اسمع لبزرك بن شهريار الرامهرمزى وهو يصف البحر العجاج المتلاطم الأمواج :

"وحدثنى أبو الزهر البرختى الناخداه ، وكان من عظماء سيراف ، وكان مجوسيا على دين الهند ، وكان عندهم أمينا يقبلون قوله ويستودعونه أموالهم وأولادهم فأسلم وحسن إسلامه وحج بمخاطبته امرأة من جزيرة النساء . وذلك أنه سافر رجل فى مركب له عظيم ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من كل بلد وهم يسيرون فى بحر « ملانو » وقد قربوا من أطراف أرض صين وأبصروا بعض جبالها ، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التى يقصدونها فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت ، وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل ، ومن اضطر

فى ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحراً لا رجعة له فيـه ، وتنكس فى لجة هابطة إلى الجنوب مصوبة إلى تلك الجهة ، فكلما مرت المركب خلا ما وراءها من جهتنا ، وهبط ما بين يديها من تلك الجهة فلايستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهوت فى لجج البحار المحيطة؛ فلما رأوا أمرهم يؤدى إلى الدخول تحت سهيل ، ودخل عليهم الليـل وأظلم وادلهم ، وحال بخار البحر ودُجُنّتُهُ ونداه وزخره بينهم وبين النجوة فلم يروا ما يهتدون به ، وهول البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب وهم يجرون فى قار وضباب طول ليلهم ، وأصبح عليهم الصباح فلم يشعروا به لشدة ظلمة ماهم فيـه ، واتصال قار البحر مع ضباب الجو ، وغلظ الريح وكدورته ، فلما طال عليهم الليل وهم يجرون فى قبضة الهلَكة ، وقد حكمت عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ومركبهم يئط ويئن ويتقعقع ويتعتع ، توادعوا وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده ، لأنهم كانوا شيعاً من أهل الصين والهنـد والعجم والجزائر ، واستسلموا للموت ؛ وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار ؛ فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة أضاءت الأفق فخافوا خوفاً شديداً وفزعوا إلى رُبّانهم وقالوا له : يارُبّان ما ترى هـذه النار الهائلة التى ملأت الآفاق ونحن نجرى إلى سمتها وقد أحاطت بالأفق ، والغرق أحب إلينا من الحريق ! فبحق معبودك إلا قلبت بنا المركب فى هذه اللجة والظلمة لا يرى أحد منا الآخر ولا يدرى ما كانت منيته ولا يتجرع لوعة صاحبه وأنت فى حل وبل مما يجرى علينا ، فقد متنا فى هـذه الأيام والليالى ألف

ألف ميتة ، فميتة واحـدة أروح . فقال لهم : اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال هـذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهى باقية لم يجر عليها قدر ، ونحن معشر ربانية السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها ؛ فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذى يصرفهما كيف يشاء . قال فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل وندب كل منهم شجوه ، وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بجـذب حبل أو إرخائه يصلح شأن المركب فلا تسمع الرجال ذلك من دوى البحر وحس تلاطم الأمواج وهدير الرياح فى القلوع والشراع والحبال وضجيج الخلائق ، فأشرف المركب على التلف بعطلة الرجال وعدة المركب من غير حادث عليهم من بحر أو ريح .

"قال وكان فى المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب فى ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ولم يشعر به ربان المركب ، وكان فى زاوية من المركب مهجورة وهو مختف فيها خوفاً أن يعلم به فيؤنب ويوبخ ؛ فلما رأى القوم وما نزل بالناس وما هم عليه من الأخطار بأنفسهم ومركبهم وأنهم قد صاروا عوناً مع أهوال البحر على أنفسهم مسرعين لهلاكهم ، رأى أن يخرج إليهم فيكون من حاله معهم ما كان ؛ فخرج إليهم وقال لهم : ما شأنكم ، انفتح المركب ؟ قالوا لا . قال : فانكسر الشكّان ؟ . قالوا لا . قال : فركبكم البحر ؟ . قالوا لا . قال : فما شأنكم ؟ . قالوا : كأنك لست معنا فى المركب ! أما تنظر هول هـذا البحر

وأمواجه وظلمة الهواء الذى لم نر معه نهاراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سهيل وحكمت البحار والرياح علينا ، وأشد ما علينا هـذه النار التى نحن نجرى إليها وقد ملأت الأفق ، والغرق أهون علينا من الحريق ؛ وقد سألنا الربان أن يقلب المركب بنا فى البحر والظلمة لا يرى واحد منا إلى صاحبه ونموت غرقاً ولا نموت حرقاً يرى بعضنا بعضا ، ونسمع ما تفعل النار فيـه . فقال : أوصلونى إلى الربان . فأطلعوه إليه فسلم عليه بالهندية فرد عليه وتعجب منه ، وقال له : من أنت أمن التجار أم من أتباعهم ؟ فلا نعرفك فى رجال المركب . قال له : ما أنا من التجار ولا من أتباعهم . قال : فمن أطلعك وما بضاعتك ؟ . قال : أما من أطلعنى فإنى طلعت فى جمهور الناس ليلة الإسراء وأويت إلى مكان فى المركب قال : من أين تأكل ؟ ومن أين تشرب ؟ . قال : كان بَنْيَانُ المركب يضع كل يوم قريباً منى صفحة أرز بسمن لملائـكة المركب ومنشل المركب ماد ، فـكنت أتقوت بذلك ، وأما بضاعتى فقربة عجوة . قال فتعجب الربان واشتغل الناس بسماع حديثه عما كانوا فيه من الضجيج ، وأصلح الرجال أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير القلاع ؛ واهتدى المركب ، فقال الشيخ : يا ربان ، ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون ؟ قال له : أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة ؟ وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التى ملأت الأفق ؛ والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ ومع أبى ، وكان قد أذهب عمره فى ركوبه ، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائى فما سمعت بمن سلك هذا المـكان ولا خبر عنه .

فقال : يا ربان ، لا بأس عليك ولا خوف ، نجوتم بقـدرة الله . هذه جزيرة يحيط بهـا ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض ، فتُنظَر فى الليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل ؛ فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء . وهذه النار ترى من بلد الأندلس وقد عبرت عليها مرة وهذه الثانية .

"قال فتباشر النـاس وسكنوا إلى قول الشيخ ، وتناولوا طعامهم وشرابهم وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف ، وتناقص الريح وصار البحر رهواً والريح رخواً ؛ وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس ، وأصحت السماء ، وأشرفوا على الجزيرة ، وتخيروا مرسى كنيناً ووردوا الجزيرة بجملتهم وجعلوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها ، ولم يبق منهم فى المركب أحد" .

لقد طالعت هذه الصفحة أكثر من مرة ، وقارنت تواً بينها وبين صفحات من الأدب العربى الرسمى فى وصف البحار ، فلم أجد فى هذه غير ألفاظ مترادفات وجمل ذات رونق بارد ؛ أما الصفحة التى نقلتها عن « عجائب الهند » فهى وصف حى ، فى ألفاظ وجمل سهلة لا افتعال فيها ولا تعمل ، تتميز بشىء نادر فى الأدب العربى الرسمى يمكن أن أسميه « اللهجة الشخصية » . هـذا الرجل لا يكتب إظهاراً لمعارفه اللغوية ، وإعلاناً عن بلاغته ، إنما هو يدون تجارب ذاتية بقدر ما يحتاج إليه هـذا التدوين من ألفاظ وجمل وتعبيرات . ولقد كنت أتساءل أيام قراءتى لـكتاب « عجائب الهند » قراءة عابرة ، إذ رأيت بزرك بن شهريار ينقل إلينا طول كتابه أحاديث غيره : لماذا لا يحدثنا

ابن شهريار الناخداه عن أسفاره هو ؟ إلى أن لاحظت بعد دراستى تلك الصفحة المختارة أنها إما من قلم أبى الزهر البرختى نفسه ، أو أن أبا الزهر قص على بزرك قصته ، فلما أخذ هذا فى كتابتها تصور حال مركبه وهو وسط العواصف ، فوصف إعصاراً من الأعاصير التى خبرها بنفسه فى حياته الطويلة .

ولا يمكن أن يقـدر الإنسان إلى أى مدى صدق الناخُذَاه فى وصفه للزوبعة إلا أن يكون قد لجج فى البحر بنفسه ، على ظهر سفينة فى جرم السفن العربية أو الفارسـية أو الصينية التى كانت تذرع البحر الشرق الـكبير فى تلك العصور .

والـكتاب كله على هذه الوتيرة ، أحاديث وأخبار وعجائب وحكايات ينقلها بزرك بن شهريار عن غيره من النواخدة على علاتهـا ، دون أن يحاول لها تفسيراً أو نفياً أو تأييداً . وسوف أعود إلى «عجائب الهند» فى مواضع من كتابى ، ولـكنى أستعرض هنا بعض ما جاء به لحاجتى إليه فى إتمام الصورة التى أرسمها عن البحر الشرقى الـكبير فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر .

”حدث أبو محمد الحسن بن عمرو أن بعض البحريين خرج فى مركب من عدن إلى جدة ؛ فجاءت سمكة ونطحت السفينة بحذاء زيلع نطحة منكرة لم يشك أهل المركب أنها كسرته ؛ وانحدر الربانية إلى قاع السفينة فلم يجدوا للماء أثراً . فلمـا وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البر ، فوجدوا رأس السمكة فى قاعه وقد سجن وسد الموضع حتى ليس فيه خلل ؛ وإذا هى نطحت المركب ولم يمكنها الخلاص ، فانقطعت من حلقها ، وبقى رأسها فى موضعه .

"وحدث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحى فذهب من يد صاحبه بقوة الريح ، وعاب المركب فاضطر الربان إلى الرسو بجوار جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر ؛ وخرجوا إلى البر واشتغلوا بإصلاح المركب ، واتفق لهم يوم نوروز فحملوا من خشيبات المركب ، وبعض خوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة بهم ، فأسرعوا وألقوا بأنفسهم إلى الماء ، وتعلقوا بالقارب ، ورأوا الجزيرة تغوص تحت سمعهم وبصرهم ، ولحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا بسببه على الغرق ؛ وكانت سلحفاة نائمة على وجه الماء ، وحين أحست بحر النار هربت .

"وحدّث أحمد بن على بن منير السيرافى الناخداه عن بعض شيوخ الهند أنه كان لهذا الشيخ مركب كسر فوقع أهله إلى جزيرة بقرب الهند ، وبقوا بها مدّة حتى مات أكثرهم ولم يبق غير سبعة ؛ وكانوا قد لاحظوا أن طيراً عظيما يقع فى الجزيرة ويرعى ، فإذا كان وقت العصر طار ؛ فأجمع رأيهم على أن يقوم واحد منهم بمجازفة خارقة ، وهى أن يتعلق بذلك الطير وقت طيرانه ؛ واستعد أحدهم لذلك بين الشجر ، وتقدم إلى الطائر متلطفاً وأخذ برجليه ، وشد نفسه إليهما بقشور الشجر ، فطار به فى الهواء ، وعبر به بحراً وطرحه وقت غروب الشمس فوق جبل ، فحل نفسه وسقط كالميت مما تعب وكلّ ؛ وفى غده قام فإذا راعى غنم كلمه بالهندية وسقاه لبناً ودله على قرية قريبة فتحامل إليها حتى دخلها ؛ ولم يزل ينقل القوم من تلك الجزيرة حتى اجتمعوا بالقرية واستطاعوا منها أن يصلوا إلى البحر ويعودوا إلى بلادهم . وقد تقصوا أمر الجزيرة ، وحسبوا المسافة التى حملهم الطائر فيها فكانت تزيد على مائتى فرسخ" .

ورأى بزرك بن شهريار عند أبى العباس السيرافى ريشة طائر طولها نحو ذراعين قدّر أنها تسع قربة ماء ؛ وسمع أن بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخالبيه ويحمله إلى الهواء ثم يرمى به ليموت وينكسر ، ثم ينزل عليه فيأكله .

ويحكى أبو الحسن بن عمر عن بعض النواخذة أنهم لجأوا إلى خور رأوا فى شاطئه حية هائلة المنظر تعبر الخور إلى الشاطئ الآخر بسرعة البرق ثم تعود بعد العصر ؛ وتقصوا خبر مسيرها فوجدوا فى الناحية الأخرى من الخور أجمة ومستنقع ماء وأكواماً من أنياب الفيلة ؛ وإذا بتلك الحية كانت تأكل تلك الفيلة وتبقى أنيابها . وقد أحب ابن شهريار أن يتحقق من هذا الخبر فسأل اسمعيلويه الناخذاه فى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة فأجابه بأن قد بلغه هذا وهو صحيح .

ومن البحار الخبيثة الصعبة الشديدة التى تقل السلامة فيها بحر أغباب سرنديب وهو ثلثمائة فرسخ ، وفيه من التماسيح أمر عظيم ؛ وفى ساحل هذا البحر النمور والبوارج الذين يقطعون فى هذا البحر ، إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله وهم شر قوم ، وليس فى سائر الأماكن من يقطع البحار مثلهم ؛ فالمركب الذى يقطع هذا البحر متى أخذه البوارج أكلوا أهله ، وإن غرق لم تمض عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح ، وإن انكسر بقرب البر وصعد أهله إلى الساحل قطعهم النمور فى ساعة واحدة .

وحدّث محمد بن بَابِشَاد أن بجزيرة البنّان ، وهى جزيرة فى البحر الخارج ، بينها وبين فَنْصُور مائة فرسخ ، قوماً يأكلون الناس أيضاً ، ويجمعون

رءوس الناس عندهم ، ويفتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرءوس ؛ يشترون سبائك صُفْر بالثمن الوافر ويدخرونه مكان الذهب ، ويبقى فى بلادهم الدهر الطويل كما يبقى الذهب عندنا ؛ والذهب عندهم لا مقام له ، بل يكون فيه ما يكون من الصفر عندنا .

وَأَنْدَمَان لم يقع إليها أحد عاد إلى أهله ؛ وقد سمع بزرك ممن دخل بلاد الذهب أنه رأى بصَنْفِين رجلا ذكر أنه وصل إلى أندمان فى جملة أهل مركب كانوا فيه ولم يتخلص غيره .

ومن أحاديث البحريين والنواخذة ما يحكى عن عَبْهَرَة الربان ، وأصله من كِرْمان وكان ببعض قراها يرعى الغنم ، ثم صار صياداً ثم صار أحد ربانية مركب يختلف إلى الهند ، ثم تحول إلى مركب صينى ، ثم صار بعد ذلك ربانا . وله فى البحر طرائق ، وسافر إلى الصين سبع مرات ، ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلا من غرر ، ولم يُسْمَع أن أحداً سلكه وسلم وعاد قط ، فإن سلم فى المضى فهو عجب ، ولا يكاد يسلم فى العودة ، وما سمع بزرك أن أحدا سلم فى الذهاب والمجىء سواه ، فإنه جلس فى مَطْيَاله وأخذ قربة ماء ، فمكث فى البحر أياماً . ومما يحكى عن شهريارى الربان ، وكان أحد ربانية الصين قوله : "كنت أمضى من سيراف إلى الصين ، فلما صرت بين الصَّنْف والصين بالقرب من صُنْدُرفُولات ، وهو رأس بحر صَنْخَىْ ، أى بحر الصين ، وقفت الريح فلم تتحرك ، وسكن البحر ، وطرحنا الأناجر ، وأقمنا بمكاننا يومين . فلما كان فى اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئاً فى البحر ، فطرحت الدونيج إلى البحر ، وأنفذت فيه أربعة من البانانية ، وقلت اقصدوا ذلك

السواد فانظروا ماهو . فمضوا وعادوا يقولون : هذا عبهرة الربان على مطياله ، ومعه قربة ماء . قلت لهم : فلم لم تحملوه ؟ فقالوا : قد اجتهدنا به ، فقال لا أصعد إلى المركب إلا بشرط أن أكون الرُّبّان فأدير المركب وآخذ أجرتى عن قيمة ألف دينار متاعا بشرى سيراف . فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ، ونزلت وجماعة من المركب إليه ، وهو فى البحر ترفعه الأمواج وتضعه ، فسلمنا عليه وتضرعنا إليه فى الصعود فقال : حالكم أقبح من حالى ، وأنا إلى السلامة أقرب منكم ، فإن دفعتم لى بقيمة ألف دينار بشرى سيراف ، ورددتم إلىّ أمر المركب صعدت . فقلنا : هذا مركب فيه أمتعة وأموال عظيمة ، وخلق من الناس ، ولا يضرنا أن نعرف ماعند عبهرة من الرأى بألف دينار . وصعد والدونيج والقربة معه إلى المركب ؛ فلما حَصَل فيه قال : سلمونى متاعا بألف دينار ، فسلمناه إليه . فلما أحرزه قال لى : إجلس إلى ناحية ، فتباعدت عن موضعى وقال : ينبغى أن تَجِدّوا فى أمركم مادام عليكم مهلة . فقلنا : فيماذا ؟ . قال : ارموا الثِّقْل كله إلى البحر . فرمينا نحوا من نصف حمولة المركب أو أكثر ثم قال : اقطعوا الدَّقَل الأكبر . فقطعناه ورمينا به إلى البحر . فلما أصبح قال : ارفعوا الأناجر واتركوا المركب يسير لنفسه . ففعلنا . قال : اقطعوا الأنجر الكبير . فقطعناه وبقى فى البحر . ثم قال : ارموا بالأنجر الفلانى . فلم يزل كذلك حتى رمينا فى البحر ستة أناجر . فلما كان فى اليوم الثالث ، ارتفعت سحابة مثل المنارة ، ثم تفرقت فى البحر وأخذنا الخبّ ؛ فلولا أنا كنا رمينا بالحمولة ، وقطعنا الدَّقَل ، لكنا قد غرقنا من أول

موجة أخذتنا . ولم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها والمركب يصعد وينزل بغير أنجر ولا شراع ، ولا ندرى كيف يمضى . فلما كان فى اليوم الرابع أخذت الريح فى السكون ، وتم سكونها وصلاح أمر البحر فى آخر النهار ؛ وأصبحنا فى اليوم الخامس والبحر طيب ، والريح مستقيمة ؛ فأصلحنا دقلا ورفعنا الشُرُع ، وسرنا وسلّم الله ؛ ووردنا الصين وأقمنا إلى أن بعنا واشترينا ، وأصلحنا المركب ، ودقلا بدل الدقل الذى رمينا به فى البحر . وخرجنا من الصين نريد سيراف ، وقاربنا الموضع الذى قدرنا أن رأينا عبهرة فيه ، واجتزنا بجزيرة وجبال . فقال عبهرة : اطرحوا الأناجر . ففعلنا . ثم طرحنا القارب إلى البحر ، ونزل فيه خمسة عشر رجلا وقال لهم : امضوا إلى ذلك الموضع — وأومى إلى بعض الجبال — فهاتوا الأنجر الفلانى . فعجبنا من ذلك ولم نخالفه فمضوا وعادوا والأنجر معهم . ثم قال : امضوا إلى ذلك الجبل الآخر — وأومى إليه — فهاتوا الأنجر الفلانى . فمضوا وعادوا والأنجر معهم . ثم قال : ارفعوا الشراع . فرفعنا وسرنا وقلنا له : كيف عرفت أمر هذه الأناجر ؟ فقال : نعم ، لقيتكم فى هذا الموضع فى رأس الثلاثين ، وهو وقت مد الماء ، وقد نقص الماء صدراً صالحاً ، وكنتم فى وسط الجبال والجزيرة فأمرتكم بطرح الثقيل من الأمتعة ففعلتم ؛ ثم فكرت فى أمر الأناجر فإذا حاجتنا إليها فى الصين غير ماسة ، ولم يبق فى المركب من الأمتعة إلا ما قيمة وزن الأناجر منه أضعاف قيمة الأناجر فرميت بها كذلك ، لأنه لم يكن بد من تخفيف المركب ؛ فحصلت هذه الأناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة ، وحصلت الثلاثة تحت الماء . قلنا له : كيف استدللت على هذا

النقصان والخب ؟ ، قال : نعم قد جُرِّب هـذا البحر قبلى وجَرَّبته . فوجدناه فى رأس كل ثلاثين ينقص نقصاً عظيماً حتى تنكشف هذه الجبال ويكون فى وقت هذا النقصان خب عظيم ، أصله فى قاع البحر ، فانـكسر المركب الذى كنت فيه على رأس جبل من هذه الجبال ، لأن النقصان لحقنى وأنا أسير عليه ليلا ، وسلمت فى ذلك المطيال . ولو بقيتم فى موضعكم لما بقيتم فى البحر أكثر من ساعة ثم يجنح مركبكم قبـل الخب ، لأنكم كنتم على الجزيرة إن جنحتم عليها انـكسرتم . وعبهرة هـذا له طرائق وأخبار فى البحر وهذا الخبر من أطرف أخباره" .

تلك نبـذ من كتاب « عجائب الهند » تأليف بزرك بن شهريار الناخداه الرَّامَ هُرمُزى ، راعيت فى اختيارها أن تمثـل الـكتاب أحسن تمثيل فى الناحية البحرية ، وأن أستكمل بها تصوير ما أنا بسبيله .

بين الواقع والأساطير

"There is a kind of intellectual frontier within which he must be who will sympathise with myth, while he must be without who will investigate it, and it is our fortune that we live near this frontier-line; and can go in and out."

Edward B. TYLOR : *Primitive Culture.*

ذكر فى مجلس كسرى أنوشروان أن بأرض الهند جبلا فيه شجرة ثمرتها تحيي الموتى ؛ فبعث رجلا إلى بلاد الهند ليأتيه بصحة هذا الكلام ، فذهب الرجل إلى هناك يسأل عن الجبل حتى اجتمع ببعض البراهمة فقالوا له : هذا الكلام مرموز من كلام الحكماء ، أرادوا بالجبل الرجل العالم ، وبالشجرة علمه ، وبثمرتها فائدة علمه ، وبالحيوة صورة الآخرة ؛ فقال كسرى : صدق علماء الهند ، الأمر كما ذكروا .

هذا خبر من الأخبار ، أورده القزوينى فى كتاب « **آثار البلاد** » ، جدير بأن نتمعن فيه ، لأن بعض ما يرد فى كتب الجغرافيا العربية والرحلات وكثيراً مما تطالعنا به كتب العجائب يذكرنا به ؛ وقد رأينا أمثلة من هذه الأخبار فيما مضى من كتابنا ، وسنعرف بغيرها فيما بعد . فلو أن كسرى لم يبعث برسوله إلى الهند ليحقق صحة الخبر ؛ أو لو أن نساخاً أو مؤلفاً استحسن أن يترك الخبر دون تحقيق ، لتداولته الكتب على هذا الرسم : "وسمعنا ممن سافر إلى هناك أن بأرض الهند جبلا فيه شجرة ثمرتها تحيي الموتى" . وربما عقب عليه المولعون بالغرائب هكذا : "وقيل بأن فى رأس هذا الجبل أمة من

الناس تعيش منذ ستة آلاف عام" .

وسمع التاجر سليمان أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما فى النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر . كما سمع أن فى البحر حيوانا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجراً ، قال ويتخذ منه كحل لبعض علل العين .

وجاء الخبر بعينه فى « **عجائب الهند** » على هذه الصورة : "وفى بحر الصّنف جزيرة إذا وقعت السرطانات إلى أرضها صارت حجارة ؛ وهو حجر معروف يجلب إلى العراق وسائر الدنيا ، وهو من الأدوية فى جلاء البياض من العين" . ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الجغرافيا العربية ، أو العجائب أو الرحلات من إيراد هذه الحكاية .

وروى القزوينى فى كتابه الجغرافى « **آثار البلاد** » عن **محمد** بن أبى عبدالله أنه رأى "فى غياض الصين إنساناً يصيح صياح القردة وله وبر كوبر القرد ويداه ينالان ساقيه إذا بسطهما قائماً ، ويكون على الأشجار يثب من شجرة إلى شجرة و بينهما عشرة أذرع" .

ومع أن النار التى ظهرت فى البحر وملأت الأفق كانت موضع عجب ورعب ركاب سفينة أبى الزهر البرختى كما جاء فى الفصل السابق ، فإن بزرك ابن شهريار ، بعد صفحات قلائل من إيراده تلك الحكاية يقول : "ومن عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل ، فإن الأمواج إذا اضطربت وتكسرت بعضها على بعض انقدح منه النار فيخيل إلى راكب البحر أنه يسير فى بحر من نار" .

والمفروض أن كتاب « عجائب الهند » وكتب القزويني والتاجر سليمان وغيرها تقرر وقائع ، لا أن تجمع خرافات ؛ ولكن بعض الحوادث أو الوقائع ، التي تذكرها تلك الكتب ، صعبة التصديق إلى حد يبعثنا على الحذر في الحكم عليها . وهذا الحذر يجب أن يكون ذا حدين ؛ فمن أسهل الأمور علينا أن نهمل ما لا نصدقه ، ونطرحه جانباً على أنه خرافة أو مغالاة ؛ كما أن من أسهل الأمور على العوام حينما يسمعون بتلك الوقائع أن يصدقوها ، وأن يعملوا على إذاعتها . إلا أننا إذا اتجهنا هذا الاتجاه أخطأنا فهم الكثير مما توارد على ألسنة الرحالة والجغرافيين ومؤلفي كتب العجائب من العرب وغيرهم . وقد صدرنا لهذا الفصل بحكاية الشجرة الهندية التي تحيي الموتى ، لأن ما فعله كسرى أنو شروان هو مثال نحتذيه ، إن لم يكن بالوسيلة التي اتبعها العاهل الساساني من إرسال رجل يحقق الخبر ، وهذا ما لا يتاح دائماً بسهولة ، فلا أقل من محاولة فهم الواقعة ، أو الخبر المعروض أمامنا عنها . وإلا فلنلق بكل تلك المؤلفات العربية في النار ، وهو ما يكاد يفعله المعاصرون من أهل الغيرة على الشرق حين يقتصرون من الآداب العربية على الاهتمام ببعض الشعر والرسائل والنثر المسجع وغير المسجع ، تاركين للمستشرقين مهمة نشر طائفة هامة من مخطوطات المكتبة العربية وشرحها وتصحيحها ، وهي تحوي ما لا يقل عن ثلاثة أرباع تراث العالم من الحضارة الإسلامية . وأصدق الحذر وأجداه في رأينا أن نفرض أولا الصدق فيمن وضعوا وجمعوا وألفوا كتب المسالك والممالك ، والعجائب ، والرحلات ، منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر الميلادي ؛ وأن نضع أنفسنا موضع هؤلاء الكتاب ، الذين

لم يصل إلى علمهم ما تناهى إلينا من معرفة بالظواهر الكونية ، والمخلوقات التى تعيش فى الهواء ، أو فوق سطح الأرض ، أو فى طبقات الماء .

حينما أرسل كسرى من يتقصى خبر الشجرة التى تحيي الموتى ، كوفئ على حسن ظنه وسعيه بأن عرف أن الحكاية رمزية . فالجبل إشارة إلى الرجل العالم ، والشجرة علمه ، وثمرتها ما يفيد من ذلك العلم ، أى الخلود فى عالم آخر نتيجة تسنمه ذروة الحكمة . وقد لا يبعد أن تكون شجرة الخلود هذه ، هى شجرة « البُودِى » المقدسة التى استنار البوذا — أو البُدّ كما يقول العرب — بضوء العرفان تحت ظلالها ، وبدأ خطواته إلى « النيرفانا » منها .

وأورد التاجر سليمان خبر السمكة التى تخرج من البحر وتتسلق شجرة النارجيل فتشرب ماء ثمره ثم تعود إلى البحر . والخبر على هذا الوضع يحتمل تفسيرين ، فهو إما يشير إلى السمكة الهندية المعروفة باسم « أناباس » *Anabas scandens* ، وهذه تخرج إلى البر وتتسلق الأشجار فى رطوبة الليل ؛ وقد أجرى مديراً كوار يوم مدراس بالهند أمام عينى تجربة على واحدة من هذا السمك ، فتسلقت قماشاً ممدوداً على عود وقد تندى بالماء . أو أن الخبر يشير إلى السرطان المسمى « فيرجوس لاتوس » *Virgus latus* الذى يعيش على سواحل الجزر المرجانية ، وهو من نوع « برنار الراهب » ذلك السرطان الذى لا درق له ، ويستعيض عنه بأن يسكن أصداف القواقع الميتة ؛ والسرطان « فيرجوس » يسكن جوز الهند بعد أن يفرغ ما فيه من شراب ويأكل منه ما يؤكل .

أما الخبر الآخر الذى ذكره سليمان وبزرك بن شهريار ، وأغلب من

ألفوا فى الجغرافيا وفى علم العقاقير ، عن السرطان الذى يخرج إلى الأرض فيتحول حجراً يستعمل فى أكحال العين ، فلا يحتمل إلا تفسيراً واحداً ؛ وهو أن السرطان وغيره من القشريات تعيش فى كساء من مادة ظلفية متحجرة ، فلا يسعها أن تنمو إلا أن تطرح عنها ذلك الكساء ، ثم تبدأ بعد نموها فى تكوين كساء آخر . وإن نظرة على كساء السرطان حين يخرج منه حيوانه ، يلقيها من لا يعرف خبره ، تجعله يظن لأول وهلة أنه حيال سرطان ميت ، والحقيقة أنه أمام كساء فارغ نقبه الحيوان وخرج يختفى فى جحر حتى يتكون له كساء متحجر جديد . وأرجح أن البحريين والرحالين اعتادوا أن يروا عن بعد الشواطئ المقفرة وعليها مجموعة من تلك الأكسية الفارغة ثم لاحظوا السرطانات تجرى إليها من البحر ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلاحظوا اختفاء تلك السرطانات الحية . فلما وصلوا إلى الشاطئ وجدوا الأكسية الفارغة المتحجرة فتصوروا أن السرطانات التى رأوها عن بعد تخرج من البحر إلى البر هى التى تحولت حجارة .

وقد وصف القزوينى على لسان من يدعى محمد بن أبى عبدالله فى غياض الصين إنساناً يصيح صياح القردة وله وبر كوبر القرد ، ويداه ينالان ساقيه إذا بسطها قائماً إلى آخر ما نشرناه آنفا ؛ وهذا خبر عادى جداً إذا حذفنا منه كلمة واحدة ، هى كلمة « إنسان » . لأنه إذا كان ذلك المخلوق بهذا الوصف القردى ، فهل هنالك ما يدعو إلى نعته بأنه إنسان ؟ لا ريب أن تقارب الشبه بين بعض القرود الكبيرة من نوع « الأوتانج » و « الغوريلا » وبين الإنسان ، جعلت ابن أبى عبد الله يصر على أن ما رأى كان إنساناً يشبه

القرد ، لاقردا قريب الشبه بالإنسان .

وحكاية النار التي يراها الناس ليلا فى بحر فارس حتى ليخيل للراكب أنه يسير فى بحر من نار ، والتى كانت موضع فزع ركاب سفينة أبى الزهر البرختى حينما انحدرت بهم السفينة إلى ما تحت سهيل ، إن هى إلا ظاهرة فوسفورية يعرفها سكان السواحل ، وعلى الأخص سواحل البحار الحارّة كالبحر الأحمر . ولو أنه لا يتاح لهم أن يروها فى أروعها كما رآها البحريون الذين يتحدث عنهم كتاب « **عجائب الهند** » وكما رأيتها بنفسى من الساعة العاشرة ليلا إلى ما بعد انتصاف ليلة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، وسفينتى تمخر عبـاب المحيط الهندى على بعد ساعات من بومباى . لقد كان البحر حولنا مضيئا إلى امتداد البصر ، وكان الضوء يشتد حيث تتكسر الأمواج ، سواء حول جبهة السفينة المحدودبة ، أو حول حبـل مقياس المسافة [التاركيتـة تسحبه السفينة وراءها ؛ ولو أن فى أفقنا تلك اللحظة جزيرة مرجانيـة من النوع الحلقى لاستطعنا أن نرى ذات المنظر الذى أفزع ركاب سفينة أبى الزهر الناخداه عنـد ما تنكست بهم سفينتهم فى لجة هابطة إلى ما تحت سهيل .

ولقد واصلت سفينتى اخـتراق ذلك البحر الفوسفورى أكثر من ساعتين بسرعة تسع عقد ، أى أنها قطعت فيه قرابة عشرين ميلا ؛ وكان الضوء قويا لدرجة أنى حاولت تصويره بآلة السينما ولو لم أنجح . ومرجع الظاهرة آلاف الملايين من المخلوقات الدقيقة العالقة بمـاء البحر كأنها طمى الأنهار ، وهى مضيئة كالحباحب فى الليل الحالك . وقد صدق الشيخ الأندلسى فى حكاية « **عجائب الهند** » إذ قال للربان والسفار حين أفقدهم الهلع رشدهم : ”هذه

جزيرة يحيط بها وتكتنفها جبال تكسر عليها الأمواج ، فتنظر فى الليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل ؛ فإذا طلعت الشمس ذهب المرأى وعاد ماء".

لنتأمل حكاية أبى الحسن بن عمر عن الحية التى رآها بعض النواخذة تعبر الخور إلى الشاطئ بسرعة البرق ، وتقصوا خبر مسيرها فوجدوا فى الناحية الأخرى من هذا الخور أجمة ومستنقع ماء وأكواماً من أنياب الفيلة ؛ وإذا بتلك الحية « كانت » تأكل الفيلة وتبقى أنيابها . الخبر فى صميمه صادق ؛ فليس من عجب أن ترى حية هائلة أو غير هائلة تعبر الخور ؛ وليس من عجب أن يرى فى الناحية الأخرى مستنقع ماء أو أجمة وبها أكوام من أنياب الفيلة . أما أن يستنتج صاحب الخبر أن الحية « كانت » تأكل الفيلة فهذا شأنه ، ولست ملزماً بتصديقه إلا إذا رأيت الفيل فى فم الحية . وأما أن يكون الخبر كثير التوارد فى كتب الجغرافيا العربية من ابن خرداذبة إلى الإدريسى والقزوينى عن حيات تبتلع الأفيال ، فلن يقدم ذلك أو يؤخر ما دمنا لم نفاجئ حية آخذة فى ابتلاع فيل ، ولم نعرف حيات يسمح لها جرمها بابتلاع الفيلة ؛ يكفينا أن نضع إصبعنا على مصدر الخبر .

وحكاية عبهرة الربان ومطياله ، أيا كانت ظواهر الترتيب والتنسيق فيها ، دليل على دقة معارف أولئك النواخذة الشجعان الذين فتحوا طريق التجارة بين بحر فارس وبحر الصين منذ القرن السادس الميلادى ، بل قبل ذلك . بمثل معارف عبهرة وأشباهه ، وقوة إدراكهم للمد والجزر والتيارات ، وعلاقة أولئك بالقمر وغيره من الأجرام ، وبالفصول وتقلُّباتها ، استطاع الفرس

والعرب والهنود والصينيون أن يذرعوا بحراً من أشق البحار على ظهر مراكبهم الصغيرة .

وقد سمع الحسن بن عمرو بحكاية السمكة التى نطحت السفينة حذاء زيلع . ثم تركت رأسها فى الثقب الذى أحدثته ، فسد الموضع حتى ليس فيه خلل . لو أن ابن عمرو تنازل عن الرأس ، أو عرف بأن السمكة كانت من نوع ذات السيف ، المسماة « إسبادون » ، وهى سمكة يمتد عظم أنفها إلى الأمام ذراعاً أو ذراعين فى شكل سيف قاطع ، وأنها طعنت المركب بأنفها فانكسر السيف وسد موضع الخلل ، لوجدنا فى متحف برلين الأقيانوغرافى ما يؤيد حكايته . فقد رأيت بذلك المتحف سنة ١٩٣٠ قطعة من جانب مركب خشبى وبها أثر طعنة سمكة الإسبادون ، سيف نافذ فى سمك الخشب ، مستقر فيه .

إن خبرتى الشخصية بالأثر الذى تتركه فى النفوس بعض ظواهر الحياة البحرية ، حتى فى عصورنا المتقدمة ، عصور العلم والعرفان ، وصلتى بالصيادين فى أكثر من ساحل ، وسماعى بأخبار البحار وسكانها من أفواههم ، بل من أفواه بعض المتعلمين ، واطلاعى على أحاديث البحار فى كتب القدماء والمحدثين ، كل هذا عودنى أن أكون أكثر تسامحا ، وأقرب فهماً لحكايات البحريين فى القرون الوسطى . وسبيلى أن لا أحكم على الأسطورة البحرية بالكذب ثم أنام هادئاً ؛ إنما أحاول أن أضع نفسى موضع من رأى الحيوان أو الظاهرة الكونية ، وأن أكيف عقلى تبعاً لعقليته فأستعرف مايعرف وأتجاهل مايجهل ، ثم أحاول أن أتصور أثر المنظر الغريب فى نفس العربى أو الفارسى من أهل القرن التاسع . ذلك مجهود ذهنى غير يسير ،

ولـكنه قليل بالنسبة لما أحصل عليـه من نتائج ، حين أكشف الواقع خلف الأساطير .

وهى وسيلة تنفعنى كثيراً فى حياتى اليومية بين الصيادين كلما أردت أن أخلص الحقيقة من شباك أوصافهم المعقدة «وعجائبهم» المستحيلة . فهذه سمكة رأسها كرأس البعير ، وعلى ظهرها ما يشبه السنام ، تنتهى زعانفها بما يشبه الخفاف . وأخرى كالخفاش أو الببغاء ، أو هى وحجر الرحى سواء .

وهذا الجندى وقد رأى شبحاً أسود كبيراً طافياً على وجه الماء أمام الساحل المصرى إلى الشرق من رشـيد ، يجرى إلى ضابطه يخبره بأنه رأى ما يظنه غواصة فى عرض البحر . لم تـكن الغواصة إلا دابة البحر الـكبرى التى نعرفها باسم «الحوت» وعرفها العرب باسمها اليونانى «بلّينة» أو البال ؛ وقد جنحت على الشاطئ وكان طولها نيفاً وسبعة عشر متراً ، وما زال هيكلها العظمِىّ قائماً فى متحف الأحياء المائية بالاسكندرية .

ولست أرى فرقاً كبيراً بين أن يفكر حارس الساحل المصرى بالغواصات فيحسب البال غواصة ، و بين العربى المنعزل عن العالم فى جزائر خوريا موريا ، أو على شاطئ حضرموت ، وقد اعتاد رؤية البال ، أن يحسب الغواصة دابة من دواب البحر . وقد يعذر الجندى المـكلف بحراسة الساحل أن يظنها غواصة ، إذ امتلأ رأسه بأوامر رؤسائه أثناء أزمة دولية أن يفتح عينيه لما قد يظهر فى البحر من مظاهر الاعتداء . ولـكن ما عذر الصحفى الذى يبرق إلى صحيفته بالقاهرة ، بعد أن استطلع رأى الخبراء بالإسكندرية ، بأنها دابة من دواب البحر الـكبرى تستطيع أن تبتلع سفينة برجالها ؟

وتلك السيدة المتعلمة التى استعادت ذكرى زيارتها للأكواريوم ، وحملتنى أمام جمع من صاحباتها تبعة تعريفها بمخلوق بحرى لا وجود له قالت عنه بأن نصفه حيوان ونصفه نبات ؟

ومن لا يذكر حـديث « التنين » الذى رآه بعض الإسكتلنديين فى « لوخ نِسْ » منذ بضع سنوات ، وراحوا يؤيدون به حكاية الحيوان البحرى الهائل الذى تتنازعه الخرافة والعلم منذ أكثر من عشرين قرناً ؟

ولقد شاهدت فى بهو فندق بعدن ذَكَراً « الدُوجُونْج » وأنثاه محنطين فى صندوق والموكل بهما يؤكد لى أنهما من إناس الماء ، أو كما قال لى بالإنجليزية Sirens ، وهى خرافة لا تزال حية بين ظهرانينا .

هذه بعض تجاربنا فى القرن العشرين ؛ فماذا يكون حال البحريين فى القرن العاشر وقبله ، يسافرون فى أغرب البحار على ظهر مراكب صغيرة ، ويرون فى كل جزيرة جديداً ، وفى كل بر عجيباً ؟

لم يكن أولئك الناس متجنين على حقائق زمنهم ، وإن كان الإنسان بطبعه فى كل زمان ومكان مولعاً بالإغراق فى التهويل ؛ فنى أغلب ما ورد على ألسنتهم ، وبقى فى كتبهم ، أساس من الواقع تحول بكثرة النقل مع قصور فى الفهم ، أو بسبب عدم القدرة على التفسير ، أو الرغبة فى حسن السرد ، إلى مجموعة من الأساطير . وقد تحدثت عن هذا التحول بصفة عامة ، لأن « حديث السندباد القديم » فى ذلك التحول ، ومجال كتابى هو فى النطاق أو « الإقليم » القائم بين الواقع والأساطير . وأستطيع الآن أن أتابع البحث فى طائفة من الأساطير تستند إلى وقائع ، وبعض وقائع لم تسلم من الأساطير .

الـــــرخ

فى الفصل الثالث والثلاثين من الكتاب الثالث لرحلة ماركو بولو ، حيث الكلام عن جزيرة مدغشقر نطالع الفقرة الآتية :

"ويقال بأن الطائر المعروف باسم « جريفون » موجود بتلك الجزائر الواغلة فى الجنوب ، حيث لا تستطيع أن تذهب السفن بسبب التيار القوى المتجه دائماً إلى الجنوب ، والذى يمنع عودتها إذا تنكبت هذا الطريق . . . وقد تحدث الأشخاص الذين رأوه إلى السيد ماركو بولو فقالوا بأنه يشبه النسر من كل الوجوه ، إلا أنه ذو جرم هائل ، فأجنحته ممتدة تغطى ثلاثين خطوة ، ويبلغ طول ريشته اثنتى عشرة خطوة . . . وهو من القوة بحيث يقبض على الفيل بين أظلافه ويحمله فى الهواء ثم يرمى به فيتكسر إرباً ، ثم ينقض الطائر « جريفون » عليه ويأكله على مهل ؛ ويطلق أهل تلك الجزائر على الطائر اسم « رخ » . . . وقد أرسل الخاقان إلى تلك الديار يسأل عن هذه الغرائب ، فأخبره من ذهبوا إلى هناك بتلك الحكاية . . . كما أخبره مبعوثوه بعجائب كثيرة عن تلك الجزائر ، وعن الطيور التى ذكرت . وقد أحضروا للخاقان — كما سمعت — ريشة من ريش ذلك الرخ ؛ وقيل بأن طولها تسعون ذراعاً ، ومحيط دائرة قصبتها شبران" .

كان هذا فى أواخر القرن الرابع عشر ، والخاقان الذى يشير إليه ماركو بولو هو قبلاى خان إمبراطور الصين .

وحكى ابن بطوطة فى منتصف القرن الرابع عشر حكاية عودته من

الصين إلى الجاوة ، وقد ركب الجُنْك من مدينة الزيتون [تسو — تونغ] وسار به عشرة أيام بريح طيبة . ثم تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر ، وأقاموا عشرة أيام لا يرون الشمس ؛ ثم دخلوا بحراً لا يعرفونه ، وجعلوا يضربون فيه أربعين يوماً لا يعرفون فى أى البحار هم . "ولما كان فى اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا إلى صوبه . فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد فى البحر جبل ، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا . فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة ، وابتهلنا إلى الله بالدعاء ، وتوسلنا بنبيّه صلى الله عليه وسلم ، ونذر التجار التصدقات الكثيرة وكتبتها لهم فى زمام بخطى ؛ وسكنت الريح بعض سكون ؛ ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ؛ ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضاً فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذى تخيلناه جبلا هو الرخ ، وإن رآنا أهلكنا ؛ وبيننا إذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ونزلنا إلى سُمُطْرَة" .

سمع ماركو بولو فى بلاط قبلاى خان إمبراطور الصين بحكاية الرخ ، وفهم ابن بطوطة من بحارة الجُنْك أن الغمامة السوداء التى ارتفعت عن الأفق بعد أن حسبوها جبلا ، كانت طائر الرخ . فإذا كان من غير الممكن الاعتماد على أقوال هذين الرحالتين فى مثل هذه الظروف ، فلا أحسب أننا واجدون

بغيتنا عند المسعودى أو الدمشقى ؛ وأقل منها لدى القزوينى وابن الوردى .

و « الجريفون » الذى سمى به ماركو بولو الرخ هو الصورة اليونانية للأسطورة التى نعالجها . فالخرافات اليونانية تصوره طائراً هائلا ، ولكن رأسه رأس أسد ؛ وهذا الوصف يباعد بين الجريفون اليونانى ، و بين الطيور الكبيرة الأخرى التى نسمع بها فى الأساطير الشرقية . فهذه طيور تشبه النسر أو العقاب . وقد حاول النمروذ الجبار الوصول إلى السماء فابتنى برجاً ارتفع به إلى خمسة آلاف ذراع ، هدمه الرب . ثم عاد إلى محاولته بأن ركب صندوقاً حملته أربعة طيور هائلة وحلقت به فى الجو بعض الوقت . ثم سقط النمروذ من حالقه على رأس جبل ماد به ميداً . وأرسل له الرب بعوضة استقرت فى يافوخه وأخذت تنمو وتسبب له صداعاً شديداً لا يسكن قليلا إلا إذا ضربت رأس النمروذ بالمطارق . وقد طال عذاب الجبار إلى أربعمائة سنة .

ولم يكن النمروذ إلا مقلداً لأحد ملوك بابل القدماء المسمى « إطانا » وقد تسنم هذا ظهر طائر كبير ، حمله فى الجو ست ساعات ، ثم تعب الطائر فهبط وألقى بالملك على الأرض فتهشم وتناثر جثمانه .

وفى إحدى الأساطير المسيحية عن ذى القرنين يطلب الإسكندر السفر إلى أرض الخلود . ويصل إلى بلاد الظلمات ، على سواحل بحر راكد لا أمل أن تتحرك فيه سفينة بسبب قلة الريح . وهناك يرى طيوراً عظيمة ، ويقدم لها اللحوم فتخطفها وتطير عبر الظلمات إلى أرض الخلود ، ثم تعود لتتلقى جرايتها مرة بعد مرة حتى استألفها ذو القرنين ، وأمر بعض جنوده الأشداء أن يمتطوا ظهورها . فعلقوا قطعاً من اللحم فى أطراف عيدان أمام

أعينها ، وفى غير متناول مناقيرها . فجعلت الطيور تطارد اللحم وهى طائرة خلال الظلمات حتى وصلت إلى أرض النور والخلود . وعاد الجنود بالبشرى إلى الإسكندر فجهز الفلك ، وذبح الذبائح ونشر لحومها فى مقدمة الفلك ، وربط الطيور فى المؤخرة تاركا لها طولاً من الحبال يسمح لها بالطيران فى اتجاه اللحم دون أن تصل إليه . وبذلك استطاع تسيير فلكه بقوة طيران الجوارح الكبرى ، عبر بحر الظلمات إلى أرض النور والخلود .

أسطورة الطير الهائل إذن واغلة فى القدم ، ويعرف باسم « بَارْيُشْرِى » فى الأساطير الإسرائيلية ، و « وِفْنج » عند الصينيين ، والعنقاء عند العرب و « سيمُورْغ » عند قدماء الفرس ، رمز الإلٰه المختفى فوق قمة قوقاز وراء سجف الظلام والنور .

والقزوينى فى « **عجائب المخلوقات** » واضح الخلط بين الرخ والعنقاء ؛ وهو يمهد لحكاية العنقاء بوصفه النسر "سيد الطيور . . . وجثته عظيمة حتى قيل إنه يحمل الفيلة" . أما العنقاء فهى أعظم الطيور جثة ، وأكبرها خلقة ، تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفار . وكان فى قديم الزمان يختطف من بيوت الناس ، فتأذوا من جناياته . إلى أن سلب عروساً مجلوة فدعا عليه حنظلة النبى ، فذهب الله به إلى بعض جزائر المحيط تحت خط الاستواء ؛ وهى جزيرة لا يصل إليها الناس ، وفيها حيوانات كثيرة كالفيل والكركند والجاموس والنمر والسباع وجوارح الطير . . . والعنقاء لا تصيد إلا فيلا أو سمكا عظيما أو تنينا . . . وعند طيرانه يسمع من ريشه صوت كهزيم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح . وحكى عن بعض التجار قال :

ضللنا الطريق فى البحر المحيط وتحيرنا ، فإذا نحن بسواد عظيم كغيم مظلم ، فذكر الملاحون أنه العنقاء ؛ فتبعناه حتى دخلنا تحت ذلك السواد ، ثم فتحنا اللسان بالدعاء له فلا يزال يمشى بنا حتى وجدنا الطريق وغاب عنا .

"وذكروا أن عمر العنقاء ألف وسبعمائة سنة ، وتتزاوج إذا أتى عليها خمسمائة سنه ؛ فإذا حان وقت بيضها يظهر بها ألم شديد ، فيأتى الذكر بماء البحر فى منقاره ، ويحقنها به فتخرج البيضة عنها ؛ فيحضن الذكر ، والأنثى تمشى وتصيد . ويفرخ البيض بمائة وخمسة وعشرين سنة . فإذا كبر الفرخ فإن كان أنثى فالعنقاء الأنثى تجمع حطباً كثيرا ، والذكر يوقد بمنقاره ناراً ويضرم ذلك الحطب ، والأنثى تدخل تلك النار وتحترق ، والفرخ يبقى زوج الذكر ؛ وإن كان الفرخ ذكراً فالعنقاء الذكر يفعل مثل ذلك ويبقى الفرخ زوج الأنثى" .

ويظهر أن القزوينى سمع أقوالاً أعجب مما ذكر عن العنقاء ، ولكنه إذ لم يجد له سنداً « من قائل يعتمد » اكتفى بهذا القدر . ونحن نرى فيه أكثر من الكفاية ، خصوصاً وأن القزوينى يعرج دون انتباه على أسطورة أخرى من أصل يونانى ذكرها ابن الفقيه فى « **مختصر كتاب البلدان** » على لسان طِمِّيَاثِ الحكيم الذى زعم فى كتاب له عن «الحيوان» أن فى المشرق طيراً يقال له «بنجس» Phénix فى مدينة يقال لها مدينة الشمس ، قال فيطير هذا الطائر ويجمع بمنقاره عيدان الدارصينى ثم يضطرب عليها بجناحيه حتى يشعل ناراً من تلك العيدان فتأكله حتى يصير رمادا ، ثم ينشؤ من ذلك الرماد دودة فلا تزال تنمو وتزيد حتى تكون طيراً كما كان ، وذلك فى خمسمائة عام .

ويغرق عمر بن الوردى فى التهويل كعادته فيقول : "وهذا الرخ طير عظيم مهول الهيئة ، حتى قيل إن طول جناحه الواحد نحو عشرة آلاف باع" أى حوالى ثمانية عشر كيلو مترا ؛ ومعنى هذا أنه فى طيرانه يغطى بين جناحيه من الأرض أكثر من ستة وثلاثين كيلو مترا .

أما الدمشقى فى « نخبة الدهر » فهو أقرب فى وصفه إلى ماجاء فى رحلة ماركو بولو ، إذ يذكر فى عرض وصف جزيرة القُمْر [مدغشقر] "ويقال إن الطائر المسمى الرخ بهما ، يرى طائراً فى الجو الأعلى ؛ ويجدون فى شرق الجزيرة من ريشه ، تسقط فيتخذونها أوعية للماء . وسعة القصبة أكثر من شبر ونصف ، وطولها نحو القامة ، سوداء ؛ وسمك جوفها غليظ بغلظ إصبع ويصل هذا الريش عند التجار يسمونه ريش الرخ" .

وقد عرفنا بعض ما جاء بكتاب « عجائب الهند » عن الرخ وريشه ، وهو لا يخرج كثيراً عن طرائف القزوينى ، ولا عن الصورة المتواضعة التى صورها ابن الوردى .

وردّ أبو الحسن المسعودى على كل هـذا بكلمة جديرة بالبقاء ، إذ قال تعليقاً على أحاديث العنقاء والنسناس "وليس فى خلقتها ما يصعب على قدرة الخالق جل وعز ، ولـكننا نأبى أن نصدقها ما دامت لم تتكشف لأعيننا ، ولم نسمع بها ممن نعتد بكلامه" .

لم يمنع هذا علماء القرن التاسع عشر من البحث عن مصدر الأسطورة . فقد سمع جوفروا سانتلير أن أهل مدغشقر يقطعون بوجود الطائر الـكبير الذى عثر الجيولوجيون على بقاياه الحفرية ، وبيضه المتحجر ، وأطلقوا عليه اسم

Aepyornis باعتباره طائراً منقرضاً . وبين أن تكون هذه الطيور قد انقرضت في العصور الجيولوجية ، أو هي ما تزال باقية لم يرها إلا سكان مدغشقر الأصليون ، مجال واسع للأسطورة ، بل للخرافة .

وتحدث الدكتور جون كيرك في أواخر القرن الماضي إلى سلطان زنجبار السيد برغش في شأن الرخ ، وكتب بحديثه إلى الكولونيل يول Yule مترجم رحلة ماركو بولو إلى الإنجليزية : قال بأنه ضحك عندما جاء ذكر الطائر العظيم ، ولكن السلطان بدت عليه علائم الجد وأكد اعتقاده بأن حديث هذا الطير ليس حديث خرافة ، وأنه يغشى أرض القارة في مقابل زنجبار فيلقي بظله الهائل فوق الأودية ، وقد يرمي بصخور كبيرة . ولم يدع السلطان بأنه رآه رأى العين "ولكن عنده من الأسباب ما يجعله واثقاً من صحة تلك الأخبار"

وصف العلماء اثني عشر نوعاً من البقايا التي عثروا عليها للطائر المنقرض *Aepyornis* بجزيرة مدغشقر . ويبدو أن أكثر قامات هذه الطيور ارتفاعاً لم تتعد مترين إلا بقليل ، وكانت طيورا ذات سيقان غليظة يظن جوفروا سانتلير G. Saint-Hilaire أنها من قبيل النعام . بينما عدها الأستاذ بيانكوني ، وكان من أكثر علماء التاريخ الطبيعي عناية بأسطورة الرخ ، من نوع العقبان . وأحدث الآراء أن الـ *Aepyornis* كان بدائي الأجنحة ، صغير عظم الصدر . وقد وجد بعض بيضه المتحجر وهو أكبر ما عرف من بيض الطيور حتى الآن . وربما كان هذا البيض مصدر الأسطورة ، ولو أن لازمة الأساطير من المغالاة تعدت كل الحدود في التهويل . لأن البيض الذي عثر عليه في الحفريات لا يتعدى ثلاثة وثلاثين سنتيمترا في الطول وأربعة وعشرين سنتيمترا في العرض ؛ وقدرت

سعة الواحدة منـه تسعة لترات . ويقطع العلماء بانقراض « الإبيرونس » رغم إصرار السكان الأصليين على أنهم رأوه . وربما كان انقراضه خلال القرن السابع عشر ؛ وفى هذا ما يعزز أساس أسطورة القرون الوسطى من الواقع .

وأكبر الطيور الحيـة فى عصرنا الحاضر نوع من الجوارح اسمه « الـكوندور » *Vultur gryphus* وهو يسكن أعالى جبال الأنديس قرب الشاطئ الغربى من أمريكا الجنوبية . وأكبر ما عرف منه طير عرض المسافة بين طرفى جناحيه الممتدين أربعة أمتار ونصف . وقد وصف فون هومبولت von Humboldt قدرته على إنهاك فريسته من ذوات الأربع ، وإفزاعها حتى تتردى فى الهوات السحيقة فينقض عليها ليفترسها .

وقيس عقاب أصماه أحد أعضاء البعثة الفرنسية فى مصر أيام حملة بونابرت ، وكان القياس بحضور العلماء مُونْج و بِرْتولِّيه والجراح لاريه ، فكان عرض المسافة بين الجناحين الممدودين يقرب من خمسة أمتار .

ولو قد صدقنا الأب بوليفار وما نقله عن الرحالة تيفنو لوجدنا فى وصفه ما يقارب بين الأسطورة والواقع . قال : "والطائر كوندور فى أكبر جرمه رآه البرتغاليون أثناء حروبهم ضد مملـكة سفالة وكوامة وبلاد الـكفرة . . . ورأيت فى بعض النواحى ريشة جناح هذا الطائر الضخم ، ولو أنى لم أر الطائر بنفسى . وكان طول الريشة ثمانية وعشرين شبراً . وعرضها ثلاثة أشبار ، وسمكها كاستدارة زند رجل وسط . . . وحدّث من رأى الطير أنه فى جرمه أكبر من فيلين . . . وأنه يرتفع إلى ما فوق السحاب بسرعة عجيبة حتى لا يكاد الرائى يدرك أنه يحرك أجنحته ، وهو فى شكله كالنسر" .

وعيب تيقنو أنه هو الآخر عرف أمر الرخ بالسماع ، وإن كان قد رأى شيئاً قيل له بأنه ريشة ذلك الطير . كما أكد غيره من الرحالين أن قصبة كبيرة كانت تباع فى أسواق عدن باسم « ريشة الرخ » ويغلب أن تكون قصبة من هذا النوع أرسلت إلى بلاط قبلاى خان بالصين ، وهى التى أشار إليها ماركو بولو .

وإذا كانت أسطورة الرخ قائمة على مغالاة الرحالين ، فإن الريشة التى تنسب إليه لم تكن خرافة ما دامت قد رؤيت رأى العين . ويظن ألفريد جرانديديه مؤلف « التاريخ الجغرافى لمدغشقر » فى أواخر القرن الماضى أن مايباع فى اليمن على أنه ريش الرخ ، ويستعمل دنًّا للماء ، هو فى الحقيقة قصبة نوع من الخيزران . وأيد الكولونيل يول هذا التفسير وعرف الخيزران بأنه من نوع *Sagus ruphia* أو *Urania speciosa* .

هذا مجمل ما عرفناه عن أسطورة الرخ . وهى تستند إلى بعض الوقائع وإن تغلب عليها العنصر الخرافى نتيجة المبالغة ، فهى مَثَلٌ لما ورد فى كتب الجغرافيا العربية ، وحددنا له إقليما وهميا قائماً بين الواقع والأساطير .

التنـــين

جاء بكتاب « **عجائب الهند** » أن فى البحر حيات عظيمة هائلة يقال لها التّنّين . إذا مر السحاب فى كبد الشتاء على وجه الماء خرج التنين من الماء ودخل فيه مطمئناً إلى برودته لما يجد فى البحر من حرارة الماء ، إذ أن ماء البحر فى الشتاء يسخن كالمرجل . وتهب الرياح على وجه الماء فترفع السحاب عن سطح البحر . ويستكن التنين فى السحب التى تتراكم وتسير من أفق إلى أفق ، فإذا استفرغت ما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء ، وتفرقت وقطعتها الريح ؛ فلا يجد التنين ما يتحامل عليه فيسقط إما فى البحر وإما فى البر . فإذا أراد الله بقوم شراً أسقطه فى أرضهم فيبتلع جمالهم وخيلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم ؛ ويبقى حتى لا يجد شيئاً يأكله فيموت أو يهلكه الله .

ويزعم ابن شهريار أن بعض التجار والربابنة أبصروه غير مرة يعبر على رؤوسهم أسود ممدوداً فى السحب ، كلما تراخت هبط إلى أسفلها ورسب . وربما تدلى طرف ذنبه فى الهواء ، فإذا أحس ببرد الهواء زج بنفسه وتحامل فى السحاب وغاب عن الأنظار .

ويصف عمر بن الوردى التنين بأنه طويل كالنخلة السحوق ، أحمر العينين ، كريه المنظر ، له أنياب كأسنة الرماح ؛ وأكثر ما يظهر فى بحر الروم وبحر الخزر [قزوين] . "ذكروا أنه يرتفع من هذا البحر تنين عظيم يشبه السحاب الأسود ، وينظر إليه الناس . وزعموا أنه دابة عظيمة فى البحر تؤذى دوابه فيبعث الله عليها سحابا من سحب قدرته فيحملها ويخرجها من البحر ؛ وهى

صفة حية سوداء لايمر ذنبها على شىء من الأبنية العظام إلا سحقته وهدمته ، ولا من الأشجار إلا هدتها . وربما تنفست فأحرقت الأشجار والنباتات . قال فيلقيها السحاب فى الجزائر التى بها ياجوج وماجوج فتكون لهم غذاء " .

ويشير القزوينى فى « آثار البلاد » إلى ماجرى من أمر عجيب بقرية اسمها كلز من أعمال حلب ، فى أواخر ربيع الأول سنة تسع عشرة وستمائة هجرية . وكتب عامل كلز إلى حلب كتابا بصحة ذلك وهو أنهم رأوا هناك تنيناً عظيما ، غليظا كالمنارة ، ينساب على الأرض والنار تخرج من فيه ودبره ؛ فما مر على شىء إلا أحرقه . حتى أتلفت مزارع كثيرة وأشجار عديدة . وصادف فى طريقه بيوت التركمان وحرقاهاتهم فأحرقها بما فيها من الناس والمواشى . ومضى على هذا المنوال عشرة فراسخ ، والناس يشاهدونه من البعد حتى أغاث الله أهل تلك النواحى بسحابة أقبلت من البحر وتدلت حتى اشتملت عليه ، ورفعته نحو السماء والناس يشاهدون ذلك حتى غاب عن أعينهم .

ثم يضيف القزوينى على هذا الوصف ، دون أن تختلج عيناه أو يبتسم " وقد لف التنين ذنبه على كلب ، والكلب ينبح فى الهواء " !

ويصف التنين فى « عجائب المخلوقات » بعظم الخلقة وهول المنظر وطول الجثة وعرضها ، كبير الرأس ، براق العينين ، واسع الفم والجوف ، كثير الأسنان ؛ يخافه حيوان البر والبحر ، إذا تحرك هاج البحر وماج . " والتنين يكون أول أمره حية متمردة تأكل من دواب البحر ما ترى . فإذا عظم فسادها بعث الله تعالى ملكا يحتملها ويلقيها فى البحر ، فتفعل بدواب البحر ما كانت تفعله بدواب البر ، ويعظم جسمها . فيبعث الله تعالى ملكا يحملها

ويلقيها إلى يأجوج ومأجوج . وروى عن بعضهم أنه رأى تنيناً سقط نوجد طوله فرسخين ، ولونه مثل لون النمر ، مفلساً كفلوس السمك ؛ وله جناحان عظيمان على هيئة جناح السمك ، ورأس مثل التل العظيم كرأس الإنسان ، وأذنان طويلتان ، وعينان مدورتان كبيرتان جداً ، ويتشعب من عنقه ستة أعناق طوال ، كل عنق نحو عشرين ذراعا ، على كل عنق رأس كرأس الحية".

وعلق ياقوت الحموى على هـذا ، وقد نقله فى « معجم البلدان » :
"قلت هـذه صفة فاسدة لأنه قال أولا رأسه كرأسِ إنسان ، ثم قال ستة رءوس كرءوس الحية . وقد نقلته كما وجدته ، ولـكن تركه أولى" .

حقاً كان تركه أولى بياقوت الحموى ، الكاتب المحقق . وقد حسب أنه قضى على الخرافة بهذا التدليل . أكان صعباً على مروجي الأساطير أن يردوا على اعتراضه بأن للتنين سبعة رءوس واحدة كرأس الإنسان ، وستة كرءوس الحيات ؟ أى حرج عليهم بعد أن أخرجوا النار من فم التنين ودبره ، وصوروه آنا حية من حيات البر ، وآنا آخر ثعبانا من ثعابين البحر تحمله الملائكة إلى يأجوج ومأجوج ؟

وكما انتهى الحموى فى تعليقه بالتشكك ، فقد بدأ حديثه عن التنين متحرجا . قال : "وأما ذكر التنين فرأينا منه بنواحى حلب ما ذكرته فى ترجمة كلز ، وجعلته حجة على ما أورده هاهنا من خبره ، وشجعنى على كتابته . فإن الإنسان شديد التكذيب بخبر ما لم ير مثله" . وبعد أن يقص من أمر التنين ما عرفنا يقول : "وحدث المعلّى بن هلال الكوفى قال : كنت بالمصيصة فسمعتهم يتحدثون أن البحر ربما مكث أياما وليالى تصطفق

أمواجه ، ويسمع له دوى شديد . فيقولون ما هذا إلا لشيء آذى دواب البحر فهى تضج إلى الله تعالى . قال فتقبل سحابة حتى تغيب فى البحر ، ثم تقبل أخرى حتى عد سبع سحابات . ثم ترتفع جميعاً فى السماء وقد حملن شيئاً يرون أنه التنين حتى يغيب عنا ونحن ننظر إليه يضطرب فيها . فربما وقع فى البحر فتعود السحابة إلى البحر بالرعد الهائل الشديد والبرق العظيم حتى تغوص فى البحر وتستخرجه ثانية ، فتحمله . وربما اجتاز وهو فى السحاب ، وذنبه خارج عنها ، بالشجر العادىّ ، والبناء الشامخ ، فيضربه بذنبه فيهدم البناء من أصله ، ويقلع الشجر بعروقه . ولقد احتمله من بحر أنطاكية فضرب بذنبه بضعة عشر برجا من أبراج سورها فرمى بها" .

وفى أخبار الفرس — كما ورد « بمختصر البلدان » لابن الفقيه — أن أنوشروان لما فرغ من سد ثغر بَلَنْجَر ، وقيد الفند فى البحر وأحكمه ، سر بذلك سروراً . فأمر أن ينصب له على الفند سرير من ذهب . ثم رقى إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يارب الأرباب ، ألهمتنى سد هـذا الثغر ، وقمع العدو ، فلك الحمد . فأحسن مثوبتى ، ورد غربتى . ثم ركع وسجد ثم استوى واستلقى على فراشه وأغفى إغفاءة . فطلع طالع من البحر سد الأفق لطوله ، وارتفعت معه غيامة سترت الضوء ، وأهوى نحو الفند . فبادر الأساورة إلى قسيهم ، وانتبه الملك فزعا فقال ما شأنكم ، فقيل له . فقال : أمسكوا عن سلاحكم ، فلم يكن الله عزوجل ليلهمنى الشخوص من وطنى اثنى عشر حولا ، حتى أسد ثغراً يكون مرفقاً لعباده ، وراحة لأهل أقليمه ، ثم يسلط علىّ بهيمة من بهائم البحر . فتنحى الأساورة وأقبل الطالع نحو الفند حتى علاه ثم قال

له : أيها الملك ! أنا ساكن من سكان هـذا البحر . وقد رأيت هذا الثغر مسدوداً سبع مرات ، وخراباً سبع مرات ؛ وأمر الله جل وعز إلينا معاشر سكان البحر أن ملـكا عصره عصرك ، وصورته صورتك ، يبعثه الله يسد هذا الثغر ، فيسده إلى الأبد . وأنت ذلك الملك . فأحسن الله مثوبتك ، وعلى البر معونتك ، وأطال مدتك . وسكن يوم الفزع الأكبر روعتك . ثم غاص فى البحر .

هذا بعض ما جاء فى كتب الجغرافيا العربيـة عن التنين . وبحث الأسطورة فيه كثير من الإغراء ولاشك . وأول ما يتجه إليه الباحث العصرى هو المقارنة بين التنين العربى ، وبين ما حكى الملاحون المستحدثون عن أفعوان البحر الـكبير Great Sea-Serpent . وهذا موضوع شائك لم يصل فيه العلم إلا إلى نتائج سلبية ، وما زال الناس بين مصدق ومكذب لأمر الحيوان البحرى الغريب ، الذى يدعى بعض البحريين حتى العصور الحديثة أنهم رأوه ؛ ومنهم من سجل وصفه فى أزمة السفينة ، وعزز الوصف برسم كروكى . وكذبتهم فيه أغلبية . ورفض العلم أن يعترف بحكايات محبوكة ، لا سند لها من الواقع . لأنه ما لم تتح للعلماء فرصة رؤية كل أو بعض هـذا الحيوان ، لايمكن أن يطلب إليهم تصديق حكاية أفعوان هائل ، رآه البعض يتلوى على سطح الماء ، ورأى البعض الآخر رأسه وزعانفه ؛ وغيرهم لم ير له زعانف ، ولو أنه لاحظ فلوسه كفلوس السمك . وليس مما يسهل قبوله أن لا يعثر على أثر « الأفعوان البحرى الـكبير » بعد هذه القرون الطويلة ، وبعد كل ما حققته مباحث البحار على يد البعثات العلمية . ولم يكن رفض العلماء

للأسطورة كافياً للقضاء عليها . فهى ترفع رأسها بين الفينة والفينة ، وتلتوى على الناس من جديد . حتى يهدئ العلماء الخواطر ، ويمزقوا الأسطورة بالبراهين تمزيقاً . ولكنها تعود إلى الظهور كرأس « الهيدرا » ذلك الحيوان الخرافى الذى قضى عليه هرقليس ، وكان كلما قطع رأساً من رءوسه نبتت له رأسان بدله . وآخر ما ظهر من أسطورة التنين كان فى بحيرة من بحيرات اسكتلندا منذ بضع سنوات حين ادعى أحد الناس أو نفر من الناس أنهم رأوا الأفعوان البحرى الكبير فى « لوخ نِسْ » .

لست أرضى أن أتعرض لهذا الموضوع الشائك ، وأنا أقرب ميلا إلى اعتبار خرافة الأفعوان البحرى الكبير مظهراً من مظاهر هستيريا الجماهير . ولايتعدى الأمر أن يكون الرحالون قد رأوا ذراعا من أذرعة أخطبوط كبير يتلوى على سطح الماء فحسبوه أفعى . وقد جربت بنفسى كيف يختلط الأمر على أشد الناس علماً ، حينما لايملكون أكثر من النظرة العابرة عن بعد على بعض الأحياء البحرية ، لايبدو منها فى الماء إلا جزء ضئيل . كنت مسافراً على ظهر سفينة علمية جهزت للكشف العلمى بالبحار ، وحولى فريق من شباب العلماء ، يرأسنا عالم كهل واسع الشهرة فى بحوث المحيط الهندى . عبرت سفينتنا بحيوان ظهر لنا بعضه على وجه الماء قرب الغروب . وأثبتت بعد ذلك بقليل ما وعته الذاكرة منه فى رسم كروكى . وأطلق عليه أحدنا بضع رصاصات . وحاولنا أن نقترب منه وهو يبتعد . وتجادلنا فلم يتفق أحدنا مع الآخر على ما يكون ذلك الحيوان . فمنا من قال بأنه نوع من البال . ومنا من حسبه قرشاً ما . وظلت صورة الحيوان منطبعة فى رأسى أكثر مما هى فى

الرسم الكروكى حتى أتيحت لى فرصة فحص سمكة كبيرة جنحت على شاطئ قناة السويس عند موضع اسمه كبريت . وما إن وقع نظرى على رأسها حتى عرفت غريمنا فى المحيط الهندى . فهو ذلك السمك الغضروفى النادر ، أكبر الأسماك طرا ، المعروف عند الإخصائيين باسم « القرش القيطسى » . وهذا الاسم فى ذاته يعد خلاصة لجدالنا على ظهر السفينة العلمية . فالقيطس *Cetus* هو ما نسميه فى العصور الحديثة « الحوت » ، وما عرفه العرب باسم الفال والبال والوال أو الأوال أو البلينة *Balæna* ، والحيوان الذى عبرنا به فى المحيط الهندى ، واشتغلت بتشريح شبيه له قرب السويس ، سمك غضروفى بعينه من نوع القرش اصطلح على تسميته بالقرش القيطسى Whale-Shark لتشابه سطحى بين فتحة فيه وفتحة فم بعض أنواع البال .

ومن العبث أيضاً أن أقارن بين أسطورة التنين العربية ، وبين الأساطير الأجنبية المُشَابِهة عن « الدراجون » وما إليـه من الحيوانات الخرافية التى تملأ الأساطير اليونانية والإسكندنافية والجرمانية ؛ مع أن الوصف الذى وصف به القزوينى تنين كلز هو أقرب الأوصاف إلى التنين الذى يظهر على المسرح فى رواية « سيجفريد » إحدى حلقات الرباعية الفاجنرية أو إلى « الدراجون » الذى يصوره المصورون مصروعا تحت أقدام مارجرجس ، أو آسرا للجميلة أندرُمِيدا ، أوحارساً للجزة الذهبية بأرض كُولخِيدا فى أسطورة الأرجُونُوتية . من العبث المقارنة بين الأسطورة العربية وبين تلك الأساطير ، لأن ذلك لايقدم ولا يؤخر خطوة .

إنما أنا أتابع بحثى فى أسطورة التنين العربية ، ناهجاً النهج المستقيم الذى

حددته ، وهو أن أبدأ بعدم تكذيب من أشاعوا الأسطورة ؛ ثم أبحث فيما خبرت من أمر البحر بنفسى ، وفيما قرأت من أخبار البحار ، عما يمكن أن يكشف لى عن أصل الأسطورة العجيبة . أى أننى أقطع الطريق عائداً من الأسطورة إلى أساسها فى الواقع .

أما أن أبحث عن أصل الأسطورة فى الأحياء البحرية التى رأيتها أو قرأت عنها ، فهذا أيضاً عبث لا طائل تحته . لأنه ليس فى أحياء البسيطة اليوم ، ولا فيما عرفناه وشهدنا آثاره من الحيوانات التى انقرضت فى العصور الجيولوجية الخالية ، ما يمكن أن يقربنا من هذا المخلوق العجيب الذى جمع بين الزواحف والطيور والأسماك ، وله مع ذلك رأس إنسان . ثم هو يقذف بالنار من خلف ومن قدام .

ولقد اتجه انتباهى أول ما اتجه إلى مسألة السحاب فى الأسطورة ، وإلى أن ظهور التنين مصحوب باصطفاق الأمواج وهياج البحر ، وهدم المبانى واقتلاع الأشجار . فمن البين أن الأمر خاص بظاهرة من الظواهر البحرية الجوية تعرف باسم « نافورة الماء » وهى ظاهرة رياح إعصارية حلزونية يعرف الكثير صورة مصغرة لها فى الصحراء باسم « ريح العفريت » حينما يرون عموداً من الغبار أو الرمال يصعد إلى الجو فى حركة دائرية سريعة . وقد رأى خيالنا فى هذه الظاهرة الصحراوية عفريتاً من الجن يطلق ريحه على تلك الوتيرة . كما خلق الخيال العربى من ظاهرة « نافورة الماء » تنيناً .

« نافورة الماء » إعصار فوق البحر ينشأ عن تفاعل ريحين متضادتين تدوران حول نطاق جوى منخفض الضغط ، منخفض الحرارة . ويتكاثف

بخار الماء فى هذا النطاق فيبدو فى صورة عمود يصل بين البحر والسحاب . وقد ينقطع العمود فى موضع وسط بين السحاب وسطح البحر ، بسبب جفاف الماء فى ذلك الموضع ، بالنسبة لرطوبة المواضع القريبة من السحاب ، أو القائمة فوق سطح البحر مباشرة . « نافورة الماء » إذن دوامة ، أو دُرْدُور هوائى . تبلغ سرعة الرياح الدائرة فيها درجة شديدة جداً . ويحدث أن تمتص الرياح فى دورانها بعض الماء من سطح البحر .

شاهدت هذه الظاهرة مرة فى البحر الأبيض المتوسط وأكثر من مرة فى المحيط الهندى . وكانت تبدو على بعد سحيق منى . كنت ألاحظ أول الأمر عند خط الأفق خطاً موازياً له هو قاع سحاب كثيف منخفض . ثم يَتَدَلَّى من نطاق السحب بروز كالذنب ويتجه نحو سطح البحر . وقد يظهر حينئذ بروز مقابل يرتفع من سطح البحر . وكأننا حيال ظاهرة «استلكتيتية» من السحاب و « استلجميتية » من البحر . ويلتقى العمودان . ثم ينفصلان بعد فترة من الزمن تطول أو تقصر تبعاً لقوة العوامل المؤثرة . ثم يعود خط الأفق البحرى مستقيما ، بينما يبقى الذنب السحابى مدة وهو ينكمش مرتفعاً ليتلاشى فى مجموعة السحاب المطبق .

وقد وصف برجيه Berget فى « دروس الأوقيانوغرافيا الطبيعية » نافورة الماء بقوله :

”وثمت نوع من الأعاصير الدائرة تسبب النكبات . وهى على عكس السيكلون ، تحدث فى كل المناطق وجميع الأوقات . تلك هى « النافورات » تظهر فوق البحر وفوق الأرض ، فهى برية وبحرية . وكان حظ النافورة

البحرية من الفحص والدراسة أكثر من حظ النافورة البرية ، فهى موضوع دراسة البحريين منذ أكثر من قرنين ، وقد دونوا ملاحظات عنها عديدة بقدر ما هى دقيقة .

" تنذر النافورة البحرية أن تظهر فى أطباق الجو السفلى سحابة من تلك السحابات السوداء الداكنة التى تعرف باسم *Cumulo-Nimbus* ويبدو كأن بروزاً أو جيباً يتدلى رويداً من أسفلها نحو سطح البحر . فإذا بلغ مدى كافياً رؤى ماء البحر وقد بدأ يغلى فى الموضع المقابل للجيب أو البروز . ثم يرتفع ماء البحر فى كتلة مزبدة ، على شكل بروز أو ورم مائى فى اتجاه الجيب الغيمى ... ثم يحدث أن يلتقى بروز الماء ببروز السحاب . فإذا اجتمعا اكتمل تكوّن العمود الذى يتخذ بقليل من الوضوح شكلا حلزونيا . وتجرى فى داخل هذا النطاق حركة مص شديدة جداً ؛ وهنا تعتبر النافورة البحرية متكوّنة .

" فتبدأ فى عملها بهزيم رهيب ، وتسحب نحو الغمام كتلة الماء والهواء فى حركة مص لها صرير معلوم . ثم هى تتحرك بحركة السحاب الذى تكونت منه ، وفى اتجاه تحركه . أما استدارة الرياح فى صعودها حلزونيا بالعمود المائى فحركتها سريعة متناهية فى الشدة . ويلاحظ أنه لما كانت السحابة المكونة للنافورة عاصفية فى أغلب الأحيان ، فان النافورة تكون مصحوبة على وجه عام بظواهر إعصارية معتادة كالبرق والرعد والبرد .

" فالنافورات ظواهر خطيرة تتميز باضطراب عنيف جداً لكتل الهواء فى نطاق لا يزيد قطره عن مائة وخمسين إلى مائتى وخمسين متراً على الأقصى متخذاً الشكل الحلزونى . ومع أنها مخيفة جداً بالولايات المتحدة فإن قطرها

هناك لا يتعدى كيلو متراً واحداً على الإطلاق . .

"ومع أن النافورات قد تحدث فى أى الأوقات وأى المواضع ، فإن الغالب حدوثها فى الموسم الحار . ومع ذلك فقد حدثت بالولايات المتحدة فى آخر الشتاء أو فى الربيع . . . وطابع النافورة الأساسى هو فجائيتها . وعلامتها انخفاض فجائى فى الضغط الجوى من السرعة والشدة بحيث تولد حركة التخلخل الفجائى انفجاراً داخليا فى الأجسام ؛ يفسر هذا ما تحدثه النافورة فى مرورها ، فتتطاير ألواح النوافذ ، وتنتزع أسقف المنازل . بل شوهدت القطع الخشبية التى ترصف بها الشوارع تتطاير فى الهواء كأن الشوارع ألغمت ، وذلك أثناء النافورة البرية التى حدثت فى إحدى ضواحى باريس سنة ١٨٩٧ . وتقتلع النافورة الأشجار ، بل وترفعها فى حركتها الدورية لتلقى بها بعيداً . وقد اقتلعت فى جبال الجورا بفرنسا سنة ١٨٩٠ منازل صغيرة" .

أما وقد عرفنا ما هى « النافورة البحرية » فلم يبق إلا أن نعود إلى القرون الوسطى لنرى كيف وصف ملاحو العرب تلك الظاهرة وصف من رآها رأى العين ، وإنما هم هواة المعارف البحرية والمولعون بالغريب المعجب ، المصدقون لكل حديث مهما كان مصدره ، نسوا أو تناسوا ، وربما جهلوا أو تجاهلوا المعارف الأصلية حتى لم يبق من نافورة الماء سوى قول ابن الوردى :

"والتنين كالنخلة السحوق ، أحمر العينين ، له أنياب كأسنة الرماح" .

فهذا سليمان التاجر فى سنة ٨٥١ م يقول فى عرض كلامه عن بحر هِرْكَند وبحر شَلَاهِط :

"وربما رؤى فى هذا البحر سحاب أبيض يظل المركب فيشرع منه

لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة . فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته . ثم يرتفع ذلك السحاب مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدرى أيستق السحاب من البحر أم كيف هذا" .

ولا يبعد أن يكون المسعودى فى القرن العاشر ناقلا عن هذه الفقرة إذ يقول :

"وذكر لى جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا فى هذا البحر سحاباً أبيض قطعاً صغاراً يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر . فإذا اتصل به غلا البحر لذلك وارتفعت منه زوابع عظيمة لا تمر زوبعة بشىء إلا أتلفته ، ويمطرون عقب ذلك مطراً سهكا فيه أنواع من قذى البحر" .

ويصف بحر الشام قائلا :

"وكذلك بحر الشام فالتنانين فيه كثيرة ، وأكبر ما تكون فيه مما يلى بلاد طرابلس واللاذقية والجبل الأقرع من أعمال أنطاكية . وليس تعرف التنانين فى البحر الحبشى ولا فى شىء من خلجانه . وأكثر ما يظهر فيما يلى بحر أقيانس . فقد اختلف الناس فى التنين ، فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر ، وتظهر إلى النسيم وهو الجو ، فتحلق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار وهشيم الأرض والنبات ، ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء ، فيتوهم الناس أنها حيات سود قد ظهرت من البحر ، لسواد السحاب ، وذهاب الضوء ، وترادف الرياح . ومنهم من رأى أنها دواب تكون فى قعر البحر فتعظم وتؤذى دواب البحر ، فيبعث الله تعالى بالسحاب والملائكة فتخرجها ؛ وإن ذلك على صورة الحية السوداء

لها بريق وبصيص لا يمر ذنبها بشيء إلا أتى عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل . وربما تَنَفَّسَ فتحرق الشجر الكبير ، فيلقيها السحاب فى بلد يأجوج ومأجوج ، ويمطر عليها البرد فيقتلها ، ومنها يتغذى يأجوج ومأجوج وقد ذكر فى التنين غير ما وصفنا . وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أموراً فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها من أنها حيات سود تكون فى الصحارى والجبال ، فتجذبها السيول ومياه الأمطار فتقذفها فى البحر فتتغذى من دواب البحار فتعظم أجسامها وتطول أعمارها . فإذا انتهى الواحد منها فى العمر خمسمائة سنة غلب على دواب البحر . . . وأن منها سوداً وبيضاً على قدر الحية فى نفسها . والفرس لا تنكر كون التنين فى البحر ، وتزعم أن له رءوساً سبعة وتسميه الأَجْدُهَان ، وتضرب به فى أخبارها الأمثال . **والله أعلم بكيفية ما ذكرنا** ، والأخبار فى هذه المعانى تأباها كثير من النفوس ، ولا تقبلها كثير من العقول ، لم نعرض لإيرادها".

فبينما اكتفى التاجر سليمان بوصف ما رأى ، وكان من أقدم وأصدق من وصف النافورة البحرية ، جاء المسعودى ونقل عن النواخذة — وربما عن سليمان نفسه — هذا الوصف البديع . ثم اضطر إلى نقل أسطورة التنين باعتبارها شيئاً آخر غير الظاهرة المتقدمة . وكانت الأسطورة ولاشك متداولة فى عصره ، نقلا عن الأساطير الفارسية ؛ فذكرها وحاول تفسيرها التفسير المعقول كظاهرة فى ذاتها ، لا علاقة لها بما سمعه من النواخذة . ثم حمل نفسه على نقل تفسير أصحاب « السير والقصص » لها ؛ وخامره القلق بعد ذلك ، فلم يرض أن يترك الموضوع دون أن يثبت صورة من تشككه فى صحته ،

ولو صورة غير حاسمة . والمسعودى مؤرخ وجغرافى واسع الاطلاع ، بحث وسافر وقرأ وكتب كثيراً ، ولكنه كالغالبية من أهل عصره ضعيف ملكة النقد والمقارنة ، قوى ملكة جمع المعارف وحشدها دون تمييز بين غثها وسمينها ، يعنى بالتسجيل أكثر مما يعنى بتحقيق ما يسجل . وهو معترف كامل الاعتراف بذلك . فهذا الرجل الذى راح يفسر المد والجزر تفسيراً علمياً فيبحث فى أثر القمر ثم الشمس ثم الرياح ، ويناقش الآراء الواردة فى أثر كل ، لايتردد بعد كل هذا الجهد العلمى فى أن ينقل أخبار « أهل السير وأصحاب القصص » عن المَلَك الموكل بالبحار يضع عقبه — وقيل إبهامه — فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر فيكون منه المد . ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء إلى مركزه ويطلب قعره فيكون الجزر . وإن احترامنا لمعارف هذا الرجل الإنسيكلوبيدية يجعلنا نلتمس له كثيراً من العذر فى موقفه ، وعلى الأخص حين يسمح للشك بأن يتطرق إلى نفسه ويظهر فى كتبه عند نقل أمثال هذه الأخبار . فهو القائل بصدد أسطورة « الملك الموكل بالبحار » :

"وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ، ولا واجب . وهو داخل فى حيز الممكن والجائز . لأن طريقه فى النقل طريق الأفراد والآحاد ، ولم يرد مورد التوارد والاستفاضة كالأخبار الموجبة للعلم ، والعلل القاطعة للعذر فى النقل . فإن قارنها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها . . . وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وضعنا آنفا ما قال الناس فى ذلك ليعلم من قرأ هذا الكتاب أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه فيه وغيره من كتبنا ، ولم يغرب عنا فهم ما قاله الناس فى سائر ما ذكرنا" .

وجاء الشريف الإدريسى فى القرن الثانى عشر ، فوصف فى موسوعته

الجغرافية « **نزهة المشتاق** » الظاهرة البحرية وصفاً واضح النقل عن سليمان .

أما سلوك الدمشقي حيال التنين فكان محيراً حقاً ، إلا أن يكون النساخ قد حذفوا شيئاً من كلامه . فهو قائل في « وصف بحر طرابزندة ، أو بحر الروس ويسمى بُنْطُس والأسود » :

" وكثيراً ما يظهر بهذا البحر التنين **الذي يزعم منه لا علم عنده** أنه حيوان حي ، وأنه تنقله الملائكة من البحر إلى جهنم عند عتوه وطغيانه على دواب البحر . وأنه يكون في جهنم من جملة حياتها وأنواع العذاب فيها . وزعم آخرون أن التنانين دواب تكون في قعر البحر فتعظم وتؤذى ما فيه من دابة . . . . [إلى آخر ما نقلناه عن كتب أخرى] . . . . والتنين يوجد في البحر الرومى وبحر الخزر وبحر وَرَنْك بكثرة ، وكذلك في سواحل المحيط بالأندلس " .

فصاحب « **نخبة الدهر** » غير مصدق لمن يزعم بأن التنين حيوان حي . ولكنه لم يصرح بما يعتقده هو فيه ، وترك لنا أن نستنتج إذا كان التنين نباتا أو جماداً أو ظاهرة بحرية أو جوية . المهم عند الدمشقي أن هناك معلومات إيجابية عن شيء يقال له التنين ، وأن هذا الشيء موجود بالبحار التي عددها ، وأن كل ما قيل عن الملائكة ونقلها للتنين إلى جهنم وغير ذلك زعم من لا علم عنده .

إنما الرجل الذي لا يمكن أن نجد له عذراً هو أبو زكريا محمد القزويني ، فهذا العلامة قد لمس حقيقة الظاهرة البحرية لمساً . ولم يحل ذلك بينه وبين إيراد الخرافات عن التنين . ففي مقدمات « **عجائب المخلوقات** » ، ذلك الكتاب الذي يضعه في تاريخ العلوم الشرقية موضع بلينيوس الكبير في

العلوم الغربية ، نراه ينص فى وصفه للرياح على مايلى : "الزوبعة ، وهى الريح التى تدور على نفسها شبه منارة . وأكثر تولدها من رياح ترجع من الطبقة الباردة ، فتصادف سحاباً تذروه الرياح المختلفة . فيحدث من دوران الغيم تدوير فى الرياح فينزل على تلك الهيأة . وربما يكون مسلك صعودها مدوراً فيبقى هبوبها كذلك مدوراً كما يشاهد فى الشعر المجعد ، فإن جعودته قد تكون لاعوجاج المسام . وربما يكون سبب الزوبعة التقاء **ريحين مختلفى الهبوب** . فإنهما إذا تلاقيا تمنع إحداهما الأخرى عن الهبوب فتحدث بسبب ذلك ريح مستديرة تشبه منارة . وربما صادفت الزوبعة السفينة فترفعها وتدورها وتغرقها . وربما وقعت قطعة من الغيم فى وسط الزوبعة فتدورها فى الهواء **فترى شبه تنين يدور فى الجو**" .

ماذا جرى لهذا العالم بعد أن وصف نافورة البحر هذا الوصف الدقيق ، وأدرك أن قطع الغيام ربما وقعت وسط الزوبعة فرؤيت شبه تنين فى الجو ؟ لماذا أصر الرجل على عزل الظاهرة الإعصارية عن الأسطورة . وإن كان قد فهم الأولى إلى ذلك الحد ، فلماذا لم يفهم أن الثانية هى الصورة الشعبية للأولى ؟ بل أصر على وصف التنين لحيوان هائل ، مفلس كفلوس السمك ، له جناحان عظيمان ، ورأس إنسان كأنها التل الكبير ، وستة رءوس على شكل رءوس الحيات ؟ . ماذا جرى لهذا الرجل حتى يصف فى كتابه « **آثار البلاد** » تنين حلّز ينساب على الأرض ، والنار تخرج من فيه ودبره والناس يشاهدونه من البعد . وقد أقبلت سحابة من البحر وتدات حتى اشتملت عليه ورفعته نحو السماء "وقد لف التنين ذنبه على كلب ، والكلب

ينبح فى الهواء » ؟

إما أن يكون القزوينى ، وهو الذى قدم لكتابه « عجائب المخلوقات » بمقدمات منطقية تعد نموذجاً للأسلوب العلمى فى اللغة العربية كتابة وتفكيراً قد فقد ملكة النقد فى طريقه إلى إتمام الكتاب . أو أن رغبته فى تصيد المعجب والغريب تسلطت عليه فرضى أن يبقى على أسطورة التنين منفصلة عن أصلها من الواقع ، مستنداً إلى روايات العوام ، مصدقاً تهريف أهل كاز ولسان حاله يقول : se non è vero, è ben trovato ! . ويكون مثله فى ذلك مثل أولئك الكتاب الذين يبدءون حياتهم بدءاً طيباً ثم يغرهم الكسب ، وتجرفهم الشهرة فينحدرون سراعاً إلى مستوى الجماهير الهستيرية ، يداهنون نزعاتهم السوقية ، ويشبعون شهوتهم للخبر الطريف الجذاب .

وإلا فكيف نفسر نزول علامة كالقزوينى إلى هذا الإسفاف الذى نقبله من رجل كابن الوردى فى « خريدة العجائب » أو كابن وصيف شاه فى « مختصر العجائب » .

ما أبعد ما بين وصف الإعصار الحلزونى فى مذكرات التاجر سليمان ، بل وفى مقدمة « عجائب المخلوقات » للقزوينى ، وبين ما قاله هذا القزوينى نفسه عن التنين دون كلمة شك وتجريح ينقذ بها سمعته ، كما فعل المسعودى والدمشقى وياقوت الحموى !

شجرة الوقواق

جزائر واق الواق ! علم على غير معلوم ، ركن من دنيا الطفولة ، حين كان يجمعنا الشتاء حول المدفأة النحاسية بين الجدّة والخالة ، والهررة البيضاء والسوداء تستدفئ ، والكستناء تفرقع وتتفجر عن بشرة مجعدة يختلط اصفرارها الباهت بحمرة الشواء الداكنة .

جزائر واق الواق ! تبدو لمراهقتنا خلال الصحائف الصفراء وقد أخذنا فى مطالعة الكتب القديمة ، تبدو وتغيب فيما وراء العامر والغامر ، فى لحف جبل قاف ، وعبر البحر المحيط بالدنيا ، أرضاً من سندس ، وأرضاً من كافور وأشجاراً تصدح من فوقها الأطيار ، وأخرى تطرح ثمراً من رءوس آدمية ، تتمايل عند طلوع الشمس وهبوب الرياح وهى تصيح : واق واق ، تبارك الله الخلاق . وتتناعس لدى هدوء الريح وغروب الشمس وهى تسبّح : واق واق ، تبارك الله الخلاق .

سافرنا إليها فى طفولتنا والكرى يهوّى على الأجفان . يحملنا إليها صوت حنون يقص علينا قصة البصرى . قصدنا إليها فى مراهقتنا ونحن نتنقل بين صفحات كتاب قديم . وعدنا إليها شباباً وقد فقدت سحرها البدائى ، وبانت لنا مسرحاً من مسارح الغرام ، ورمزاً من رموز الثبات على الهوى .

واليوم نعود إلى جزائر الواق واق رجالا هادئين نبحث فى مؤلفات القرون الوسطى عن أصلها ومكانها على أنها حقيقة جغرافية ، وعن تطوراتها فى كتب العجائب ومخيلات العامة على أنها أسطورة من الأساطير .

ما يكاد ينتصف القرن التاسع الميلادى حتى نسمع عن تلك الجزائر فى كتاب « **المسالك والممالك** » لعبيد الله بن خرداذبة . إذ يقول بأن طول البحر الشرقى الكبير أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ من القلزم إلى الوقواق ، ويحدد موضعها فى مشارق الصين ، ويصفها بكثرة الذهب حتى إن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من ذهب ، ويأتون بالقمص المنسوجة بالذهب للبيع ، وبها الأبنوس الجيد .

وفى أوائل القرن العاشر يشير أبو زيد حسن السيرافى إلى بلاد فى شرق الصين لم يصل إليها أحد من العرب ليحدث عنها ، تعرف بجزائر السيلا . وهى البلاد التى ذكرها المسعودى فى « **مروج الذهب** » وأكد فى منتصف القرن العاشر بأن كل من وصل إليها من الغرباء استقر بها وأبى الخروج عنها لصحة هوائها وكثرة خيرها . أما الوقواق فربما اتخذت فى جغرافية المسعودى وضعاً آخر ، فهى فوق زنجبار إلى ناحية الجنوب من سُفَالَة الزنج .

ومع أن هذا هو كل ما ورد ذكره عن الوقواق فيما بقى لنا من كتب المسعودى ، فإن الإدريسى حوالى منتصف القرن الثانى عشر ، نوه فى جغرافيته بأن المسعودى نسب إلى شجرة بجزائر الوقواق أموراً غير معقولة لدرجة أن الإدريسى رآها غير جديرة بالذكر .

فما هى تلك الأمور غير المعقولة التى نسبها المسعودى إلى شجرة الوقواق؟ لأنه إذا صدق ما عزاه الإدريسى إليه ، يكون المسعودى أول من ردد فى كتاب علمى أسطورة بدأت تتناولها الألسن فى القرن العاشر . وإذا كان حقيقياً أن كتاب « **مختصر العجائب** » من تأليف المسعودى يكون ما جاء به

عن الوقواق هو بعض ما عناه الإدريسى بإشارته إلى أبى الحسن . ولكن البارون كارّا دى فو ، مترجم المختصر إلى الفرنسية ، يرجح نسبة الكتاب إلى المدعو إبراهيم بن وصيف شاه . وأيا كان مؤلف « **مختصر العجائب** » فإن ما جاء بين صفحاته يسمح لنا بمطالعة أول صورة مكتوبة لخرافة الوقواق .

قال المؤلف بأن من الأجناس الغريبة التى تسكن فى أقاصى شرق العالم جنساً أقرب إلى الإنسان ، يعيش فى جزائر الوقواق " وكلهم على شكل النساء يصحن واق واق . وإذا قبض على واحدة منهن سقطت مائتة . وإن المسافر إذا عبر إلى جزيرة أخرى من هذه الجزائر رأى جنساً آخر من النساء أجمل وجهاً ، وأحسن قواماً ، وأطيب رائحة . يعيش يوماً واحداً فى الأسر . وجو تلك الجزيرة عبق برائحة الكافور ، وليس بها رجال قط " .

ثم يتحدث عن جزائر الوقواق وذهبها الكثير ، بمثل ما جاء بكتاب ابن خرداذبة . و « **المختصر** » ، إذا لم ينص تماماً على الشجرة التى اشتهرت بها الوقواق ، فإن ذكره لجنس من النساء يموت بمجرد اقتناصه ، يقربه كثيراً من وصف الشجرة التى تحمل ثمراً من نساء ، يمتن إذا فصلن عن فروعها . ويلاحظ هنا أن خرافة الوقواق مقرونة بخرافة أخرى أقدم عهداً هى أسطورة « جزائر النساء » .

وجاء مُطَهَّر بن طاهر المَقْدسى فى عصر « **مختصر العجائب** » فذكر فى كتاب « **البدء والتاريخ** » أن ببلاد الهند شجراً يعرف بالوقواق يحمل ثمرة يقال بأنها تشبه الرءوس الآدمية .

وفى بعض مخطوطات القصة الفلسفية التى ألفها ابن طفيل فى أواخر

القرن الثانى عشر إشارة إلى جزيرة فى الهند فوق خط الاستواء ، يولد فيها الناس بلا أبوين . كما تنبت هناك شجرة تثمر جنساً من النساء ذكره المسعودى باسم « بنات الوقواق » .

يمكن أن نستنتج إذن أن أسطورة الوقواق كانت كثيرة التداول فى غضون القرن العاشر وما بعده إلى حد أن يشير إليها ابن طفيل وهو يعرض لفلسفة وليد الطبيعة « حى بن يقظان » فى أواخر القرن الثانى عشر . مع أن أبا الريحان البِيرُونى كان قد كذبها فى أول القرن الحادى عشر حين قال فى كتابه عن الهند : "جزائر الوقواق من جملة قمير [أى بلاد كامبوجيا فى الهند الصينية] . وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كرءوس الناس تصيح" .

وحينما وضع ياقوت الحموى « معجم البلدان » بعد مضى نحو قرن على كتب البِيرُونى كانت الخرافة قد توطدت على الرغم من تكذيب البيرونى لها ، إلى درجة أن صاحب المعجم اكتفى بالإشارة الآتية إلى جزائر الوقواق : "الوقوقة نباح الكلب . والوقواق كثير الكلام . وهى بلاد فوق الصين يجىء ذكرها فى الخرافات" .

ولم يمنع ذلك عالماً من علماء التاريخ الطبيعى والكوزموغرافيا العربية وهو القزوينى ، الذى رأيناه وسنراه دائماً فارس الهيجاء فى ميدان الخرافات ، من أن يؤيد فى عصر ياقوت الحموى أسطورة الوقواق فى كتابيه « آثار البلاد » و « عجائب المخلوقات » . بل يمكن أن نحمله تبعة إشاعتها لما أصاب كتابه الأخير من الذيوع والانتشار .

قال القزوينى بأن الوقواق جزائر فى بحر الصين ، تتصل بجزائر الزّابج [أى مجموعة جزائر الهند الشرقية] ، والمسير إليها بالنجوم . وإنما سميت بهذا الاسم لأن بها شجرة لها ثمرة على صور النساء معلقات بشعورها ، يسمع منها صوت واق واق . ونقل عن الرازى أنها بلاد كثيرة الذهب حتى إن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب ، ويأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب . وحكى عن عيسى بن المبارك أنه سافر إلى تلك البلاد ، ودخل على ملكتها فرآها على سريرها عريانة ، وفوق رأسها تاج ، وعندها أربعة آلاف وصيفة عراة أبكار .

وجاء الدمشقى فى أوائل القرن الرابع عشر فقال فى كتابه «نخبة الدهر»:
"وأما جزائر الوقواق الداخلة فى المحيط فإنها خلف جبل أصْطِيقون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين . والواق شجر صينى شبيه بشجر الجوز وخيار الشنبر ، ويحمل حملا كصورة الإنسان . فإذا انتهت الثمرة سمع السامع منها واقواق مرات ثم سقطت" .

أى أن الدمشقى حاول تفسير الخرافة تفسيراً علميا ، وكان فى هذا سابقاً للمستشرق الهولندى الكبير دى خوى بخمسة قرون . فالوقواق عند الدمشقى شجر بعينه ، يشبه ثمره صورة الإنسان . بل إن كتاب «عجائب الهند» ، إذا اعتبرنا تاريخ كتابته فى القرن العاشر ، يكون أسبق بكثير من الدمشقى فى ذكر الأصل الذى نبتت منه الخرافة ، إذ يقول مؤلفه :

"وحدثنى محمد بن بابشاد عمن حدثه ممن دخل الوقواق أن هناك شجراً كباراً له ورق مدور ومنه ما هو إلى الطول ، يحمل حملا على مثال القرع ،

إلا أنه أكبر منه . وصورته صورة الناس . تحركه الرياح فيخرج منه صوت . وأن داخله منفوخ مثل حمل العُشَر . فإذا قطع عن الشجرة خرج الريح من ساعته وصار مثل الجلد . وأن بعض البانانيـة رأى الحمل فتعشق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه فلما قطعها خرج الريح منها فبقيت كالغراب الميت" .

عبثاً كانت هذه الإشارة من صاحب كتاب «عجائب الهند» ومحاولات البيرونى والدمشقى وبينهما ثلاثة قرون ، نحو تحرى الدقة العلمية . فلم تكن إلا لتزيد الخرافة ثبوتاً . واتخذت الخرافة شكلها النهائى ، مقترنة بأسطورة «جزائر النساء» فى «خريدة العجائب» التى ألفها عمر بن الوردى إبان القرن الرابع عشر .

يقول ابن الوردى بأن جزائر الوقواق متصلة بالزابج . وهى ألف وسبعمائة جزيرة عامرة . والذهب بها كثير . ملكتهم اسمها دمهرة رآها عيسى بن المبارك السيرافى عريانة على سرير من ذهب ، وبين يديها أربعة آلاف وصيفة أبكار حسان ، وفى رءوسهن أمشاط إلى عشرين مشطاً . وبهذه الجزائر شجر يحمل ثمراً كالنساء أجساماً وسيقاناً ، صباح الوجوه ، معلقات بشعورهن يخرجن من غُلُف كالأجربة الكبار . فإذا أحسسن بالهواء صحن واق واق حتى تنقطع شعورهن . فإذا انقطعت سقطن أمواتاً . وقد رأى المسافرون بعض نساء تلك الأشجار أكبر من النساء ، وأطول شعوراً ، وأرشق قواماً ، وأطيب ريحاً . إذا قطعن من شعورهن عشن يوماً أو أياماً . عرف الرحالون بقربهن نعيما لا مثيل له . وأرض الجزائر كثيرة الطيب ، غنية بالذهب والأبنوس والطيور ، لا يعرف ما بعدها سوى علام الغيوب .

هذه هى جزائر الوقواق ، وتاريخ تطورها من جزائر بعيدة كثيرة الذهب إلى بلاد تسكنها النساء بلا رجال وتحكمها امرأة ، إلى جزائر ينبت فيها شجر كشجر الجوز ، أو خيار الشنبر ، ثمره على مثال القرع شبيه برأس إنسان ، إلى منابت أشجار تحمل حملا كالنساء اعتدالا وجمالا ، بل هن أطيب ريحاً وأرشق قدّا . فلماذا لا ينتهى المنطق بالخرافة إلى أن يتزوج الرحالون ببنات الوقواق يوماً أو بعض يوم ؟

ولكن كل هذا البناء الخرافى باعد بين الباحثين و بين تعرف الحقائق الأصلية التى سمع بها الرحالة العرب ودونوها . وأول هذه الحقائق وأهمها : ما هى تلك الجزائر فى الواقع ، وأين يكون موضعها من خريطة العالم اليوم ؟

يكاد يجمع المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب على تحديد هذا الموضع إلى الشرق من الصين . ولكن هذا التحديد وحده لا يكفى ؛ فقبل أن ننظر فى أمره ، ينبغى أن نستبعد مواضع أخرى لجزائر الوقواق ذكرها المسعودى وابن الفقيه .

قال أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه صاحب «مختصر البلدان» ، فى وصف البحر الشرقى الكبير : "وهو آخذ من المغرب إلى القلزم ، حتى يبلغ واق واق الصين . وواق واق الصين هو بخلاف واق واق اليمن ، لأن واق واق اليمن يخرج منه ذهب سوء" .

وذكر أبو الحسن المسعودى أن "ليس بعد بلاد الصين مما يلى البحر ممالك تعرف ولا بلاد توصف ، إلا بلاد السِّيلى وجزائرها . ولم يصل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيرها فخرج عنها إلا النادر من الناس . لصحة

هوائها ، ورقة مائها ، وجودة تربتها ، وكثرة خيرها " . بينما جاء فى عرض كلام عن « السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم » : " فسكنت الزنج فى ذلك الصقع ، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سُفالة ، وهى أقاصى بلاد الزنج . وإليه يقصد مراكب العمانيين والسيرافيين وهى غاية مقصدهم فى بحر الزنج . كما أن أقاصى بحر الصين متصل ببلاد السيلى ... وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة . وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب " .

ولا نعرف شيئاً عن واق واق اليمن التى ذكرها ابن الفقيه . أما واق واق الزنج التى يتحدث عنها المسعودى فقد فسرها دى خوى مستنداً إلى شرح رينو فى مقدمته لجغرافيا الشرقيين ، حيث بيّن أن الإصطخرى وابن حوقل والإدريسى وابن سعيد من جغرافيى العرب أخذوا بجغرافيا بطليموس . وهذا متأثر بنظرية الجغرافى اليونانى هِيبّارخُوس القائل بأن الشاطئ الشرقى للقارة الإفريقية ، بعد أن ينحدر إلى الجنوب حتى سفالة الزنج ، يتجه شرقاً فى محاذاة خط الاستواء حتى يصل إلى الجنوب الشرقى من قارة آسيا . فالمحيط الهندى فى رأى هيبارخوس بحر متوسط كبحر الروم . إلا أن مخرجه من الجنوب الشرقى إلى البحر الزفتى المحيط غير واضح الوصف لا عند الجغرافيين العرب الذين أخذوا عن بطليموس ، ولا عند هيبّارخوس صاحب النظرية التى تأثر بها بطليموس .

على أساس هذه النظرية الجغرافية يفسر دى خوى وصف المسعودى لموضع الوقواق فى أقاصى بحر الزنج . وهى تصبح فى هذه الحالة إلى الجنوب

أو الجنوب الشرق من الصين .

أما تفسيرى لهذه الفقرة من « مروج الذهب » فتقوم على شك فى سقوط كلمتين . ولا أشك اعتباطاً ، بل إننى أحس نقصاً فى جملة : "وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة . وأقاصيه بلاد الواق واق . وهى أرض كثيرة الذهب الخ ..." . إلا أن يقول : "وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة ، و بلاد الواق واق . وهى أرض الخ ..." . لست إخصائيا فى مراجعة النصوص ، فلا أدعى لما أقترحه أكثر من محاولة توضيح موقف المسعودى من النظريتين اللتين اقتسمتا آراء الجغرافيين فى الزمن القديم والقرون الوسطى . وهما نظرية هيبارخوس و بطليموس التى أشرت إليها ، ونظرية إيراطوسطين واسطرابون التى تصورت الشاطئ الإفريقى كما نعرفه فى الوقت الحاضر على وجه التقريب .

فأنا أقترح إضافة كلمتين إلى الفقرة التى أعتبرها سبباً فى الغموض الذى رآه بعض المستشرقين فى موقف المسعودى من النظريتين . والكلمتان هما « بحر الصين » يضافان إلى الفقرة ، بدل ضمير الغائب فى كلمة « أقاصيه » فتصبح هكذا : "وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصى بحر الصين بلاد الواق واق . وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب" . وجدير بالذكر أن رينو فى مقدمته لجغرافيا الشرقيين لم يضع المسعودى ضمن من اعتنقوا نظرية هيبارخوس و بطليموس . بل قال بأن البيرونى وأبا الفدا ، وربما البتانى والمسعودى ، كانوا من رأى إيراطوسطين واسطرابون فى اتجاه شاطئ شرق إفريقيا إلى الجنوب ثم استدارته فى اتجاه الغرب .

ولو أنه لا العالمين اليونانيين ، ولا الجغرافيين العرب تصوروا توغل شاطئ إفريقيا فى الجنوب إلى المدى الذى نعرفه اليوم . وكان هذا الاقتضاب أكبر مشجع للملاحين فيما بعد على أن يحاولوا فينجحوا فى الدوران حول رأس الأعاصير [الرجاء الصالح فيما بعد] .

فإذا لاقى تفسيرى بعض الحظ عند أهل الاختصاص ، تركزت أقوال الجغرافيين العرب عن الوقواق فى أنها إلى الشرق من الصين ، أو فوقها ، أى إلى الجنوب منها . ولكن بين الشرق والجنوب بونا شاسعاً كان سبب الخلاف بين المستشرقين فى تحديد موضع الجزائر . فالوقواق هى جزائر الهند الشرقيـة فى عرف لانجليس ، ومدغشقر عند رينو ، وسيشل فى رأى دى سلان ، ويعتقد إدوارد لين أنها جزيرة بورنيو ، ويظهر أن فيرّان أراد أن يعتمد على قول البيرونى بأنها «فى جملة قمير» ليضمها إلى الجنوب أو الجنوبى الشرقى من الهند الصينية .

ولكن نظرية دى خوى تبدو أقرب هذه النظريات جميعاً إلى الإقناع . فالمستشرق الهولندى الكبير يرى أن جزائر الوقواق هى اليابان ، ويستند فى هذا إلى أن ابن خرداذبة وابن حوقل والمقدسى وابن الفقيه وياقوت الحموى والبيرونى والقزوينى والدمشقى وصاحب « **مختصر العجائب** » أجمعوا على أن الوقواق فى شرق الصين . كما اتفقوا على أن الأبنوس الجيد ينبت فى أرضها ، وقد تأكد من حكاية الأبنوس فى دائرة المعارف اليابانية الكبرى . أما وصف جغرافيى العرب لهذه الجزيرة بكثرة الذهب ، فهو متفق مع ما جاء برحلة ماركو بولو عن جزيرة « تسيبانجو » إلى الشرق من الصين .

وتتخذ نظرية دى خوى شكلا جذابا حين ينصرف إلى البحث عن مصدر اسم « الوقواق » ذاته . وقد توقع المستشرق العلامة أن يكون الرحالون العرب سمعوا بهذا الاسم على أفواه الصينيين فى خانفو ميناء الصين الأكبر . وهداه بحثه إلى أن بلاد اليابان عرفت من قديم عند الصينيين من سكان تلك المدينة ، وفى لهجة أهلها باسم « ووقوق » . أما الاسم الحديث الذى تعرف به تلك البلاد ، وهو مشتق من « يبن » أى مشرق الشمس ، فلم يطلق على بلاد « ووقوق » إلا منذ القرن السابع الميلادى . واستغرق اختفاء الاسم القديم بعض الوقت .

ويظهر أن لا خلاف بين الباحثين على أن جزائر السيلا — أو السيلى — هى ما تعرف اليوم باسم شبه جزيرة كوريا . وكتاب العرب فى القرون الوسطى كانوا يطلقون كلمة جزيرة على الأرض المحاطة بالماء من جميع جهاتها ، أو من أغلب جهاتها . أما كلمة شبه الجزيرة فمستحدثة .

بقيت بعد هذا خرافة شجرة الوقواق ، وكيف وصلت إلى العرب . وقد بحث دى خوى عن أشجار يابانية يمكن أن يكون مرآها قد أثار عند بعض الرحالين فكرة الشجرة التى تحمل ثمراً من رءوس آدمية . كما كنا نعتقد فى صبانا بأن جوز الهند إنسان وسخط ثمراً . فأقمنا علاقة مباشرة بين شجرة الوقواق وشجرة جوز الهند ذاتها . وخيل إلينا أن الثمرة التى تصل إلى بلادنا مقطوعة ، كانت فوق شجرتها تصيح « واق واق » ثم ماتت وجفت . وقد قال ابن بطوطة يصف النارجيل : "وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمراً . وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه تثمر

جوزاً وتلك تثمر تمراً . وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيه شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء ، وعليها ليف شبه الشعر ... ويزعمون أن حكيما من حكماء الهند فى غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة . فقال الحكيم للملك : إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا . . . . . . فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر فى دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز . وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم " .

فلما بحث دى خوى عن نوع من الشجر ينبت فى بلاد اليابان يمكن أن يكون مصدر الخرافة ، لم يجد له أثراً هناك . ولكنه عرف أن أسطورة الوقواق ذائعة بين اليابانيين ، وقد انتقلت إليهم من بلاد العرب ! ففى دائرة معارف يابانية ألفت فى القرن الثامن عشر حكاية شجرة تنبت ببلاد الخلفاء المسلمين وتحمل ثمراً شبيهاً بالرءوس الآدمية ، وهى رءوس تضحك ، فإذا ضحكت طويلا ذبلت وانفصلت عن الشجرة .

كما أن الإنسكلو بيديا الصينية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر تصف شجرة عجيبة تنبت بجزيرة العرب ، ثمرها أطفال طول الواحد سبع بوصات ، يضحكون لمن يقترب منهم ، ويحركون أيديهم وأرجلهم ، ويموتون إذا قطعوا من الشجرة ، وتَسْوَدّ وجوههم .

يلوح لنا إذن أن بعض الرحالة العرب سمع عن بلاد الوقواق وهو يزور

الصين . ثم سئل هناك عن الشجر الذى ينبت فى بلاده ويثمر رءوساً آدمية . فلما أنكر ذلك قيل له بأنهم سمعوا بهذه الحكاية فى بلاد « ووقوق » .

وانتفع دى خوى بما جاء فى كتاب « عجائب الهند » مما نقلناه آنفا إذ يشبه المؤلف شجرة الوقواق بالقرع ، ويذكر بأن داخله منفوخ مثل حمل العُشَر . فعرف أن شجرة العُشَر لها ثمرة كروية يسمع لها صوت انفجار عند نضجها ، وأنها تنبت فى اليمن وفلسطين ، وبلاد السودان والنوبة . وكان من شكل جذوعها وأغصانها وخشبها الأملس الناعم ، ما دعا التيجانى إلى تشبيهها بسيقان وزنود النساء . واسم شجرة العُشَر العلمى هو *A. gigantea* أو *Asclepias procera* . وهذا ما وصل بكتاب العرب إلى حد جعل ثمار الشجرة جنساً من النساء . ولو أننا نرى فى الخبر الذى نقله صاحب « عجائب الهند » عن أن "بعض البانانية رأى الحمل فتعشق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه" ما قد يكون مثيرا لخيال أهل « السير والقصص » . ومصدر الأسطورة على أى حال لا يمكن أن يكون بهذه البساطة . وفى رأى دى خوى أن القصة الشعرية الفرنسية المؤلفة فى أوائل القرون الوسطى ، التى تدور حوادثها حول شخصية الإسكندر الخرافى ، قد تكون مسؤولة عن خرافة الوقواق العربية . إذ أشارت القصة الفرنسية إلى أن الإسكندر رأى فى أسفاره بنات يعشن فى ظل شجرة لا يغادرنها أو يدركهن الموت . ولكن فون هومبولت يرجع القصة الفرنسية إلى أسطورة الوقواق العربية على اعتبار أن هذه الأخيرة هى الأقدم . وقد طالعت فى قصص ذى القرنين المؤسسة على تاريخ خرافى للإسكندر كتبه من انتحل اسم كالستينس ،

ويعرف فى الآداب الأوربية باسم كالستينس المزعوم Pseudo-Callisthenes، حكاية وصول ذى القرنين إلى شجرتى الشمس والقمر ، وهما شجرتان ذكر وأنثى ، تتكلم شجرة الشمس منهما عند طلوع النهار وانتصافه وقرب المساء ، وشجرة القمر فى أول الليل ومنتصفه وقرب مطلع الفجر . وقد خاطبت الشجرتان الإسكندر وتنبأتا له بالموت فى بابل . وحديث الشجرتين والإسكندر وارد فى الشاهنامة .

ليس ببعيد أن تكون أسطورة الوقواق قد نشأت من بعض خرافات كالستينس المزعوم ، مضافة إلى الخيال العربى الخصب وقد توسع فى وصف شجرة العشر وثمرتها . وليست خرافة النبات الذى يثمر حيوانا وحيدة من نوعها فى القرون الوسطى . فقد نشأت فى أواسط آسيا أسطورة الماعز الذى يزرع ، أو ما يعرف باسم الحمل التتارى *Agnus Tartaricus* ذكرها الرحالة الصينيون منذ القرن التاسع . وسمع بها الرحالة الأوربى أُدُوريك فى القرن الرابع عشر . جاء فى الوصف الصينى : "ويوجد ببلاد فولين [أى الدولة البيزنطية] أغنام تنبت من الأرض ، وينتظر الناس حتى تتم نموها ، فيحيطونها بسياج منعاً للضوارى عنها . فإذا قطع الحبل السرى الذى يصلها بالأرض ماتت ، إلا أن يتبع فى فصلها عن الأرض طريقة الإفزاع . وذلك بأن يركب الفارس ويهجم عليها بينما يحدث أصحابه بعض الأصوات المزعجة . فتأخذ الأغنام المزروعة فى الثغاء ، ثم تنفصل عن حبلها السرى ، وتجرى لترعى الحشائش" . أما كيف تزرع هذه الأغنام العجيبة فقد سمع الصينيون أن التتار يحتفظون بسراتها ، ويبذرونها فى الأرض فتنبت قطعانا ! !

وإلى هذه الثمرة العجيبة يشير الرحالة الأفاق السير جون موندفيل Maundeville فى كلامه عن بلاد باختر Bactriane :

And there groweth a maner of fruyt as though it weren Gowrdes, An thei ben rype men kutten hem a to and men fynden withinne a lytyll best in flesch, in bon and blode, as though it were a lytill lomb withouten wolle.

كل هذا يبعدنا عن جزائر الوقواق، ووضعها الجغرافى. وقد نقل كتاب «عجائب الهند» حكايات قوم رأوا من دخل الوقواق وأبحر بها. فوصف سعة البلاد والجزائر، "ولست أعنى بسعة البلاد أن البلدان كبار، ولكن أهل الوقواق كثير. وفيهم تشابه من الترك. وهم أحذق خلق الله بالصنائع... وهم أهل مكر وحيل وخديعة وخبث وشدة بأس فى كل شىء. وحدثنى ابن لاكيس أنهم شاهدوا من أهل الوقواق ما يدهش. وذلك أنهم وافوهم فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة فى نحو ألف قارب فحاربوهم حربا شديداً ولم يقدروا عليهم [على ابن لاكيس وقومه] لأن حول قَنْبُلَة حصناً وثيقاً وحول الحصن خورا فيه من ماء البحر، وقَنْبُلَة فى ذلك الخور مثل القلعة الحصينة، وأنه وقع إليهم قوم منهم [من أهل الوقواق] فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون سائر البلاد. فذكروا [أهل الوقواق] أنهم إنما جاءوهم [بقَنْبُلَة] لأن عندهم ما يصلح لبلادهم [بلاد الوقواق] والصين، مثل العاج والذبل والنمور (؟) والعنبر، ولأنهم يريدون الزنج لصبرهم على الخدمة وجلدهم، وأنهم جاءوهم من مسيرة سنة. ونهبوا جزائر بينها و بين قنبلة مسيرة ستة أيام. وظفروا بعدة قرى ومدن من سفالة الزنج.. فإذا كان قول هؤلاء وحكايتهم صحيحة، أنهم جاءوا من مسيرة

سنة ، فهذا يدل على صحة ما ذكره ابن لاكيس من أمر جزائر الوقواق وأنها قبالة الصين والله أعلم".

وقَنْبُلَة المشار إليها فى حكاية ابن لاكيس جزيرة زنجبار فى رأى فون ديرليت ناشر «عجائب الهند» ، ومدغشقر فى رأى رينو وميتار ودى سلان. فهى جزيرة ما ، تواجه سفالة الزنج . وفى هـذا ما نستبعد معه أن يكون المسعودى قد أراد وضع جزائر الوقواق فى أقاصى بر الزنج ، وإذا كان هناك إجماع من جغرافيي العرب على أن أهل الوقواق فيهم شبه من الترك — أى المغول — فلست أرى كيف يمكن أن يتشابه الزنوج والترك ، بينما أفهم أن يقال هذا عن بعض الشعوب من الجنس الأصفر .

جزائر النساء

أشار صاحب «**مختصر العجائب**» إلى أن أمة الوقواق أقرب الأمم إلى الإنسان ، ولكنها أمة من النساء لا رجال بينها . وجاء فى الكتاب نفسه وصف للأمم التى خلقت قبل آدم ومنها أمة كالنساء ذوات شعور سبط ، أصواتهن رخيمة يسحرن بها رجالا من أمم أخرى ويجتذبنهم إليهن ؛ وجنس من السعالى يتشكل بشكل النساء الجميلات ويتزوجن الرجال ؛ ويقال بأن سعيد بن جبير تزوج واحدة من تلك السعالى دون أن يدرك من أمرها شيئاً . وذات ليلة بينما كانت إلى جانبه فوق سطح المنزل المطل على الخلاء ، سمعت نواح نساء عن بعد . فقلقت وقالت لزوجها : أما ترى نار السعالى الموقدة ؟ لك منزلك وأولادك . ثم طارت ولم تعد .

ووصف الإدريسى فى موسوعته الجغرافية «**نزهة المشتاق**» ، بالجزء الرابع من الإقليم السابع ، جزيرتين مسكونتين فى بحر الظلمات اسمهما «أمرانيس المجوس» الغربية منها يسكنها الرجال ، والشرقية يسكنها النساء . ويركب الرجال زوارقهم فى كل ربيع ليسكنوا جزيرة النساء شهراً ثم يعودون إلى جزيرتهم حيث يقيمون إلى الربيع التالى ، حين يعود كل منهم إلى زوجته ، وهكذا .

والدمشقى يصف الجزيرتين فى البحر الأخضر فيما يلى بلاد الصقالبة ويسميهما أرميانوس الرجال وأرميانوس النساء ، ويتفق الإدريسى والدمشقى على أن الجزيرتين لا يكاد من يروم الدخول إليهما يقع طرفه عليهما لكثرة الغمام وظلمة البحر وعظم الأمواج .

أما القزويني فينقل جزيرة النساء إلى بحر الصين . ويحكى عن بعض التجار أن الريح ألقته إلى هذه الجزيرة فرأى النساء لا رجال معهن . ورأى الذهب فى تلك الجزيرة مثل التراب ، ورأى منه قضبانا كالخيزران . وهمت النسوة بقتله فخمته امرأة منهن وحملته على لوح "وسيبتنى فى البحر فألقتنى الريح إلى بلاد الصين . فأخبرت صاحب الصين بحال الجزيرة وما فيها من الذهب فبعث من يأتيه بخبرها فذهبوا ثلاث سنين ما وقعوا بها فرجعوا" .

وأسطورة جزائر النساء من أقدم الأساطير وأوسعها ذيوعا فى الشرق والغرب ، ويظهر أن أساسها دينى ؛ فقد كانت عبادة الإلهة « أرتميس » اليونانية ، و « ديانا » الرومانيين ، تقتضى أن يهب كاهنتها وعذاراها حياتهن لها هبة كاملة ، فيعشن فى عزلة عن الرجال . وكانت أرتميس تخرج للصيد مع كاهناتها وبناتها فيحظر على الرجال أن ينظروا إليهن . وكان نصيب « أكتيون » أن مسخته الإلهة خنزيراً أسلمته لكلابها حينما تجرأ على مقام الإلهة رمز القمر ، فاختبأ فى الغابة لينظرها .

فالرهبنة الوثنية سبقت الرهبنة المسيحية بقرون . وفى بعض هذه الأخيرة تنقطع النساء عن العالم انقطاعا تاما وراء أسوار عالية ، ناذرات أنفسهن للعذراء الطاهرة . وعند الهندوس توهب بعض البنات منذ ولادتهن للإله ، وفى ذلك يقول أبو زيد حسن السيرافى : "إذا نذرت المرأة بالهند نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها البُدّ ، وهو الصنم الذى يعبدونه ، فجعلتها له . ثم اتخذت لها فى السوق بيتاً وعلقت عليه ستراً ، وأقعدتها على كرسى ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز فى دينه . . . وكلما اجتمع لها شيء من

ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف فى عمارة الهيكل . والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به" . وحكى ابن الوردى عن الهندوس أن صَلَاتهم غناء وتلحين وتصفيق بالأكف واجتماع الجوارى الحسان ولعبهن بأنواع من التكسر والتخلع بين يدى الصنم . والمعبد الذى به الصنم فيه "جوار حسان راقصات متخلعات معدودة . وذلك أن المرأة إذا ولدت عندهم بنتاً حسنة أخذتها أمها إذا كبرت وألبستها أفخر الملابس والحلل وذهبت بها إلى المعبد ، وتصدقت بها على الصنم ، وحولها أقاربها وأهلها من النساء والرجال . ويسلمها السدنة إلى أناس عارفين بالرقص والتكسر فيعلمونها" . يشير أبو زيد حسن ، ومن نقل عنه حتى ابن الوردى ، إلى الـ « ديفاداسّى » راقصات الإله بالمعابد الهندوسية . ونذرهن من الطقوس الدينية المعروفة إلى اليوم فى معابد الهند والهند الصينية وسومطرا وبالى . ولكن هبة الديفاداسّى للهيكل ليس فيها ما يتسبه طقوس الإلهة ديانا فى شىء ، بل هى من نوع النذر الأفروديتى الذى اتخذ فى عهود الانحلال اليونانى ، ثم فى الإسكندرية ، مظهراً شبيهاً بما وصف به أبو زيد حسن فى لغة غير مستترة طقوس الديفاداسى على قارعة طريق المعبد .

وحدث الأرشمندريت بالآدياس عن فئة من البراهمة يعيش رجالها على ضفة نهر الكَنْك ، ونساؤها على الضفة الأخرى ، ويعبر الرجال النهر المقدس فى أشهر الصيف ليعيشوا إلى جانب نسائهم فترة أربعين يوما ، ثم يعودون إلى صوامعهم على الضفة الأخرى . فإذا حملت المرأة ، كان هذا آخر عهد زوجها بعبور النهر ، وإيذانا بانصراف الناسك إلى عبادته ، حتى يدركه

الموت . وعرفتُ فى دلتا الدانوب عشيرة لها طقوس شديدة الشبه بطقوس هؤلاء البراهمة . إلا أن الرجال فيها لايعبرون نهراً و إنما يقومون بتشويه أنفسهم .

وثمت صورة أخرى من عزلة النساء تبدو فى حكاية « الأمازونة » ، وهى أمة من النساء لهن قدرة على ركوب الخيل والضرب بالنبال ، ذكرها هيرودتس فى الكتاب الرابع من تاريخه . وحكى كيف احتال الإسقوتيون Scythes عليهن بأن أرسلوا جيشاً من ملاح الفتيان يعيشون على مقربة منهن ، مقلدين طرائق حياتهن . فإذا هجمت الأمازونات عليهم تراجعوا حتى تطمئن البنات إلى أنهم لا يقصدون بهن شراً . وكلما مضى الوقت على جيرة الفتيان للأمازونات اقترب المعسكران . حتى اجتمع ذات يوم فتى بفتاة وتخاطبا بالإشارة فاستمال الشاب قلب الأمازونة وطالبته بأن يعود إليها فى اليوم التالى ومعه واحد من أصحابه . وعادت إليه ومعها صاحبة لها . وانتهى الأمر بالألفة بين المعسكرين ، فالتوحيد بينهما . وأراد الفتيان أن يرتدوا بزوجاتهم إلى أهلهم فرفضت الأمازونات محتجات بأن لا قبل لهن بمعاشرة نسوة لا يعرفن من الحياة سوى تدبير المنزل . أما هن فقد ضرين على الضرب بالقوس والرمى بالنشاب وامتطاء صهوات الخيل .

وردد الفردوسى فى « الشاهنامة » صدى حكاية الإسكندر ووصوله إلى مدينة النساء فى جزيرة لا يدخلها الرجال . وهى من الأساطير التى أذاعها كالستينس المزعوم فى تاريخه الخرافى لذى القرنين ، وقد ورد فى هذه أن ذا القرنين ذهب إلى أرض الأمازونة وهى أمة من نساء ذوات ثدى واحد ” وكتب إليهن خطاباً ردت عليه ملكة الأمازونة تصف مملكتها وعادات

أهلها . وتقول بأنهن يعشن فى جزيرة وسط نهر ، وإن عددهن مليون ونصف مليون من النساء لا رجل بينهن . وإنما يعيش الرجال فى الناحية الأخرى من النهر ويعبرون إلى الأمازونات مرة فى العام" . وفى هذا تلطيف للأسطورة اليونانية ، حيث العداوة مستحكمة بين الأمازونات والرجال .

وأسطورة جزائر النساء تتراوح بين الرهبنة الهادئة ، وبين الأمازونية العاتية . بين الأنثى تتخلى عن العالم تطهراً وتعبداً ، وبين المرأة تقضى على أنوثتها ترجلا ، أو تحدياً للرجال . فتبتر ثديها لتكون أكفأ للطعان والرمى بالقوس .

فهى تلتزم الاعتدال فى حكاية الأرشمندريت بالادياس عن براهمة الكنك ، وفى حكاية شبيهة قصها اللورد مكارتنى عن قوزاق زابوراقيا الذين يتركون نساءهم ببعض جزائر الدنيبر ، ولا يزورونهن سوى فترة واحدة فى العام . فإذا أنجب النساء ذكوراً سلموهن لآبائهم يدربونهم على الفروسية والقنص والقتال ، ويحتفظن بالبنات إلى جانبهن .

وتحدث ماركو بولو عن « جزائر الذكور والأناث » : "فى جزائر الذكور لا يسكن غير الرجال ... يذهبون فى شهر مارس إلى جزائر النساء حيث يقيمون ثلاثة أشهر مع زوجاتهم ثم يعودون لتجارتهم وزراعتهم . وتستبقى الأمهات بناتهن . أما الذكور فيرسلوهن إلى الآباء عند بلوغهم سن الرابعة عشر" . وهذه هى الحكاية التى رددها الدمشقى والإدريسى والقزوينى وغيرهم من جغرافيى العرب . ولو أنهم اختلفوا فى تحديد موضع الجزائر . فهى آناً ببحر فارس ، وآناً إلى الجنوب من زنجبار . ومن قائل إنها بأقصى شرق

الصين ، أو هي في عرض البحر الأخضر فيما وراء بلاد الصقالبة . وربما كانت خوريا موريا فيما حكاه ماركو بولو .

وللأسطورة بهذا الوضع تفسير حديث يستند على العقائد الدينية مرة أخرى . فسكان جزائر خوريا موريا ينتقلون فى الموسم إلى بلاد الشِّحْر على ساحل جزيرة العرب لجمع اللبان ، وهو صمغ شجرة *Boswellia Carterii* et spp. . ولما كانت لهذا اللبان منذ أقدم العصور قداسة خاصة ، إذ يحرق بخوراً فى معابد الشرق والغرب ، عنى أهل الشِّحْر بطقوس جمعه حرصاً على خصائصه الروحانية . وهى خصائص قامت على حراستها حيات خرافية تمنع أن يقترب من الشجرة من لا يكتمل طهارة الروح والجسد . لهذا فرض سادة الشِّحْر على جامعى اللبان من سكان خوريا موريا حياة منزهة ، فى عزلة عن النساء؛ فيترك الرجال زوجاتهم بالجزائر طوال الموسم . مما يفسر أن يطلق عليها البحريون جزائر الإناث ، ويكون ساحل الشحر فى هذه الحالة هو المقصود بجزائر الذكور .

هذه الصور المعتدلة للأسطورة تجعل للنساء صلة بالرجال ، ولو رهينة بأوقات معينة . إنما تتخذ الأسطورة شكلا أمازونيا قاسياً على ألسنة القزوينى وحمد الله المستوفى فى كتاب «نزهة القلوب» ، وابن الوردى فى خريدته العجيبة.

ولعل أول مظهر للصورة القاسية ما جاء فى الملحمة الهندية الكبرى «مهابهاراتا» حيث تقتل الأمازونات أطفالهن الذكور توا .

وقد نقل القزوينى عن الطرطوشى أن مدينة النساء مدينة كبيرة واسعة الرقعة ، فى جزيرة من جزائر بحر المغرب . أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن ،

يركبن الخيل ، ويباشرن الحرب بأنفسهن ، ذوات بأس شديد عند اللقاء ؛ ولهن مماليك يختلف كل مملوك إلى سيدته ، ويقوم بالسحر ليخرج مستتراً قبل انبلاج الصبح . فإذا وضعت إحداهن ذكراً وأدته فى الحال . ويقول الطرطوشى معقباً : "ومدينة النساء يقين لا شك فيها" .

ونحن أضعف يقيناً من الشيخ الطرطوشى هذا . ولكننا نفهم على الأقل إمكان حصول ما حدث به . إنما تتخذ الأسطورة وضعاً خرافيا كاملا حينما تمتنع فيها الصلة بتاتاً بين الرجال وهذا النوع من النساء . ولا تجد الخرافة مع ذلك مشقة فى حل مشكل بقاء النوع . كما تلقى من أمثال القزوينى وابن الوردى وصاحب « **مختصر العجائب** » استعداداً لترديدها .

فقد أجمع هؤلاء السادة على أن الأمازونات يلقحن من الريح ، ويلدن إناثاً فحسب . وقيل بل يأكلن من ثمار شجرة تنبت بجزيرتهن . أو ينزلن للاستحمام فى ينبوع معين . وتذهب الأسطورة الصينية إلى أن مجرد إلقاء نظرة على خيالهن فى الينبوع كاف لتتحقق فيهن معجزة الأمومة العذرية . Parthenogenesis

ويردد الأسطورة جمال الدين عوفى فى الكتاب الذى ألفه بالفارسية للوزير نظام الملك واسمه « **جوامع الحكايات** » . فهو يصف الطريق إلى مغارة العالج فى بلاد سُفالة الزنج بأنه دهاس وعرة ، لا تسلك إلا فى يوم السبت من كل أسبوع . وفى وسط الدهاس مدينة النساء ؛ إذا سكنها الرجال فقدوا صفات الرجولة رويداً ثم قضوا نحبهم . وإذا ولد لأولئك النسوة غلام قبض صغيراً . ويؤكد جمال الدين أنهن نساء مسلمات يؤدين الفرائض فى أوقاتها ،

ويقمن بأعمال الفلاحة وشتى الصناعات . حياتهن نوع من الاشتراكية الكاملة ، لا تزاحم فيها على العيش والكسب ، ولا تفاوت أو تمييز بين الطبقات . الادخار ممنوع فيها ، واللذات محرمة ، حتى ما اقتصر منها على التزين والتجمل . حياة مثالية يعلق عليها جمال الدين بقوله : "فوالله إنهن ليفضلن كثيراً من الرجال" .

وحكاية نساء العالج تذكرنا بما أورده المقريزى عن نساء « البجا » القاطنات على شواطىء البحر الأحمر عند عَيْذاب ، بين مصر والنوبة . أولئك نسوة يعشن من صناعة رماح مشهورة ، فى عزلة عن الرجال . . . إلا من جاء منهم لشراء الرماح . وإذا ولدن غلاماً ذكراً قتلنه . حجتهن فى ذلك « أن الرجال مبعث الشرور والحروب » .

ولنعد مرة أخرى إلى كتاب « عجائب الهند » لنكمل حديث أبى الزهر البَرَخْتِى الذى نقلنا بعضه فى فصل سابق كأحسن ما جاء فى الآداب العربية وصفاً للبحار [انظر صفحات ٤٥ إلى ٤٩] . فقد انتهينا من ذلك الحديث إلى أن وصل ركاب سفينة أبى الزهر إلى جزيرة بعد أهوال ، وجعلوا يطّرحون على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها .

ورد عليهم نسوان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهن إلا الله . فوقع على كل رجل ألف امرأة أو أكثر ، وحملنهم إلى الجبال . وهناك مات الرجال واحداً إثر واحد ، إلا أبو الزهر البرختى فقد أنقذته واحدة منهن وخبأته . وكانت تزوره وحدها فى الليل ، وتحمل له قوته وشرابه ؛ والناخداه يدبر وسيلة للسفر "بقارب المركب الذى يسمى الفلوك" . فلما فطنت المرأة

إلى ذلك أخذت بيـده وجاءت به إلى موضع فنبشت فى التراب بيديها عن معدن تبر ، ونقلت هى وهو ما صُبِّرَ به القارب . ثم أخذها معه وأسرى حتى عاد إلى بلاده . وأقامت المرأة معه حتى تنصحت وأسلمت ورزق منها الأولاد وسألها عن نسوان تلك الجزيرة وانفرادهن دون الرجال ، فقالت له :

"نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة . ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها . وكل مَنْ فى أقاليمنا ومدننا من الملوك يعبدون هذه النار التى تظهر لهم بالليل فى هذه الجزيرة . ويسمونها بيت الشمس لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقى ، وتغرب فى جانبها الغربى فيظنون أنها تبيت فى هذه الجزيره . فإذا أصبح وأشرقت الشمس من جانبها الشرقى ، خفيت نارها وماتت ، وارتفعت الشمس فيقولون : هى هى . وإذا غربت فى جانبها الغربى وأمسى ظهرت النار فيقولون : هى هى . فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات ثم إن الله جعل المرأة فى بلدنا تلد أول بطن ذكراً ، وثانى بطن أنثيين ، وكذلك باقى عمرها . فما أقل الرجال فى بلادنا وأكثر النسوان . فلما كثرن وأردن التغلب على الرجال صنعن لهم المراكب وحملوا منهم آلافاً وطرحوهم فى هذه الجزيرة . وقالوا للشمس : يا ربهم أنت أحق بما خلقت ، وليس لنا بهم طاقة . ومنذ ذلك الوقت ما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم ، ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة . وبلادنا فى البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجىء إلينا فيرجع ؛ ولا يجسر أحد أن يفارق الساحل والبر خوفاً أن تشر به البحار" .

وفى رحلة ابن بطوطة حكاية من الحكايات التى دعت كثيراً من النقاد إلى التشكك من سفر عبد الله الطنجى إلى بلاد الصين . وهى حكاية نزوله ببلاد طوالسى ، عقب خروجه من مُلْ جاوه ، وركوبه الجُنْك عبر البحر الكاهل أو الراكد [الباسيفيك؟] . ولعبد الله اللواتى الطنجى عيون متطلعة نحو النساء فى كل رحلاته ، فلندعه يتكلم :

"ثم وصلنا إلى بلاد طَوالِسى . . . . وأهل هـذه البلاد عبدة أوثان حسان الصورة أشبه الناس بالترك فى صورهم ، والغالب على ألوانهم الحمرة . ولهم شجاعة ونجدة . ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيهم بمدينة كَيْلوكَرِى . . . . ولما كان فى اليوم الثانى استدعت الملكة أُرْدُجا الناخودة صاحب المركب ، والكِرَانى وهو الكاتب ، والتجار والرؤساء ، والتَّنْدِيل وهو مقدم الرجال ، وسِپَاه سالار وهو مقدم الرماة ، لضيافة صنعتها لهم على عادتها ، ورغب الناخودة منى أن أحضر معهم فأبيت لأنهم كفار ولا يجوز أكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقى أحد منكم لم يحضر ؟ فقال لها الناخودة : لم يبق إلا رجل واحد بَخْشِى — وهو القاضى بلسانهم — وهو لا يأكل طعامكم . فقالت : أدعوه ! فجاء جنادرتها وأصحاب الناخودة فقالوا : أجب الملكة . فأتيتها وهى بمجلسها الأعظم ، وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمّة يعرضن ذلك عليها ، وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها ، وقد جلسن تحت السرير على كراسى الصندل . ومجلسها مفروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل وعليه صفائح الذهب . . . [فلما سلم على الملكة أُرْدُجا كلمته بالتركية الخ] . . . وأخبره

الناخودة أن هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال . وأنها تخرج فى العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشتد فى القتال ، وتبارز الأبطال . كما أخبره أنه وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذى كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه ، فمات وانهزمت عساكره ، وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله بمال كثير . فلما عادت إلى أبيها ملّكها تلك المدينة . وخبرنى الناخودة أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول : لا أتزوج إلا من يبارزنى فيغلبنى . فيتحامون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم . ثم سافرنا عن بلاد طوالسى فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والريح مساعدة لنا . . . إلى بلاد الصين " .

ومهما كان نصيب هذه الحكاية من الصحة فإن بها نفحة أمازونية يشتم منها أريج الأسطورة موضوع حديثنا ، بل وأسطورة الوقواق إذا ذكرنا حكاية عيسى بن منير السيرافى عن الملكة دَمْهَرَة وقد دخل عليها فوجدها على سريرها عريانة . وما دام ابن بطوطة يذكر البحر الكاهل ، ويسافر من طوالسى إلى الصين ، فليس ببعيد أن تكون حكاية أُرْدُجَا نوعا من السطو الأدبى البرئ على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعاته عن البلاد التى فى شرق الصين ، ونسبها إلى نفسه وهو يملى على محمد بن جزى الكلبى ما وعته الذاكرة من رحلاته .

بنات الماء وشيوخ البحر

« النمفيا » و « السّيرينا » و « الدريّاد » فى الأساطير اليونانية مخلوقات وسط بين الإنس والآلهة ، تسكن الغاب والغدران والعيون ومياه البحار . وكان أخيل بطل الإلياذة ابن الإلٰهة طِيطِس من آلهة الماء وفيليوس ملك المِرْمِدُونة . وعرف أودِسْيُوس بطل الأوديسية أنه سوف يمر بساحل « السيرينا » ، وأن بنات البحر الجميلات ذوات الصوت الخلاب سوف يغررن بنوتيته كعادتهن مع كل من يعبر بجزيرتهن ، فيترك النوتية السفينة ويلقون بأنفسهم فى البحر لمطاردة الغوانى الساحرات ، ويُقْضَى عليهم كما قُضِى على غيرهم من قبل ؛ لذا أمر فحشيت آذانهم بالموميا ، وطلب أن يربط هو إلى الدَّقل إحصانا لنفسه من أن يفقد رشده لدى سماع أناشيد السّيرينَا . وإنه لمنظر رائع من مناظر الأودسية إذ تمر سفينة أودسيوس بجزائر بنات الماء ، وقد امتلأ الجو إغراء ، وهدأ البحر واستكن كأنه أول مفتون بالأناشيد الإلٰهية .

وفى الأساطير الهندية مخلوقات وسط بين الإنس والحيوانات المائية ، تعرف باسم « ناجا » أرفع مرتبة من البشرية ؛ ومن المأثور عن أحد مؤلفى « البيذ » Vedas ، وهى أقدم النصوص الدينية عند البراهمة ، أنه منحدر من أصل سمكة .

وقد تداول كتاب العرب فى القرون الوسطى أسطورة بنات الماء وشيوخ البحر عن الأساطير الهندية واليونانية ؛ ولكنا لا نستبعد ، ونحن ندرس تطورها فى المؤلفات العربية ، عنصر الواقع نتيجة تجارب البحريين ، ممن

رءوا بعض الأحياء المائية توحى بما ترامى إليهم من الأساطير ، فمزجوا بين الوصف الواقعى والخرافى ، وأتم كتاب العجائب هذا المزج حتى اختلط الواقع بالأساطير .

والأحياء المائية التى نشير إليها إما أسماك بعينها ذات شبه آدمى ؛ أوهى أنواع من الفقم الذى نعرفه اليوم باسم شيخ البحر ، وسبع البحر ، من فصيلة *Phocænæ* ؛ والدُّوجُونْج المعروف فى البحار الحارّة ، من فصيلة الـ *Sirenæ*

وأنواع الفقم والدوجونج حيوانات مائية لبونة ، يسبح بعضها فى الماء واقفاً وقد ظهر رأسه وشواربه ورقبته وصدره فوق الماء كأنه نوع من الكلاب ، براق العينين ، سريع الحركة ، قوى السباحة ، له صوت كثغاء الماعز ؛ ويستطيع الفقم البهلوانى المعروف إذا خرج إلى البر أن ينتصب واقفاً بمعونة قائمتيه الأماميتين ، وأن يتحرك على اليابسة حركات فيها كثير من النشاط ؛ بينما يحبو شيخ البحر على بطنه ، ويسحب وراءه بقيـة جسمه كأن نصفه الأسفل مصاب بالشلل ، وقد امتد ساقاه إلى خلف فى محاذاة الذيل ، وتفرطحا حتى كأنهما زعانف السمك .

والغالب أن منظر الفقم فى البحر عن بعد شجع البحريين على نشر قصصهم عن إنسان الماء بوجه عام ، وبنات الماء بوجه خاص ؛ ولقد ساعدت على انتشار هذه الحكايات فـكرة بيولوجية ظلت مستولية على عقول القدماء وأهل القرون الوسطى ، وهى فـكرة إمكان اجتماع مخلوقات متباينة ينتج عنه أنواع وسط بين الوالدين . وهذه النظرية العجيبة كانت أساسية جداً فى التفكير العلمى والشعبى أثناء القرون الوسطى ؛ ولذا نعرض لبعض صور

من أسطورة إنسان الماء توضح تلك النظرية . قال صاحب كتاب «عجائب الهند» :

"وحدثنى أبو محمد الحسن بن عمرو عمن حدثه من شيوخ البحر أنه دخل الأغباب وجالس بعض ملوك الأغباب فقدم إليهم طعاماً يأكلونه ، وكان فيما قدم غضارة فيها ألوان مطبوخة برءوس وأيدى وأرجل تشبه رءوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم ؛ قال فعافت نفسى ذلك الطعام ، ورجعت عن أكل طعامه بعد أن كنت قد انبسطت ، ففطن الملك لذلك فأمسك ؛ فلما كان من الغد حضرت عنده فكلم أصحابه بشىء فوافوا بسمك يحملونه ، لولا أنى رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدف ، ما شككت فى أنه ابن آدم ، فقال لى الملك : الذى كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا . وهو أطيب سمكنا وأعذبه وأخف ضرا . قال : فكنت آكله بعد ذلك".

"وحدثنى بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن فى بحر الحبشة سمكا له وجه كوجه ابن آدم ، وأجسامهم لها الأيدى والأرجل ، وأن الصيادين المتغربين الفقراء ، المتطرفين فى أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التى لا تسلك ، المعالجين فيها طول أعمارهم ، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبنى آدم اجتمعوا به فتوالدوا بينهم نسلا شبيهاً لبنى آدم يعيش فى الماء والهواء . وربما كان الأصل فى هذا السمك من بنى آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك فتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبنى آدم ، ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة ، كما يجتمع الآدمى ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من حيوان البر فيتوالد بينهم القردة والنسانيس ، وغير ذلك مما يشبه

ابن آدم ؛ وكما تجتمع الخنازير والجواميس ، وكان بينهما الفيلة ؛ وكما يجتمع الكلاب والمعز ، وكان بينهما الخنازير ؛ وكما يجتمع الحمير والخيل ، وكان بينهما البغال . ولو ذهبنا نعدد ما ينتج من اجتماع الأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارئ ، ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند خاصة ... ويقال إن كل طائر فى الهواء وعلى وجه الأرض ، فى البحر من السمك مثله أو ما يشبهه " .

وحكى ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ، قال :

" جاسك جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس وعمان ، قبالة مدينة هرمز ، بينها وبين قيس ثلاثة أيام ... يسكنها جند ملك جزيرة قيس ؛ وهم رجال أجلاد أكفاء . لهم صبر وخبرة بالحرب فى البحر ، وعلاج للسفن ليس لغيرهم ؛ وسمعت غير واحد من جزيرة قيس يقول : أُهْدِىَ إلى بعض الملوك جوارى من الهند فى مراكب ، فرفأت تلك المراكب إلى هذه الجزيرة ، فخرجت الجوارى يتفسحن فاختطفهن الجن فولدن هؤلاء الذين بها " .

ومع توارد هذا الخبر على ألسنة الجغرافيين العرب ، فإن ياقوت الحموى — وهو ابن زمانه ، مضطر أن يوسع كتابه لكل ما يتداوله الناس عن البلدان — لم تفارقه ملكة النقد ، كما فارقت الكثيرين من أهل عصره ؛ فهو حريص أن ينسب الأسطورة إلى قائليها ، وهم « غير واحد من جزيرة قيس » . ثم يسرع فيحاول لها تفسيراً : " يقولون هذا لما يروى فيهم من الجلد الذى يعجز عنه غيرهم ، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح فى الماء أياماً ، وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض " .

ولعل أحسن عرض للفكرة البيولوجية التى أشرنا إليها ، ما كتبه الدمشقى فى « نخبة الدهر » :

"والمرجان حجر نباتى ، ونبات حجرى ، متوسط فى خلقه بين النبات والمعدن فهو واسطة بينهما ، واقف فى آخر المعادن وأول النبات [المرجان حيوان بعينه ، لا هو بالنبات ولا هو بالمعدن] كوقوف النخل والوقواق متوسطاً فى آخر النبات وأول الحيوان ، وكالقردة والذباب والببغاء وشيخ البحر بالتوسط بين الحيوان والإنسان ، وهم فى آخر الحيوان وأول البشرية ، وكتوسط الغول بين الإنسانية والجان والحيوان ، وكتوسط السحاب بين الهواء والماء ، وكتوسط الزئبق بين الماء والمعدن ، وتوسط الدخان بين النار والهواء ... وكتوسط الحلزون والصدف بين المعدن والحيوان ، وتوسط الإنسان بين الملك والحيوان".

فكرة التوسط متمكنة من عقول هؤلاء الناس إلى حد أنها تتعدى توسط البغال بين الخيل والحمير ، إلى التوسط بين أنواع مختلفة من الحيوان نعرف يقيناً أنها لا يمكن أن تجتمع ، وإن اجتمع بعضها فلغير نتيجة . ولا تقف الفكرة عند هذا ، بل هى تذهب إلى حد التوسط بين الجمادات والأحياء ، وبين الحيوان والنبات ، وبين الملائكة والحيوان ، بل وبين الإنس والجن والحيوان !

وفهم هذا النوع من التفكير هام جداً لمتابعة الكثير من أساطير القرون الوسطى والعصور القديمة . ومن العبث محاولة إبرازه على أنه صورة بدائية من صور نظرية التطور قبل أن يفكر فيها لامارك وداروين ووالیس فى القرن

التاسع عشر . إنما يمكن القول بأن اتجاه الفكر إلى الوحدة الأساسية فى كافة الكائنات ، وتفرع بعضها عن البعض تفرعاً فيه بعض التنسيق ، كان فى تلك العهود نتيجة لصور ذهنية بسيطة أنشئت على محض تشابه سطحى عارض ؛ ولم يكن هذا التفكير خاصاً بعلماء المسلمين ، بل انتقل إليهم من العلوم القديمة ، شرقية كانت أو غربية .

وفكرة التوسط تساعدنا على فهم تذبذب أسطورة إنسان الماء فى مؤلفات القرون الوسطى بين الواقع من وصف الفقم باعتباره حيواناً مائيا بعينه ، وبين الخرافة بوصف أنه نوع من الآدميين يعيش فى الماء .

فالقزوينى يقول فى حديثه عن حيوانات بحر الهند : "وفيه سمكة وجهها كوجه الإنسان ، وبدنها كبدن السمك ، وعلى وجهها نقط ؛ وتظهر على وجه الماء" .

وعن حيوانات بحر المغرب : "ومنها الشيخ اليهودى ، قال أبو حامد : حيوان وجهه كوجه الإنسان ، وله لحية بيضاء ، وبدنه على شبه الضفدع ، وشعره كشعر البقر ، وهو فى حجم عجل ، يخرج من البحر إلى البر ليلة السبت حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، فإذا غابت ، وثب كما يثب الضفدع ، ودخل الماء فلا تلحقه السفن" .

وهذا وصف طيب للفقم المعروف بشيخ البحر ، إذا تجاوزنا عن حكاية يوم السبت وهى خرافة فرعية جاءت تفسيراً لاسمه .

وفى باب « حيوان الماء » : "إنسان الماء : يشبه الإنسان إلا أن له ذنباً ؛ وقد جاء شخص بواحد منه فى زماننا إلى بغداد ، فعرضه على الناس

وشكله كما ذكرنا ؛ وقد ذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء إلى البر إنسان له لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ، ويبقى أياماً وينزل " .

وفقم البحر الأبيض المتوسط ، ونعرفه اليوم باسم « الفقم الراهب » ، يوجد على جميع شواطئه ، يغشى الكهوف ، فى منتأى عن الناس ؛ وقد وقع واحد من هذا النوع فى شباك الصيادين على شاطئ البحر إلى الشرق من بور سعيد ونقل حيا إلى معهد الأحياء المائية بالإسكندرية ، وعاش هناك بعض الوقت ، وما زال يعرض محنطاً بمتحف ذلك المعهد إلى اليوم .

ولكن القزوينى يأبى إلا التفكهة على حساب العلم ، والإغراق فى تصيد العجائب فيقول : " وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فأراد أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ؛ فقيل للولد : ماذا يقول أبوك ؟ قال : يقول أذناب الحيوانات كلها على أسافلها ، ما بال هؤلاء أذنابهم على وجوههم ؟ " .

ويؤكد الدمشقى ، فى كل مرة يرد ذكر الفقم ، أنه حيوان على صورة الإنسان ، فهو قائل فى الكلام عن نهر إتِلْ [الفولجا] :

" وذكر صاحب « تحفة الغرائب » أن لهذا النهر حيواناً كصورة الإنسان ، أسود اللون طويل القامة ، كبير الجثة ، يخرج من الماء إلى سرته ، وينظر يميناً وشمالا . فإذا أحس بإنسان فى البر غاص فى البحر لا يعلم منه غير هذا ، ولا يصطاد بحيلة قط " .

وفى حديثه عن البحيرات المالحة ينقل عن الإدريسى " أن فى بحيرة خوارزم حيواناً يظهر على سطح الماء على صورة الإنسان ، يتكلم بكلام

لا يفهم ثلاث كلمات أو أربع ثم يغوص . . . " .

وعن بحر الروم : " قال المعتنون بتدوين العجائب إن فى بحر الروم من الحيوان العجيب سمكة كصورة الرجل أحمر اللون كبير الجثة ، رأسه مثل رأس القرعة ، أبيض كأنه رأس إنسان محلوق ، وجهه طويل وفمه كتكوين فم القرد ، وله وذجان من لحيته إلى أصول رقبته كالزرين بارزين ، وليس له رجلان ، وله يدان صغيرتان ، وبدنه من نصفه الأسفل بدن سمكة بذنب مفروش ، يظهر بوجه الماء نصفه الأعلى ، ويتلفت برأسه يميناً وشمالا ، وعيناه كبيرتان كعين البقر ، مستديرتان فى وجهه ، ثم يغطس على رأسه فى الماء ، كالمنقلب سفلا من العلو ؛ وكثيراً ما يرى هذا الحيوان بالقرب من السواحل بأذيال من الجبال ذوات المغائر والمداخل . ومنها موضع وجه الحجر من طرابلس الشام " .

فهذا وصف على شىء من الدقة للفقم الراهب ، ولسنا نطالب شاعر ربْوى المتصوف بمعرفة أن هذا الذنب المفروش مكون من ساقين مفرطحتين قصيرتين بينهما ذنب أصيل .

فإذا تحولنا من الواقع إلى الأسطورة وجدنا أول مردد لها هو ابن خرداذبة فى كتاب « **المسالك والممالك** » ، قال عبيد الله :

" وحدثنى محدث أنه بدا له إلى ناحية سمرقند حاجة ، فخرج إليها وله ثم صديق ، فسأله عن عجائب عين هَشْتَادَان دِرْ بتلك الناحية ، فأخبره أن فيها سكان الماء على خلقة بنى آدم أحسن ما خلق الله ، وأن راعى غنم من هذه الناحية كان يورد غنمه إلى هذه العين ، وبعض الرعاة كانوا يحدرون إليها

ولا يقربونها ، وكان هذا الراعى يضرب الوتر واليراع والمزمار ، وكان أهل العين يطفون على وجه الماء ويستمعون إليه ، فيتلذذون بصوت غنائه ؛ فبينما هو ذات يوم قد ضرب بالوترين ونام على رأس العين ، إذ عمد أهل العين جهاراً على وجه الماء ، وقبضوه كرهاً إلى عندهم ؛ فلما تم عليه يوم وليلة ولم ينصرف إلى أهله ، اغتموا له ، فأتوا تلك العين لاقتفاء الأثر ، فوجدوه وهو طاف على وجه الماء يسير ذاهل العين يكرهونه على الزمر وضرب الوتر ، وأهله يتضرعون إليهم ، ويسألونهم تخليته ، فلم يجيبوهم إلى سؤالهم ، فبقوا على ذلك ثمانية أيام لا يتجرأ أحد منهم أن يدخل العين فيخلصه ؛ فلما أصبحوا بعد اليوم الثامن ، لم يروا الراعى ، ولا أحداً منعه منهم ، وخفى عنهم أمره " .

هذه أول صورة لخرافة بنات الماء فى الجغرافيا العربية ، وهى تتخذ شكلها اليونانى السيرينى مباشرة ؛ ولعل ما يؤيد الأصل الإغريقى للأسطورة حكاية ابن الفقيه فى « **مختصر البلدان** » عن عطاء بن خالد المخزومى الذى قال : " كانت الاسكندرية بيضاء تضىء بالليل والنهار ، فكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ، ومن خرج اختطف ؛ وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر ، وكان يخرج من البحر شىء ، فيأخذ من غنمه ؛ فكمن له الراعى فى بعض المواضع حتى خرج ، فإذا جارية قد نفشت شعرها ، فتشبث بشعرها ، ومانعته عن نفسها فقوى عليها وذهب بها إلى منزله ؛ فأنست بهم ، ورأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم عن ذلك فأخبروها أن من خرج من ذلك الوقت اختطف ؛ فعملت لهم الطلسمات ، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر " .

وتفصيل هذه القصة وارد فى تاريخ الوليد العمالقى حين غزا مصر أيام الملكة حورية، حسب ما جاء بكتاب «**مختصر العجائب**»؛ وليس بمجد أن نحاول التوفيق بين التاريخ المصرى القديم كما كشفت عنه الآثار الفرعونية، وبين ما ورد عنه فى كتب العرب، من أمثال العمالقى هذا، والملكة دلوكة صاحبة الطلسمات وبانية حائط العجوز حصن وادى النيل الحصين. ونظرية كارا دى ڤو، مترجم كتاب «**المختصر**» إلى الفرنسية، هى أن هذا التاريخ العجيب ربما كان من أصل قبطى شعبى، تناقلته الأجيال بالسماع. قال المدعو ابراهيم بن وصيف شاه:

"وتقدم الوليد بجيش عظيم لغزو مصر أيام الملكة حورية، وتقدم العمالقى يطلب يد الملكة، فكانت تقيم العقبات فى سبيل ذلك الزواج بوضع شروط له، منها أن يعيد بناء الإسكندرية، وكانت قد خربت منذ غادرها أهل عاد؛ وأضاع الوليد فى إعادة بناء الإسكندرية كل ماله، إذ كانت تخرج دواب البحر كل ليلة وتقتلع من أحجار الأساس ما وضع بالنهار، وتهدم الأسوار، وتجعل أعالى المبانى أسافلها؛ وحزن الوليد لهذا حزناً شديداً؛ وكانت حورية أرسلت له قطيعاً من الغنم قوامه ألف رأس ليحصل منها على اللبن اللازم لغذائه، فسلمها لراعى غنم من ثقاته؛ وكان من أمر هـذا الراعى أنه يسوق القطيع وسط الخرائب. وبينما هو يسوقها ذات مساء فى طريق العودة، خرجت من البحر جارية جميلة افتتن الفتى بها وجعل يبثها غرامه، وهى تغريه وتعده على شريطة أن يصارعها فيغلبها، أما إذا غلبته فلها رأسان من الغنم؛ وجعلت تغلبه حتى استولت على نصف القطيع، بينما النصف الآخر قد

صار هملا بسبب انصراف الراعى إلى غرامه ؛ ونال منه السقم وشحب وجهه فذهب إلى سيده يقص قصته ، فلبس الوليد العمالقى ملابس الراعى وانتظر إلى المساء حتى جاءت الجارية وقبل شرطها وصارعها فانتصر عليها ، وكبلها بالأغلال فقالت له : أعطنى للراعى الأول فهو أحق بى منك ، إذ جعلته ينتظرنى طويلا . فوهبها الوليد للراعى وأوصاه إذا ما انفرد بها أن يسألها عن سر هدم المنشآت بالليل ، وعرف الراعى منها أن بالبحر دوابا تخرج بالليل وتهدم ما يبنى " [معربة عن الترجمة الفرنسية] . ولقفتــه ما يكتبه على أوراق يربطها بحجارة ، يخرج بها المصورون فى فلك إلى مكان كذا من البحر وقت الظهيرة وهناك يرمون بالحجارة يميناً وشمالا ، وينتظرون ساعة من الزمان ، فتجتمع دواب البحر حول الفلك وتخرج من الماء ، ويصورها المصورون بأقرب ما يستطيعون لها تشبيهاً ؛ ثم تصنع تماثيل من الذهب لتلك الدواب ، ومن النحاس والحجارة ، وتوضع حجزاً بين أساسات المبانى والبحر ؛ فإذا خرجت الدواب ورأتها ولت هاربة دون أن تعود . فنقل كل ذلك للوليد ، فعمل به واختفت الدواب البحرية .

ويصف صاحب « المختصر » فى موضع آخر الأمم التى تسكن الأرض :

" ومن ذلك أمة بجزيرة على شبه النساء ، يقال لها بنات الماء فى صور النساء الحسان ذوات الشعور السبط ، لهن . . . . ثدى وكلام لا يفهم ، وقهقهة وضحك . وحكى عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم إلى جزيرة فيها شجر وأنهار عذبة ، وأنهم كانوا يسمعون جلبة وضوضاء وضحكا فكمنوا لهن ، وأخذوا منهن امرأتين فأوثقوهما ، وأقامتا مع اللذين أخذاهما أياماً . . . . .

وأن أحدهما وثق بصاحبته ، فأرسلها من وثاقها فهربت إلى البحر ولم يرها بعد ذلك ، وبقيت الأخرى مع صاحبها مستوثقاً منها ، فحملت منه ، وولدت ولداً ذكراً ؛ وأنهم ركبوا البحر فلما حصلت فى المركب رحمها وحل ميثاقها ، وقد رأى أنها لا تزول عن ابنها ؛ فتغفلته ووثبت إلى البحر ؛ فلما كانت بعد ذلك بيوم ظهرت له وألقت إليه صدفة در ".

ولا بد أن يكون جد أبى الزهر البرختى الناخوداة أحد هؤلاء البحريين إذا صدقنا ما حدث به صاحب « **عجائب الهند** » عن أبى الزهر ، وكان للبرختى خال يعرف بابن إنْشِرْتُوا قص عليه بشىء من التفصيل قصة كثيرة الشبه بما نقلناه عن « **مختصر العجائب** » ، نكتفى بإيراد قسمها الأخير :

" أما المرأة التى بقيت مع أبى فقد استولدها ستة أولاد أنا سادسهم ، وأقامت عنده ثمانية عشر سنة مقيدة ؛ وكان الشيخ الذى جاء من جزيرة الحوت موطن أمى قد أوصى والدى بأن لا يطلقها فتطرح نفسها فى البحر وتمضى ، فهم قوم لا صبر لهم عن الماء ، لأنهم من نتاج إناث حيوان البحر وذكور بنى آدم . ولما كبرنا نحن وتوفى والدنا ، وكنا نلومه فى تقييدها بغير علم ، أطلقناها من القيد رحمة لها وبراً بها ؛ فخرجت كأنها الفرس السابق ، وانطلقنا خلفها فلم ندركها ، فقال لها بعض من قرب منها : أتمضين وتتركين أولادك وبناتك ؟ فقالت « إنْشِرْتُوا » معناه « ماذا أفعل بهم ؟ » وطرحت نفسها فى البحر ، وغاصت كأقوى حوت يكون ".

ولعل أعجب صورة من هذه الحكاية نفسها ، ما ورد فى كتابات جابر بن حيان العالم الكيماوى العربى عند ذكر الخواص : " زعم بعضهم أن

حيوانا فى البحر جبهته من حجر أصفر إذا صيد ذلك الحيوان ، وهو على خلقة الإنسان ، وذبحه ذابح وأخذ من الحجر الذى فى جبهته قيراطا فألقاه على عشرة أرطال قمراً قلبه شمساً من غير تدبير . وهذا الحيوان يعرف بطبيب البحر . وذلك أن الحيوان إذا مرض منها شىء وأتته فأومأت إليه بموضع العلة فمسح ذلك الحجر على ذلك الموضع مرتين أو ثلاثا فيعرق ذلك الحيوان ويبرأ ويرجع سليما . وإنما عرف ذلك منه أنه إذا صيد بقى فى ما بقى من عمره إلا أنه يطلب التفلت أى وقت وجد الفرصة رمى بنفسه إلى الماء . فإذا أصاب أحد الحيوان شىء من العلل أخذ ذلك الحيوان فمسح بجبهته ذلك الموضع وأبرأه من ساعته . ولقد رأيت قوماً من البحريين الملججين العلماء وسألتهم عن طبيب البحر فإذا أمره أشهر مما قدر ، فضمنوا إلىّ أنهم يرونيه . فلما أن لججنا فى البحر وصلنا إلى جزيرة تدعى سنديات ، إذا نحن بجماعة من الأطباء . فقلت اعملوا الحيلة فى صيد واحد منها . وألقينا الشبكة وحصرناهم فوقع واحد منهم فيها ، فلما أن حصلت رجلاه وظن أن لا خلاص له فلم يجد مخلصاً جعل يلطم كلطم المرأة على خديه شديداً . وتبينت جبهته فإذا هى حجر يلمع . فأخذته فإذا هى جارية حسناء كأحسن ما يكون من الصور . فبنيت له بيتاً فى المركب وحبسته فيه . وعرض لبعض أهل المركب تشنج فأخرجته ومررت به على ذراع المتشنج وساقيه فأبرأه لوقته . ورآه غلام معى فتعشقه ، ولم يزل يلح فيه إلى أن خفت عليه الهلكة منه . فجعلته معه فى البيت ، فصبر الغلام معها على ذلك وزاوجها وأحبلها فولدت غلاما وتربى ، إلا أن خلقته كخلقة الإنسان ، وفى جبهته شىء يلمع ليس كالأم . فلم أر قط شيئاً أعجب من

أمره . فلما كبر الصبى ورأيت ميل الأم إليه ميلا عظيما ، وهى مع ذلك لا تتكلم مع طول المدة بكلمة واحدة أكثر من الهمهمة شيئاً لا صوت له إلا خفىّ جداً أمنّا أن ترمى بنفسها فى الماء . فجعلت تدخل وتخرج ، وللمركب جوانب عالية ليس تلحق أن تظفر منها . فلم تزل تؤانسنا وترتقى من موضع إلى موضع حتى إذا وثقت بأنا أمناها صعدت ورمت بنفسها فى الماء . فجزع الغلام زوجها عليها فأخذ الغلام ابنه معه وهو مع ذلك لا يتكلم . فلما أن سرنا بعد ذلك وقعنا فى شدة عظيمة لا فرجة لها ، فإذا نحن بالطبيب جالس على الماء ليس منه شىء غائصاً . فإذا هى تومئ إلينا بالسلام ، فأومأ الناس إليها كلهم . . . وإذا هى سمكة . . . " .

ويعتقد بول كراوس أن جابر لم يقصد بهذه الحكايةِ إلّا إلى رمز من رموز السيمياء ؛ وأهمية الحكاية لنا أنها صورة مما نقلناه عن كتابى «**المختصر**» و«**عجائب الهند**» ، ولكنها صورة تدنينا دنواً واضحاً من الأساطير الهندية ، وعلى الأخص بالإشارة إلى الحجارة الكريمة التى يعتقد الهنود فى نموها بجبهات الأفيال والوعول والحيات والأسماك .

وما دام القزوينى سيد الحلبة فى مضمار الأساطير ، فمن الإنصاف أن نختم هذا الفصل ببعض ما نقله فى قاموسه الجغرافى « **آثار البلاد** » وموسوعته الكوزموغرافية « **عجائب المخلوقات** » : " قال صاحب «**تحفة الغرائب**»: بأرض الهند بحيرة مقدار عشرة فراسخ فى مثلها ، ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتيها شىء من الأنهار ؛ وفى تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسان ، إذا كان الليل خرج منها عدد كثير يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون

باليدين ، ومنهم جوار حسناوات ؛ ويخرج منها أيضاً حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبة الأشكال ؛ والناس فى الليلة القمراء يقعدون من البعد وينظرون إليهم ، وكلما كان النظار أكثر كان الخارجون أكثر ؛ وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة أكلوها وتركوا ما فضل منها على الساحل ؛ وإن مات منهم أحد أخرجوه من البحيرة وستروا سوأته بالطين والناس يدفنونه ؛ وما دام يبقى على الساحل لا يخرج من الماء أحد البتة " .

وكأن كل هـذا لم يكف علامة قزوين ، وأبى إلا أن يتسنم الذروة فى إيراد الغريب فقص الحكاية الآتية :

" ذكر أبو حامد الأندلسى فى كتاب « **العجائب** » الذى ألفه للوزير ابن هبيرة عن سلّام الترجمان رسول الخليفة إلى ملك الخزر قال : وأقمت عند ملك الخزر أياما ، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جداً وجذبوها بالحبال ، فانفتح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة ، فأخرجوها إلى البر وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله تعالى فى وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتيها كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت " .

وهكذا يتحول الواقع فى وصف الفقم والدوجونج ، إلى أساطير شيوخ البحر تميز بين السبت والأحد ، وبنات الماء تهوى الألحان فتتخاطف الرعاة الموسيقيين ، أوتمارس صناعة الطب بفضل حجر كريم نابت فى جبهتها ، ثم يجىء أبو حامد الأندلسى وسلّام الترجمان بحكاية جارية تخرج من أذن سمكة مستورة العورة وهى تولول وتنتف شعرها حتى تموت !

والمصيبة فى سلّام الترجمان لا تعدلها مصيبة ؛ فالقزوينى وابن الوردى وأبى حامد أن ينقلوا إلينا كل ما ترامى إلى سمعهم من غرائب ؛ أما سلام هذا فقد أرسله الخليفة الواثق فى مهمة ذات خطر ، حينما رأى فى منامه كأن يأجوج ومأجوج أفلحوا فى فتح السد ؛ كان على سلام أن يتحقق من أن تلك الأمة المفسدة ما زالت خلف السور محجوزة منذ أقام ذو القرنين بينها وبين العالم سداً من زبر الحديد . وسافر سلّام الترجمان إلى موضع السد واستوثق من قوته وثباته وسهر الحراس عليه ، وعاد إلى الخليفة عودة المحقق الصادق يهدئ من روعه . بماذا نفسر ما رأى الترجمان عند ملك الخزر ؟ أيكون الملك قد عرض على رسول خليفة المسلمين منظراً تمثيلياً من نوع « البانتوميم » احتفاء به واحتفالا بقدومه ، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة ؟ أو أن ملك الخزر كان ماجناً مهزاراً لا يرى عيباً أن يسخر من ضيفه فيُدْخِل عليه منظر الغانية التى تخرج من أذن سمكة « عظيمة جداً » ، فيبتلع سلام المنظر والغانية والسمكة الكبيرة ؟

الدر واللؤلؤ

إذا كان الأصل فى الأساطير العربية التى تحدثنا عنها حتى الآن هو الأساطير الهندية والفارسية واليونانية من جهة ؛ ومن جهة أخرى ما خبره الرحالون العرب وحدثوا به ، وتغالوا فى تفسير ما لم يتبينوه جيداً عن بعد ، أو لم يفهموا حقيقته ، فدخل فى باب العجائب ، أو أنه انتقل منهم بالسماع إلى المولعين بالأخبار فراح هؤلاء يرددون ما سمعوه دون فهم ، أو بفهم قاصر على اصطياد الغريب ، فليس ينتظر أن يقع كتاب العرب فيما وقعوا فيه حين يتكلمون عن اللؤلؤ ومغاصات اللؤلؤ . لأن الغوص على اللؤلؤ وتجارة اللؤلؤ من الحرف التى تابعها العرب والفرس فى الخليج الفارسى منذ آلاف السنين ، وعرفوها واشتركوا فيها مع صيادى الهنود بخليج منار بين جزيرة سيلان ورأس كومورين جنوب الهند . ومع هذا لم يسلم حديث اللآلئ من مادة خرافية تسمح لنا بمعالجة هذا الموضوع فى ذيل سلسلة من الأساطير البحرية العربية . ثم إن الكتب التى بأيدينا لم تفرّق بين ما أوردته عن جزائر النساء وشجرة الوقواق وبنات الماء من ناحية ، وبين ما ذكرته عن اللآلئ والعنبر من ناحية أخرى . إنما جاء هذا التفريق نتيجة لعملية التحليل التى اعتمدنا عليها لاستخلاص الواقع من بين أساطير أقامتها حوله مخيلات الكتاب وتفسير البحريين ، وتناقل الرواة ، وتداول الخرافات . وهى الأساطير التى أضفت على كتب الجغرافيا العربية والرحلات والعجائب الكثير من ألوانها المغرية ، وحببتها لدى القراء فى كل العصور ، وانتفع بها المخرِفُون من رواة

المجالس والأسواق وسمار الخاصة والعامة . وهى وإن كانت تعد عيباً من عيوب الموسوعات الجغرافية فى القرون الوسطى ، لم يخل منها فيما نعرف إلا كتاب « تقويم البلدان » للأمير عماد الدين أبى الفداء ، فإن ذلك لا ينتقص من قيمتها الذاتية كمادة لدراسة « الفوكلور » البحرى عند الشعوب الإسلامية ، وكعنصر أساسى تألف منه وحوله ضرب من الأدب العربى الخيالى نسميه « القصص البحرية » .

فحديثنا فى هذا الفصل إذ يتناول اللؤلؤ ومحاره ، وفى الفصل الذى يليه عن العنبر ودابته ، ينتقل من معالجة أساطير نمت حول لباب من الواقع ، إلى وصف إيجابى لوقائع لم يجردها كتاب العرب من الأساطير . ولقد كان العرب قاب قوسين أو أدنى من فهم طريقة تكوين الدر داخل الصدفة اللؤلؤية ، والعنبر فى جوف « البال الاسبرْماسِيتى » . و بقيت بينهم و بين التفسير العلمى الصحيح لهذا التكوين مادة خرافية هى التى توسع لهذا الفصل وما يليه مكانا فى المجموعة التى قدمنا لها بمقال « بين الواقع والأساطير » .

كثير من الحيوانات الصدفية ، ما يعيش منها فى الماء العذب أو فى البحار ، تتكوّن فى ثنايا أغشيتها المعروفة بالقباء [وهى الأغشية التى تغطى جسمها الرخو كالعباءة ، فاصلا بينها وبين أصدافها] أو بين هذه الأغشية وسطح الصدفة الداخلى نتوءات كروية لاصقة بالصدفة ، أوحبات مستديرة غير متصلة بالصدفة . أما النتوءات فتعرف باللآلئ الناقصة أو « القَلَع » . وأما الحبات فصغيرها هو اللؤلؤ وكبيرها هو الدر بعينه . ولكن اللآلئ والدرر الغالية لا تتكوّن غالباً إلا فى نوع من المحارات اسمه *Pintada margaritifera* و بعض الأنواع

القريبة . تعيش فى البحار الدافئه ، فى أعماق لا تتعدى مائة باع . وقد عرفت بعض المواضع فى البحر الشرقى العظيم منذ قرون سابقة على ميلاد المسيح ، وبعض مواضع أخرى بأمريكا الاستوائية بعد الفتح الأسبانى ؛ وأخيراً فى أستراليا والفليبين واليابان وأرخبيل الملايا وبعض جزائر أخرى بالمحيط الهادى ، بكثرة ما يتجمع فوق قيعانها من ذلك المحار . ولكن مغاصات اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ، وخليج مَنار شمال سيلان احتفظت بشهرتها على مر الدهور . وما تزال مغاصات جزائر البحرين فى خليج فارس تخرج للعالم أرفع وأجمل وأغلا دررِه .

وقد اختار ميكيموتو فى أواخر القرن الماضى جونات ببعض سواحل الجزر اليابانية جمع فيها المحار اللؤلؤى ، وأجرى عليه عملياته الدقيقة لإدخال حبات من اللآلئ الصغيرة بين أغشية المحار ، بعد أن يكسو الحبات بقطع حية من غشاء القباء ، متبعاً فى العمليات جميع وسائل التعقيم والعناية الجراحية حتى تستمر المحارات حية بعد إعادتها إلى قاع البحر . وتعمل المحارة على التخلص من الجسم الغريب ، فإذا لم تنجح أحاطته بنفس الإفراز الذى يفرزه قباؤها لتكوين صدفتها ؛ ولكنه يتخذ حول الجسم الغريب شكلا كرويا . فمادة اللؤلؤ من مادة الصدفة المسطحة ؛ أى من كربونات الكلسيوم بمقدار تسعة أعشار ، ومواد عضوية وماء إلى العُشْر . والأشعة الضوئية تنعكس من سطح الصدفة ، وتتكسر فى طبقاتها الصفيقة ، كما تنعكس وتتكسر على سطح اللآلئ أو سطح فقاعات الصابون . ولو تأملنا عند أول شروق الشمس أو قرب غروبها شاطئاً رمليا مبللا بماء البحر فى جَزْرِه أو فى تكسر أمواجه ، لرأينا

الأشعة الضوئية تنعكس على حبات الرمل المبلل ، وتتكسر بينها ، مما يكسب بعض مواضع من الشاطئ بريقاً كأنه الأصداف . إنما تبلغ الانعكاسات والانكسارات الضوئية ذروة قوتها و إشعاعها ، وتجمعها وتشتتها [وهو ما نعبر عنه بكلمة التلألؤ orient] حول الحبات الصدفية العجيبة النادرة التى تعرف باسم اللآلئ والدرر .

وقبل أن يجرى مكيموتو عملياته بقرون ، قال العالم الفرنسى رُونْدِلِيه فى سنة ١٥٥٤ بأن اللآلئ أمراض حصوية شبيهة بما يحدث فى جسم الإنسان والحيوانات . واكتشف فِيلْيِى سنة ١٨٥٢ يرقة دودة مفرطحة صغيرة تدخل فى قباء المحارة — كما تدخل يرقة البلهارسيا فى قواقع الماء العذب ، ولاحظ العلاقة بينها و بين مرض المحارة الحصوى . ثم أيده فى ذلك علماء آخرون ورأوا أن اليرقة تسكن أول ما تسكن بين القباء والصدفة ، وتستقر بين ثنايا القباء وتستدير ثم تموت . وتبدأ المحارة عملها فى مقاومة الجسم الغريب بإحاطته بالمادة الصدفية . ودرس عالم آخر تكون اللؤلؤ فى محارات الماء العذب فلم يجد أثراً للدودة ، و إنما لاحظ جسما غريباً ، ربما كان شظية دقيقة من سطح الصدفة الخارجى أحيطت بطبقة من الغشاء القبائى ، وبدأ تكوّن المادة الصدفية حولها .

المهم فى كل هذه البحوث أن جسما أجنبيا ، سواء كان دودة تموت وتتحلل أو شظية من سطح الصدفة ، ينفذ إلى داخل القباء فيحيطه هذا بمادة صدفية يفرزها فى طبقات هالية . ويكون هذا بدء تكوين اللؤلؤة . وإذا كان المحار ينجح دائماً فى التغلب على الجسم الغريب بهذه الوسيلة فليس معنى هذا أنه يكوّن

فى كل مرة درة يتيمة ، وإلا كانت اللآلئ أكثر وجوداً وأرخص ثمناً .

كأنى بالدرة الثمينة مخ الرجل العبقرى ، نفحصه بكل ما لدينا من أدوات الفحص ، ونحاول أن نفسر أعمال صاحبه بالبيئة والوراثة وغير ذلك ؛ ولكنا مضطرون آخر المطاف أن نترك للصدفة مجالا واسعاً فى تكوين المخ العبقرى .

والصدفة كلمة غير علمية ؛ إنما هى كلمة سهلة مناسبة ، نستر تحتها أو نعلن بها جهلنا . واللؤلؤة النادرة تكونت نتيجة عوامل نجهل بعضها فنقول دون أن نقصد اللعب بالألفاظ : اللؤلؤة بنت الصُّدَف كما هى وليدة الصَّدَف . هى الخال الجميل فى وجه الغادة الفتانة ؛ مجرد وجوده إلى جانب من الوجنة ، على اتجاه معين من ركن ثغر حلو ، يكسب الوجه سحراً غريباً غير مفهوم .

هذا بعض ما نعرفه اليوم من أمر الدر واللؤلؤ . فلنفحص على ضوئه ما كتبه العرب . قال أبو زيد حسن السيرافى :

" بدء خلق اللؤلؤ بلطيف تدبير الله تبارك اسمه وهو عز وجل يقول : « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ ومِنْ أَنْفُسِهِمْ وممَّا لاَ يَعْلَمُونَ » . فاللؤلؤ يبتدئ فى مثل قدر الأنْجُدَانة وعلى لونها وفى هيئتها وصغرها وخفتها ورقتها وضعفها ، فيطير على وجه الماء طيرانا ضعيفاً ويسقط على جوانب مراكب الغاصة . ثم يشتد على الأيام ويعظم ويستحجر . فإذا ثقل لزم قعر البحر ، ويتغذى بما الله أعلم به . وليس فيه إلا لحمة حمراء كمثل اللسان فى أصله ، ليس لها عظم ولا عصب ولا فيها عرق . وقد اختلفوا فى بدء اللؤلؤ فقال قوم إن الصدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر وفتح فاه حتى يقطر فيه من المطر فيصير حباً . وقال آخرون إنه متولد من الصدفة نفسها .

وهو أصح الخبرين لأنه ربما وجد فى الصدفة وهو نابت لم ينقلع فيقلع وهو الذى يسميه تجار البحر اللؤلؤ القَلْع [Blister Pearls] والله أعلم".

تفقس بويضات الحيوانات الصدفية يرقات تسبح فى الماء ، وهى أحياء دقيقة لا أصداف لها . ثم تثبت فى القاع وتشرع فى تكوين صدفتيها حتى تتحول إلى محارة صغيرة . وينمو جسمها وتضيف إلى صدفتها طبقة على طبقة . ونحن بحاجة إلى كثير من التسامح لنتصور أبا زيد فاهما هذا التطور حينما يتكلم عما فى قدر الأنجدانة ولونها وخفتها ، مما يطير على وجه الماء ويسقط على جوانب مراكب الغاصة . لأن اليرقات المتحركة التى كشف عنها العلم لا ترى بالعين المجردة . وأشار أبو زيد إلى جسم المحارة « وليس إلا لحمة حمراء كمثل اللسان » ، ولا نطالبه بتحقيق ما فى هذه اللحمة من أنسجة وأجهزة مركبة ، كما فى كل الحيوانات التى ارتفعت عن مرتبة ذوات الخلية الواحدة . أما نظرية تكوين اللؤلؤ من المطر فترجع إلى أقدم العصور وقد رددها بلينيوس فى تاريخه الطبيعى ؛ وهى خرافة جميلة ما تزال قائمة فى أذهان الناس . حدثنى شيخ عمانى ونحن فى شرفة قصره المطل على بحر الهند كيف تخرج المحارات إلى الساحل ، أو تطفو على سطح البحر وتفتح صدفتيها لتتلقى قطرات الندى ثم تعود إلى أعماقها . فإذا صفا الندى وصحت السماء انعقدت القطرات فى المحارة درراً غالية . ورب جو مكفهر ، أو قطر انضم على قذى فكان ذلك سبباً فى أن تتحول قطرات الندى لآلئ بخسة مغبرة . تفسير شعرى جميل يوافق ما فى اللآلئ من سحر خلاب ؛ فما أقرب إلى النفس الشاعرة أن ترى فى الدرر الغالية أشعة الفجر الصبوح ، وقطرات الندى الطاهر .

ولقد كان إيزيدورس الرحالة والجغرافى الذى عاش فى مطلع القرن الأول من الميلاد أقرب إلى الحقيقة حينما قال : "إن اللؤلؤ ينشأ عن شىء ينمو فى جوف المحارة" . وأبعد عنها إذ يقول : "وله أظلاف ، ويأتى بالغذاء . هو سرطان صغير يسمى حارس المحارة" . ويبدو من كلام أبى زيد أنه غير مصدق لحكاية قطر الندى ، بدليل قوله : "ويزعم الآخرون أنها تولد بداخل الصدف ، وهذا هو الرأى الأصح" .

وبينما يكتفى ابن خرداذبة وابن الفقيه الهمذانى وابن رستة والإصطخرى والحموى بذكر مغاصات اللؤلؤ المشهورة فى زمنهم ، نرى المسعودى والقزوينى والدمشقى والإدريسى يسهبون فى وصف تكون اللآلئ ، ويعنون بأمر الغوص والغواصين . ومازالت مغاصات اللؤلؤ مركز نشاط كبير شمال سيلان ، وفى الخليج الفارسى على شواطئ البحرين ، وحول جزيرتى قيس واللار . وهى المواضع التى أشار إليها هؤلاء المؤلفون .

يقول أبو الحسن المسعودى وهو يتحدث عن بحر فارس :

"وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خَارَك . . . وبينها وبين البحر فراسخ . وفيها مغاص لؤلؤ وهو اللؤلؤ المعروف بالخاركى . . . والغوص على اللؤلؤ فى بحر فارس إنما يكون فى أول نيسان إلى آخر أيلول . وماعدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها . . . . وهو خاص للبحر الحبشى من بلاد خارك وقَطَر وعُمان وسِرَنْديب وغيرها من هذا البحر . وذكرنا كيف تكون اللؤلؤ وتنازع الناس فى ذلك ، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر ، ومن ذهب إلى أن ذلك من غيره . وصفة اللؤلؤ العتيق منه والحديث المسمى بالمحار

المعروف بالبِلْبِل ، واللحم الذى فى الصدف والشحم . وهو حيوان يفزع من الغاصة على ما فيه من اللؤلؤ والدر كخوف المرأة على ولدها . وأتينا على ذكر كيفية الغوص ، وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللُّحمان إلا السمك والتمر وغيره من الأقوات . وما يلحقهم من شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلا من المنخرين ، لأن المنخرين يجعلون عليهما شيئاً من الذَّبَل ، وهو ظهور السلاحف البحرية التى يتخذ منها الأمشاط ، أو من القرن ، يضممها كالمشقاص ، لا من الخشب . ويُجْعَل فى آذانهم القطن وفيه شىء من الدهن ، فينعصر من ذلك الدهن اليسير فى قعر الماء فيضىء لهم بذلك ضياء نيراً . وما يطلون به على أقدامهم وأسواقهم من السواد خوفا من بلع دواب البحر إياهم ونفورها من السواد . وصياح الغاصة فى قعر البحر كالكلاب ، وخرق الصوت حتى يسمع صياح بعضهم بعضاً . وللغاصة والغوص أخبار عجيبة . وللؤلؤ وحيوانه ما قد أتينا على أوصاف ذلك ، وصفات اللؤلؤ وأثمانه ومقادير أوزانه ، فيما سلف من كتبنا " .

ومع أن الواقع يؤيد المسعودى فى أغلب ما ذكر فإننا نرى أثراً للأساطير فى حكاية شق الغاصة آذانهم لخروج النفس من هناك بدلا من المنخرين . إذ يبدو أن هذه نتيجة فهم خاطئ لما يلتجئ إليه الغواصون من سد فتحة المنخرين بمشقاص من الذبل [الباغة] . فالغواص لا يشهق داخل الماء ، ولا يملك إلا كتم أنفاسه ، ثم هو يبدأ فى الزفير عندما لا يستطيع لنفسه احتباساً ؛ وفى تلك اللحظة يعطى الإشارة لمن يمسكون الحبل الذى دلى به من سطح الزورق ليجذبوه بسرعة إلى سطح الماء . ومسألة الدهن المضىء

جديرة بالبحث عما إذا كان الغواصون استعملوا مواد فوسفورية مضيئة .
أما حكاية نفور دواب البحر من اللون الأسود فهى ذائعة مشهورة فى البحار الجنوبية ؛ والأمواج الصوتية تنتقل فى الماء بأسهل مما تنتقل فى الهواء . ويعرف ذلك البحريون عند ما يقربون فمهم من سطح الماء وينادون على زملائهم من بعد . ولكنى لا أعتقد أن يتاح للغواصين الصياح ، فالصياح ملزم بالزفير .

ويقول أبو زكريا محمد القزوينى فى « **عجائب المخلوقات** » عن بحر فارس : " اعلم أن أكثر جزائر هذا البحر مسكونة معمورة يأتيها الرجال ؛ منها جزيرة خارك بها معادن اللؤلؤ . ذكر البحريون أن صدف الدر لا يوجد إلا فى بحر تصب فيه الأنهار العذبة . فإذا أتى وقت الربيع يكثر هبوب الرياح وارتفاع الأمواج ، فتحمل الرياح رشاشات من بحر أقيانوس وفيه ماء شبيه بالزئبق لزج مثل الغراء ؛ فيتولد منه الدر بأن تقع تلك الرشاشات فى محل الصدف فيلقمه . . . . فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد دراً كبيراً ، وربما تقع رشاشات فتنعقد منها أجزاء صغار كما ترى فى أكثر الأصداف . ثم إن الصدفة إذا التقمت المطر خرجت من قعر الماء إلى ظاهره عند هبوب الشمال وطلوع الشمس وغروبها . ولا يخرج فى وسط النهار فإن شدة حرارة الشمس ووهجها تفسد الدر . فإذا خرجت فتحت فاها ليقع الشمال على الدر ، فينعقد من أثر الشمال وحرارة الشمس ويتكوّن فى الصدف كما يتكوّن الجنين فى الرحم . ثم إن جوف الصدف إن كان خالياً من الماء المُرّ يكون الدر كدراً أو أصفر غير منهدم . وإذا تم الدر فى الصدف ينتقل الصدف إلى موضع صلب

وتثبت عروقه فيه ، ويكون عند الناس خيراً . فإذا انتقل إلى أرض البحرين يهنئ الناس بعضهم بعضاً بوصول قفل الصدف . والغواص إذا نزل لإخراجه يقلعه من الأرض بالقوة ، فما أخرج فى وقته يبقى طريا ثقيلا ؛ وما أخرج قبل وقته أو بعده لا يبقى كذلك بل يتغير لونه ".

ويجمع الدمشقى فى « نخبة الدهر » بين كلام المسعودى والقزوينى بأسلوبه الرزين ، فى فصل عنوانه « وصف الدر واللؤلؤ وكيفية توليده فى أصدافه وذات حيوانه » :

" قال أرسطو فى كتاب الأحجار : الدر واللؤلؤ حجر شريف وجوهر ثمين معدنى حيوانى ، وهو الجوهر المختص بتسمية الجوهرية ؛ وما عداه فمن حيث عموم الجنس يسمى جوهراً . وهو من أجل الأحجار قيمة وقدراً ونفعاً ، وحلية تلبس . وتكوينه مباين لسائر ما عداه من الجواهر الشفافية لأنها ترابية وهو حيوانى . وذلك أن المطر يقع على ساحل البحر الفارسى فى فصل الربيع ، فيخرج حيوان صغير الجثة من قعر البحر إلى سطحه فيفتح له أذنيه كالسفطين فيلتقف بهما من المطر الواقع فى ذلك المكان والأوان قطرات . فإذا أحس بوقوعها وهو كالعطشان التقف منها . فإذا روى ضم عليها ضما شديداً خوفاً عليها أن يختلط بشىء من ماء البحر . ثم ينزل إلى قرار البحر كما كان ويقيم فيه إلى أن ينضج ذلك الماء وينعقد لؤلؤاً كبيراً أو صغيراً ذلك بحسب صفاء القطرات وكبرها .

" وقال أرسطو فى كتاب الأحجار إن البحر المحيط يهيج فى زمن الشتاء ، وتضطرب أمواجه فيكون عند اضطرابها رشاش فيخرج من البحر

المتصل به صدف الدر ؛ وداخل الصدف حيوان بحسب الصدف فيلتقمه كما يلتقم الرحم النطفة ؛ ثم يذهب به إلى المواضع الساكنة فى البحر فينغرس فى أرضه ، ويشرب بعروق له ، ويتشعب منه شجر ويصير نباتاً بعد أن كان حيواناً . فإذا كان أوان الغوص قطف مثل الثمرة النضيجة . يقول الحاذق إن هذا القول من أرسطو رمز وتورية . وهو نوعان كبير ويسمى الدر ، وصغير ويسمى اللؤلؤ . وأجود الدر المدحرج الصافى الشفاف الكبير الحجم الرزين النقى ، ويتفاوت فى الوزن من نصف مثقال إلى مثقال ونصف . وأجود اللؤلؤ النقى المستدير . واللؤلؤ ألوان فمنه أصفر مستدير ، ومنه أحمر ومنه أخضر ومنه أزرق ؛ وهذه الألوان لملاصقتها لأعضاء الحيوان الذى جاوره ؛ فالذى جاور الطحال صار أحمر ، والذى جاور المرارة صار أخضر بحريا . ومن خواصه تفريح القلب وبسط النفس ، وتحسين الوجه وإظهار جماله . ولا يظهر لون الزمرد مثل اللؤلؤ ، ولا لون اللؤلؤ مثل الزمرد . ويتخذ من طبقات الصدف اللؤلؤى صفائح شبيهة باللؤلؤ تسمى عروق اللؤلؤ" .

أما الإدريسى فقد أحاط بموضوع اللؤلؤ إحاطة تكاد تكون تامة :

"وأهم جزر البحرين جزيرة أوال وهى على مسيرة خمسين مرحلة من بر الفرس ، وأربع مراحل من بر العرب ؛ طولها ستة أميال فى عرض ستة أميال . . . وحاضرة جزيرة أوال اسمها البحرين ؛ وهى مدينة عامرة . . . وفى هذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ ، فى المدينة التى يصل إليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير . ويترقبون شهوراً طوالا موسم الغوص . ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد

التجار بمهارة الغاصة . ويكون الغوص فى أُغُشْت وشِتِنْبِر وقبل هذا إذا كانت المياه صافية . ويصطحب كل تاجر الغواص الذى اكتراه ؛ وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مائتى دونج ؛ وهى فلك أكبر من الفلك العادى يقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست بِلَنْجَات منفصلة . ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه المصفى له نصيب فى الكراء . ويخرج مع الغاصه أدلاء حذاق يعرفون المواضع لأن للأصداف مواضع تغشاها ، تذهب إليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها . فإذا خرج الغاصة من جزيرة أوال قادهم الدليل حتى إذا وصلوا إلى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر . فإذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطى الشراع ورمى الأناجر . وكذلك تفعل بقية الدوانج ، ويبدأ الغواصون فى العمل .

"ويبلغ عمق قيعان الصيد من اثنين إلى ثلاثة باعات . ويستر الغواص سوأته ويسد خياشيمه بالخلنجل وهو دهان من المومياء المذاب مع زيت السمسم ، ومعه سكين وكيس ، ويحمل حجراً وزنه أربعة قناطير أو ما أشبه ، معلق بخيط رفيع متين ؛ وهو يلقى فى الماء من ناحية المركب ويمسك المصفى بهذا الخيط بينما يقف الغواص على الحجر ويمسك الحبل بيديه متأهباً للقفز فى البحر . ثم يترك المصفى الحبل فينزل الغواص والحجر سريعاً إلى قاع الماء ، وهو واقف على الحجر ممسك الحبل بيديه . فإذا وصل إلى القاع جلس وفتح عينيه وجمع عاجلا كل الأصداف حوله . فإذا ملأ الكيس انتهى عمله ، وإلا فإنه يسعى قليلا دون أن يترك الحبل أو الحجر . فإذا تعب صعد إلى سطح البحر ليتنفس ثم يغوص ثانياً . فإذا امتلأ الكيس جذب المصفى الحبل

والكيس ، وأفرغه في البلنج وأرسله ثانيا إلى الغواص فى البحر . وما دام الغواص يجد الأصداف فهو يستمر فى صيدها .

" ويعد ساعتين يصعد الغواصون ويلبسون ملابسهم وينامون . ويأخذ المصنى فى فتح المحار بحضور التاجر الذى يجمع ما يخرج ويسجله فى زمام . ويأكل الجميع قبيل الغروب . وينامون طول الليل حتى يبدأ العمل فى اليوم التالى بعد الإفطار وهكذا طوال الموسم . فإذا فرغوا من قاع انتقلوا إلى غيره حتى ينتهى الموسم بنهاية شهرى أغشت وشتنبر ، ويعودوا إلى أوال ومعهم اللآلئ محزومة فى أوطاب . وعلى كل وطاب اسم صاحبه وعلامته ، وهو مغلق مختوم . وتسلم الأكياس إلى الوالى بمجرد مغادرة السفن . ويأتى يوم البيع فيجتمع التجار ، ويؤتى بكل وطاب وينادى على اسم صاحبه . ثم يكسر الختم وتفرغ اللآلئ فى ثلاثة أنواع من « الغرابيل » ذات ثقوب تختلف اتساعاً . ثم تباع الكمية بالمناداة ؛ فإذا أراد التاجر أن يحتفظ بها قيدت باسمه ، وإلا فإنه يبيعها ويقبض ثمنها نقداً ؛ وتدفع أجور الغاصة ومساعديهم نقداً . وينصرف الجميع مغتبطين . . . ويأخذ صاحب قيس أتاوة معلومة يدفعها التجار ، وهى تجمع باسمه أثناء البيع وترسل إليه . ويحتفظ صاحب أوال باللآلئ النادرة ليرسلها للخليفة :

" واللؤلؤ ينمو داخل الصدفة . ويقول سكان بحر فارس إنها تنمو حسب أمطار شهر فبراير . فإذا لم تمطر فى ذلك الوقت ، لم يجدها التجار طوال العام . وهذه مسائل ثابتة لايشك فى شأنها أحد من سكان البلاد .

" وتعلم حرفة الغوص فى فارس ، ويدفع للتمرن عليها بعض المال . فإن

الغواص يتعلم كيف يتنفس من آذانه ؛ ويحدث فى بدء تعليمه أن تصاب الآذان بالتهاب حاد، ويخرج منها صديد [humeur] (*) وتعالج بالعقاقير. وتدفع أحسن الأجور للغواص الذى يبقى فى الماء أكثر من غيره. وهم يعرفون بعضهم تحت الماء، ولا يعتدون على حدود بعضهم البعض، ولا يدعون التميز على غيرهم، ولكنهم يتبارون فى نشاطهم. وأغلب مغاصات اللؤلؤ فى بحر فارس، وبها نحو ثلاثمائة مشهورة مطروقة. ولقد ذكرنا أغلبها فى مواضعها، أى فى الكلام عن سواحل البحار والجزائر. ومغاصات هذا البحر أغنى وأكثر غلة من مثيلاتها بالهند واليمن، ولذا أسهبنا فى وصفها".

ومن المفيد أن نقارن هنا بين ما جاء فى جغرافية الإدريسى، وما ذكره ماركو بولو فى رحلته عن صيد اللؤلؤ بين شواطئ سرنديب الشمالية المعروفة بالأغباب والشواطئ الشرقية للطرف الجنوبى من الهند :

"واعلم أن البحر يكون هناك أغباباً بين جزيرة سرنديب وشبه جزيرة الهند. وعمق الماء فى هذه الأغباب لا يتعدى عشرة أو اثنى عشر باعاً، وقد لا يزيد عن باعين فى بعض المواضع. ويخرج صيادو اللؤلؤ فى مراكبهم الصغيرة والكبيرة إلى ذلك الموضع، ويشتغلون فيه من أول أبريل إلى أواسط مايو، بادئين بموضع يقال له « بِتْلار » ثم يتوغلون ستين ميلا فى الأغباب، ويرمون الأناجر ويتركون مراكبهم الكبيرة وينزلون فى دوانيج. واعلم أن التجار العديدين الذين يذهبون إلى هناك ينقسمون جماعة تكترى

(*) لم أستطع الحصول على نسخة عربية كاملة من موسوعة الإدريسى. لذا اضطررت فى بعض المواضع إلى التعريب عن الترجمة الفرنسية التى نشرها أميديه چوبير. وهى ترجمة حسنة الأسلوب ولكنها غير أمينة على الأصل.

كل جماعة عددا من الناس طول شهر أبريل ونصف مايو . ويدفعون إتاوة الملك تعادل عُشْر ما يصيدون . ويدفعون نصف العشر إلى السحرة القائمين على حماية الغاصة من السمك الكبار ، حين يشتغل هؤلاء تحت سطح الماء . وأولئك السحرة من البراهمة ، ولا يفعل طلسمهم إلا فى يومه لأنهم يبطلونه فى الليل فيعود السمك إلى سابق ضره . وهؤلاء البراهمة يسخرون الدواب والطيور وكل شىء حى . وإذا خرج الرجال بالدوانيج قفزوا إلى الماء وغطسوا إلى قاعه . وقد يكون القاع على عمق أربعة إلى اثنى عشر باعاً . ويلبثون فيه ما استطاعوا . وهناك يجدون الأصداف التى تضم اللآلئ فيضعونها فى كيس شبكى مشدود إلى وسطهم . ويعودون إلى سطح الماء بها ، ثم يغطسون ثانية . وكلما عجزوا عن إيقاف تنفسهم صعدوا إلى سطح الماء لحظة ثم عادوا إلى قاعه ، وهكذا حتى آخر النهار .

"والأصداف شبيهة بالمحار الذى نأكل ؛ وبالأصداف لآلئ كبيرة وصغيرة ملتصقة بلحم المحارة .

"وبهذه الطريقة تصاد كميات كبيرة من اللآلئ . ومن هناك تجىء اللآلئ المعروفة فى العالم . وصدقنى أن لملك البلاد دخلا طيباً وكنزاً مما يضربه من أتاوة على تلك اللآلئ .

"وحينما ينتصف شهر مايو يختفى المحار اللؤلؤى من هناك . نعم إنه يوجد على بعد ثلاثمائة ميل من ذلك الموضع ، ولكن لا يكون هذا إلا فى سبتمبر والنصف الأول من أكتوبر" .

والمعلومات التى يدلى بها السائح البندقى تنطبق إلى حد ما على ما نعرفه

اليوم عن موسم صيد اللؤلؤ شمال سيلان فى مارس وأبريل . وهى المدة الواقعة بين انتهاء الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وبدء رياح الجنوب الغربى العاصفة . والأعماق التى يوجد فيها اللؤلؤ تتراوح كما يقول ماركو بولو بين أربعة وعشرة باعات . ولا تزيد عن ثلاثة عشر باعا .

وفى كتاب « عجائب الهند » إشارة قد تحمل معنى تربية الأصداف اللؤلؤية ، إن لم يكن بالطريقة التى توصل إليها ميكيموتو فى العصور الحديثة فهى تدل فى أقلها على عناية الصينيين بجمع الأصداف اللؤلؤية فى مكان واحد . ولا نفهم لهذا الجمع معنى إلا إذا كان الغرض منه تربيتها أملا فى أن يعمل الزمن على نمو ما بها من لآلئ . قال بزرك بن شهريار :

"ومما يحكى عن بعض ملوك الصين ، وهو من الحكايات ، أن له بركة عظيمة يجيئها الماء من فرسخ ، ثم يصرف الماء عنها فينضب كله وهى فارغة . فإذا أحب أن تملأ ماء أمر بفتح الماء عليها من الموضع الذى يجيء منه ثم تطرح اللؤلؤ مع الماء . فيجرى الماء إلى البركة فى نهاية الصفاء واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلئ البركة من اللؤلؤ ويفيض الماء على جوانبها ثم يقطع الماء عنها ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى" .

وربما كانت الإشارة هنا إلى عادات أهل الصين ، إذ يفتحون المحار ويضعون بين القباء والصدفة تماثيل صغيرة للبوذا ، ويعيدون المحار إلى الماء . فإذا انقضى بعض الوقت أخرجوه فإذا البوذا وقد غطى بطبقة صدفية .

ويتردد ذكر اللآلئ كثيراً فى النصوص الهندية المقدسة . فالإله كِرِيشْنَا هو مكتشف اللؤلؤ حين غاص عليه فى البحر ليتخير منه درة يزين

بها جبهة ابنته ليلة عرسها . أو أن اللؤلؤ كان قربان العناصر إلى مَهَدِيو [ديو أو ديفا = الرب ، ماها = العظيم] :

" كان قوس قزح قربان الهواء ، فجعل الإله منه هالته . وقدمت النار سديماً فاتخذ منه نبراساً . والأرض ياقوتة فازدانت بها جبهته . أما البحر فأهدى إليه درة وضعها موضع القلب فوق صدره " .

فلا غرو أن تعزو الأساطير الهندية إلى اللآلئ خواص سحرية وآثر باذنية ، وأن يرد ذكر اللؤلؤ فى كتب المادة الطبية الصينية . ويظهر أن العرب نقلوا عن الهنود بعض خواص اللآلئ ؛ فهى درياق للسموم على ما يقول الدمشقى ، مقوية للقلب مجلية للبصر إذا صدقنا القزوينى .

قال أبو زيد حسن السيرافى : "ومن عجائب ما سمعنا من أبواب الرزق أن أعرابياً ورد البصرة فى قديم الأيام ومعه حبة لؤلؤ تساوى جملة مال ؛ فصار بها إلى عطار كان ألفه فأظهرها له وسأله عنها وهو لا يعرف مقدارها ، فأخبره أنها لؤلؤة ؛ فقال : وما قيمتها ؟ قال : مائة درهم ؛ فاستكثر الأعرابى ذلك وقال : هل أحد يبتاعها منى كما قلت ؟ . فدفع له العطار مائة درهم فابتاع بها ميرة لأهله . وأخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام فباعها بجملة من المال ، واتسع العطار فى تجارته . فذكر العطار أنه سأل الأعرابى عن سبب اللؤلؤة ، فقال : مررت بالصمان وهى من أرض البحرين بينها و بين الساحل مديدة قريبة ، فرأيت فى الرمل ثعلباً ميتاً على فيه شىء قد أطبق عليه ؛ فنزلت فوجدت شيئاً كمثل الطبق يلمع جوفه بياضاً ، ووجدت هذه المدحرجة فيه فأخذتها . فعلم أن السبب فى ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق

الريح ، وذلك من عادة الصدف ؛ فمر بها الثعلب فلما عاين اللحمة فى جوفها وهى فاتحة فاها وثب بسرعة فأدخل فاه فى الصدفة وقبض على اللحمة فأطبقت الصدفة على فيه . ومن شأنها إذا أطبقت على شىء وأحست بيد تلمسها لم تفتح فاها بحيلة حتى تشق من آخرها بالحديد ، ضنا منها باللؤلؤ وصيانة له ، كصيانة المرأة لولدها . فلما أخذت بنفس الثعلب أمعن فى العدو يضرب بها الأرض ، يميناً وشمالا إلى أن أخذت بنفسه فمات وماتت . وظفر بها الأعرابى فأخذ ما فيها وساقه الله إلى العطار فصارت له رزقا" .

وليس ببعيد أن يحدث ما حدث للثعلب ، إن لم يكن من المحارة اللؤلؤية فمن أنواع المحار الكبرى ، كالبُصْر أو السرُنْبَاق *Tridacne gigas* . ولهذا النوع صدفتان سميكتان عظيمتا الجرم ، متعرجتا الحواف ، إذا انطبقتا تداخل احديداب صدفة فى تقعر الصدفة الأخرى ، وانضمت حواف الصدفتين انضماماً وثيقاً ، بفعل عضلات قوية لدرجة يمكن معها فهم ما حدث للثعلب . وقد توجد لآلئ فى البُصْر ببعض المواضع ؛ ويعيش هذا المحار فى مياه ضحل تنحسر عنها المياه فى الجزر . لهذا يحتمل أن تكون المحارة التى عثر عليها الأعرابى من نوع البُصْر . إنما الخطأ الواضح فى حكاية أبى زيد حسن وفى أمثالها هو تفسير قفل الصدفتين بحنو المحارة على ما بها من لؤلؤ . وقد رأينا أن اللؤلؤ ظاهرة مَرَضِيّة ، أو بالأولى عملية دفاعية ضد جسم غريب نفذ إلى داخل المحارة . إنما تقفل المحارة صدفتيها دفاعاً عن كيانها ، لا عن لؤلؤها . وعضلات الحيوانات ذات الأصداف قوية ، تلزم الإنسان بشىء من المجهود ، بل وباستعمال سلاح لفتحها ، وقد تتكسر الصدفة كسراً قبل أن تفتح .

وعنصر الحظ والصدفة لا يقتصر على تكوين اللآلىء داخل أصدافها ، بل يمتد إلى عمليات الصيد ذاتها . فتاجر اللؤلؤ ، ونعنى هنا الممول لعمليات الغوص ، رجل يضارب بثروته أكثر مما يتجر . فقد يمضى الغواصون طيلة الموسم فى صيد المحار فلا يجمعون من اللؤلؤ ما يساوى التعب والمشاق والتكاليف لقلة ما يجمعون ، أو لغثاثة اللؤلؤ وكدر لونه وسوء تدحرجه . وقلة اللآلىء أو كثرتها لا علاقة مباشرة بينها وبين عدد ما يصيده الغواصون من المحار . فالقاعدة أن تفتح مئات الأصداف المصيدة على حصى لؤلؤ بخس أو على لا شىء . وقد تخرج درة أو درتان تعوضان التاجر عن كل خسارته ، وتفيضان عليه بعد هذا بالربح الوفير . وحكاية « عجائب الهند » عن الدرة اليتيمة التى اشتهرت فى بلاط بنى العباس تصور هذه الحقيقة :

قال بزرك بن شهريار الناخوداه الرام هرمزى : "وحدثنى غير واحد من البحريين بأمر الدرة المعروفة باليتيمة ؛ وإنما سميت اليتيمة لأنه لم يوجد لها أخت فى الدنيا . فأجودهم شرحاً للقصة حدث أنه كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشر . وكان رجلا مستوراً جميل الطريقة ؛ وكان ممن يجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ ؛ وكانت بيده بضاعة فلم يزل يجهز الرجال بالغوص ، ولا يرجع إليه فائدة حتى ذهب جميع ما كان يملكه ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شىء يجوز بيعه إلا خلخال بمائة دينار لزوجته . فقال لها أقرضينى هذا الخلخال لأجهز به ، فلعل الله تعالى يسهل لى شيئاً ؛ فقالت له : يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شىء نعول عليه وقد هلكنا وافتقرنا ؛ أفلَانْ نأكلَ بهذا الخلخال أصلح من أن تتلفه فى البحر . فتلطف بها وأخذ الخلخال

وصرفه وجهز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم . ومن شرط الغواص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لا غير ، وعلى هذا يتشارطون ، فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوماً ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يصل لهم شيء . فلما كان فى يوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفة استخرجوا منها حبة لها مقدار كبير ، لعل ثمنها يوفى بجميع ما كان علكه مسلم منذ كان وإلى وقته . فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله . فأخذها وسحقها ورمى بها فى البحر . فقالوا له : يا هذا الرجل ، لم فعلت هذا ؟ فقد افتقرت وهلكت ولم يبق لك شيء يقع بيدك مثل هذه الحبة التى لعلها تساوى آلاف دنانير فتسحقها . فقال : سبحان الله ! كيف أستحل أن أنتفع بمال استخرج على اسم إبليس ، وإنى أعلم أن الله تبارك وتعالى لايبارك . وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادى . ولئن انتفعت بها ليقتدين كل أحد بى فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله ؛ فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت ؛ والله لو كان مكانها كل لؤلؤ فى البحر ماتلبست به . امضوا فغوصوا باسم الله وبركة الله . قال فغاصوا على ما رسم لهم فما صلى صلاة المغرب من ذلك اليوم وهو آخر يوم من الستين ، حتى حصل بيده درتان إحداهما اليتيمة ، والأخرى دونها بكثير . فحملهما إلى الرشيد وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم ؛ وانصرف إلى عمان بمائة ألف ، فبنى بها داراً عظيمة واشترى ضياعاً واعتقر عقاراً . وداره معروفة بعمان . فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة" .

ونحن نشك فى أن يوجد بين تجار اللؤلؤ كثير مثل مسلم بن بشر . فهم

قوم غلاظ القلوب ، قساة على الغواصين ، شديدو الحرص والأثرة .

أما الغواصون فشرذمة من التعساء لا تعرف من العيش إلا خصاصته ، ومن الحياة إلا المشقة والخطر ؛ يتعرض أفرادها للموت اختناقاً وغلجا ، أو عضا وافتراساً ؛ وجلهم مصاب بالصمم نتيجة التهابات الأذن الوسطى ، معرض لفقد طرف من أطرافه تقرحاً أو شللا .

وتنتقل اللآلئ من الغاصة إلى التاجر . ثم تمتد الأيدى لتتخاطفها ما بين البحرين وبومباى وباريس وأمستردام ولوندرة ونيويورك ، حيث تنظمها أصابع الفنانين عقوداً من جمان . ويقدمها كهول العشاق لتزين بها الغوانى نحورهن . هناك تتبدد غياهب الجهاد والشقاء والجشع والمخاطرات الرهيبة فى ضوء الثغور الجميلة تتفتح ابتساماً وتشرق غبطة وخيلاء .

العنبر والبـال

العنبر إفراز مَرَضى [باتولوجى] متحجر ، من قبيل حصى المرارة فى الإنسان والحيوان ، يتكون فى أمعاء نوع من القياطس الكبيرة يعيش فى البحار الحارة على الأغلب . وقد عرفت هذه الدواب البحرية عند العرب بالأسماء الآتية : البال ، والبلّينة ، والأبلينة ، والوال ، والفال ، والأوال ، والقاطوس والقَنْعَدَة . وكلمة قاطوس وقيطس اسم نوعى لفصيلة الثدييات البحرية الكبرى التى نسميها « الحيتان » فى العصور الحديثة . وهو تعريب الاسم اليونانى Κῆτος ومنه Cetus باللاتينية . ولذا يطلق العلم على الفصيلة اسم Cetacae . والقنعدة كلمة لا أعرف اشتقاقها ولم ترد فى مراجعى أكثر من مرة أو مرتين ، والأسماء الأخرى مشتقة من الكلمة اليونانية Φάλαινα وهى التى انتقلت إلى اللغات اللاتينيـة والأنجلوسكسونية فى الكلمات : baleine بالفرنسية ، ballena فى الإسبانية ، wahl بالألمانية ، whale فى الإنجليزية . واستعملت كلمة « نون » لتعريف هذه الدواب . واشتقاق هذه الكلمة عن العبرانية נון (نون) ، أو الآرامية (نونا) .

وتنقسم فصيلة القياطس إلى ذوات الأسنان ، وذوات الألواح القرنية . وتنبت للأولى أسنان كما فى بقية الثدييات ، أما الثانية فلا تظهر الأسنان فى فكها إلا أثناء دور التكوين الجنينى ثم تتلاشى بعد ذلك وتنبت بدلها فى الفك الأعلى ألواح من مادة قرنية كانت تستعمل حتى أوائل هذا القرن لتقويم أثواب النساء ومشداتهن ، وأضلاعاً للمظلات .

والقياطس بأنواعها كانت وما تزال تصاد فى جميع البحار لاستخراج شحمها الغزير المختزن فى طبقة سميكة من الأغشية بين الجلد والعضلات تعرف فى الإنجليزية باسم blubber ونقترح لها كلمة « لحاف » وكان شحم اللحاف يستعمل وقوداً لذبالات المصابيح قبل اكتشاف وسائل الإضاءة الحديثة . ومن أفضل شحم البال ما يسمى الاسبرماسيتى وهو خاص بنوع من البال اسمه العلمى *Physeter catodon* أى « النفّاخ ذو الأسنان » ، والاسبرماسيتى لا يوجد فى « اللحاف » وإنما هو مختزن فى حوض عظمى كبير بأعلى جمجمته وهذا الحوض يكسب رأس البال الاسبرماسيتى شكلا صندوقياً فى استدارة .

ويستعمل شحم القياطس فى شتى الصناعات الزيتية بعد أن بطل استعماله للإضاءة . ويأكل صيادو القياطس لحومها .

وصيد البال حرفة قديمة يختفى تاريخ البدء بها فى ظلام القرون الخالية . ولكنها لم تنتظم وتتابع إلا منذ القرن السادس عشر حين خرج الباسْكِيُون من خليج غسقونيا إلى المحيط الأطلسى خصيصاً لصيد دواب البحر الكبرى ، والحصول على شحومها . وتدل إشارات كتاب المسلمين ومن قبلهم إلى هذه الدواب على أن سكان سواحل البحر الشرقى الكبير عرفوا كيف يستفيدون منذ أقدم العصور بشحمها فى بعض أغراضهم ، وبمادة أخرى لعبت فى الحياة الشرقية دوراً هاماً سواء كعقار مفرد ، أو مركب فيما يعرف بالند والغالية ، أو كعنصر من عناصر الأعطار والبخور ؛ تلك هى العنبر . وقد احتفظ العنبر بشهرته العظيمة ، وما برح ينتفع به فى الشرق كمادة طبية ؛ ولكن استعماله

فى الغرب أكثر ما يكون فى تحضير الروائح العطرية ، لا كعطر فى ذاته بل كمثبت لأريجها .

عرف القدماء بعض العلاقة بين العنبر ونوع من البال سماه العرب « دابة العنبر » . وورد فى هذه الدابة حديث صحيح ، هو أن النبى بعث ثلاثمائة رجل سرية وأمر عليهم عبيدة بن الجراح ، فأجهدهم الجوع حتى أن الرجل كان يقتات فى اليوم والليلة بتمرة واحدة . فبينما هم يسيرون على ساحل البحر إذ أصابوا دابة العنبر مثل الكثيب الأضخم ميتة ، فأكلوا منها شهراً حتى سمنوا . وكانوا يغترفون الدهن من وقب عينيها بالقلال ؛ وأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى الوقب ؛ وأخذ ضلعاً من أضلاعها فنصبه ، ثم اختار أعظم بعير وأركبه أطول رجل ، وأمره أن يدخل تحت الضلع فلم يبلغ رأسه مقعره . ولما رجعوا تزودوا من لحم السمكة حتى أوصلتهم إلى المدينة ؛ فلما قدموا حكوا ذلك للنبى فقال : هذا رزق ساقه الله إليكم فهل معكم شىء تطعموننا ، فأرسلوا إليه منه فأكل .

واهتدى العلماء فى القرن التاسع عشر إلى أن العنبر يتكوّن فى جوف البال . وذلك حين حللوا تلك المادة فقاربوا بينها وبين الكولسترين ، وقدروا أنها ترسب مرضى شبيه بحصى المرارة . والبال يتغذى بالأخطبوطات الكبيرة ، ولهذه مناقير قرنية كمناقير الببغاوات ، قائمة بازدواج فى فتحة الفم ، وهى الفتحة المحوطة فى نظام دائرى بالأذرع الثعبانية الثمانية ، ذات المصاصات الحجامية . وإذ وجد العلماء بداخل بعض قطع العنبر مناقير هذه الأخطبوطات اتجهوا فى تفسير تكوين العنبر إلى أنه نتيجة تهييج أغشية

أمعاء البال بواسطة هـذه المناقير ، فتترسب حول مركز التهييج مواد كولسترينية هى العنبر .

أما شعوب القرون الوسطى فلم تستطع أن تفهم سر تكوينه تماماً ، وكانت تجده فى الأغلب طافياً على وجه المـاء ، أو مطروحا على الشواطئ ولذلك راحت تبتدع نظريات لهذا التكوين باعدت بين تفكيرهم وبين الواقع . ولاقت دابة العنبر ذاتها من المغالاة فى الوصف ما كان منفذاً مباشرا إلى الأساطير .

قال التاجر سليمان إنه رأى « سمكا مثل الشراع ربما رفع رأسـه فتراه كالشىء العظيم ، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة . فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ، ثم فتح فاه فيرى السمك فى جوفه يغيض كأنه يغيض فى بئر . والمراكب التى تكون فى البحر تخافه ؛ فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكئ على المركب فيغرقه " .

ولو كان للبال الاسبرماسيتى زعنفة ظهرية كما فى بعض أنواع القياطس الأخرى لفهمنا إشارة سليمان إلى رؤيته سمكا مثل الشراع ؛ ويحسن أن نذكر دائماً كلما قرأنا وصفاً للقياطس فى مؤلفات القدماء أنهم رأوا أكثر من نوع واحد دون أن يميزوا بين الأنواع . أما حينما يقول سليمان بأن البال "ينفخ المـاء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة" فهو وصف ظاهر الصدق لما يراه البحريون عن بعد من تنفس القياطس .

فهذه الدواب البحرية من الثدييات كما قلنا ، ودمها حار ، تتنفس برئتيها الهواء الطليق فى الجو ، وتقع فتحة الأنف فيها فوق رأسها . وقد ظل الناس طويلا يحسبون البال يقذف بالمـاء من تلك الفتحة إلى أعلا مع زفيره .

ولكن الثابت هو أن ظاهرة « النفخ » مرجعها اندفاع غازات الزفير الدافئة المشبعة ببخار الماء وهى خارجة من رئتى البال ، ويتكاثف هذا البخار كما يتكاثف زفير الحيوانات ذات الدم الحار فى الجو البارد . وليس ما يمنع أن يختلط رذاذ ماء البحر بهذا الزفير ، ولكن هذا الرذاذ ليس مسؤولا عن ظاهرة النفخ الخاصة بالقياطس والتى جعلت معنى تسميته الدارجة عند الفرنسيين «النفاخ» . وصيادو البال يميزون بين القيطس البلّينى ذى النتوءات الفكية القرنيـة ، وبين البال الاسبرماسيتى بمجرد رؤية عامود البخار المتكاثف عن بعد . فدابة العنبر ترسل زفيرها فى عمود منفرد من فتحة واحدة . أما القيطس البلّينى فلازدواج فتحة أنفه ، يخرج زفيره المتكاثف فى عمودين .

وقد وصف بيل Beale انتظام دورة التنفس فى دابة العنبر فقال بأن البال البالغ يبقى على سطح الماء من عشر دقائق إلى إحدى عشرة دقيقة يزفر فى أثنائها من ستين إلى سبعين مرة ثم يغطس سبعين دقيقة . وغطسه سريع يبدأ فيه برأسه وقد تقوس جسمه الهائل ، وتخرج زعنفة الذنب من الماء وترتفع رأسيا ثم تختفى ، إذ ينفذ البال إلى الأعماق فى حركة تكاد تكون عمودية . وقد يبلغ عرض زعنفة الذنب فى أكبر الدواب المعروفة فى الوقت الحاضر ثلاثة أمتار ؛ ووضعها فى القياطس أفقى بخلافها فى الأسماك فهى رأسية .

وأول من تحدث عن وسيلة إفزاع البال بإحداث أصوات مزعجة هو نيارخوس أميرال الإسكندر . فقد حكى فى رحلته عبر بحر فارس كيف أمر رجاله بالضجيج والصراخ لإبعاد البال . ولا نحسب أنه فعل هذا من تلقاء نفسه ، بل الغالب أنه عرف به من أدلائه الفرس أو العرب .

أما قول سليمان بخوف المراكب أن يتكىء عليها البال فيغرقها ، فيمكن بصفة عامة تأييده فيما يختص بدابة العنبر وحدها ؛ لأن أكثر الأنواع الأخرى تتجنب السفن وتفزع منها . أما البال الاسبرماسيتى فقد عرف بالشراسة والضراوة على الشر ، وهناك حالات مقررة نطح فيها البال الاسبرماسيتى زوارق صيد برأسه الهائل فهشمها وأغرقها .

وفى قصة هيرمان ملفيل H. Melville «موبى ديك أو البال الأشهب» وصف رائع لبعض هذه الحوادث . وقد وضع الكاتب الأميريكى قصته وسط القرن التاسع عشر على أساس من وقائع شهدها بنفسه ، وأخرى قرأ عنها فى تقارير ومذكرات ليس من سبب للطعن فيها ؛ فذكر حوادث استطاع فيها هذا النوع من البال أن يهجم فى سورة غضبه على السفينه الرئيسية ، لا على زوارق الصيد ، فيصيبها بالتلف ويغرقها . فليس من المغالاة أن يشار إلى خطره على مراكب القرون الوسطى ولم تكن لتتعدى فى جرمها أكبر السفن التى خرجت حتى منتصف القرن الماضى من موانى غسقونيا وبلاد الباسك وجزيرة نانتوكت بأمريكا لصيد البال الاسبرماسيتى .

ويقول التاجر سليمان فى العنبر : "ويقع فى هذه الجزائر [الكلام عن الألف وتسعمائة جزيرة المسماة بالدِّيِبَجات ، والتى زار ابن بطوطة بعضها وسماها ذِيبَة المَهَل ، وتعرف اليوم باسم أرخبيل الملديب] عنبر عظيم القدر فتقع القطعة مثل النبت [البيت ؟] ونحوه . وهذا عنبر ينبت فى قعر البحر نباتاً ، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفُطُر الكمأة" .

ويضيف إليه أبو زيد حسن السيرافى : "فأما العنبر وما يقع منه إلى

سواحل هذا البحر فهو شيء تقذفه الأمواج إليها ؛ ومبدأه من بحر الهند ، على أنه لا يعرف مخرجه ؛ غير أن أجوده ما وقع إلى بربر أو حدود بلاد الزَّنج والشِّحر وما والاها وهو البَيْضُ المدوَّر الأزرق . ولأهل هذه النواحي نُجُب يركبونها في ليالي القمر ويسيرون بها على سواحلهم قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل ، فإذا رآه النجيب برك بصاحبه فأخذه . ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزناً كثيراً ، وربما كان كهيئة الثور ودونه ، فإذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه . فإذا حَصَل في جوفه قتله ، وطفا الحوت فوق الماء وله قوم يراعونه في قوارب قد عرفوا الأوقات التي توجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر ؛ فإذا عاينوا منها شيئاً اجتذبوه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب في ظهر الحوت ، فيشقوا عنه ويخرجوا العنبر منه ؛ فما كان يلي بطن الحوت فهو المَنْد الذي فيه سهوكة ، وسمكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة . وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقيا جدا . وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عُمِل من فقار ظهره كراسي يقعد عليها الرجل ويتمكن . وذكروا أن بقرية من سيراف ، على عشرة فراسخ ، بيوتاً عادية لطافاً سقوفها من أضلاع هـذا الحوت . وسمعت من يقول إنه وقع في قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة فقصد للنظر إليها فوجد قوماً يصعدون إلى ظهرها بسلّم لطيف . والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفراً يجتمع فيه الوَدَك ويُغرَف الودك من عينيها بالحرارة إذا أذابتها الشمس ؛ ويجمع فيباع على أرباب المراكب ويخلط بأخلاط لهم يمسح بها مراكب البحر يسد بها خرزها ويسد أيضاً ما ينفتق من خرزها

فيباع وَدَكُ هذا الحوت بجملة من المال".

وحدثنا النويرى فى « نهاية الأرب » عن ابن واضح اليعقوبى قال:

"العنبر أنواع كثيرة، وأصناف مختلفة، ومعادنه متباينة، وهو يتفاضل بمعادنه وجوهره؛ فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً وأغلاه قيمة العنبر الشِّحْرى، وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشحر من أرض اليمن. وزعموا أنه يخرج من البحر فى خلقة البعير أو الصخرة الكبيرة ... قال تقطعه الريح وشدة الموج فترمى به إلى السواحل. وهو يفور ولا يدنو منه شىء لشدة حرارته وفورانه. فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد فتجمعه الناس من السواحل المتصلة بمعادنه. قال: وربما أتت السمكة العظيمة التى يقال لها البال فابتلعت من ذلك العنبر الطافى وهو يفور فلا يستقر فى جوفها حتى تموت وتطفو ويطرحها البحر إلى الساحل فَيُشَق جوفُها ويستخرج ما فيه من العنبر وهو العنبر السمكى ويسمى أيضاً المبلوع. قال: وربما طرح البحر القطعة العنبر فيبصرها طائر أسود شبيه بالخطاف فيأتى إليها ويرفرف بجناحيه، فإذا دنا منها وسقط عليها تعلقت بمخاليبه ومنقاره، فيموت ويبلى ويبقى منقاره ومخاليبه فى العنبر، وهو العنبر المناقيرى.

"قال: وبعد العنبر الشحرى العنبر الزِّنجى، وهو الذى يؤتى به من بلاد الزنج إلى عدن، وهو عنبر أبيض. وبعده العنبر السَّلاهِطِى وهو يتفاضل، وأجود السلاهطى الأزرق الكثير الدهن وهو الذى يستعمل فى الغوالى. وبعد السلاهطى العنبر القَاقُلِى، وهو أشهب جيد الريح حسن المنظر خفيف وفيه يبس يسير، وهو دون السلاهطى لا يصلح للغوالى والتطهير إلا عن

ضرورة ، وهو صالح للذرائر والكلسات . ويؤتى بهذا العنبر من بحر قاقلة إلى عدن . وبعد القاقلى العنبر الهندى يؤتى به من سواحل الهند الداخلة فيُحْمَل إلى البصرة وغيرها . قال وعنبر يؤتى به من الهند يسمى الـكَرْك بالوس ينسب إلى قوم من الهند يجلبونه يعرفون بالـكرك بالوس يأتون به إلى قرب عمان ، يشتريه منهم أصحاب المراكب . قال : وأما العنبر المغربى فإنه دون هذه الأنواع كلها يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشحرى وقد يغالط به . وقال أحمد بن يعقوب : قال لى جماعة من أهل العلم بالعنبر إنه بجبال نابتة فى قرار البحر مختلفة الألوان ، تقتلعه الرياح وشدة اضطراب البحر فى الأشتية الشديدة ، فلذلك لايكاد يخرج فى الصيف" .

فهذه طائفة من الأخبار عن العنبر ودابته تظهرنا ، منذ القرن التاسع الميلادى ، على الرأى القديم فى علاقة العنبر بالبال ، وفى أن العنبر يخرج من قاع البحر . فاليعقوبى يتحدث عن « معـدن » العنبر ، أى منجمه ، وقد نص على وجوده بجبال نابتة فى قرار البحر .

ويكشف لنا اليعقوبى لأول مرة عن واقعة وجود مناقير بداخل العنبر ، وفى هذا يقول صاحب « *مختصر العجائب* » :

"وقرأت فى كتاب الطيب الذى ألفه إبراهيم بن المهدى أن أحمد بن حفص العطار قال : كنت فى مجلس أبى إسحق وهو يصفى عنبراً قد أذابه وأخرج ما كان فيه من الحشيش الذى هو يشبه خلقة مناقير الطير . فسألنى عن ذلك ، فقلت له : هذا مناقير الطير التى تأكل العنبر إذا راثته الدواب . فضحك أبو إسحق وقال : هذا قول تقوله العامة ، ما خلق الله دابة تروث العنبر ؛ إنما

العنبر شيء يكون فى قعر البحر . وقد عنى الرشيد بالمسئلة عن ذلك ، وأمر حمّاد البربرى بالبحث عن ذلك فكتب له جماعة من عدن أَبْيَن أنه يخرج من عيون فى أرض البحر ، ثم تقلعه الريح بالأمواج فيطفو على الماء ، وترميه الريح على البر كما يخرج من أرض هيت القار ، وفى أرض الروم الزفت الرومى" .

وقال ابن واضح إن العنبر يخرج فى خلقة البعير أو الصخرة الكبيرة ؛ ولكن أغلب ما يوجد من العنبر قطع صغيرة لا يتعدى وزنها بضع أوقيات . وقد يعثر على قطع كبيرة كما حدث فى سنة ١٧١٦ حيث وجدت على ساحل جزيرة سانت هيلانة قطعة زنتها أربعمائة رطل . وقال مردوك Murdoch فى كتابه عن «صيد البلّينة والدببة» بأن بعض النرويجيين عثروا عند سواحل استراليا على قطعة من العنبر فى جوف بال بلغ وزنها عشرين وأربعمائة كيلو جراماً ، قدر ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين ألف جنيه .

ويقدم المسعودى خلاصة وافية لمعارف عصره عن هذا الموضوع فيقول :
"وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن وأصابتنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال ، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع بالذراع العُمَرى ، وهو ذراع أهل ذلك البحر . والأغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع . وربما بدا بهذا البحر فيظهر طرفاً من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع . وربما يظهر رأسه وينفخ الصُّعَداء فى الماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم . والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب لينفر من ذلك . ويحشر بذنبه وأجنحته

السمك إلى فمه وقد فغر فاه ، وذلك يهوى إلى جوفه جرياً . فإذا بغت السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى اللَّشَك ، فيلصق بأصل أذنها ، فلا يكون منها خلاص فتطلب قعور البحار وتضرب بنفسها حتى تموت . فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم ، وربما تلتزق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا تدنو الأوال مع عظمها من المراكب ، وتهرب إذا رأت الصغيرة إذ كانت آفة عليها وقاتلة لها" .

"وعنبر هذا البحر قليل [بحر لاروى] . وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشِّحْر من أرض العرب . وأهل الشحر أناس من قضاعة بن مالك بن حمير وغيرهم من العرب . ويدّعى من سكن هذا البلد من العرب أن المَهْرَة أصحاب شعور وجمم ولغتهم خلاف لغة العرب . . . وهم ذو فقر وفاقة . ولهم نُجُب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المَهْرِيَّة ، وتُشَبَّه فى السير بالنجب البِجَاوية ، بل عند جماعة أنها أسرع منها . فيسيرون عليها على ساحل بحرهم ، فإذا أحست النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه ، قد ريضت لذلك واعتادته ، فيتناوله الراكب . وأجود العنبر ما وقع إلى هذه الناحية ، وجزائر الزنج وساحله . وهو المُدَوَّر الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك . ومنه ما يبتلعه الحوت المعروف بالأوال المقدم ذكره ؛ وذلك أن البحر إذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر على ما وصفنا ، فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله ، فيطفو فوق الماء . ولذلك أناس يرصدونه فى القوارب من الزنج وغيرهم فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ويشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه ، فما يخرج من بطنه يكون سهكا ويعرفه

العطارون بالعراق وفارس بالند . وما لقى ظهر الحوت منه كان نقيا جدا على حسب لبثه فى بطن الحوت ... وأخبرنى غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف ، وغيرهم من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر [جزائر الديبجات] أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر ، ويتكون تكون أنواع القُطُر من الأبيض والأسود والكماة ونحوها . فإذا خبث البحر واشتد ، تقذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر ... " .

لم يأت أبو الحسن المسعودى بجديد عن العنبر والبال . وحكاية ترصد الزنوج وغيرهم لدابة العنبر — وقد ذكرها أبو زيد حسن السيرافى قبله — وطرحهم الكلاليب فيها لا تعتبر إشارة إلى صيد منظم للبال ، فهذا محض انتفاع بجيفة طافية على الماء .

إلا أن أبا الحسن قدّر أطوال البال بين مائة وخمسمائة ذراع ، وغلّب أن يكون طوله مائة ذراع . وليس المسعودى أول من قدر طول البال من بين كتاب العرب ، فقد ذكر ابن خرداذبه من قبله أنه قد يبلغ المائة والمائتى باع ، والباع أربعة أذرع ، وأطول ما سجل من أطوال البال الاسبرماسيتى فى العصور الحديثة لا يتعدى خمسة وعشرين متراً . ولكن أنواعاً أخرى من القياطس قد تنيف على الثلاثين متراً . فالمسعودى أقرب إلى سجلاتنا العصرية من ابن خرداذبة ، ولو أن تقدير هذا الأخير يعد نموذجاً فى الاعتدال إذا قيس بما قاله بلينيوس الكبير : " ثمت سمك اسمه البلّينة يبلغ من طوله وعرضه ما يفرش على ثلاثة فدادين " . وقد أبى ابن الوردى أن يترك للعلامة الرومانى قصب السبق فى التهويل ، فذكر نقلا عن القزوينى أن ببحر الخزر

”دوابا عظيمة مختلفة الأشكال هائلة المنظر يقال إن السمكة يمر رأسها كالجبل العظيم الشامخ ، ثم يمر ذنبها بعد مدة ، ويقال إن مسافة ما بين رأسها وذنبها أربعة أشهر“ *.

وسرد صاحب « عجائب الهند » حكايات كثيرة عن الدواب البحرية الكبرى منها ماحدثه به أبوالحسن محمد بن عمرالسيرافى ”أنه رأى بعمان فى سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان ، وجزر الماء عنها فصيدت فسحبت إلى البلد . فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها . وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعظمها . فإنها ذرعت فكان طولها زيادة على مائتى ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً . وأنه بيع من دهن عينيها على ما قيل ببضعة عشر آلاف درهم“ .

”وحدثنى اسمعيلويه الناخوداه أن هذا السمك كثير ببحر الهند . . . . ويقال له الوال وهو بِكَسْرِ المراكب مُولَع . فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وقرعوا الطبول ، وأنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار ،

(*) يبدو هذا وبعض ما يرد فى كتب العجائب العربية كأنه صدى لما جاء فى قصة الإسكندر الخرافية التى ألفها كالستينس المزعوم ، والتى نقل عنها ابن الراهب صورة عربية ، وعرفت لها صور إثيوبية وسريانية وغيرها . ولما كانت قصة كالستينس المزعوم قد ألفت فى القرن الأول الميلادى ، فإن لى أن أتساءل عما إذا لم يكن أصحاب كتب العجائب العربية قد نقلوا بعض عجائبهم عن « قصة الإسكندر » . ففى هذه القصة يسافر ذو القرنين إلى بحر الظلمات ثم ينزل إلى أعماقه فى صندوق من زجاج ويتأمل بدائع خلق البحار ، فيمر به تنين يستغرق مروره من رأسه إلى ذنبه يوماً . ثم يمر تنين آخر فى ثلاثة أيام وهكذا . إننى أسوق هذه الملاحظة العابرة توجيهاً لنظر ذوى الاختصاص ، لاعتقادى أن دراسة «قصة الإسكندر» تأليف كالستينس المزعوم تساعد على فهم بعض الأساطير العربية .

ويرى من بعد مثل شرع المركب . وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيرى من بعد أيضاً مثل شراع القوارب .

"وحدثنى بعض العراقيين ممن يضبط أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقى عظمه صحيحاً فدخل الرجل من إحدى حدقتيها، وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحنى . وكان حمل فى سنة عشرة وثلثمائة من عمان إلى المقتدر من ذلك السمك . وأن فك سمكة رفع من الرَّوْشَنْ ولم يدخل من الأبواب . وحدثنى أن هذه السمكة التى حُمِل فكها إلى بغداد نزف من عينيها خمسمائة جرة ، أو زيادة عليها ، دهناً .

"وحدثنى بعض الربانية أن سمكة سارت مع مركبه بنواحى اليمن يوماً وليلتين وبعض يوم لم تفارقه ، ولم تتقدم عنه ولم تتأخر عنه ، قُدِّر مسيرهم معاً زيادة على مائة وسبعين فرسخاً . فإنها كانت بطول المركب سواء ، وكان طول مركبه خمسين ذراعاً بذراع العمل من مشعر الإبط إلى طرف الإصبع الوسطى . فسألته عن السبب فى ملازمة دواب البحر الكبيرة مع المراكب ومحاذاتها ، فقال ذلك يختلف ؛ فمنها ما يحاذى المراكب ليسقط منها شىء فتلتقمه ، إذ تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه ، فصارت إذا رأت مركباً حاذته طمعاً أن يحدث منه ما حدث من غيره ، وظنا منها أن المراكب كلها كما وجدت فى الأول ، فصارت كأنها ضارية على ذلك . ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيواناً بعضه فى الماء وبعضه فى الهواء ، فيمرح معه ويجاريه عشقاً له وتأنساً به مدة مدى قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعيي فيفارق ، ولا صبر للحيوان على مضاهاة الجماد . ومنها

ما يجارى المركب على سبيل المغايرة والمعاندة والمقاواة ، فإذا أعيي وقصر ورأى المركب يتقدمه رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة ، فإن سلم وإلا فنسأل الله العفو . ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب . فتحمل عليه حملات حتى تقلبه فتلتقط ما فيه ، لعادة واستمرار ، نسأل الله العافية . ومنها ما إذا رأى المركب فر منه وهرب وذعر خوفاً على نفسه واستيحاشاً منه . وأخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة ، والبحار المنقطعة المهجورة ، والبعد من السواحل المعمورة ، وعمق البحار ، وعدم البر والجزائر والسواحل . وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين" .

"قال أبو محمد الحسن بن عمرو : وشاهدت من أضلاع السمك ضلعاً حمله إلينا بعض أرباب المراكب فقطع منه قطعة من جانبه الغليظة نحو خمسة أذرع ، فطرحناه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة ، فقام مقام القنطرة . وكان طول ما بقى منه نحو عشرين ذراعاً ...

"وحدثنى إسمعيلويه الناخداه ... قال نخرجنا كلنا فى يوم واحد وكنت آخر من خرج بسفينته فأغذذت السير لألحق من خرج منهم أولا . فلما كان فى اليوم الثالث رأيت من بعد مثل الجزيرة السوداء ، فلرغبتى فى سرعة السير لم أنقص الشراع لأعدل عنها ، لأن السير فى ذلك البحر شديد جدا . فما كذبت أن وصلت إليها فضربتنى . وإذاهى دابة من دواب البحر ، فلما لمست المركب ضربته بذنبها فانكسر ، فسلمت أنا وابنى والكارين فى الدونيج" .

"وحدثنى بعض الربانية أنه رأى فى لجة سمرقند [المقصود قاع خليج بنغالة]

وهو البحر الذى يلى هِرْكَنْد . . . خلقاً كثيراً من الفال ، وهو أكبر سمك فى هذا البحر . وأنه رأى سمكة منه قدّر أن طولها نحو مائتى ذراع ، وأنهم رأوها من بعد قد رفعت أجنحتها فظنوها شُرُع مراكب إلى أن حاذَوْها ، وأن على ظهر هذا السمك مثل الحجارة الأرحية مما قد تراكب عليه طول السنين من الحشور والطين ، فاستحجر وصار لا يعمل فيه الحديد ولا غيره . وأنه يسير فى البحر يمنة ويسرة ، ووراءه و بين يديه أفراخ سمك لا يفارقونه" .

وجاء فى « **مختصر العجائب** » ذكر اقتراب القياطس من الساحل بحثاً وراء القوت ، ومطاردة للسمك ؛ فتندفع بحركتها إلى الماء الضحل ، ويتعذر عليها العودة فتموت ؛ ويتقاسم الناس لحمها ، ويذيبونه فى الأوانى الكبيرة ، فيذوب عن آخره شحما يستعمله أهل المراكب . وهذا كلام مفهوم ، إلا أن صاحب الكتاب خلط بين اللحم والشحم . وواقعة جنوح البال إلى الساحل وموته حقيقية . فإذا جنح البال وتعذرت عليه الحركة ، ضغط جرمه الهائل على صدره فلم يقو على التنفس ومات اختناقاً .

ولقد عودنا الشريف الإدريسى أن نجد فى كتابه « **نزهة المشتاق** » كثيراً من المعارف نجتزئ منها عن البال ما يلى :

"ومن هذا البحر [هِرْكَنْد] يخرج العنبر الكثير الطيب الرائحة ، وقد توجد منها العنبرة من قنطار وأكثر وأقل ؛ وهو شىء تقذفه عيون فى قعر البحر مثل ما تقذف عيون هَيْت [بالعراق] بالنفط . فإذا اشتد هيجان الريح رمى به إلى الساحل . وقد زعم البعض أنه روث دابة ولكنه ليس كذلك .

"ويوجد ببحر الصين والهند دواب كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها

أربعة وعشرون ذراعاً . ينبت بظهرها الصخر والدبل وقد تتكسر عليه المراكب . ويحكى البحريون أنهم يهاجمون هذه الدواب بالسهام ، ويحملونها على تغيير طريقها ، ويمسكون الصغار منها ويحمون على لحمها فى القدور ، فيذوب شحمها ؛ وهو مادة مشهورة على طول سواحل آسيا ، تستعمل لسد ثقوب المراكب .

"وأهم الملاحين فى هذا البحر [الأطلانطى] هم المعروفون باسم الأنكلسية أى سكان إنكرطره ، وهى جزيرة عظيمة بها مدن كبيرة . . . وبرغم ما يكتنف هذا البحر من أهوال ، ومع كثافة أمواجه ، فإن به السمك الكثير يصيدونه فى أمكنة معلومة . وبه دواب بحرية تبلغ من عظم الجرم ما يجعل أهالى تلك الجزر يستعملون عظامها وفقارها بدل الخشب فى أبنيتهم ، ويصطفون منها مطارق وسهاماً ورماحاً وخناجر ومقاعد وسلالم . وبالجملة كل ما يصنع من الخشب" .

والقزوينى مؤيد أو ناقل عن الإدريسى ، ولكنه كعادته أكثر مزجاً بين الواقع والأساطير دون حذر أو تمييز كبير ، قال فى « **آثار البلاد** » :

"إرلاندة : حكى العُذرى أن فى سواحلها يصيدون فراخ الأبلينة ، وهو نون عظيم جداً ؛ يصيدون أجراءها يتأدمون بها . وذكروا أن هذه الأجراء تتولد فى شهر أيلول فتصاد فى تشرين الأول والثانى ، وكانون الأول والثانى ... وبعد ذلك فصلب لحمها لا يصلح للأكل . أما كيفية صيدها ، ذكر العذرى أن الصيادين يجتمعون فى مراكب ومعهم نَشِيل كبير من حديد ذو أضراس حداد ، وفى النشيل حلقة عظيمة قوية ، وفى الحلقة حبل قوى .

فإذا ظفروا بالجرو صفقوا بأيديهم وصوتوا ، فيتلهى الجرو بالتصفيق ، ويقرب من المراكب مستأنساً بها . فينضم أحد الملاحين إليه ويحك جبهته حكا شديداً ، ويستلذ الجرو بذلك ، ثم يضع النشيل وسط رأسه ، ويأخذ مطرقة من حديد قوية ويضرب بها على النشيل بأتم قوة ثلاث ضربات فلا يحس بالضربة الأولى ، وبالثانية والثالثة يضطرب اضطرابا شديداً ، فربما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها ، ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللغوب ؛ ثم يتعاون ركاب المركب على جذبه حتى يصير إلى الساحل . وربما أحست أم الجرو باضطرابه فتتبعهم فيستعدون بالثوم الكثير المدقوق ويخضون به الماء ، فإذا شمت رائحة الثوم استبشعتها ورجعت القهقرى إلى خلف ؛ ثم يقطعون لحم الجرو ويملحونه ، ولحمه أبيض كالثلج ، وجلده أسود كالنقش [؟] " .

وإنى لفى حيرة مما يذكره القزوينى ، فأمامنا فقرة هامة جدا تشير إلى صيد البلّينة فى المحيط الأطلسى . وتحتوى على وصف صادق للنشيل وهو «الهاربون» المستعمل إلى اليوم فى هذا النوع من الصيد . ولقد كانوا يقذفونه قديماً باليد ، وأصبحوا يطلقونه فى العصور الحديثة من مدافع خاصة . وواضح أنه لا القزوينى ، ولا من نقل إليه هذه الحكاية ، فهموا شيئاً مما يرددون . ويصعب علينا نحن أن نفهم كيف يخدع هذا الجرو ويقدم رأسه للنشيل وقد استهواه حك جبهته . فإذا سلمنا بأنه جرو غرير ، فإننا نتساءل عن سلوك أمه التى وصفها مينار Maynard أبلغ وصف فى كتابه « **صيادى البال** » ، وهى تدور حول السفينة متلهفة على اللحاق بوليدها حتى تصادهى الأخرى . الغالب أن تناقل الحكاية بين قوم لم يروا عمليات الصيد ، انتهى بذلك

التصوير المسرحى العجيب لعملية قتل قاسية ، يجازف فيها الصيادون بحياتهم ، ويناضل فيها البال أشد نضال وقد نفذ النشيل فى رأسه أو فى ناحية من جسده . فقد ذكر القزوينى أن بالنشيل حلقة يربط بها حبل ، ولم يفهم الغرض من هذا الحبل . فالصائد يضرب البال بالنشيل ، والبال دابة هائلة لا تصميها الضربة بأى حال ، ولكنها تستحثها على السباحة إما مبتعدة عن زورق الصيادين ، أو مهاجمة له . فإذا حاولت الهرب والنشيل فى جسدها ، أخذ الصيادون يطلقون لها الحبال ، ولديهم منها أطوال كثيرة . وقد يغوص البال فى أعماق البحر ، وقد يستنفد حبال الصيادين وما زال فى عنفوانه ، فيسحب الزورق مدى طويلا فى البحر . ويستمر هذا الصراع وقتاً غير قصير حتى تُنهك قوى البال ، فيجذبه الصيادون إليهم رويداً . وقد ينتهى بأن يضطر الصيادون إلى قطع الحبل خوفا من انقلاب الزورق بهم ، أو بهجوم البال على الزورق ليحطمه تحطيما . فإذا كانت الغلبة للصيادين ونجحوا فى جذب فريستهم إلى جانب السفينة ، سددوا رماية الرماح إلى قلبه فأجهزت عليه .

ووصف الجراح توماس بيل Beale فى كتابه « **البال الاسبرماسيتى** » صورة من هذا الصراع شهدها بنفسه :

"وجعل البال ينقلب ويدور على نفسه وقد جن جنونه بسبب ما أصابه من هجمات صياديه ؛ ثم هو يرفع رأسه الهائل ، ويفغر فاه الواسع ليعض بالنواجذ على كل ما يستطيع أن يصل إليه ، ويهجم على الزوارق برأسه ، فمنها ما تدفعه الأمواج أمامه بسرعة ، ومنها ما ينطحها فلا يذرها إلا هشيما"

أين هذه الصورة ، صورة الصراع الجبار ، من تصوير القزوينى لجرو

البلّينة يتلهى بالتصفيق « ويستلذ » بحك جبهته حتى يضرب به الصياد بالتشيل في هدوء ، كما يدق النجار وتداً في حائط ؟

وتقدم القزوينى بنظرية جديدة في تكوين العنبر حين قال في عرض الكلام عن الأجسام الدهنية : "وأما العنبر فقد اختلف الناس في معدنه ، فنهم من زعم أنه طَلّ يقع على بعض الأشجار في البحر ، ثم يترشح من خلالها وينعقد هنالك ، ومنهم من زعم أنه من عين في البحر كالقير ، وأنها في بقاع مخصوصة في زمان معلوم" .

وكان فيما أعرف أول من أشار من كتاب العرب إلى استعمال شحم البال للإضاءة إذ يقول : "البال نوع من السمك عظيم يأكل العنبر فيموت . . وفي دماغه دهن كثير ، يستعملونه لإشعال السراج" . وهى إشارة لا شك فيها إلى الاسبرماسيتى .

ويعنى الدمشقى بتنظيم معارفه في أسلوب علمى فيقول :

"وأما ما ينبع من الأرض ويعد مكان نبعه من الأرض فأصناف سماها الأطباء الأقفار وهى كالعنبر والموميا وقفر اليهود والقار والنفط والسندروس" .

"ولهذا المحيط [أقيانوس أو بحر الظلمة كما يسميه الدمشقى] مد وجزر كما للمحيط الشرقى . ويقذف بساحله العنبر من غالب جهاته ولاسيما من خلجانه . والعنبر ينبع من عيون من جبال بقعر البحر المالح الفارسى والحبشى والهندى والمغربى والصينى والموسوى [البحر الأحمر] فيركب بعضه بعضاً ، وهو في حين خروجه شديد الفوران والحرارة ، فإذا لاقى برد الماء جمد على أحجاره ، وصار جماجم صغاراً وكباراً ، فيكون جموده كجمود الشمع إذا أصابه بعد ذوبه الماء البارد ،

فيبقى لاصقاً بتلك الصخور إلى أن يهيج البحر فى زمن الشتاء فيقتلعه قطعاً قطعاً ويخرجه إلى سطحه فترمى به الأمواج إلى الساحل . وأجوده الذى يقع إلى ساحل الشحر من بلاد المهرة ، فيلتقطه الجلابون . وربما ابتلعه سمك يسمى أوال ، فإذا ابتلعه مات من شدة حرارته فترميه الأمواج أيضاً ، فيشق عن جوفه ويستخرج منه . وله رائحة زهمة ، ويسمى المبلوع ، والآخر الخام .

" والعنبر إذا ألقاه الموج إلى الساحل لا يأكل منه حيوان إلا مات ، ولا ينقر منه طائر إلا انفصل منقاره ، وإذا وضع عليه رجليه فصلت أظفاره ، فإن أكل منه شيئاً مات " . وهنا يورد « الحديث الصحيح » فى دابة العنبر ، وينتهى بترديد الزعم بأن العنبر روث الأوال .

وقد عرف الصينيون بحكايات البال والعنبر . فجاء فى الفارماكوبية الصينية « بنساو » التى وضعت فى القرن الثانى عشر تحت عنوان « دهان ريق التنين » بأن قطعان هذا التنين تسبح فى البحار الجنوبية ، وتتقايأ هذه المادة ، " ويزعم بعض الناس بأن العنبر يوجد فى جوف حوت كبير . وهو مادة ذات رائحة عطرية ، ملمسها دهنى ، ولونها أبيض مائل إلى الصفرة وهى ندية ، فإذا جفت تفتت قطعاً سوداء اللون فى اصفرار " .

وسمع ماركو بولو بهذه الحكايات أثناء رحلته فقال : " ويخرج العنبر من معدة البال ، ولما كانت هذه المادة سلعة هامة فإن الناس يعمدون إلى صيد البال بنشول معدنية ذات أسنان تدخل فى جسم الدابة فلا تخرج ، وتتصل بالنشول حبال فى آخرها عوامات حتى يُعْرف مكان البال إذا مات . ثم يسحبون جثمانه إلى البر ويستخرجون العنبر من معدته والزيت من رأسه "

أجاد القدماء وصف العنبر وعرفوا بعض صلته بالبال الاسبرماسيتى ، وذلك طبيعى من قوم انتفعوا بالعنبر كمادة طبية هامة . ولم تحدد هذه الصلة حتى منتصف القرن التاسع عشر حين جاء بنّيت Bennett فى كتابه « رحلة حول العالم لصيد البلينة » وقال : "والعنبر إفراز مرضى فى أمعاء البال ، أصله إما من المعدة أو من قنوات المرارة ، وهو شبيه فى طبيعته بحصى كيس الصفراء . . . وما يوجد منه طافياً على وجه البحر هو ما قذف به البال حيا أو ما تخلص منه ميتاً بعد تعفن الجثة" .

والعنبر أكثر ما يوجد طافياً على وجه الماء أو ملقى على سواحل البحر . وتتراوح أوزان قطعه من بضع أوقيات إلى مائتى رطل ، فيما عدا اللقيات النادرة التى أشرنا إلى بعضها فى غضون هذا الفصل . وهو مادة صلبة شمعية الملمس ، رمادية مائلة إلى السواد ذات رائحة ترابية طيبة ، إلا إذا أخرجت من جوف البال فتكون سهكة أو زهمة الرائحة كما قال العرب . وهى أخف من الماء ، تذوب فى درجة حرارة ستين إلى خمسة وستين درجة مئوية ، عنصرها الفعال يعرف « بالعنبرين » Ambrein . وكثيراً ما تبقى بالعنبر بقايا مناقير الأخطبوطات التى يبتلعها البال ، ولذا يظن أن هذه المناقير هى النواة التى تترسب حولها مادة كولسترينية من مجارى الصفراء . ويباع العنبر بأسعار عالية ، وقد وصل منه فى سنة ١٩٢٢ إلى ميناء نِيُو بِدْفُورْدْ بالولايات المتحدة ، وهو الميناء الذى تخرج منه أغلب سفن صيد البال الاسبرماسيتى ، أربعة وأربعون رطلا ، بلغ ثمنها نيفاً وألفى جنيه .

الكتاب الثاني

القصص البحرية العربية

القصص البحرية العربية
القرندلي الثالث
حسن البصري
عبد الله البري و البحري
السندباد البحري
الجزيرة المتحركة والخيول البحرية
رحلة جوية الى وادي الماس
الغول الأسود
السندباد يدفن حيا
شيخ البحر
رحلة نهرية في كهف
مقبرة الأفيال

القصص البحرية العربية

مجموعة الكتب العربية التى توارثناها منذ القرون الوسطى ، سواء فيها ما اختص بالمسالك والممالك ، أو بتقويم البلدان ، أو بالكوزموغرافيا والتاريخ الطبيعى ، أو بمذكرات الرحالين ، بل كتب العجائب فى أقلها جدارة باحترامنا ، لا تخرج عن كونها كتباً شبه علمية ، أو تقارير بوقائع ؛ لا هى من الأدب الخيالى ، ولا أراد لها أصحابها أن تعد من الأدب الخيالى . وإذا كنا قد حاولنا أن نفصل بين الواقع والأساطير فيما جاء بتلك الكتب خاصاً بالبحار ، فذلك محض مجهود شخصى خارج عن إرادة أصحابها ، وهم آخر من يتصور أن كتبهم العلمية مليئة بكل تلك الخرافات والأساطير .

ومع ذلك فكثير مما أورده جغرافيو العرب ورحالوهم عن البحار يكاد يعتبر قصصاً بحرية ؛ والقصة البحرية العربية قد اعتمدت كل الاعتماد على كتب الرحلات والعجائب والجغرافيا العربية . بل ثمت قصص ، أو وقائع من قصص ، نقلت نقلا عن بعض حكايات الرحالين . غير أن ما جاء بأحاديث الرحالين والجغرافيين وهواة العجائب ، حتى لو كان خياليا محضاً ، ليس من « الأدب الخيالى » فى شىء ، ولم يدّع واضعوه أنهم ألفوه من بنات أفكارهم ، بل يؤكدون أنهم سمعوه من أفواه أناس يخبرون به كحوادث وقعت لهم ، أو أناس ينقلونه عمن وقعت لهم تلك الحوادث ، أو على الأقل ادعوا وقوعها .

ولقد آذن تسلسل البحث ومنطقه أن نتناول « الأدب الخيالى » فى المؤلفات العربية ، لا من ناحيته العامة ، بل فيما له علاقة بالبحار والرحلات

البحرية . ويحق لنا ، بعد كل ما عرفناه من عناية كتاب العرب فى القرون الوسطى بالبحار وحكايات البحريين ، أن نتوقع ثروة كبيرة من القصص البحرية العربية . فجميع الكتب التى استعرضناها زاخرة بمادة أولية غنية يمكن للقصاص إذا شاء أن يبنى عليها حكاياته . ولكن الحقيقة تخالف ما نتوقع ، وتخلف ما كنا نظن . فقصص البحار عند العرب محدودة العدد؛ ولكنها من نوع ممتاز إلى درجة ترفعها إلى أوج الآداب العالمية .

ويظهر أن الاتجاه الرسمى فى الآداب العربية لم يكن ليشجع الأدب القصصى ، إلا إذا كان المقصود الواضح منه درساً فلسفيا أو أخلاقيا [اطيقيا] كما فى كتاب «**حى بن يقظان**» أو «**كليلة ودمنة**» أو فى «**رسالة الغفران**».

والعرب الذين درسوا كثيراً من العلوم فى اللغات القديمة ، وترجموا بعض أعلام المؤلفات عن السنسكريتية والبهلوية واليونانية ، أهملوا فيما يكاد يكون إهمالا تاما الأدب الخيالى فى تلك اللغات . فلا «**المهابهاراتا**» ترجمت ، ولا «**الراماياناً**» ، ولا تمثيليات كاليداسا ، ولا الأدب التمثيلى عند الإغريق ، ولا «**الإلياذة**» ولا «**الأوديسية**» .

ولو قارنا على سبيل المثال حظ كتاب «**كليلة ودمنة**» من الأدب العربى بحظ كتاب «**هزار أفسانه**» وهو الأصل الذى ترجمت عنه الصورة الأولى من كتاب «**ألف ليلة وليلة**» ، لعرفنا كيف انصرف الكتاب العرب عن أعلام الأدب الخيالى الأجنبى ، وتركوا التأليف القصصى للعامة .

ترجم عبد الله بن المقفع كتاب «**كليلة ودمنة**» عن البهلوية إلى عربية ، وهو كتاب هندى سنسكريتى فى الأصل ، فبقى هذا الكتاب

كنزاً من كنوز الأدب العربي للخاصة . وترجم من لم يحتفظ التاريخ باسمه كتاب « **هزار أفسانه** » إلى العربية فقال فيه الثقة الفهامة أبو الفرج محمد بن اسحق بن أبي يعقوب النديم صاحب كتاب « **الفهرست** » : " فأول كتاب عمل في هذا المعنى [أى فى الخرافات] كتاب « **هزار أفسانه** » ومعناه « ألف خرافة » . وكان السبب فى ذلك أن ملكا من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد . فلما حصلت معه ابتدأت تُخرِّفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث ، إلى أن أتى عليها ألف ليلة ، ورزقت منه ولداً أظهرته وأوقفته على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال إليها واستبقاها . وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب ألف لحُماى ابنة بَهْمَن ، وجاءوا فيه بخبر غير هذا .

" قال محمد بن إسحق والصحيح إن شاء الله ، أن أول من سمر بالليل الإسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه ، **لا يريد بذلك اللذة ، وإنما كان يريد الحفظ والحرس** . واستعمل **لذلك** بعده الملوك كتاب « **هزار أفسانه** » ويحتوى على ألف ليلة وعلى دون المائتى سمر . لأن السمر ربما حُدِّث به فى عدة ليال . **وقد رأيته بتمامه دفعات** ، وهو **بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث** "

قال محمد بن إسحق : ابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجَهْشِيارى صاحب كتاب « **الوزراء** » بتأليف كتاب فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره . وأحضر المسامرين

فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه ؛ وكان فاضلا ، فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر . ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تتميمه ألف سمر . ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبى الطيب الشافعى . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبدالله بن المقفع وسهل بن هارون وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم ... فأما كتاب « كليلة ودمنة » فقد اختلف فى أمره ، فقيل عملته الهند ، وخبر ذلك فى صدر الكتاب ، وقيل عملته ملوك الأشكانية ونحلته الهند ، وقيل عملته الفرس ونحلته الهند ، وقال قوم إن الذى عمله بزرجمهر الحكيم أجزاء ، والله أعلم بذلك . وكتاب « سندباد الحكيم » وهو نسختان كبيرة وصغيرة ، والخلف فيه أيضاً مثل الخلف فى « كليلة ودمنة » ، والغالب والأقرب إلى الحق أن يكون الهند صنعته" .

وقال أبو الحسن المسعودى وهو يستعرض مستنكراً أخبار العامة وترهاتهم : "وهذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب للملوك بروايتها وجال على أهل عصره بحفظها . وسبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا ، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب « أفسانه » وتفسير ذلك من الفارسية ، والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة » ، وهو خبر الملك والوزير وابنته شيرزاد ودايتها دنيازاد ... ومثل كتاب « السندباد » وغيرها من الكتب فى هذا المعنى" .

فليس ينتظر لكتاب « ألف ليلة » ، وهذا رأى اثنين من كبار العلماء

والنقاد العرب فيه إبان القرن العاشر ، إلا أن ينبذ من حظيرة الأدب الرسمى ، ومجالس أهل الفضل والعلم ، والملوك والوزراء ، الذين إذا تنازلوا للسمر والخرافة فبقصد « الحفظ والحرس » لا اللذة . فالتمتع بالفن القصصى لذاته أمر غير مقبول عند الخاصة ، وليس من شيم الملوك . وهذا الرأى الصارم لم يمنع العامة — ولا الخاصة ، ولكن فى الخفاء *in petto* — من أن يخرفوا للذة ، وكان هذا من حسن حظ الآداب العربية . فتلقفوا ترجمة « **هزار أفسانه** » ، وربما تلقفوا كتاب ابن عبدوس الجهشيارى ، وأغلب ظنى أن يكون صاحب كتاب « **الوزراء** » قد اتخذ هو أيضاً نواة كتابه من « **هزار أفسانه** » ، وتداولت أيدى العامة نسخ هذا الكتاب أو ذاك بين الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب . ويبدو أن نسخة أو أكثر من ترجمة « **هزار أفسانه** » وصلت إلى القاهرة قبل القرن الثانى عشر عن طريق الشام ، وهنا أُحدِثَ فيها كثير من التحوير والتبديل ، وأضاف إليها الرواة فى العصور التالية قصصاً مصرية محلية معاصرة . وكان هذا الأصل فيما بين أيدينا اليوم من كتاب « **ألف ليلة وليلة** » . وبينما اتخذ الأدب الرسمى « الرفيع » وضعه النهائى كما أراد له واضعوه ، ولم يصبه من التغيير أكثر من أخطاء النساخين فإن كتاب « **ألف ليلة وليلة** » عمل فيه الرواة كلٌّ حسب مزاجه ومزاج سماره ، وباللغة التى يحسنها ويفهمها سامعوه أو قراؤه ، وأضافوا ما أمكنهم إضافته من قصص العرب فى الجاهلية والإسلام ، وحكايات يونانية ، ومصرية ، وعراقية ، وسورية ، ومغربية . وكان هذا منشأ الاختلافات الكثيرة بين مخطوطات الكتاب ، لا فى اللغة والأسلوب فحسب ، بل فى ترتيب القصص ،

وتوزيعها بين الليالى ، بل فى القصص نفسها . فهناك قصص وجدت فى بعض النسخ ، واشتهرت فى أوروبا عن جدارة ، كقصة علاء الدين والمسرجة المسحورة ، وعَلِي بَابَا والأربعين لصاً ، والجنية بَانُو « بِيرِى بَانُو » ، وقصة الساحر المغربى ، ومع هذا لا نجد لها أثراً فى المخطوط الذى نشر بالقاهرة .

قلنا : يظهر أن الاتجاه الرسمى فى الآداب العربية لم يكن يشجع الأدب القصصى إلا إذا كان درساً فلسفيا أو « إطيقيا » ؛ واتخذنا كتاب « ألف ليلة » ومقارنة حظه بحظ كتاب « كليلة ودمنة » أمثولة تؤيد هذا الاتجاه . وقلنا : كان من حسن حظ الأدب العربى عدم انصراف العامة عن أن يخرفوا للذة ، لأننا فى الحق مدينون لهذا النوع من التخريف بكتاب « ألف ليلة وليلة » ، ولن نجد غيره أمامنا مشتملا على القصة البحرية العربية . ولقد قلنا بأن القصص البحرى العربى فقير فى الكمّ ، ولكن قيمته النوعية تعوضنا كثيراً عن القيمة العددية . فالقصتان البحريتان *par excellence* فى كتاب « ألف ليلة وليلة » وهما « عبد الله البرى » و « السندباد البحرى » لا نعدهما من أبدع القصص البحرية فى الأدب العربى فحسب ، بل هما من أبدع القصص البحرية فى آداب العالم . ولقد لاقت قصة السندباد حظها من الشهرة والمجد ، وبقيت قصة « عبد الله البرى » منزوية تنتظر شرقيا أو مستشرقاً يخرجها إلى النور .

وقد وجدت فى بعض حوادث القصص الشعبية العربية ، مما لا يتضمنها كتاب ألف ليلة ما يمكن أن يمت بصلة إلى القصة البحرية ، مثلما جاء فى « سيرة سيف بن ذى يزن » ، حينما ألقى البطل بنفسه فى البحر ، وحمله الماء

إلى كهف فى بطن الجبل ، ودفعه التيار أياماً وليالى كما حدث للسندباد فى رحلته السادسة . وحينما ابتلعت « الهايشة » زورق ابن ذى يزن ، وهرب من فمها قبل أن تبتلعه . إلا أنى لم أر فى أمثال هـذه الحوادث غير صدى مباشر لما جاء بكتاب « ألف ليلة » .

ومع أن القصص البحرية التى نوردها فيما يلى هى خير تعريف بهذا النوع من الأدب الخيالى ، فإن ذلك لا يعفينا من وضع تعريف للقصة البحرية . أهى الأسطورة البحرية من النوع الذى ضربنا له الأمثلة فى الكتاب الأول ؟ لقـد أجبت على السؤال بالنفى فى مستهل هذا الفصل . فالأسطورة البحرية marine legend جزء لا ينفصل عن المعارف البحرية marine lore ولقد عنيت أن أضع الكلمة الاصطلاحية الإنجليزية تحديداً لمعنى كلمة معارف فى هذا الصدد ، لأن الكلمة العربية تحتمل معنى أوسع من معنى كلمة « لُورْ » وهذه تختص بمجموعة المعارف التقليدية التى يتناقلها الناس ، تمييزاً لهذه المعارف عن العلوم science .

القصة البحرية هى قصة أولا ، أى عمل أدبى من أعمال الخيال ؛ لا يهم أن تؤلف على أساس من « المعارف البحرية » أو من المغامرات ، أو من « الفُشَار » البحرى ما دام تأليفها نتيجة تخيل واضعها لحوادث تجرى لبطل لا وجود له إلا فى خيال المؤلف ؛ أو أن للبطل وجوداً تاريخيا ، ولكن الحوادث التى تندب إليه لم تحدث له أصلا ، أو حدث بعضها فنظمت وأضيف عليها و بولغ فيها إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية إلى ما يجعلها فى عداد الأشخاص الخياليين . وهى قصة بحرية إذا اتخذ البحر أهميـة كبرى فى

حياة أبطالها ، وفى أحداث القصة ، مثل قصة « أُونْدِين » تأليف لا موت فوكيه ، وقصة « السِّيرِينَا الصغيرة » لهانس أندِرْسِن ، و بعض قصص إدْجَار ألأن پو ، وروبرت لويس ستيفنسن ، وبيير لوتى ، وقصة « مو بى دِكْ » لهرمان ملفيل . وليكن تعريف القصة البحرية فيما يلى :

حكاية يصور المؤلف حدوثها فى داخل البحر أو فوق سطحه ، أو على سواحله وجزائره ، يكون البحر حاضراً فى ذهن المؤلف والقارئ وأشخاص القصة كلهم أو بعضهم ، وللبحر أثر واضح فى حوادثها ، وعلى أشخاصها .

ولا أجد فى كتاب ألف ليلة قصصاً بحرية ينطبق عليها هذا التعريف من أولها إلى آخرها غير قصتى « عبد الله البرى » و « السندباد البحرى » .

وبالكتاب قصص غير قليلة تقع فى جزائر البحر وعلى شواطئه ، بل فى داخل البحر نفسه ؛ ويقوم أشخاص كثيرون من أشخاص قصصه برحلات عبر البحر ، ولكن البحر مع هذا يبقى فى آخر مراتب الأهمية لحوادث تلك القصص .

وليس أقرب إلى القصص البحرية فى الكتاب من « قصة بنت الملك السمندل » ، فأغلب حوادثها تجرى فى قاع البحر ، ولم ينجح المؤلف برغم ذلك فى الإيحاء بهذا العنصر الأساسى الذى تدور فيه وقائعها . مع أنه بدأها بدءاً جميلا كان يبشر بنجاح فى الناحية البحرية ؛ ثم أخفق بعد ذلك حين نسى البحر وشأنه برغم انتقال حوادث القصة إلى قاعه .

اشترى ملك المدينة البيضاء جارية أحبها أشد الحب ، وفضلها على كافة سراريه ، وأفرد لها فى قصره مقصورة تطل على البحر . ولكنها خرساء لاتنبس بكلمة ، أحاطها بالجوارى المغنيات والسمار لتتكلم أوتضحك ، أو تبدى

حركة تدل على الغبطة ؛ ولكنها ظلت على صمتها ووجومها ، باردة جامدة .

ومضى عام والملك يزداد بها شغفاً ، وقد أوشكت أن تضع مولوداً . فدخل ملك المدينة البيضاء عليها يتوسل بحبه ، وبما قدمه لها من أسباب السعادة والنعمة أن ترد عليه ولو بإشارة أو إيماءة ، فتبسمت حتى خيل للملك « أن البرق أضاء المقصورة » ثم نبست ، وتكلمت ، وحدثته بحديثها :

هي جُلَّنار ابنة ملك من ملوك البحر ، علة سكوتها « انكسار خاطرها » لفراق أهلها ، مات أبوها فاغتصب عرشه عاهل بحرى آخر ، وضربت العوادى بينها وبين أمها وأخيها وأخواتها ، فخرجت شاردة يائسة إلى البر « وجلست على طرف جزيرة أشرف عليها القمر بضيائه » . وجاز بها رجل من أهل البر حملها وذهب بها إلى منزله وراودها عن نفسها فضربته على أم رأسه ضربة كادت تزهق روحه ، ورأى أسلم عاقبة أن يبيعها للنخاس ، وجاء بها هذا إلى ملك المدينة البيضاء .

وهى تطلب أن يسمح لها الملك بدعوة أهلها « حتى يباشروها ، لأن نساء البر لا يعرفن طريقة ولادة بنات البحر » . وهنا يتبادل الملك معها حديثا عن حياة أهل البحر يرد مقتضبا مشوها فى طبعة القاهرة ، ويبدو من ترجمة جالان أن النص الذى ترجم عنه أكثر إيحاء بالبحر والحياة البحرية الأسطورية.

ثم تخرج جُلَّنار قطعتين من العود القِمارى وتضعهما فى مجمرة ، وتصفر صفيرا عاليا ، وتتكلم بكلام غير مفهوم ؛ فإذا البحر يضطرب ويزبد وينشق عن شاب مليح الصورة هو أخو جلنار ، ومعه أمه وخمس بنات كالأقمار .

ويلبث أهل الأميرة البحرية إلى جانبها حتى تلد الأمير بدر باسم ، ثم يعودون

إلى البحر ويتواعدون على الزيارة . وكبر بدر باسم وتولى الملك بعد أبيه ؛ وجلس خاله البحرى أثناء زيارة للملكة جلنار يحدثها برغبته أن يزوج بدر باسم بأميرة من أميرات البحر ، هى جوهرة بنت الملك السمندل . يسمع بدر باسم وصف الأميرة البحرية فيتعشقها ، ويصر على أن يصطحبه خاله إلى قاع البحر ليراها ويخطبها من أبيها ، فينحدر به خاله إلى أغوار البحر بعد أن يضع فى إصبعه خاتماً عليه الأسماء ، يقيه من الغرق وشر دواب البحر وحيتانه .

وتدور حوادث القصة بعد ذلك كلها فى البحر ، ولكنها تفقد نهائيا قوة الإيحاء به . فليس فى حوادثها ما له علاقة بالبحر ولا بأحيائه ، كما لا نرى فيها ميزة فنية بارزة تغرينا بسرد حوادثها ، فهى مجموعة حروب ومغامرات تنتهى « بالتبات والنبات » المعروفين . ولنكتف بهذه المقدمة قانعين بما تركته فى نفوسنا الصورة الجميلة لتلك الغادة من بنات البحر وقد خرجت إلى البر شاردة حزينة ، وجلست على طرف جزيرة فى ضوء القمر ، وكأنها « الأوندين » لُورِيلاَىْ فى قصيدة هَاينِى جلست على رأس صخرة الرّين تمشط شعرها الأشقر بمشط ذهبى فى ضياء البدر الساطع .

وفى كتاب « ألف ليلة » قصتان لا يسعنى إهمالها فى هذا العرض العام للقصص البحرية العربية .

أولاهما حكاية الصعلوك — أو القَرَنْدَلِىّ — الثالث فى مجلس بنات بغداد، وحضرة الخليفة وجعفر ومسرور ، وذلك الحمال الأديب الذليق ، الذى استهواه جمال الدلالة والبوابة وصاحبة الدار فرفض دينارين أجراً له ، مفضلا الاستمتاع بمحضر الغانيات الثلاث . وبذل فى سبيل إقناعهن بقبوله ضيفاً الكثير من

الحصافة والفكاهة الشعرية والنثرية .

وإذا لم تكن قصة « القرندلى الثالث » بحرية بالمعنى الذى حددت ، فإن حوادثها تبدأ برحلة بحرية استكشافية ، يرد فيها ذكر أسطورة من الأساطير البحرية لم تتح لى فرصة التحدث عنها حتى الآن ، وهى أسطورة « جبل المغناطيس » ، وأسطورة أخرى عالجتها هى أسطورة الرخ . والقصة فوق هذا حسنة السبك ، ناضجة الفن ، أعدها من بدائع كتاب « ألف ليلة » .

ولقد أراد سوء الحظ لها وللقراء فى مصر والشرق أن ترد فى طبعة القاهرة ناقصة مقتضبة اقتضاباً لا يفسره إلا ضياع كراسة بتمامها من كراريس المخطوط الذى نشر فى تلك الطبعة . ولعل هذا النقص يغفر لى سرد القصة بأكملها ، وكنت أستطيع الاقتصار على الجزء البحرى منها .

والقصة الثانية قصة « حسن البصرى » ، وليست هى الأخرى قصة بحرية فى حدود تعريفى . إلا أن مؤلفها قد استوحى فى وضعها أسطورتين بحريتين عالجناهما فى الكتاب الأول هما « شجرة الوقواق » و « جزائر النساء » وسوف تغنينى شهرة هذه القصة وكثرة تداولها بين الناس عن الإطالة فى سردها ، محدداً غرضى فى هذا السرد بإظهار الصورة القصصية التى اتخذتها الأسطورتان المذكورتان . وقد لاءم المؤلف بينهما حتى لكأنهما أسطورة واحدة.

فإذا انتهيت من قصتى « القرندلى الثالث » و « حسن البصرى » ، استطعت أن أنفذ إلى صميم القصة البحرية بسرد قصة « عبد الله البرى » ورحلات « السندباد البحرى » ، وأن أعرض هذا النوع النادر من الأدب العربى فى أجمل وأكمل مظاهره الفنية .

القرندلى الثالث

فى الليلة الثالثة بعد الخمسين من ليالى شهر زاد حسب النص الذى ترجم عنه جالان كتاب ألف ليلة ، وفى خلال الليلة الرابعة عشر تبعاً للنص المنشور بطبعة القاهرة ، واصلت الأميرة الساسانية سرد قصة « الحمال مع بنات بغداد » على زوجها الملك شهريار . وكانت قد وقفت عند انتهاء الصعلوك الثانى من سرد حكايته فى ذلك المجلس الليلى العجيب ببيت غانيات ثلاث يعشن على انفراد ، أضفن فى تلك الليلة حمالا وخليفة ووزيراً وسيافاً وصعاليك ثلاثة حليق اللحى والحواجب ، عورا باليمنى . وما إن انتهى الصعلوك الثانى من قصته عن سبب فقد عينه اليمنى وحلق لحيته وحاجبيه ، واتشاحه بملابس الصعاليك ، حتى اتجه القرندلى الثالث إلى ربة المنزل وخاطبها قائلا :

« يا سيدتى الجليلة ! قصتى أعجب من قصة رفيقىّ . ولقد كنت ملكا ابن ملك كما أنهما من أبناء الملوك ؛ وكانا فريسة للقضاء والقدر ، أما أنا فصاحب بليتى والباحث عن شقائى بنفسى . أنا عجيب بن خصيب ، توليت الملك عن أبى فى بلادى الواقعة على ساحل البحر ، وبها المرفأ الأمين والسفن الكثيرة حربية وعمالة ، ومراكب خصصت لنزهتى إلى الجزائر الواقعة تحت حكمى .

« وقد خرجت إليها فى أول تملكى وتعرفت إلى رعيتى من سكانها فأحبونى ، وحُبِّب إلى البحر والأسفار البحرية . فطمعت ذات يوم أن ألجج فيا وراء جزائرى ، كاشفاً عن غوامض البحر ، باحثاً عن عجائبه . فجهزت عشر سفائن خرجنا بها إلى عرض البحر أربعين يوماً وليلة . وفى الليلة الأولى بعد

الأربعين هبت علينا ريح كوس ، وأخذت علينا السبيل عاصفة هوجاء حسبنا أنا فيها من الهالكين . ولاح الفجر فهدأ الريح وسكن البحر ، وأشرقت الشمس فبددت الغياهب وأشرفنا على جزيرة أقمنا بها يومين . ثم خطفنا منها إلى مملكتي نطلب العودة ، فسرنا عشرة أيام كنا نتوقع بعدها أن تلوح لنا الأرض فلم يظهر لها أثر ، واستغرب الربان شكل البحر فأمر الناظور أن يتسلق الدقل ويتأمل الأفق ، فلما بلغ أعلا الصارى وتفرس فى الأفق نادى قائلا : يا ريس ، رأيت عن يمينى سمكا على وجه الماء ، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سواداً من بعيد يلوح تارة أسود وتارة أبيض . فلما سمع الربان كلام الناظور ضرب سطح السفينة بعمامته ونتف لحيته ، وأنذرنا بالويل والثبور قائلا : ضللنا الطريق ولا ريح يرجعنا . وفى غد نصل إلى هذا السواد اللامع فهو جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس ، يجتذبنا قسراً إلى ناحيته بسبب ما فى السفن من حديد . فإذا أشرفنا عليه تفككت أوصال السفن وطار حديدها ليلصق بجبل المغناطيس ، وتفرقت ألواح المراكب فى البحر وغرقنا .

« فتوادعنا ، البحر يدفعنا إلى جبل المغناطيس دفعاً حتى صرنا على كثب منه ، وحدث ما قال به الربان ، وغرق أكثرنا . أما من نجا فلم يعرف مستقر غيره من الناجين ، وتعلقت بلوح من ألواح السفينة حملته الأمواج وألقت به وبى على الجبل » .

وشاهد الملك عجيب على رأس الجبل قبة عظيمة من صفر مقامة على عشرة أعمدة ، وفوقها فارس نحاس على فرس نحاس ، وفى يده رمح من نحاس ، وعلى صدره لوح من رصاص به نقوش وطلاسم . فتقدم إلى القبة لا يلوى

إلا على المجوع تحتها ، ونام منهوك القوى ثم صحا على صوت هاتف يقول : يا بن خصيب ، قم واحفر تحت رجليك تجد قوساً من نحاس وثلاث نشابات من رصاص عليها طلاسم . خذ القوس والنشاب وارم الفارس بأعلى القبة ، ترح الناس من هذا البلاء . فالفارس هو الراصد لما بصخور الجبل من قوة المغناطيس ، وإذا هوى فقد الجبل صفته المشئومة . ثم احذر بعد ذلك أن تذكر اسم الله حتى ترجع إلى بلادك .

وقام ابن خصيب ورمى الفارس بالسهم فوقع من توه فى البحر ، وعلا البحر حتى ساوى قمة الجبل . وإذا زورق يجذف فيه رجل من نحاس على صدره لوح من رصاص وهو متجه إلى حيث الملك عجيب يومئ إليه أن يركب الزورق . فنزل الملك بالقارب وسار به الرجل النحاسى عشرة أيام ظهر له بعدها بر من البرور . نسى عجيب وصية الهاتف وحمد الله على سلامته ، وإذا القارب يغوص بصاحبه فى طرفة عين ، وابن خصيب يسبح فى الماء يومه وليلته ، حتى رمى به العباب إلى ساحل ، وقام فى صباحه فوجد نفسه فوق جزيرة صغيرة كثيرة الأشجار . وبينما الرجل متحير فى أمره رأى مركباً قادماً على الجزيرة فاختبأ بين أغصان شجرة ، ونظر فإذا عبيد خرجوا من المركب ومعهم المساحى والفؤوس ، ومشوا فى الجزيرة ، وحفروا فى أرضها حتى كشفوا عن سرداب فتحوا بابه وجعلوا ينقلون من المركب وسقاً كثيراً . فلما انتهوا عادوا إلى المركب وجاءوا بشيخ هرم يتوكأ على صبى « أفرغ فى قالب الجمال ، وألبس من الحسن حلة الكمال » ، وأتوا إلى السرداب فنزلوا كلهم فيه . وبعد ساعة صعدوا جميعاً إلا الصبى ذو الوجه الصبوح فلم يكن بينهم .

ثم يمموا شطر المركب والشيخ معهم بعد أن أقفلوا السرداب على الفتى وأبحروا .

نزل عجيب من فوق الشجرة وانحدر من السرداب إلى بهو كبير غطى بسجاد وأضاءته شمعتان ، وفى ركن منه سرير عليه بسط ووسائد . وقد جلس الصبى فوق السرير وبيده مروحة ، وعلى مقربة منه طبق فواكه وطاقات أزهار . وفزع الصبى إذ رآه فهدأ عجيب من روعه ، وعرفه أنه من أبناء الملوك ، وأن حسن الطالع قد أرسله لمعونة الصبى فى محنته ، وخلاصه مما أراد له الشيخ وعبيده .

فأجابه الصبى : اعلم أيها الأمير أن الشيخ أبى ، وهو سر تجار الجوهرية . وقد رزق بى فى شيخوخته بعد يأس ، فتنبأ المنجمون لى بحياة طويلة إذا اجتزت سن الخامسة عشر . ففى ذلك السن تتعرض حياتى لخطر كبير ، إذ يكون عجيب بن خصيب قد أبطل طلاسم جبل المغناطيس ، وأطاح بالفرس والفارس فى البحر . ورأى المنجمون أن عجيباً هذا قاتلى إن ظفر بى فى الخمسين يوماً التالية لسقوط الفرس النحاسى . ولما عرف أبى أخيراً بأن الفرس النحاسى قد هوى ، ومضى على زوال الطلسم عشرة أيام ، جاء بى إلى هذه الجزيرة وكان قد احتفر لى فيها هذا الطابق لأقضى فيه أيام النحس التى يخشى أثناءها على حياتى . ووعدنى أن يجيئنى بعد أربعين يوماً . ثم أضاف مبتسما ابتسامة بريئة : وما أحسبنى إلا ممضيا هذه الأربعين يوماً فى أمان ، فمن أين لابن خصيب أن يصل إلى مخبأى فى هذه الجزيرة ؟ .

وسخر عجيب فى نفسه من نبوءة المنجمين ، وأكد للصبى أن الحظ قيض له أن يكون بجانبه فى تلك الأيام ليدفع عنه عادية من تسول له نفسه الاعتداء عليه .

وعاشا صفيين تسعة وثلاثين يوماً ، يتلاعبان ويتسامران ، وعجيب يبذل نفسه بذلا لإرضاء الصبي الجميل ، مغتبطاً بهذه الفرصة المواتية التي مكنته من أن يعيش ناعماً ، مطمئنا إلى قرب عودته إلى وطنه على المركب التي يجيء بها والد الفتى . وفي صباح اليوم الأربعين نهض الصبي جذلا طرباً وصاح بعجيب : سيدى الأمير ، هـذا نحن وقد عشنا الأربعين يوماً في سلام ، وسيأتي أبي اليوم ونعود بصحبته إلى بلادك وبلادى . فلأغتسل لأستقبل والدى في أحسن بزة .

ويأتيه عجيب بالحوض والماء الساخن فيساعده على الاستحمام وينشف له جسده ، ويدلكه وهو مسجى على سريره ، ثم يغطيه . وبعد أن يغفى الصبي إغفاءة يصحو ويطلب من صاحبه أن يناوله بطيخة . ويبحث ابن خصيب عن السكين ، فيراها على رف قائم فوق سرير الفتى ، فيخطو فوق السرير ويتناول السكين ، وإذا قدمه قد تعثر في الغطاء فوقع على صدر الفتى بكل حمله ، والسكين في يده وقد نفذت إلى قلب الصبي الجميل فمات لساعته .

صاح الملك صيحة منكرة إذ حم القضاء سويعات قبل نهاية الفترة التي رآها المنجمون في الطالع ، واستغفر ربه ودعاه أن يقبضه إليه . ثم أدرك أن توسلاته لن تعيد الحياة إلى الفتى ، وأن الشيخ لابد في طريقه إلى السرب ، فإذا رآه فلن يجديه أن يقص عليه ما حدث ، ولا الشيخ مصدق له .

اختبأ فوق شجرة حتى اقترب مركب الشيخ ، ورآه يمشي إلى السرب متحاملا تحت وقر السنين وحوله حشمه ، كما رآه بعد هنيهة خارجاً من الطابق محمولا على الأكتاف وقد بلل الدمع عارضيه ولحيته . كان ينشج كسير النفس

يؤوده المصاب ، وحكم القضاء الذى لا يرحم . وحفر العبيد للفتى قبراً دفنوه فيه ، وحملوا الشيخ المسكين إلى السفينة التى أقلعت وماعتمت أن اختفت وراء الأفق .

وبقى عجيب فى الطابق شهراً يقتات بما بقى من زاد الفتى ، ويتجول فى الجزيرة وهو يرى ساحلا نائيا جعل يلتمس وسيلة للوصول إليه حتى لاحظ ذات يوم أن البحر يغيض ماؤه ، والجزيرة تنفسح شواطئها . فلم يبق بينه وبين ذلك الساحل سوى مسافة يستطيع سباحة بعضها وخوض أكثرها . وهناك رأى قصراً نحاسيا تنعكس عليه أشعة الشمس فيأخذ وهيجه بالأبصار . فاتخذ سمته إليه ، وجلس ببابه يستريح ، وبعد برهة قدم على القصر عشرة من الفتية كأنهم عائدون من نزهة ، كلهم حسنو الهيئة والبزة ، إلا أنهم عور باليمنى ؛ ومعهم شيخ فارع القامة عليه سيماء الوقار والجلال .

ترفق الشيخ والفتيان بالأمير عجيب ، ودخلوا به إلى ردهة فى القصر واسعة ، انتظمت بها عشرة أسرة فى وضع دائرى حول إيوان جلس عليه الشيخ . وجلس كل منهم على سريره ، ودعوا عجيبا إلى الجلوس بينهم واستمعوا لحكايته . وتنادموا حتى هزيع متأخر من الليل . ثم أذن أحدهم بأن قد دنت ساعة الحساب . فخرج الشيخ برهة وعاد يحمل عشر صحاف غطى كل منها بغطاء أزرق قاتم ، بلون السجف وأغطية الأسرة ، ووضع أمام كل منهم صحفته . فكشفوا أغطيتها عن رماد وتراب فحم وأخذوا يمزجونه بأيديهم ، ثم يحثون منه على رءوسهم ويعفرون به وجوههم ، ويبكون ويضربون صدورهم ورءوسهم قائلين : هيهات هيهات أن يرجع مافات !

وقضوا ما تبقى من الليل على هذا الحال .

وكان الشيخ والشبان قد اشترطوا على عجيب أن لا يسأل عما لا يعنيه من أمرهم ، ولا عن سبب إصابتهم جميعاً بعيونهم اليمنى . وقد عرف كيف يكبت فضوله بشأن هذه العاهة على ما فيها من غرابة الجمع بين العشرة فتيان واتفاقها على الناحية اليمنى فيهم بلا استثناء . ولم يستطع صبراً على هذا الندب والنحيب المنظم كأنه طقس من الطقوس . فلما قارب الفجر واغتسلوا ، واستبدلوا ملابسهم المعفرة بالرماد وخرجوا للنزهة ، قال عجيب :

أصدقكم يا سادتى ، إنى غير مستطيع قبول شرطكم ؛ فمظهركم ومخبركم يدل على أنكم من أهل الحجى والرزانة . ولكن فعالكم الغريبة فى هزيع من الليل لا هى متفقة مع المظهر ولا مع المخبر . وما دمتم قد أثرتم فضولى إلى هذا الحد ، فانى سائلكم أن تفسروا لى أيضاً سبب ضياع عيونكم اليمنى

فأجابوه متبرمين بفضوله ، وطالبوه بأن يهون على نفسه ويهون عليهم .

ودام هذا شأنهم ليلة إثر ليلة حتى ضاق ذرع ابن خصيب بإصرارهم على تركه فى حيرة من أمرهم ؛ وسألهم أن يدلوه على طريق يعود منه إلى بلاده . فليس فى منظر مناحتهم الليلية ، ولا فى لون أوانيهم المجللة بالأزرق ما يغرى بالبقاء إلى جانبهم ، إلا أن يعرف على الأقل لذلك سبباً .

وبعد فترة سكوت رهيبة قال له واحد منهم : أيها الفتى ، ما سكوتنا إلا شفقة بك أن يصيبك ما أصابنا . فإن شئت أن تعرف من أمرنا ما تريد وكنت عاقداً العزم عليه ، فاعلم أن ذلك سوف يكلفك عينك اليمنى غداً الندم والحسرات .

قال عجيب : هون عليك ، فإذا قدر أن يحدث لى ما حدث لكم ،

فلست آخذكم بجريرتى .

فاستطرد الذى قطع السكوت : واعلم ، إن فقدت عينك اليمنى ، أن لا مقام لك بيننا بعد ذلك .

وحينما استوثقت الجماعة من أن عجيباً لن يرتد عن عزمه ، أحضروا بهيمة وذبحوها وسلخوا جلدها وأعطوه سكيناً وقالوا له : سوف نسجيك فى هذا الجلد ، ونخيطه عليك ونحملك إلى الخلاء ، فيأتى طير عظيم يقال له الرخ فيحملك فى أطباق الجو ، وينزل بك على قمة جبل . فإذا أحسست أن قد استقر بك عليه ، فأسرع إلى الجلد ومزقه وانهض ، لأن الرخ إذا رآك فزع منك وطار عنك . ثم رجّع البصر حولك تر قصراً منيفاً ، صُفِّحت جدرانه بصفائح الإبريز ، ورُصِّعَت بالجوهر . تقدم إلى بابه وادخل فهو مفتوح لكل قادم . لقد ولجناه قبلك وعرفنا بما وراء جدران القصر ، وكلفنا العلم به عيوننا اليمنى ، وذلك الندم الذى ترانا نتردى فيه كل ليلة . هذا كل ما نستطيع أن نبوح لك به ، ولن نزيد عليه كلمة واحدة .

تقدم عجيب إلى جلد البهيمة وتمدد فيه ممسكا بالسكين ، وخاطوا الجلد عليه وحملوه إلى الخلاء . وجاء الرخ فاحتمله بين مخالبه وطار وعبر به الجو لى قمة جبل وقد حسبه بهيمة ، فلما رآه يتلمس طريقه خارجاً من الجلد طار عنه . وشاهد عجيب الطير الهائل الأبيض الذى قيل بأنه يحمل الفيلة إلى قنات الجبال يزق بها أفراخه .

« وأسرعت يا سيدتى إلى القصر الموعود ، فوصلت إليه فى نصف يوم . ووجدته أغرب من أن يوصف . دخلت ساحته الواسعة ، فرأيت حولها تسعة

وتسعين باباً من خشب الصندل والعود ، أما الباب المائة فكان من ذهب . كلها مقفلة ، والدخول إلى أبهاء القصر وردهاته من أبواب أخرى قائمة بأعلى درج من المرمر واسع الجنبات . أخذت طريقي إلى أكبرها وسط البناء ، ودلفت منه إلى بهو واسع جلست فيه أربعون صبية يأخذ جمالهن بمجامع القلوب ، ويقصر عنه وصف الواصفين ، حتى لو كانوا من أعظم الشعراء .

« قمن جميعاً كالغزلان الرضية المستأنسة ، وأقبلن علىّ يرسلن تحياتهن فى جرس رخيم : أهلا وسهلا بالسيد الغطريف ! وانفردت إحداهن بالكلام قائلة : ياما أبطأ مرور الأيام والليالى ونحن فى ترقب فارس مثلك . فطلعتك وسيماؤك وقوامك على أحسن ما نرجو ، وأملنا أن تجد فى صحبتنا كل ما يسرك ويرضيك .

« وأحللنى منهن مكاناً رفيعاً وأنا مطرق الرأس خجلا ، وأكدن لى أنهن منذ اليوم رهن إشارتى ، وأنى سيدهن الآمر الناهى فيهن . وجاءتنى واحدة بالطست ، وأخرى بالإبريق ، وثالثة بالماء المعطر ، ورابعة بالمناشف . غسلت واحدة قدمى ، وصبت الأخرى ماء الورد على يدى ، وقدمن لى الحلل الناعمة الباهرة ، والطعام الشهى ، وخمراً صبوحاً . كل هذا فى نظام وترتيب ، وبخطوات متوازنة كأنها تتحرك على توقيع آلات غير منظورة .

« والتفت الصبيات حولى ، واشرأبت أعناقهن إلىّ ينصتن لقصة أسفارى حتى جن الليل . فجاء بعضهن بالشموع الكثيرة فنسقت فى أنحاء البهو تنسيقاً بديعاً وأوقدت ، وقدمت لى الفواكه والنقل وأصناف المشموم وخمر على خمر . وجاءت البنات بآلات الطرب ، وجلست أتناول الطعام وأحتسى الشراب

وهن حولى يوقعن ألحاناً ساحرة ، ويغنين غناء تذوب فيه القلوب صبابة ، ويرقصن منفردات مزدوجات فى دوائر وأقواس وصفوف ، ويفترقن ويجتمعن مثنى وثلاث ورباع ، بأصناف من التخلع والتكسر تذهب بالعقول .

« وكان الليل قد انقضى منه أكثر من نصفه حينما انتهى الرقص والغناء فتقدمت إحدى الصبايا وقالت : ما نحسبك الليلة إلا متعباً لغباً من السفر ، وتود أن تأوى إلى مخدعك الذى أعددناه لك وشيكا . فتفضل وتخير من بيننا عروسك .

« فأجبتها وأنا أرجع البصر حائراً بين الأربعين غانية : حاشا أن أفاضل بين الجميلات ! يا ما أحيلى هذا الحسن ، ويا ما أطيب وأظرف هذه الشمائل ! من عبدكن الخاضع ، فهو صريع كل تلك اللحاظ ، وأسير هذى القدود .

« فقالت الصبية وهى تضحك من حيرتى البادية : هون عليك أيها الفارس الجميل ، فنحن أعرف بشهامة نفسك ، وطيب عنصرك ورفيع أدبك أنت تخشى أن تدب بيننا الغيرة ، فنستحلفك أن لا تظن بنا الظنون . لكل واحدة منا نصيبها فى صحبتك . تقدم أيها الحبيب إلى العروس السعيدة باختيارك ، وعجل فما أشد حاجتك إلى الخلوة والهدوء .

« ومددت ذراعى للصبية ذات الفصاحة والجرس الناعم ، وسرنا فى حشد من الحسان إلى جناح فى القصر تتلألأ فرشه كأجنحة الطواويس ، وتتماوج سجفه كرقاب اليمام » .

* * *

« ولكن الصباح قد انفرق عن ثناياه يا مولاى ، فهل يأذن لى مليكى

بأن نترك الأمير عجيباً مع صاحبته ؟ فلم يجب شهريار بكلمة . ولكنه تمتم فى نفسه : كيف أقوى على فراقك يا شهر زاد ؛ لقد تعلقت روحى بأطراف لسانك المعسول ؛ إذا سلمتك للجلاد هذا الصباح ، فاتنى أن أعرف كيف فقد ابن خصيب عينه اليمنى ، وعاد قرندليا صعلوكا . فلننظرك أيتها الساحرة ليلة أخرى » .

فلما كانت الليلة الستين قالت دنيا زاد للسلطانة : حبذا لو أتممت لنا يا أختى حديث القرندلى الثالث . فأجابت شهرزاد : سمعاً وطاعة ، فهذه يا مولاى بقية حديث الأمير عجيب :

« وفى ضحى اليوم التالى دخلت الصبايا إلى مخدعى واقتدننى إلى الحمام ؛ ثم قدمت لى الحلل البهية ، وخرجنا إلى قاعة الطعام ، وقضينا النهار فى أنس وحبور ، والليل فى طرب وسمر . ومعاقرة ومغازلة » .

فقضى الأمير عجيب عامه فى ذلك الفردوس الأرضى ، كأنه فى حلم من أعجب الأحلام . فلما كان صباح اليوم الأول من العام التالى ، دخلت الصبايا على غير عادتهن من الضحك الموسيقى الذى كان يصحو عليه ، باكيات العيون مطرقات الرءوس ، وأخبرن الأمير بأن قد دنا ميعاد الفراق . فهن من بنات الملوك وعليهن واجبات يؤدينها أربعين يوماً فى هذا الوقت ، ولا يملكن أن يبحن بما هى تلك الواجبات . ويكفيه أن يدرك حزنهن على فراق الأمير الجميل ، حتى ولو فترة الأربعين يوماً . ويخشين أن لا يطيعهن فيما يأمرنه به فتضرب الفرقة بينهن وبينه ، ويكون اليوم آخر العهد به . أما إذا عرف من نفسه القدرة على صد فضوله ، فلا يكونن فى شك من لقائهن القريب . وتلك مفاتيح المائة باب المحيطة بساحة القصر يتركنها بين يديه ليمتع نفسه

بما يشاهده خلف تلك الأبواب . إلا الباب الذهبي فحذار أن يفتحه ، أو يحاول أن يعرف ما وراءه . ولكم يغريهن الخوف من عصيانه أمرهن بأن يحتفظن بمفتاح الباب المحظور . ولكنهن يتجنبن تجريح الأمير بإظهارهن الشك في ملكة احتفاظه بالأسرار ، أوقدرته على امتلاك أعنة الفضول في نفسه .

وودعن الأمير باكيات وهو يكفكف عبراتهن واحدة بعد الأخرى ، وبقي وحيداً في ذلك القصر الكبير الذي لم يترك له فرصة التفرج عليه واكتشاف خباياه ، ولا كان بحاجة إلى الفرجة ، أو هو فكر بها . فلقد انقضى العام بينهن كأنه يوم من الأيام ، بينما تبدو الأربعون يوماً بدونهن قرناً من الزمان .

وفتح الباب الأول فرأى به حدائق الفاكهة كأنها جنات عدن ، انتظمت أشجارها ، وجرت غدرانها تسقي كل شجرة بقدر معلوم ، حسب نموها وازدهارها ، أو نضوج الثمار فوق أغصانها .

ونفذ من الباب الثاني إلى روضة الأزاهير من الورد والياسمين والبنفسج والنرجس ، والزنبق والقرنفل والسوسن وشقائق النعمان ؛ كلها مزهرة عاطرة في أوقاتها وغير أوقاتها ، والجو عبق بما يتضوع من عبيرها ، والأرض مغطاة ببساط العشب السندسي .

والباب الثالث كان باب بستان الطيور ، وأرضه من مرمر ، وأقفاص الطيور من خشب الصندل والعود . وبها الهزار والبلبل ، والفاخت والكروان ، وطيور لم يرها ولم يسمع بها طول عمره ، وصحاف الحبوب من الزمرد والعقيق ؛ والبستان نظيف طيب الرائحة على ما به من طيور كثيرة ، وعلى خلوه من الخول والحشم ، خلو بقية البساتين .

ودخل الفتى من الباب الرابع فشاهد الكنوز الباهرة ، ورأى الدر والماس والزمرد والعقيق واللازورد واليشب ، وسبائك الذهب والفضة ، والمرجان أفرعاً وأشجاراً كاملة .

فقضى أربعين يوماً إلا يوماً واحداً يشاهد عجائب القصر المسحور وراء أبوابه التسعة والتسعين . وقد رأى كنوز العالم وبدائعه الطبيعية ، وروائع الفن ونفائس الأوانى والطنافس مما كاد يضيع معه رشده ، ويذهل له عقله .

ولم يبق على عودة حبيباته سوى يوم واحد ، وعلى رؤية جميع ما يحتويه القصر إلا ما وراء الباب المائة ، الباب الممنوع .

لو عرف عجيب كيف يغل النفس الأمارة بالسوء ، بل لو عرف ابن آدم أن يُحَكِّمَ ضميره ويرضخ لحكمه دون شهيد !

كأنى بابن خصيب يخاطب نفسه : ما علىّ إذا فتحت هذا الباب الأخير ، ومن ذا الذى يعرف بخبر فتحى إياه ولم أر أثرا لإنسان فى كل ما زرته خلف الأبواب الأخرى . لقد رأيت كل ما تصبو إليه النفس ، وعرفت فى هذا القصر نعيما ليس من نعيم هذه الأرض . فما عسى أن يكون وراء الباب الأخير حتى يحظر علىّ اقتحامه ؟ قد لا يخبئ شيئاً ، وقد يخفى عجائب لا تخطر بالبال . ثم غياب الصبايا ماذا يكون معناه ؟ هل يكشف لى هذا الباب عن سر رهيب ؟ على أن أمر ما وراء هذا الباب لا يعنينى فى ذاته بقدر ما يعنينى أننى حيال المجهول ، فلأتوج نعيمى فى هذا القصر بالعرفان .

لقد خفى على بنات القصر المسحور أمر هام لو عرفنه ، وكن حريصات حقاً على صحبة الأمير عجيب ، لما تركن له مفتاح الباب الذهبى . أو هن

عارفات بهذا الأمر ، وأقامهن الشيطان برهاناً حياً على أن ابن آدم لم يتعظ ولم يتعلم . هل عرفت أميرات القصر المسحور أن عجيباً ، قبل أن يكون ابن خصيب كان ابن طريد الفردوس وابن حواء ؟

« وفتحت الباب ياسيدتى ، الباب الذى وعدت أن لا أفتحه . فإذا عطر قوى ينفذ إلى عرانينى فيغشى على . وحين عدت إلى نفسى لم أعتبر بالنذير فأرتد إلى خارج الباب وأوصده . تقدمت إلى مكان فسيح أرضه من زعفران وسقفه عقود متناسقة ، تضيئه شموع تفوح برائحة العنبر ، قائمة فى شمعدانات من الذهب الخالص ، ومسارج تسقى ذبالاتها من زيوت عطرية . وتلفتت فرأيت فرساً أسود لا مثيل له ، فاقتربت منه ، ورأيت عليه سرجاً ولجاماً من ذهب ، يأكل الشعير والسمسم ويشرب ماء الورد ؛ فسحبته وخرجت به فى العراء لأراه وأجربه ، ومعى سوط وجدته فى ركن من مربط الفرس . واعتليت صهوته فلم يتحرك ، فضربته بالسوط وإذا به يصهل صهيلا داوياً ، وإذا له أجنحة نشرها وطار بى مخترقاً شغاف الفضاء كالسهم المريش وأنا ممسك بلجامه متمالك نفسى . وظل طائراً ساعة من الزمان ، ثم شعرت أنه ينحدر بى رويداً إلى الأرض حتى نزل بى على سطح قصر ، ولم يدعنى أترجل بل رمى بى ظهريا فى عنف ، وضرب عينى اليمنى بذيله ففقأها وطار مختفياً وراء السحاب .

« عرفت يا سيدتى فى تلك اللحظة أننى فقدت كل شىء حتى صحبة الفتيان العشرة أتأسى بأساهم ويخف ندمى إذ أشاركهم الندم ، ونزلت إلى داخل القصر فرأيت أواوينهم المصطفة فى حلقة حول إيوان شيخهم . وكان

البهو خالياً فانتظرت حتى عادوا ، ولم تعرهم دهشة لرؤيتى على هذا الحال ، بل قال أحدهم بصوت أجش : الآن عرفت ما عرفنا ، وحظيت بما به حظينا . ولو وفينا بالوعد لبقينا فى القصر المسحور ننعم بنعيم ليس بعده فى هذه الدنيا نعيم . ولكنه الباب الذهبى فتحناه كما فتحته أنت فى غيبة بنات الملوك ، ففجعنا بما فجعت به . ولعلك فهمت الآن ؛ وإذا كنت فهمت فقد عذرت لنا طقوسنا فى الحسرات ، ولسان حالك مردد معنا الآن : هيهات هيهات أن يرجع ما فات .

« وأشار إلى باب القصر فخرجت أمشى لا ألوى على شىء ، وحلقت لحيتى وحاجبى ، ولبست لباس الصعاليك » .

***

تحمل عجيب بن خصيب تبعة ما حل به . ولكن ليس معنى هذا أنه منكر لحكم القضاء والقدر ، فقد كان هو نفسه سلاحاً بريئاً للقضاء فى الحادث الذى انتهى بقتل ابن شيخ الجوهرية . وحكاية هذا الشيخ الذى حاول أن يحمى ابنه مما تنبأ له المنجمون به ليس معناها أنه غير مؤمن بالقدر . إنما حاول الشيخ أن ينأى بابنه عن موارد العطب فى الفترة السيئة الطالع من عمره . أما الملك الإنجليزى هنرى الثامن فقد عالج بطريقة حاسمة نبوءة من هذا النوع ، حين سأل المنجم أن يتنبأ لنفسه بالمكان الذى يقضى فيه ليلة عيد الميلاد فى تلك السنة ، فأجابه المنجم بعد أن نظر فى الزيجات وقرأ الطالع : أقضيه فى منزلى يا مولاى ؛ فأمر هنرى الثامن بالرجل أن يسجن فى برج لندن حتى عيد الميلاد وبعده ، ليثبت بذلك فساد زعمه .

وحكى أن شابا من أتقياء بنى إسرائيل كان يجتمع مع سليمان الملك وإذ هو فى مجلسه دخل ملك الموت ، فلما رآه الفتى اصفر لونه وارتعدت فرائصه دون أن يفهم لذلك سبباً . وقال : يا نَبِىَّ الله إنى خفت من هذا الرجل فمر الريح أن تذهب بى إلى الهند . فأمر سليمان الريح فذهبت به . فما كان إلا قليلا حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب فقال له الملك : مِمَّ تعجب ؟ قال : أعجب أنى أمرت بقبض روح ذلك الرجل بأرض الهند ، ودخلت عليك فوجدته بحضرتك فى بيت المقدس فصرت متعجباً . ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وَقبضت روحه ، فهذا عجبى .

فالقَرَنْدَلِىّ ، مع إيمانه بالقضاء والقدر ، قائل بتحمل تبعة ما جناه على نفسه بيده ، وهـذا هو موقف المؤمن الصادق الإيمـان . والرجل نزاع إلى المعرفة مهما سببت له نزعته من مصائب . فهو صورة أولية prototype للسندباد بطل القصة التى نعدها من أبدع وأكمل القصص البحرية فى آداب العالم . سافر الملك الشاب يستطلع أحوال رعاياه فى الجزائر القريبـة من مملـكته ؛ وابتعثت الرحلة فى نفسه الرغبة فى جوب البحار استكشافاً وحباً فى العرفان ، وكان هذا أول عهده بالمصائب . ولـكن نزعته الاستكشافية لقيت مكافأتها فيما عرف من أمر جبل المغناطيس والطلاسم ، وجرب من الطيران بين مخالب الرخ ، وفيما خبره بنفسه من قوة القضاء والقدر ، وأخيراً فيما تمتع به من السعادة المدنية بين أميرات القصر المسحور . وولوعه بالعرفان يدفعه مرة أخرى إلى المصائب حين فتح الباب المحظور وجاوز ذلك إلى تجربة الفرس الذى رآه خلف هذا الباب . فكان ثوابه وعقابه فى وقت واحد أن

طار على ظهر الفرس العجيب ، ثم انتهى إلى مأساة حياته بفقد عينه اليمنى وطرده من الجنة الأرضية التى عاش فيها عاماً كاملا مضى كالحلم .

والفرس الطائر مشهور فى الخرافات اليونانية باسم « بيجاسُوس » . وقد عرف فى الأساطير الفارسية أيضاً ، ومن الثابت أن قصة الفرس الطيار فى ألف ليلة من أصل فارسى . ولكنى لم أر فى كتب الجغرافيا العربية ولا كتب العجائب أثراً للأسطورة .

والطلسم والأرصاد من بواقى الديانات البدائية ، وقد ظلت حتى العصور الحديثة من أدوات السحرة وأهل الشعبذة . ويعنينا من أمر تمثال الفرس النحاسى أن السائح العربى فى القرون الوسطى لم يكن يشاهد تمثالا من التماثيل فى أى مكان من الأرض حتى يرى فيه طلسما أقيم لغرض عملى معين ولمصر الفرعونية تاريخ جغرافى سبقت الإشارة إليه ، يتخلص فى أن كل ما نراه من آثار أجدادنا الأقدمين مجموعة من الطلاسم والأرصاد ، أقامها ملوك وملكات سواحر . وليست الفكرة بعيدة عن الصواب إلى الحد الذى تظهر به ، فلم تكن تماثيل الآلهة عند الشعوب القديمة ، ولا عند الوثنيين اليوم ، محض أحجار منحوتة نحتاً جميلا أو قبيحاً ؛ بل هى المظهر الملموس لقوى مخبوءة . ومع ظهور الديانات الكبرى لم تتلاش فكرة الأرواح المختبئة فى الأحجار والجبال والأبواب والعيون والأنهار والأشجار عند كثير من أهل هذه الديانات من العامة . وأعرف فى القاهرة على الأقل شجرة وبوابة حملتا خرقاً وخصلات من شعور أجيال ونسبة هامة من سكان العاصمة المُعِزّية وزوار الأقاليم . وتعتقد غالبية من العوام والمخرفين فى كل الشعوب بما

يسمى « لعنة الفراعنة » ، وفكرة التمثال أو الصورة كشىء حامل لقوى معينة خفية ، لم تمح تماماً من أذهان العامة . وكان التمثال والصورة ، أو « السخص » كما تقول الدهماء ، أداة هامة من أدوات السحر فى القرون الوسطى . ومايزال كذلك بمصر ، يدخل فى « العمل » و « الشبشبة » . فحينما تقص المرأة صورة من الورق فى يوم الجمعة ، وتوخزها بالإبر وتحرقها بالنار فإنما هى تسعى لإزالة « عقد » أوسحر معين بواسطة التعزيم وحرق البخور ، وماقطعة الشب تحترق فى النار وتتشكل بأشكال غريبة إلا تمثال الحسود يتلوى ويتعذب .

حينما انتشرت المسيحية فى الدولة الرومانية لم يقل كل المسيحيين بأن آلهة روما ويونان كانت أحجاراً كاذبة . بل ظلت الفكرة سائدة بين العامة أن آلهتهم القدماء هربوا أمام الدين الجديد ، وتشردوا فى فيافى الصقيع وبحار الجمد الشمالية ، وقد هجروا معابدهم وجردوا تماثيلهم من قواها الروحية . كما إذا تصورنا فى مصر أن أوزيريس هجر المعابد والهيا كل المصرية إلى الصحراء حاملا على كتفه « كا » وتوابعها من الرموز « الأنيمية » وكان المفروض فيها أن تنفث الحياة فى الصور المرسومة على جدران المقابر * .

فلم يكن مؤرخو العرب ورحالوهم واهمين تمام الوهم فى نظرتهم إلى ما رأوه

(*) أطلق الأنتروبولوجيون كلمة « أنيمية » Animisme على العقيدة البدائية التى تعد ركنا ركينا فى التفكير الدينى للانسانية منذ نشأتها ، وهى أن الموجودات كلها ، حية أو جامدة ، مزدوجة التكوين . شطر منها مادى زائل وهو ما تدركه الحواس الخمس ، وشطر روحانى سرمدى قد تدركه هذه الحواس ، وقد لا تدركه تبعاً لظروف معينة . إنما اختصت بادراكه حاسة سادسة زود بها الكاهن والساحر و « رجل الغيث » و « الطبيب الروحانى » إلى آخر السلالة التى لم تنقرض حتى فى عصرنا العلمى ، ويعرف سليلها بين أرقى الشعوب اليوم باسم « الوسيط » Medium .

من آثار الوثنية الأولى فى البلاد التى عرفوها . إنما كان الخطأ حينما يشاهدون تمثالا لإمبراطور فى القسطنطينية ، أو تحفة فنية تمثل حيوانا ، أو زخرفا معينا على باب من أبواب المدن ، فيصرون على أنها رصد أو طلسم .

وموضوع **الباب المحظور** كموضوع الطلاسم ، يتعدى بحثنا الحاضر عن الأساطير البحرية إلى تخص الأساطير بصفة عامة على أساس « الفوكلور » . والباب المحظور يرجع فى أصله إلى الديانات البدائية . وفى هذه الديانات طائفة من المحظورات تعرف فى علم الأنتروبولوجيا باسم « تَبُو » Tabou منها حيوانات يحرّم أكلها ، وأشجار يحظر على الناس قطعها أو لمسها ، أو الاستفياء بظلها ، ومواضع يمنعون من ارتيادها . وقد توجد طلاسم تمنع لمس الأشجار وارتياد المواضع ، وقد لا توجد . ولكن مخالفة أمر الحظر تسبب فى كل الحالات للمخالف عقوبات بدنية وروحية مباشرة قد تنتهى بالموت أو بالجنون ، وقد تصيب أهله أو تتعداهم إلى العشيرة كلها . ولا ينتظر الكهان والسحرة عادة أن توقع الأرواح والآلهة عقوباتها ، بل يحكمون على المخالف بالموت ، ويتبعون فى تنفيذ حكمهم طقوساً أقرب إلى الأضاحى الدينية منها إلى الإعدام القضائى . ففكرة الباب المحظور ظاهرة العلاقة بأنواع « التَّبو » فى الديانات البدائية . وقد لا يتعب الباحث كثيراً ليجد حتى فى الديانات الكبرى أنواعاً من الحظر ترسبت فيها من « الأنيمية » الأولى . والباب المحظور يلعب دوراً هاماً فى كثير من أساطير الشرق والغرب ؛ فقد أحيطت « الفالكوره جريمهلدا » فى الأسطورة الجرمانية بسياج من نار وقام على حراستها تنين ؛ وكان تنين يحرس « الجزة الذهبية »

بأرض كُولْخِيدَة فى الخرافة اليونانية . وسواء كان الحظر قائماً على محض العرف ، أو يحرسه حيوان خرافى ، أو رصد وطلسم كما فى الأساطير الفارسية والعربية ، فالأساس واحد . هو فكرة التبو فى الديانات البدائية .

أما أسطورة **جبل المغناطيس** فقد رددتها كتب الجغرافيا والعجائب والرحلات العربية . قال بزرك بن شهريار الناخوداه فى كتاب « **عجائب الهند** » : "وقال لى بعض البحريين إنه بين خانفو ، وهى قصبة الصين الأصغر ، وبين خمدان ، وهى قصبة الصين الأكبر . . . نهر يجرى جرياناً شديداً بماء عذب ، وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة . وفى مواضع منه جبال المغناطيس . وإنه لا يسير فى ذلك النهر بمركب فيه حديد لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها . وإن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم ، ولا يكون فى سروجهم حديد ولا فى رُكبهم ولُجُم خيلهم" .

وذكر القزوينى فى « **عجائب المخلوقات** » على لسان المُهلَّبى" أن جبال المغناطيس متصلة بجبال القلزم ، وقد علا الماء عليها . ولهذا لا يُستَعْمَل فى مراكب هذا البحر المسامير الحديد خوفاً من جذب المغناطيس إياها" .

والإدريسى فى « **نزهة المشتاق** » : "والمندب جبل يحيط به البحر من جميع جهاته ؛ وطرفه الأعلى مما يلى الجنوب ؛ ويمر إلى جهة الشمال مع تغريب يسير ؛ وطوله نحو من اثنى عشر ميلا ، وظهره مما يلى الحبشة . كله أقاصير وجزائر متصلة حتى ينتهى إلى زالغ وأقنت وباقطى فلا يقدر أحد على خوض هذا البحر من هذه الجهة . ووسط هذه الأقاصير والجزر يقوم جبل ممتد عرضاً حتى زالغ من ناحية الجنوب . ويعرف بجبل موروقين ، وليس

عظيم الارتفاع ، ولكنه مطل على البحر ، وقد غاص جزء كبير منه تحت الماء . وهو مجموعة صخور". [وحكى صاحب كتاب العجائب] "أنه لا يمر بهذا الجبل شىء من المراكب المسمرة بالحديد إلا اجتذبه إليه ، وأمسكه معه فلا يكاد يتخلص منه البتة".

نسب القزوينى حكايته إلى المهلبى ، وبزرك بن شهريار إلى « بعض البحريين » ، والإدريسى إلى صاحب « **كتاب العجائب** » . ولكن ثمة حقيقة لا مراء فيها وهى أن مراكب العرب فى القرون الوسطى لم تكن تستعمل الحديد فى رباطاتها ؛ بل كانت "مبنية من ألواح مربوطة بحبال الليف [أى ليف النارجيل] ومُقَيَّرة ومدهونة بشحم وحوش البحر" [الإدريسى] .

ويتضح من بعض ما ذكره جغرافيو العرب عن مراكب بحر القلزم أن هذه الطريقة فى إنشاء السفن لا علاقة لها بوجود جبال مغناطيسية تجتذب حديد المراكب . يقول الإدريسى : "وبالقلزم تنشأ السفن السائرة فى هذا البحر ، وإنشاؤها شىء طريف ؛ وذلك أن الكلكل ينبسط على الأرض عريضا ، ثم لا يزال اللوح يركب منه على ما لصق به حتى يتهندم ، ثم يخرز بحبال الليف والدسور توصل بينها بالجسور الماسكة . فإذا أكمل ذلك بأسره جُلْفِطَ بالشحم المتخذ من دواب البحر ودقاق اللُّبان . وقيعان مراكبه عراض دون تعميق فى تركيبها لتحمل بذلك كثير الوسق ، ولا تدرس على كبير ترش".

هذا هو التفسير البحرى الذى أجمع عليه المؤرخون والجغرافيون . فالبحر الأحمر ، وبحر فارس ، وأغباب سرنديب ، بها « تروش وأقاصير » أى قيعان قريبة من سطح الماء ذات خطر كبير على السفن ، إلى حد أن ملاحى العرب

فى القرون الوسطى كانوا يجتنبون الملاحة فى البحر الأحمر بالليل . ولقد انتقل رأس الخط الملاحى من البصرة إلى سيراف ، ثم إلى هُرْمُوز وجزيرة كيش فيما بعد ، تجنبا لأقاصير الجزء الشمالى من الخليج الفارسى . وكانت الْجُنُوك الصينية [وهى أكبر المراكب فى تلك العصور] لا تدخل البحر الأحمر بل تنقل حمولتها إلى مراكبه الخاصة فى عدن أو ظفار على الشاطئ الجنوبى لجزيرة العرب . فالمراكب المُخَرَّزة بالليف ، ذات القيعان المفرطحة ، أكثر مرونة وآمن إذا أصابت قاعا قريبا فاصطدمت بالصخور ، أو جلست عليها ، مما لو كانت ألواحها مثبتة بجسور ومسامير حديدية .

هذا إلى أن صعوبة الحصول على الحديد فى بعض البلاد ، أو أن تفرك الخشب حول المسامير بفعل الحديد الصدئ ، جعلت بناة السفن فى كثير من برور بحر الهند يفضلون فى إنشائها الخوابير الخشبية ، وحبال الليف والدسور ، على المسامير والزوايا والعوارض الحديدية .

ولكن هذا لا يفسر أسطورة جبل المغناطيس التى نقترح لها تعليلا ربما كان أقرب حلا لعقدتها ، وهو أن التيارات البحرية المجهولة كانت تدفع السفن فجأة إلى شاطئ صخرى وتحطمها فيعزو الملاحون — وربما كان المسافرون مسؤولين عن الخطأ فى التفسير — هذه الحوادث إلى صفات فى صخور الشاطئ نفسها ، لا إلى قوة التيار الذى قذف بسفنهم إلى البر . وليس معنى هذا أن الملاحين العرب أو الفرس كانوا يجهلون بأمر التيارات ، فقد عرفوا الكثير منها ، حتى ذلك النوع من التيارات الدائرية الخطيرة الذى أطلقوا عليه اسم « الدُّردور » ووصفه إدجار ألان بو أمام الشاطئ

الغربى لشمال اسكندنافيا باسم « ميلستروم » Maelstrom فى قصته المشهورة بهذا العنوان . والمناطق التى وصف العرب الدردور فيها توجد ببحر الصين وبمقربة من قمار وفى بحر فارس عند جبلين أطلقوا عليهما اسم « كسير وعوير » وأخرج السجع من الأعماق جبلا « ثالثا ليس فيه خير » ، قال التاجر سليمان : "وفى شرقى هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بنى الصفاق وجزيرة ابن كاوان . وفى هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذى يسمى الدُّرْدور ، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية [الجنوك] وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كسير وعوير ، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير" .

ومن أقوال الإدريسى فى « نزهة المشتاق » : "والدردور موضع يدور فيه الماء كالرحى دوراناً دائماً من غير فترة ولا سكون ، فإذا سقط إليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف" .

ووصفه القزوينى فى الحكاية الآتية : "وفى هذا البحر [بحر الصين] الدردور ، فإذا وقعت السفينة دارت فيه ولم تكد تخرج ، والملاحون يعرفون مكانه ويجتنبون عنه . وحكى بعض التجار قال ركبت هذا البحر فى جمع من التجار فجاءتنا ريح عاصف صرفت المركب عن طريق المقصد . وكان معلم المركب شيخاً حاذقاً إلا أنه كان أعمى ، وكان يستصحب معه فى السفينة شيئاً كثيراً من الحبال وأصحابه ينكرون عليه ، ويقولون لو حملنا مكان الحبال أحمال التجارة لأصبنا خيراً كثيراً . فلما أصابتنا الريح العاصفة كان المعلم يقول لأصحابه انظروا ما ترون ، وهم يخبرونه بالحال إلى أن قالوا : نرى طيراً

أسود على وجه الماء . فجعل يدعو بالويل والثبور وضرب على رأسه ويقول : هلكنا والله . فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : سترون مايغنيكم عن إخبارى . فما كان إلا يسير حتى وقعنا فى الدردور ، والذى حسبناه طيراً أسود كانت مراكب فيها أناس موتى . فبقينا حيارى وانقطع رجاؤنا عن الحياة ، وانتظرنا الموت . فلما شاهد المعلم منا ذلك قال : يا قوم هل لكم أن تجعلوا لى شطر أموالكم على إخراجى إياكم من هذه الغمرة ، فقلنا : رضينا بذلك . فأمر بأخذ قنينتين مملوءتين من الدهن فأدليتا فى البحر ، فاجتمع عليها من السمك ما لا يحصى . ثم أمر بتشريح الموتى الذين كانوا فى المركب ، وشدها فى الحبال التى كانت معه ، ورميها فى البحر تأكلها السمك . ثم أمر القوم بضرب الدف والأخشاب والصياح والتصفيق ، فإذا المركب تحرك عن مكانه وجرى فلم يزل يفعل ذلك حتى خرجنا من الدردور ، ثم أمر بقطع الحبال فنجونا سالمين بإذن الله تعالى" .

ومهما كان من أمر الموتى والحبال ، فاعتقادى أن إلقاء الدهن فى البحر لم يكن ليجتمع السمك حوله . وإنما المعروف والمجرب حتى العصور الحديثة أن إلقاء الزيت على سطح البحر الهائج يهدئ بعض سورته ، وليس ببعيد أن يكون ملاحو العرب عرفوا بالتجربة أثر الزيت أو الدهن . وأن تكون محاولة المعلم الأعمى أدت إلى تهدئة نسبية لهياج الماء فى الدردور .

تقدمت بحكاية الدردور لأدلل على شىء لا يحتاج إلى دليل وهو أن الملاحين العرب عرفوا بأمر التيارات البحرية ، ولكنى لا أستبعد أن يكون قد استغلق عليهم فهم بعضها . فها هى هذه فقرة وردت فى موسوعة

الإدريسى تصور الغموض الذى أشير إليه :

"ومن مُقْبَسة إلى مدينة البايس فى البر ستة أيام ، وفى البحر مجرى ونصف . . . ومدينة البايس هى آخر عمالة الزّنج ويتصل بها أرض سُفَالة الذهب . فمنها على الساحل إلى مدينة تسمى تَبْهَنَة ثمانية أيام فى البر ومجرى ونصف فى البحر ، وذلك لأن ما بين هاتين المدينتين جوناً كبيراً . . . و بين هاتين المدينتين فى البحر جبل عال عريض يقال له عَجْرَد ، والماء قد حفر جوانبه من كل ناحية ، فيصوت الموج به صوتاً هائلا . **وهذا الجبل المذكور يجتذب الى نفسه من المراكب ماواصله** فالمسافرون يتنحون عنه و يفرون منه"

فالإدريسى قائل بجاذبيـة الجبل للمراكب ؛ وهو الناقل عن « **كتاب العجائب** » حكاية جبل المغناطيس ، لم يجد حاجة إلى مغطسة جبل عَجْرَد أمام ساحل سُفَالة الزنج . هـذا إلى أن وصفه لحالة البحر حول جبل عجرد واضح الدلالة على أن جاذبية الجبل راجعة إلى حالة البحر حوله ؛ فقد ذكر بلا لبس ، و بلا التجاء إلى كتب العجائب ، أن « الماء قد حفر جوانب الجبل من كل ناحية ، فيصوت الموج به صوتاً هائلا » .

ومما يعزز التعليل الذى أتقـدم به ، أن جغرافيّي العرب حددوا لجبل المغناطيس موضعين لا شك فى أنهما يتعرضان لتيارات خطيرة . مضيق باب المندب ، ونهر الصين الأكبر . والملاحة فى الأول عسيرة إلى هذا الوقت بسبب تياراته الشديدة ، وهو فى هذا شبيه بغيره من المضايق كمضيق ماجلان وجبل طارق ومسينا ودوفر وغيرها .

ونهر الصين الأكبر [يانغ = تسى] فيما بين خانفو وهو الميناء البحرى

للصين وخُمْدان فى الداخل ، شديد التيارات لا بسبب مجرى النهر وحده ، بل بسبب ما يعترض جريانه عند المصب من أثر المد والجزر فى البحر . وقد حرص صاحب « عجائب الهند » على أن يصفه بالجريان الشديد . أما ذكره للدواب غير المنعولة ، فربما كان لعدم نعلها سبب آخر غير مغناطيسية جبل الصين وقد تكون الحكاية هندمة ومزايدة مماجرت به عادة البحريين وأصحاب الغرائب لحكاية الموتى والسمك والحبال فى واقعة الدردور التى نقلها القزوينى .

وفكرة الحجارة المغناطيسية كانت شائعة فى القرون الوسطى . فالقزوينى يحدثنا عن حجارة تجذب الرصاص ، وحجارة تجلب المطر — أى تجذب السحاب — وهذه من الأساطير التتارية المشهورة . بل هناك حجارة تسهل الولادة ، وربما كان هذا لأنها تجذب الأجنة من البطون . ولعل منها ما يعرف باسم « حجر بَاهَت » أو « بَهْت » الذى يصفه القزوينى بأنه "يتلألأ حسناً ، إذا وقعت عليه عين الإنسان يغلبه الضحك ، وقيل إنه مغناطيس الإنسان" . ويظهر أن « مدينة النحاس » كانت بداخلها بعض مبان من هذا الحجر ؛ فكان رسل موسى بن نصير كلما صعدوا إلى سور المدينة التى لا أبواب لها ضحكوا وألقوا بأنفسهم إلى داخل السور ، ولم يسمع عنهم خبر بعد ذلك ؛ مما جعل القائد يعدل عن محاولة دخول مدينة النحاس بعد أن فقد فيها بعض رجاله أرسلهم فوق السور للاستطلاع .

وعلى أية حال فإنى أفضل أسطورة جبل المغناطيس فى صيغتها القصصية بحكاية القرندلى . فالجبل فى القصة عادى اكتسب صفته الخطيرة بالسحر والطلسم كما يتمغطس الحديد داخل ملفات « رومكورف » . فالأسطورة فى القصة مؤسسة

على ما يمكن أن نسميه «منطق الخوارق» ، بينما الأغلب أنها قامت فى كتاب القزوينى وغيره على خطأ فى تفسير ظاهرة من ظواهر التيارات البحرية*.

(*) لا أتعرض للتفسير الأنتربولوجى لهذه الأساطير ، أى التعليل الفوكلورى . إنما أدرس تطورها فى أذهان كتاب العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر . فبعض هذه الأساطير ، وربما كانت كلها ، واغلة فى القدم . ولقد بينت فى بعض الفصول السابقة كيف تتخذ الأساطير البحرية فى الكتب العربية صوراً مزدوجة . فالقزوينى مثلا ، يصف « نافورة الماء » وصفا علميا ، ثم يتكلم فى الكتاب نفسه عن التنين ، وهو الصورة الأسطورية لهذه الظاهرة الجوية البحرية . ولاحظنا ازدواج أسطورة « بنات الماء » ، فهذه حيوانات شبيهة سطحيا بالإنسان فى الوصف الواقعى ، ومخلوقات مائية فى الوصف الأسطورى . وفى خرافة « جبل المغناطيس » مثل آخر للازدواج . فالإدريسى يتكلم عن جاذبية جبل عجرد فى فقرة واضحة الدلالة على أن هذه الجاذبية ناشئة عن التيارات البحرية ، بينما يتحدث فى موضع آخر عن « جبل المغناطيس » كأنه ظاهرة بعينها مختلفة عما يحدث حول جبل عجرد . فالكاتب العربى ، كما رأينا ، يردد الأسطورة القديمة — ودراسة منشأ هذه من خصائص الفوكلوريين — ثم يمزج بها صيغة جديدة جاءت عن طريق مشاهدات واقعية للبحريين والسفار ؛ ويتفاوت هذا المزج ، فقد يكون تاما وتتوحد الأسطورة ، والغالب أن لا يتم فتبقى الأساطير على درجات مختلفة من الازدواج .

حسن البصرى

اقتحم عجيب بن خصيب الباب المحظور فأضاع هناءه وصحا من حلمه ، واقتحم حسن البصرى الباب المحظور فكان سبيله إلى الحب وآلام الجوى ، ثم إلى نعيم اللقاء . وأخيراً إلى شقوة الفراق ومتاعب الأسفار والتعرض لأشد الأخطار . فالباب المحظور يتخذ فى قصة حسن البصرى معنى أوسع . فكأنه باب الحياة نفسها يقتحمه فتى يخرج من دور المراهقة .

وقصة حسن البصرى منقولة عن قصة أجنبية ؛ ربما كانت إحدى قصص « هزار أفسان » . وقد احتفظت مجموعة ألف ليلة كما نعرفها الآن بصورة من القصة الأصلية ، وهى حكاية طويلة اسمها « جانشاه » ترد فى قصة « حاسب كريم الدين » ، وتُحْكَى فيما بين الليلة التاسعة والتسعين بعد الأربعمائة والليلة الثلاثين بعد الخمسمائة من طبعة القاهرة . ولن نتابع بالتفصيل حكاية « جانشاه » ولا قصة البصرى ، كما فعلنا بقصة القرندلى الثالث . فما يعنينا من قصة « حسن البصرى » هو أن نبين كيف آلف واضعها بين أسطورتى « شجرة الوقواق » و « جزائر النساء » اللتين تحدثنا بشأنهما فى الكتاب الأول . وسوف نقتبس فى سردها بعض ما جاء بحكاية « جانشاه » مما يتفق وما نعتبره الفكرة الأساسية فى القصتين ، تاركين للتعقيب على القصة الإشارة إلى الاختلافات بين الحكايتين .

كان حسن شابا صائغاً يعيش فى مدينة البصرة ، ورث عن أبيه دكاناً للصياغة ، جاءه إليها وغرر به مجوسى اسمه بَهْرام فحمله على ظهر سفينة عبرت

بهما البحار إلى أرضين مجهولة . بحجة أن يعلمه السيمياء ، أى تحويل النحاس إلى ذهب . وقد انتهيا إلى جبل تختفى قمته وسط السحب ، بلغ حسن إلى قمته مسجى فى جلد دابة ومحمولا بين مخالب الرخ .

ونادى بهرام على حسن من أسفل الوادى بأن يلقى إليه بربطة من الحطب يعتمد عليها المجوسى فى عملياته السياوية ، فإذا صدع بأمره ضحك بهرام وعاد من حيث أتى تاركا الفتى يندب سوء حظه ويبكى ضياع شبابه .

وينتهى حسن بطريقة أو بأخرى إلى قصر فى جبل السحاب يرى ببابه فتاة من بنات الملوك تصطفيه وتتخذه أخاً لها ، وتأتى بقية أخواتها الست فتقدمه إليهن . ويقضى بينهن عاماً فى عيشة رضية وأخوة تامة . وتسافر البنات لزيارة أبيهن ، ويتركن للبصرى مفاتيح أبواب القصر ، وله أن يفتح كل مقاصيره إلا مقصورة واحدة .

ولـكنه يفتح الباب المحظور فيرى خلفه سلماً يرقى عليه إلى سطح القصر فيشرف على البحر فى ناحية ، وعلى روض مزدهر عاطر فى ناحية أخرى . وتقوم وسط الروض مقصورة من خشب العود والصندل تغطى بحيرة ماء حولها المقاعد والأسرة . ثم إذا هو يسمع رفرفة طيور قادمة من ناحية البحر متجهة إلى البحيرة ، فيختبئ ليتمكن من مشاهدتها دون أن تنفر منه . وتحط الطيور على شجرة فيلاحظ من بينها طيراً أجمل ريشاً وأرفع رأساً ، والطيور تحف به كأنها من أتباعه .

وتشق الطيور عن ريشها وجلدها فإذا هى « بنات أبكار ، يفضحن بحسنهن الأقمار » . وتنزل البنات إلى الماء يغتسلن ويلعبن ويتمازحن . ولقد

أدرك البصرى إذ وقع نظره على سيدتهن أن نصيحة أخته له لم تكن عبثاً . لكأنها كانت تخشى أن يشغف بالفتاة الطائرة حبا . وقد حدث ما كانت تخشاه إذ جعل البصرى يتأمل المخلوقة النادرة فى ذهول من وقع عليه الحب وقع الصاعقة . "فلها فم كخاتم سليمان ، وشعر أسود من ليل الصد على الولهان وجبين مضىء كهلال العيد أو رمضان ، وعيون تحاكى عيون الغزلان ، وخدان كأنهما شقائق النعمان ، وشفتان كالمرجان ، وأسنانها لؤلؤ منظوم فى قلائد العقيان ، وجيد كسبكة فضة فوق قامة كغصن البان" .

خرجت الصبايا من الماء فصحا البطل من ذهوله ليشعر بحرارة الحمى التى تصيب الفتيان فى مثل سنه فتمنعهم الرقاد وتطير جنانهم شعاعاً . ولبسن فعدن طيوراً رفرفت بأجنحتها وطارت فى الاتجاه الذى جاءت منه .

يعاود البصرى فتح الباب فى الأيام التالية وهو يتحرق جوى وشوقاً ، ولكن الطيور لا تعود . فتجتمع الوحدة مع الهوى لينقلب الفتى البصرى صبا مضنى أليف السقام . فإذا عادت أخته من رحلتها عرفت كل شىء بمجرد وقوع نظرها عليه ، فلامته أشد اللوم على مخالفته أوامرها . ولكن وقعت الواقعة والفتى فى عداد الهالكين إن لم يفز بمعشوقته . وهنا تطلعه أخته على سر الغادة الطائرة ، فهى أخت ملكة جزيرة النساء فى آخر الدنيا ، حيث البنات الضاربات بالسيوف ، الطاعنات بالرماح ، فى جيش قوامه خمس وعشرون ألف فتاة . إذا ركبت واحدة منهن جوادها ولبست آلة حربها قاومت ألف فارس . ولباس الريش الذى تلبسه الأميرة وأتباعها من صنع الجان القاطنين بجزيرة مجاورة لجزيرة النساء .

فليترقب البصرى مقدم معشوقته فى الشهر التالى ، وليخطف ريشها ويخبئه فلا تستطيع العودة إلى جزيرتها ؛ ويطير عنها أتباعها ليبلغن خبر ما حل بها إلى أختها الملكة ؛ ثم ليتقدم إليها وهى خارجة من الماء فيجذبها من شعرها ويدخل بها مقصورته .

ووفدت البنات طائرات فى موعدهن ، وخبأ البصرى ريش الأميرة ، فطار عنها أتباعها وبقيت وحدها تبكى . فتقدم إليها البطل واقتادها بشعرها إلى مقصورته حيث ألقى عليها قباء وأقفل الباب وذهب إلى أخته يدعوها . فجاءت إليها ووجدتها تبكى وتعض على أناملها ، ثم هى تترك البكاء لتوجه أشد اللوم إلى أخت حسن لأنها سمحت للرجل الغريب بأن يطلع على سرها ، فتدافع الفتاة عن أخيها البصرى ، وتفصح للأميرة الطائرة عن حب الفتى لها وكيف أخذ عليه حواسه ، وهو لا شك مرديه إلا إذا رقت الأميرة الطائرة لحاله . ثم تقدم لها الملابس وأدوات الزينة . وتطيب خاطرها وتهدئ من روعها ، وتأمر بالمائدة فتمد ، وتنادى على حسن وتأمره بأن يدخل على الأميرة ويقبل يديها ورجليها . وأخذ الفتى يبثها لواعج حبه ويفصح لها عن نبل غرضه ، ويرسم لها صورة بهجة عن الحياة فى البصرة وهو مزمع إذا تنازلت بالقبول ، أن يتزوجها « بسنة الله ورسوله » . والأميرة الطائرة صامتة مطرقة الرأس .

ويأتى أخوات حسن فتقص عليهن الأخت الصغرى قصة العاشق ، وهى تنتظر منهن أن يوفقن بينه وبين الأميرة الطائرة ، ويعقدن زواجه عليها .

ومضت أيام الخطبة على حسن ولسانه منطلق بأرق صنوف الغزل ،

وبنات الجن يسرين عن هم الخطيبة بما فى وسعهن ، ويزجين المدح إلى الفتى البصرى الذى لن تجد الأميرة أطيب منه نفسا ، ولا أعذب حديثاً وأحلى .

فإذا عقدن زواج الفتى على الأميرة ، وقضى أربعين يوما مع عروسه وبين أخواته ، استأذن فى العودة إلى البصرة . فجهزنه بالعطايا وأهدين عروسه الحلل والجواهر ، وتواعدن أن يزورهن حسن مرة فى كل عام .

وتفرح والدته بلقائه ، وترحب بعروسه وتنصح أن يغادروا البصرة إلى دار السلام ليعيشوا فى كنف عاصمة الخلافة ، ويكونوا فى مأمن من الظلمة الطامعين ، بعد ما عاد به حسن من نفائس الجواهر . وفى بغداد يستأجرون داراً رحبة يقيمون فيها .

ولما وافى العام جهز حسن للسفر إلى قصر السحاب ، واستأذن زوجته فى السفر ، وأوصى بها أمه ، وحذرها أن لا تمكنها من ثوب الريش الذى خبأه فى صندوق دفنه فى صحن الدار . وسافر لملاقاة أخته الصغرى .

واشتاقت نفس الأميرة الطائرة للخروج فألحت على حماتها أن تصحبها إلى الحمام . وما إن وقع بصر نساء بغداد على جمال الأميرة الباهر حتى كبرن وهللن ، وانتشر خبر حسنها بين النسوة من داخل الحمام إلى خارجه ، فتقاطرت النساء على بابه ينتظرن دورهن فى مشاهدة قوامها البديع ، وسواد شعرها الأثيل ، وعينيها الكحيلتين الساحرتين . واتفق أن مرت بباب الحمام إحدى جوارى امرأة الخليفة فلما عرفت علة الازدحام ودخلت تشاهد الصبية وتتأمل محاسنها ، بهتت بها ، وجلست تتفرس فيها وهى تلبس ، وتتبعها وهى خارجة إلى إيوان الحمام لتستريح برهة ، والنساء حولها متزاحمات مهللات عجباً وإعجابا .

وعادت الجارية إلى قصر الخلافة تحدث السيدة زبيدة بأمر ما رأت فى يومها ، وتحذرها أن يرى أمير المؤمنين تلك الصبية فيقصد بزوجها شرا ليتزوج بها ، فتصيح امرأة الخليفة : يا فاجرة ، إن فى سراى أمير المؤمنين هرون الرشيد ، الخامس من بنى العباس ، ثلثمائة وستين جارية . أتحسبين أن ليس بينهن من تفوق فتاتك جمالا واعتدالا ؟ . وتجيب الجارية : ليس فى بغداد بأسرها ، بل ولا فى العرب ولا فى العجم من يدانيها حسناً وسحراً .

تأمر امرأة الخليفة بالصبية فتجىء إليها مع أم البصرى ، وتقبل الأرض بين يديها ، ثم ترفع رأسها القائم على جيد كأنه عمود من فضة . وتسرح زبيدة بصرها فيها وهى تؤمّن فى نفسها على ما قالت الجارية ، وتأمر لها بسرير إلى جانبها ، وخلعة فاخرة ، وعقد من نفائس الجوهر . هذا ومجلس السيدة زبيدة كأن على رءوسه الطير .

وفى غضون الحديث سألتها امرأة الخليفة عما تعرف من الفنون ، فأجابتها الصبية بأنها تحب الرقص . فتأمر امرأة الخليفة بالآلات والمغنيات ، وتطلب إلى الغادة أن ترقص . فتستأذن فى أن ترقص رقصة الطيور على أن يسمح لها بارتداء الثوب الخاص بتلك الرقصة ، وتدل على مكانه . فإذا أحضر إليها لبسته وبدأت رقصتها بخفة الطير ، تدور على نفسها وتتهادى ، وتلوى برأسها ذات اليمين وذات الشمال فى عجب وخيلاء ، ثم تنشر أجنحتها وتطير إلى قبة البهو ، وتحط على إفريزها بجانب نافذة من نوافذها ، وتطل على حماتها وتقول ” إذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق ، وهزته رياح المحبة والأشواق ، فليبحث عنى فى جزائر الوقواق “ ، وتطير من النافذة .

وعاد حسن البصرى من رحلته وعرف بمصابه فبكى وتندم ثم اعتزم السفر إلى قصر السحاب توا ليسأل أخته المعونة ؛ ولكنها عاجزة عن معونته إلا أن يرضى عمها الشيخ بأن يساعده ، فربما كان فى مقدوره أن يعمل شيئاً . ويأتى الشيخ فى زيارة الفتاة وأخواتها . فإذا علم بالخبر أطرق برأسه هنيهة ، وهو ينكت الأرض بعود فى يده ثم هز رأسه وقال : يا بناتى ، لقد أتعب هذا الفتى نفسه ، وهو لاشك يلقى بها إلى التهلكة إذا حاول الوصول إلى جزائر الوقواق . فبينه وبينها سبعة أودية وسبعة بحار وسبعة جبال عظام .

ولكنه إذ يرى إصرار حسن على مجابهة الأخطار سعياً وراء زوجته الحبيبة ، يأمره باتباعه ويسافران إلى بلاد بعيدة . ويدخلان كهفاً ينشق عن فلاة واسعة ، وبباب الكهف فرس مسرج ملجم يطلب الشيخ إلى حسن أن يمتطيه ، ثم يعطيه كتاباً ليحمله إلى المكان الذى يصل إليه الفرس فى آخر غلواته ، وهو باب كهف يترجل عنده البصرى ويطلق للفرس العنان فيدخل الكهف من تلقاء نفسه . وينتظر حسن بالباب خمسة أيام ، وفى اليوم السادس يخرج إليه شيخ عليه لباس أسود ، وله لحية بيضاء مرسلة إلى أسفل صدره . يقبّل حسن يديه ويسلمه الكتاب دون أن ينبس بكلمة ، فيعود الشيخ إلى الكهف . وينتظره الفتى خمسة أيام أخرى ، فيخرج إليه فى اليوم السادس فى ثياب بيض ، ويمسك بيد البصرى ويقوده إلى داخل المغارة ، حيث قاعة كبيرة ذات أربعة لواوين ، فى كل ليوان مجلس شيخ بين يديه كتب كثيرة ومجامر بخور ، وطلبة يقرأون عليه . يأمر الشيخ فينصرف الطلبة ، ويلتف الشيوخ حول رئيسهم ذى اللحية والثياب البيضاء . فإذا

عرفوا ما جاء الفتى لأجله تداولوا بالنظرات وقال الشيخ الرئيس : يا إخوانى ، لم أر إنساناً كارهاً للحياة كره هذا الشاب لها ، أو هو لم يدرك بعد ما هى جزائر الوقواق ، ولا ما يتجشمه من مشاق فى الوصول إليها ، وما ينتظره إذا وصل إلى هناك ، فزوجته هى أخت ملكة جزائر النساء ذات الحول والطول . يمحض الشيوخ النصح للفتى المحزون ، وهو ثابت فى عزمه يقبل يدى الشيخ الرئيس ، ويمرغ وجهه فى لحيته البيضاء حتى يرق الشيخ له ويقول : لا تحسبن الأمر بيدى أيها الفتى ، فوصولك إلى جزائر الوقواق رهين بإرادة صاحب الأمر ، ولا طريق لك إلى هناك إلا أن تمر بجزائر الكافور ، وسأزودك بكتاب إلى ملكها ، لعله مدبر لك أمراً .

يسافر حسن البصرى إلى جزائر الكافور ، ويكرم ملكها وفادته ، ثم يأخذه برفق ويطلعه على الصعوبة الكبرى ، وليست فى وصوله إلى جزائر الوقواق بقدر ما هى فى دخول الجزائر نفسها . فالمراكب تسير بين جزائر الكافور وبينها ، ويمكن أن يوصى به أحد ربابنته فيحمله إلى أول جزائر الوقواق . ولكن الربان والتجار لا ينزلون إلى الأرض ، فتلك جزائر النساء إذا دخلها الرجال كان جزاؤهم الموت . وتحمل التجارة بين المراكب والبر فى دوانيج وتترك على الساحل . فإذا جن الليل جاءت نساء الجزيرة فى حرس نسائى مسلح ، وحملن السلع وتركن بدلها مما تنتجه الجزائر دون أن يراهن أحد .

نزل حسن بإحدى مراكب جزيرة الكافور ، فوجد عليها "خلقاً مثل الحصى لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم" . وأوصى الملك به الربان ،

وحذره أن لا يكشف للسفار عما يعتزمه الفتى ، كما أوصى البصرى بأن يخفى غرضه عن الركب .

وسافرت المركب فى البحر عشرة أيام ، ثم ألقت مراسيها بعيداً عن البر ونزل حسن فى زورق الربان ، وقفز منه إلى البر ، وجرى إلى مقاعد مرصوصة اختبأ تحت واحد منها . ولما أرخى الليل سدوله جاء خلق كثير من النساء سائرات على أقدامهن ، تضطرب السيوف المشدودة إلى أوساطهن ، وتقرع الزرد الذى يغطى سائرهن . وبينهن نساء حملن المتاع ، وذهبن من حيث أتين . وجلست العساكر يسترحن على المقاعد ، فمسك حسن بأطراف زرد الجالسة فوق المقعد الذى اختبأ تحته ، وشكا لها حاله ، واستحفلها بآلهتها أن تعفو عنه ، وتتستر عليه ، وتشد أزره ، فقد جاء من بلاد وراء البحار والجبال والوهاد ، بحثاً عن زوجته الحبيبة من بنات الجزيرة .

ورأت الفارسة من ملامحه ولهجته ما حرك فيها الشفقة عليه والرثاء لحاله فأمرته أن يظل مختبئاً حتى الليلة التالية حين تحضر له زرداً وسيفاً وخوذة .

وبذلك تمكن البصرى من الاختلاط بجنود بنات الوقواق دون أن يكشف أمره ، وتبعهن إلى خيامهن على ضوء المشاعل والشموع يفوح منها عبير العود والعنبر ، ودخل إلى خيمة صاحبته التى استجار بها . فلما رفعت خوذتها وكشفت عن وجهها ، رآها عجوزاً مشرقة الوجه مهيبة الطلعة . جلست تنصت إلى حكايته معجبة بشجاعته وشبابه ، ثم قالت :

اعلم يا ولدى أننا فى أول جزائرنا ، لا نجىء إلى هنا إلا للتجارة ، ثم نعود إلى جزيرة الوقواق نفسها ، وهى السابعة فى هذه الجزائر ، بيننا وبينها

سفر طويل فى البر والبحر ، نمر فيه بجزائر الطيور ، ثم بجزائر الوحوش ، فجزائر الجن تندلع النار من أفواههم والشرر من عيونهم ، وأخيراً إلى جزيرة الوقواق حيث الجبل المقدس ، والأشجار التى تثمر رءوساً كرءوس ابن آدم إذا طلعت عليها الشمس استقبلتها صائحة واق ! واق ! سبحان الملك الخلاق وإذا غربت الشمس ودعتها بصيحة واق ! واق ! سبحان الملك الخلاق . لا يدخل الرجال أرضنا ، ومن تجرأ منهم علينا فمصيره الموت لا محالة . فكر فى أمرك مليا وما زال بيدك ، وتستطيع أن تعود إلى بلادك .

وهيهات أن يرجع الولهان عن عزمه ، أو تفل المصاعب والأخطار فى عزيمته . قالت له السيدة وقد زاد عطفها عليه : لن يقضى لك حاجتك سوى حسن نيتك ، وصدق محبتك ، وفرط شوقك إلى زوجتك . وسأمد إليك يد المساعدة بما تملك يمينى ، وأنا نقيبة العساكر فى هذه المملكة ، وكلهن نساء ، وملكتنا امرأة .

وتأمر نقيبة الجيش بالرحيل ، وتتحايل طول الطريق حتى تمكن لحسن من رؤية وجه عساكرها ؛ فمرة تفتش عليهن والخوذ مرفوعة ، ومرة تأمرهن بالاستحمام . وكان حسن قد أخفى عليها أن زوجته أخت الملكة الوقواق . وعندما اقتربا من الجزيرة الكبرى ، وسألته أن يصف لها زوجته ، أصر على إنكاره معرفة من تكون ، وراح يصفها وصف العاشق الولهان لمحاسن الحبيبة التى طال شوقه إلى رؤياها . فاصفر وجه العجوز وقالت له : لقد بليت بك أيها البصرى ! ليتنى ما عرفتك ! فمن تصف هى ملكة الوقواق بأسرها . ثب إلى رشدك ، وارجع عن غيك أيها المجنون ، فبينك وبينها ما بين الأرض والسماء !

ولكنهم وصلوا إلى الجزيرة الكبرى ، ولا مناص لنقيبة الجيش من أن تخبر الملكة بأمره . تقدمه لها ، فيغشى على الفتى فى حضرتها ، إذ لم يكن يتوقع أن يرى زوجته بعينها ، أو أشبه الناس بها .

وتفهم ملكة الوقواق أنه زوج أختها التوأم ، ولم تنس الملكة بعد فضيحة أختها وغيبتها فى البلاد البعيدة حين خطفها الشاب الغريب . ولكنها تريد اليوم أن تكشف عن سريرة تلك الأخت ، وتعرف إذا كانت تحب خاطفها ، أو أنها ظلت مقيمة على عهد بنات الوقواق ، كارهة للرجال ، مكرهة على معاشرة الرجل الذى تجرأ عليها .

أما أمر هذا الرجل الخاطف لأختها ، المتجاسر على دخول جزائر النساء المطلع على أسرار بلادها ، وأما أمر نقيبة العساكر ذاتها فقد أبرمته فى نفسها : التعذيب حتى الموت .

فإذا اجتمعت أميرة الوقواق بزوجها حسن البصرى ، جرت تعانق العاشق الصنديد ، ثابت الحب والجنان ، جاء يسعى إليها عبر الجبال والوهاد والبحار ، وينتزعها من بين أهلها وجزيرتها انتزاع الفارس الشجاع ، فيكفر بذلك عن سيئة اختطافها خطف الإماء تحايلا وغدراً ؛ إنه الآن جدير بها كما هى جديرة به .

وتصرخ ملكة الوقواق صراخاً تهتز له أرجاء المكان ، فسلوك أختها عار لصق بعرشها ، وبشرف مملكتها . بل هو نذير بالشر ، باذر بذور العصيان والثورة على التقاليد الموروثة ، قاض على الأوضاع والطقوس . غداً سوف ينتشر الخبر بين نساء الوقواق ، وتنقله الأفواه إلى الأسماع ، وتتردد بينهن

أسطورة جديدة تنشئ تقليداً جديداً . ألم يرَ نساء البلاط كيف أشرقت عيون الأميرة العاشقة ، وتوردت وجنتاها ، وكيف ارتمت على صدر الرجل تعانقه فى طراوة وأنوثة ، وتطبع على فمه قبلات تكاد تضطرم بنار الشوق ؟ أهذا أم ما نشأن عليه من صراع ومبارزة وطعان ، ومن ضرب الأرض بالأقدام سيراً فى صفوف عسكرية ، ومن صلابة فى الحركات وجفاف فى التعبير ؟

حاولت ملكة الوقواق أن تطفئ نذر الشر والثورة بأن تجعل من أختها وزوجها ونقيبة العساكر عبرة لمن اعتبر . وبعد حوادث كثيرة ، ومواقع بين ملكة الوقواق وبين البصرى تؤازره النقيبة ، يتخللها كثير من الخوارق وأدواتها من عصى سحرية وقلانس إخفاء وجن طائر وعون خادم ، يعود البصرى إلى بغداد بزوجته الأميرة ، وقد اجتاز الأهوال ، وتغلب على الصعاب وهدم تقاليد جزائر النساء بقوة غرامه ، وصلابة عزيمته وثبات جنانه . وعاش الجميع فى هناءة وسعادة ، حتى أتاهم هادم اللذات ، ومفرق الجماعات . فسبحان الحى الذى لا يموت .

***

ليست قصة حسن البصرى بحاجة إلى تعقيب طويل ، فقد بنيت حوادثها على أساطير عرفناها . وكان موضوع [thème] الباب المحظور محركا لحوادثها ، كما كان فى ختام قصة القرندلى الثالث . وإذا كان للمعارف الجغرافية والعجائب أثر فى تأليفها فليس معنى هذا أن واضعها عالم جغرافى ، أو أنه مُتَفَقِّه فى كتب العجائب . إنما هو قصاص أولا ، لصقت بذهنه أشتات مما قرأ أو سمع عن جزائر النساء وخرافة الوقواق . والباب المحظور موضوع كثير

الاستعمال فى القصص العربية والفارسية . وأكثر منه حكاية المجوسى الذى يغرر بالفتيان ليؤدوا له خدمة معينة سواء فى فتح كنز أو جمع الجواهر من أودية سحيقة أو مرتفعات شاهقة . ولم يذكر المؤلف جزيرة الكافور اعتباطا. فقد ذكرت كآخر مرحلة وصل إليها البصرى قبل سفره بالبحر مباشرة إلى جزائر الوقواق . وأشارت كتب الجغرافيا العربية والعجائب إلى شجرة الكافور وحددوا منابتها بأرض الزابج ، أى بجزائر الهند الشرقية . والكافور شجرة من أشجار الجزيرة التى تعرف اليوم باسم سومطره . فإذا ذكرنا ما جاء عن جزائر الوقواق فى الكتاب الأول ، أمكن فهم ما دار بخلد صاحب القصة حين جعل بطله يركب الجنك من جزيرة الكافور إلى بلاد الوقواق .

وجزيرة الجن لم يخترعها المؤلف ، فالأسطورة الفارسية التى انتقلت إلى العرب تقول بأن إلى الشرق من العالم ، فى البحر الزفتى جزيرة « كنك — ديز » تسكنها الأرواح Péris . وذكر صاحب « **مختصر العجائب** » أخباراً بهذا المعنى عن شرق العالم .

وقصة « چانشاه » ، وهى الأساس الذى أنشأ عليه المؤلف العربى قصة « البصرى » ، يظهر أنها من أصل فارسى أو هندى تقصيت بعض آثاره فى مجموعة فارسية وضعها « عنايت الله » بدلهى سنة ١٦٥٠ م ، وعنوانها « بَازْدَانَشْ » أى « روضة المعارف » وأقر بأنه نقلها عن حكايات قديمة فارسية ، وعن المجموعة الهندية المسماة « هِيتُوبَادِيشَا » . وفى « روضة المعارف » حوادث بعينها نجدها فى قصتى « چانشاه » و « حسن البصرى » . كحادثة النساء — الطيور ، وإخفاء البطل لريشهن . وجزائر النساء ، واسمها فى حكايات

عنايت الله « شَنْجَلْدِيب » . وطائر الشيمورغ [الرخ] . وأخيراً حادثة احتيال البصرى على غلامين واستيلائه على ميراثهما ، وهو قلنسوة إخفاء ووطاب سحرى ، من أدوات الخوارق التى استعملها البطل للتغلب على ملكة الوقواق وإنقاذ زوجته من بين أمة الأمازونة .

وفى رأيى أن قصة « حسن البصرى » تفضل مجموعة عنايت الله وقصة « جانشاه » . فلنقارن بين الأولى والأخيرة باعتبار أنهما الصورة والأصل الواردان فى كتاب ألف ليلة .

قصة البصرى بورجوازية ، وحكاية جانشاه أرستقراطية . فالبصرى صائغ ، وجانشاه هو ابن الملك « طيغموس الحاكم على بلاد كابُل ، وعشرة آلاف بهلوان » . وحسن البصرى يغرر به مجوسى ، وجانشاه يخرج للصيد والقنص فيتوه وهو يطارد غزالة ، ثم يتوه مرة أخرى فى سفرة بحرية إلى جزائر النسانيس والقرود ، وينتهى إلى مدينة اليهود . وهناك يغرر به يهودى ويرسله إلى أعلى الجبل فى جلد دابة ، كما فعل المجوسى . ويصل جانشاه إلى قصر من قصور سليمان ، يلقى فيه شيخاً يسلمه مفاتيح المقاصير ، كما سلمت الفتاة لحسن مفاتيح قصر السحاب . ويقع جانشاه فى غرام الأميرة الطائرة ، ويخطفها إلى بلاده حيث يخفى ثوبها الريش ، ولكنها تنبش عليه وتطير به أثناء نوم زوجها ، ثم توقظه وتطلب منه أن يبحث عنها فى قلعة « جوهرتكين » ، وهى التى حولها صاحب القصة العربية إلى الوقواق .

وبينما يجد حسن من يدله على طريق جزائر الوقواق ، يبحث جانشاه طويلا ، وخلال مغامرات وخوارق ، عمن سمع بقلعة « جوهرتكين » . فإذا

استدل عليها سافر إليها بمعونة المردة والعفاريت . ولكنه بمجرد وصوله إلى القلعة يستقبله والدا الأميرة الطائرة أحسن استقبال ، ويعرف منهما أنهما عنفا ابنتهما كثيراً على الهرب من زوجها . ثم يعود إلى بلاده مع زوجته طائرين فوق سرير من الذهب المرصع بالجوهر ، وحولهما حاشية قوامها ألف مارد .

وتتخلل قصة چانشاه مواقع حربية كثيرة . أما القصاص العربي فقد كان أحسن سرداً ، وأكثر توفيقاً فى اختيار أبطاله ، إذ أغناه اختيار بطله من فئة الصناع والتجار عن كل المواقع الحربية التى تثقل حكاية « چانشاه » وتشتت انتباه السامع ؛ كما أن تغيير قلعة « جوهرتكين » بجزائر الوقواق ، ووصف زوجة حسن بأنها من أميرات جزائر النساء ، ركزت حوادث القصة العربية ، والصعوبات التى تعترض بطلها ، فى دخول الجزائر نفسها ، وانتزاع زوجته من بين أمة من الأمازونات تكره الرجال .

وبينما نرى چانشاه يتحرك طول القصة بين شيوخ وسحرة ، إذا حسن يتلقى جل المعونة على يد أخته ، ثم على يد نقيبة العساكر . ومع أن صاحب القصة العربيـة أبقى على بعض الشيوخ فى قصته ، إلا أنه جعل بطله يتلقى مساعدات الشيوخ بفضل أخته ، وفى هذا ما يقرب الكاتب العربي من بسيكولوجية القصة الغرامية . فلاشك أن النساء أقرب إلى فهم غرام حسن ، والشعور بصبابته ، من كل الشيوخ الذين يلوذ بهم الأمير چانشاه . فروح قصة البصرى مؤنثة رقيقة تلائم موضوعها كل الملاءمة ، وغرام بطلها جدير بغرام العشاق المعروفين فى الأدب العربي أمثال مجنون ليلى ، وجميل بن معمر العذرى ، وإن لم ينهج الكاتب فى وصف غرام البصرى سبيل الوصف

المباشر للواعج الهوى . إنما الحب فى هذه القصة قوة ديناميكية مركزة ، محركة لحوادثها ، تدفع بالبصرى نحو اقتحام الصعاب بحثاً وراء معشوقته .

وللقصة عيوب كثيرة مع هذا ، تجاوزنا عنها ولم نشر إليها ، أهمها الوقائع الخرافية المطولة ، خصوصاً ما يحدث منها فى آخرها بين ملكة الوقواق وحسن البصرى . ويظهر أن المؤلف العربى اضطر إليها حين لم يجد وسيلة يخلص بها البصرى وزوجته من براثن الملكة الأمازونة .

وتكسب القصة كثيراً — كما تكسب أغلب قصص ألف ليلة — إذا بترت زوائدها ، وحُبِك سردها ، وأهملت أشعارها ، وأمكن تجنب التكرار فيها ، حتى تتماسك عناصرها ، ويقوى أسلوبها . فهى شبيهة بمعدن طيب اختلطت به معادن غثة ، وتداخلت فيه أجسام غريبة ؛ فإذا أذيب وفصل عن حسكه وقذاه ومعادنه الغريبة ، أمكن سبكه سبكا جديداً .

عبد الله البرى والبحرى

أوشكت السنة الثالثة على النهاية منذ قدمت ابنة الوزير نفسها زوجة للسلطان شهريار ، وقد دأب على قتل كل عروس صباح اليوم التالى للزواج ، ومع ذلك فالسلطانة شهرزاد تواصل تسلية السلطان بأعجب القصص فى الشرق والغرب . قصت عليه أغلب الحكايات المشهورة فى الكتاب الذى خلد اسمها : السندباد البحري ، وعلاء الدين ، والصعاليك الثلاثة ، وقمر الزمان ، وحسن البصرى . لم يعتورها كلال فى الجسد ولا ضعف فى الروح ولا وهن فى قوة الإبداع . ربما أعادت سرد بعض الحكايات ، ولو فى وضع آخر . وكأنها توقع تقاسيم موسيقية على أساس لحن الخوارق والأعاجيب . فروح شهرزاد وقصصها من روح الموسيقى ، والإعادة تتخذ على لسانها طور « اللايتموتيف » . والسلطان مأخوذ بحلاوة تلك الموسيقى ، أو هذا القصص ؛ سافر محمولا على أجنحة صوتها الساحر فى بحار هادئة وبحار ثائرة ، وطرق باب القصور العجيبة ، وشاهد الأرصاد النحاسية ، ورجالا مسخوا صخوراً أو طيوراً ؛ تلظى بنار العشاق ضرب بينهم الفراق ، وفرح بفرحهم عند اللقاء ؛ أطربت أذنيه كل ضروب الموسيقى الوترية والغنائية ، ورو حت عنه رقصات الحور ، وبنات الجن ، وليالى السمر ؛ شهد الوقائع الدامية ، وعرف « المناصف » البارعة ، ورحل إلى الجزائر البعيدة . ولقد عشنا كما عاش شهريار معلقين بأطراف لسان السلطانة الحلوة فى عالم مسحور خلقته عبقرية امرأة .

أحقا لم يكن هذا القصص فناً للفن ولا أدبا للأدب ؟ بل كان استرحاما

للسلطان الدموى ، وإبعاداً للسيف المصلت على أبدع جيد ؟ لقد قدمت الأميرة نفسها قربانا عن بنات جنسها ، عارفة بما ينتظرها . ولكنها قبل أن تتقدم تأملت فى غريمها وغريم بنات جنسها وبحثت عن مواضع الضعف فى نفسه ، فتبينتها فى جهله بالطبيعة البشرية ، وقصار نظره ، وفى ذلك الغرور البالغ الذى اخترع له الذكور اسم الغيرة ، والذى لم يجد له السلطان علاجا إلا بإغراقه فى دم المذنبة الأولى ، ودماء الأبرياء قبل أن يعطيهن الفرصة للمعصية أو للوفاء . فلتتقدم شهرزاد إذن إليه بصور من الضعف الإنسانى فى المرأة ، وبأكثر منها فى الرجال . لم تتوقع الأميرة أن يتقبل السلطان المغرور منها درساً أخلاقياً مباشراً ؛ إنما هى تغرر به وتسترضيه بقصصها ، ولعلها بذلك تنجو من القصاص الظالم ، وتنقذ حياة الأبرياء . أيكون كل هذا القصص حيلة للتخلص من قضاء السلطان الغشوم ؟ ربما ، وهو قليل إذا قيس بالحياة الغالية التى يبقى عليها ، حياة الأميرة شهرزاد .

فى الهزيع الأخير من الليلة الأربعين بعد التسعمائة تختم الأميرة الساسانية قصة من القصص ، كعادتها فى أغلب الليالى ، ثم تبدأ قصة جديدة ، على نغمة هادئة مترددة كأنها ألحان مرتجلة : "كان فى قديم الزمان صياد فقير اسمه عبد الله . . . ."

أكاد أراه هذا الصياد المعدم عاد من صيده فارغ الجعبة ، ينتظره بالبيت تسعة عيال وأمهم التى وضعت فى ذلك اليوم مولودها العاشر ، أراه فى عودته واقفاً بباب الخباز وسط الزحام ، وكان « وقت غلاء ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل » ، يرمق الأرغفة المتراصة بنظر زائغ ، ويستعبر رائحة

« العيش السخن » تشتهيه نفسه . أكاد أراه ماثلا أمامى هذا « الغلبان » خرج صباح اليوم يلقى الشبكة « على بخت المولود الجديد » فلا تصيد إلا رملا وحصى وحسكا . وهو يتساءل « كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق » وقديماً قالوا « من شق الأشداق ، تكفل لها بالأرزاق ، فالله تعالى كريم رزاق » .

وإذا بالخباز يناديه ويسأله إن كان يطلب خبزاً ، ثم يلح عليه فى أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير . ويرضى الصياد على شريطة أن يقدم شبكته رهناً ، فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التى يقوم عليها أود الصياد ، ويعطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة ، ويقدم له عشرة أنصاف فضة « ليطبخ بها طبخة » على أن يجيئه بسمكه فى الغد .

وفى اليوم التالى يخفق فى صيده كما أخفق فى اليوم السابق ، فيخجل أن يقف بباب الخباز ، ويعجل بخطاه أمام دكانه . ولكن الخباز يناديه : ياصياد ، تعال خذ عيشك ومصروفك فقد نسيت . ودام الحال على هذا أربعين يوما حتى سئم الصياد الحياة ، وود أن لم يكن المخبز فى طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم . ولكن زوجه تشجعه على المضى إلى البحر ، وتشكر الله الذى قيض لهم هذا المحسن .

يذهب الصياد فى اليوم الأول بعد الأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه « ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز » ، وإذا بالشبكة متثاقلة يسحبها فى مشقة ، حتى إذا هى عادت إليه ، ألفاها تحمل . . . حماراً ميتاً ! وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطئ ، وتثاقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة ، حتى إذا ما جذبها إليه خرج منها رجل حسبه الصياد

”عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يحبسهم فى القماقم يرمى بها إلى البحر“ . وصاح الصياد : الأمان يا عفريت سليمان ! .

فيجيبه الرجل : تعال يا صياد ، لا تهرب منى فأنا إنسان مثلك . خلصنى لتنال أجرى .

يخلصه الصياد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن . فيسأله عن رماه فى البحر ، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه ، فهو من « أولاد البحر » وقع بالشبكة صدفة . وكان بوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه ، لولا أنه « راض بما قدره الله » . ويسأل الصياد أن يعتقه « ابتغاء لمرضاة الله » .

ثم يتفق وإياه أن يجتمعا فى ذلك الموضع كل يوم ، فيأتيه الصياد بفواكه البر : ”وعندكم منها العنب والبطيخ والخوخ وغير ذلك“ ، ويأتيه هو بمعادن البحر من لؤلؤ ومرجان . ويقرآن الفاتحة ، ويخلصه الصياد من الشبكة . ثم يتفقان أن ينادى الصياد عليه من البر كلما أراد ، قائلا : أين أنت يا عبد الله يا بحرى ؟ فيلبى نداءه .

— والآن ما اسمك أيها الصياد ؟

— اسمى عبد الله .

— أنت إذن عبد الله البرى وأنا عبد الله البحرى . انتظر حتى آتى لك بهدية . . .

ويختفى عبد الله البحرى فى الماء هنيهة تبدو لعبد الله البرى دهراً ، ويتأسف على تركه هذا المخلوق يفلت من يده ، وكان فى استطاعته أن يأخذه إلى المدينة يعرضه فى الأسواق ، ويدخل به بيوت الأكابر .

ويعود عبد الله البحرى باللؤلؤ والمرجان ملء اليدين ، ويعتذر لأخيه البرى عن عدم تمكنه من أن يحمل إليه أكثر من ذلك . ولو « أن عنده مشنة لملأها له » ويتواعدان على اللقاء فى الأيام التالية .

وغدا عبد الله البرى رجلا واسع الثروة بفضل صداقته لسميه البحرى . وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذى أحسن إليه فى عسره ، وراح يقاسمه الجواهر البحرية . ولكن الثروة المفاجئة توقظ شكوك الناس ، وتنتهى به إلى موقف الاتهام بسرقة حلى ابنة السلطان . ويقتاده الحرس بأمر شيخ الجوهرية إلى القصر . فتنكر الأميرة أن الجواهر لها وتقول بأن بعض اللآلى أجمل من كل ما فى عقودها . فيغضب السلطان وينهر شيخ الجوهرية وأتباعه . فإذا اعتذر الرجل بأن الصياد "كان فقيراً فاستكثرنا عليه هذا الغنى المفاجئ" ، صاح السلطان فيه وفيمن حوله : "أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ اغربوا عنى لا بارك الله فيكم !" .

وسأل الصيادَ عن حقيقة أمره ، فسرد قصته . وهنا يطأطئ السلطان الحكيم رأسه هنيهة ثم يرفعه قائلا : "هذا نصيبك ؛ ولكن المال يحتاج إلى الجاه ، وأنا أسندك بجاهى" . ثم يزوجه ابنته ، ويقيمه وزيراً ، ويحنو على أطفاله العشرة . وتكون زوجة الصياد موضع تكريم السلطانة ، فتنعم عليها « وتجعلها وزيرة عندها » .

وغداة الزواج يطل السلطان فيرى وزيره وصهره عبد الله خارجا من القصر يحمل على رأسه « مشنة » ملأى بالفواكه ، فيناديه وينكر عليه ذلك . ويدفع عبد الله عن نفسه بأنه لا يملك أن يخلف ميعاد صديقه البحرى ،

أو يتعرض لاتهامه بأن « إقبال الدنيا عليه ، قد ألهاه عنه » .

يحافظ عبد الله البرى على عهد صاحبه البحرى ، و يواصل قسمة الجواهر بينه و بين صاحبه الخباز . ثم ينتهى إلى التحدث بشأنه مع الملك الذى يقول له : أرسل إلى صاحبك الخباز ، وهاته لنجعله وزير ميسرة .

***

قد تنتهى القصة عند هذا ، فاستقرار الحال يؤذن بختامها . وعبد الله يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر ؛ وحين تخلو البساتين من الفواكه يحمل لصاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين ، ويدوم الحال على ذلك عاماً . ولكن الأميرة شهرزاد أبرع من أن تقف عند هذا الحد ، وهمها أن تثير شغف السلطان القدم باقتياده إلى غير ما ينتظر ، حتى تبعد عن رأسها سيفه المصلت . وهى عند هذا القدر من القصة تعود إلى حديث عادى ، وتصف له كيف دام الحال بين الصديقين ، وكيف كانا يجلسان على ساحل البحر ، عبد الله البرى على الشاطئ ، وعبد الله البحرى مغموراً إلى نصفه فى الماء ، يتحدثان فى شتات الأمور . وقد جرى الحديث بينهما مرة عن المقابر ... وهنا يبادر عبد الله البحرى صاحبه قائلا :

— يقولون يا أخى إن النبى مدفون عندكم فى البر ، فهلا تعرف قبره ؟

— نعم ، فهو فى مدينة يقال لها طَيْبَة .

— وهل يزوره أهل البر ؟

— نعم .

— هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة قبر النبى الكريم ، فمن زاره استوجب

شفاعته ؛ هل زرته أنت يا أخى ؟

— لا ، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه فى الطريق ، حتى عرفتك . والآن وجبت علىّ زيارته بعد الحج إلى بيت الله الحرام ، وما منعنى عن هذا إلا محبتى لك .

— وهل تفضل محبتى على زيارة قبر رسول الله الذى يشفع لكم يوم العرض على الله ؟

— إن زيارته والله مقدمة عندى على كل شىء ، وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام .

— أعطيك الإجازة بزيارته ، و إذا وقفت على قبره فاقرئه منى السلام . وعندى أمانة فادخل معى فى البحر حتى آخذك إلى مدينتى وأدخلك بيتى ، وأحملك الأمانة لتضعها على قبر الرسول .

— يا أخى ، أنت خلقت فى الماء ، ومسكنك الماء فلا يضرك ؛ هل إذا خرجت منه يصيبك ضر ؟

— نعم ، يجف بدنى ، وتهب علىّ نسمات البر فأموت .

— كذلك أنا ، خلقت فى البر ، ومستقرى البر ؛ فإذا غطست فى البحر دخل الماء فى جوفى فأختنق وأموت .

— هوّن عليك ، فإنى آتيك بدهان تدهن به جسدك فلا يضرك الماء ، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك .

وعبد الله رجل كله إيمان واستكانة ، فهو راض بما قدر الله . ويحمل عبد الله البحرى « المشنة » ويغوص فى البحر ، ثم يعود بها ملأى ”شحما

كشحم البقر ، لونه أصفر كلون الذهب ، ورائحته زكية" . ويخبر صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له الدندان ، أعظم أصناف السمك خلقة .

— وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخى ؟

— يأكل من دواب البحر ؛ أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر القوى يأكل الضعيف ؟

— أخاف يا أخى إذا طوفت معك أن يصادفنى هذا الدندان فيأكلنى .

— هوّن عليك ، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم نخاف منك وهرب فالدندان أشد ما يكون خوفاً منكم لأن شحم ابن آدم سم قاتل له ، ويكفى أن يسمع صياح ابن آدم ليموت هلعاً .

"وتوكل عبد الله البرى على الله ، وخلع ملابسه ودفنها فى رمال الشاطئ ، ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص فى الماء . وفتح عينيه ومشى يميناً وشمالا والماء لا يضايقه ، وجعل ينزل إلى القرار ثم يرتفع بكل سهولة" .

واندفع عبد الله البحرى أمامه دليلا له فى تلك النزهة البحرية النادرة . فرأى عن يمينه وشماله جبالا ، وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك " البعض كبير والبعض صغير ، منه ما يشبه الجاموس ، ومنه ما يشبه الكلاب ، وشيء يشبه الآدميين" . وكلما دنا عبد الله البرى من نوع تهارب منه فيسأل صاحبه :

— يا أخى ، ما لى أرى كل هذه الأسماك تهرب منى ؟

— مخافة منك يا أخى ، فجميع ما خلق الله يخاف ابن آدم .

ووصلا إلى جبل شاهق الارتفاع ، فمشى عبد الله البرى بجانب الجبل ، وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئاً أسود منحدراً

نحوه من الجبل ، وهو أكبر من الفيل والجمل ، وسمع صديقه البحرى ينادى عليه :

— دونك وهذا الدندان ، فهو متجه إلينا فى طلبى ليأكلنى ، ازعق عليه !

وصاح عبد الله طائعاً فزعاً ، فإذا بالدندان يقع ميتاً . فيتعجب عبد الله البرى ويقول : "سبحان الله ! لم أضربه بسيف ولا بسكين ، وهاهو على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتى" .

ويدخل الصاحبان مدينة « بنات البحر » فيهتم عبد الله البرى بأمر كل تلك الإناث لا ذكور لها ، ويتساءل عن علة اجتماعهن فى مدينة واحدة .

— إنهن منفيات فيها بأمر ملك البحر ، ولا يمكنهن الخروج منها أو تلتهمهن دواب البحر .

— هل فى البحر غير هذه المدينة ؟

— كثير غيرها .

وجعل عبد الله البرى « يتفرج على عجائب البحر » ، وقد رأى لبنات الماء "وجوهاً كالأقمار ، وشعوراً كالنساء . ولهن أيد وأرجل نابتة فى بطونهن ، وأذناب كأذناب السمك امتدت من مؤخرتهن" ، والرجال كذلك فيما يتعلق بالأيدى والأرجل والذُّنُب .

— يا أخى ، إنى أرى الجميع مكشوف العورة .

— لأن أهل البحر لا قماش عندهم .

وما زال عبد الله البحرى بصاحبه يدور به على المدن وأهلها فى أغوار البحر ثمانين يوماً ، فيسأله عبد الله البرى :

— يا أخى ، هل بقيت فى البحر مدائن ؟

— لو فرجتك ألف عام ، كل عام على ألف مدينة ، وأطلعتك فى كل مدينة على ألف أعجوبة ، لما أظهرتك على كل مدائن البحر وعجائبه !

— يكفينى هذا ، فقد سئمت أكل السمك وأنت لا تطعمنى صباحاً ومساء إلا سمكا طريا ، لا مطبوخاً ولا مشويا . أين مدينتك من هذه المدائن ؟

ويبلغان مدينة عبد الله البحرى ، فيقتاده إلى مغارة ويقول له :

— هذا بيتى ، وكل من أراد من أهل البحر أن يكون له بيت ذهب إلى الملك وعين له الموضع الذى اختاره لسكناه . فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة « النقارين » لأن لها مناقير تفتت الجلمود .

وإذ يدخلون البيت تتقدم ابنة عبد الله البحرى وتبادر أباها بالسؤال وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقاً لا ذنب له :

— يا أبى ! ما هذا الأزعر الذى جئت به ؟

— هذا صاحبى البرى يا بنيتى ، من كنت أجىء لك من عنده بالفاكهة البرية . تعالى سلمى عليه .

وتتقدم إليه الغادة وتسلم عليه ”بلسان فصيح وكلام بليغ“ ، وتقدم له القِرى سمكتين كبيرتين ، ”كل واحدة منهما مثل الخروف“ . فيأكل متبرماً بهذا السمك النىء . وتحضر امرأة عبد الله البحرى وهى ”جميلة الصورة ، ومعها ولدان ، كل ولد فى يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان فى الخيار“ . وما إن رأت عبد الله البرى حتى صاحت :

— أى شىء هذا الأزعر ؟

وتتقدم هى وولداها يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البرى ويقولون :

أى والله إنه لأزعر ، ويتضاحكون طويلا حتى ضاق ذرع عبد الله البرى بهذا الضحك والتفت إلى صاحبه وقال :

— يا أخى ، هل جئت بى إلى هنا لأكون سخرية زوجك وأولادك ؟

فيعتذر عبد الله البحرى عنهم مؤكداً لصاحبه أن المخلوق الذى لا ذنب له فى البحر نادر ، " فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار ، فعقولهم ، كما تعرف ، ناقصة " .

وبينما هم فى الحديث يفد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد ، ويقولون لعبد الله البحرى : لقد عرف الملك بأنك جئت بأزعر من زعر البر ، وهو يريد أن يراه حالا . ويأخذونه إلى الملك فيتلقاه ضاحكا ويقول : مرحباً بالأزعر . وجعل من فى حضرة الملك يتضاحكون مرددين : أى والله إنه لأزعر . ويقص عبد الله البحرى على الملك قصة صاحبه ، ثم يستأذنه فى أن يعود به إلى البر " لأنه سئم أكل السمك نيا ، ولا يحب أكله إلا مطبوخا أو مشويا " . فيتبادل الملك مع بطانته نظرات التعجب والابتسام ، ويأذن للرجل البرى بالرحيل بعد أن يزوده بهدية عظيمة من الدر والمرجان .

ويعود عبد الله البحرى إلى مغارته حيث يسلمه الهدية التى يرجو أن يوصلها إلى قبر النبى ، ويصطحبه عائداً إلى البر .

وبينما هما فى طريقهما وسط الماء ، يلتفت عبد الله البرى إلى جماعة من أهل البحر يغنون ويرقصون حول سماط ممدود من السمك ، فيسأل عما إذا كان ذلك عرساً ، ويجيبه عبد الله البحرى : إنما هو مأتم .

— أو إذا مات عندكم ميت تفرحون له ، وتغنون وتتأدبون ؟

— نعم ، وأنتم يا أهل البر ، ماذا تفعلون ؟

— نحن نحزن عليه ، ونبكى ، وتشق النسوة جيوبهن ، ويلطمن ويندبن الميت .

وهنا يحملق عبد الله البحرى فى صاحبه هنيهة ، ويسترد أمانته فى شىء من العنف . وعند وصولهما إلى البر يقول له :

— لقد قطعت صحبتك وودك ، فلن ترانى بعد اليوم .

— لم هذا الكلام ؟

— ألستم يا أهل الأرض أمانة الله ؟

— نعم .

— كيف يحزنكم أن يسترد الله أمانته ؟ وأنتم إذا أتاكم المولود وهو أمانة الله تفرحون به ؟ كيف أحملك أمانة للنبى وأنتم تندبون وتولولون إذا أخذ الله أمانة حملكم إياها إلى حين ! كلا ، لست أطمئن إليكم ، وما بى حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر !

ويختفى عبد الله البحرى وسط الأمواج . ويعود عبد الله البرى إلى صهره السلطان يقص عليه ما رأى من عجائب البحار .

وقد لبث زمناً طويلا يذهب إلى الشاطئ ينادى على صاحبه : أين أنت يا عبد الله يا بحرى ! ، فتردد الأوعار صداه . ولكن العباب أبى أن يكشف له مرة أخرى عن سر سكان البحار .

واختفى عبد الله البحرى إلى الأبد .

* * *

كانت القصص التى سردناها قبل هذه القصة نماذج أولية prototypes للقصة البحرية . أما قصة عبد الله البرى والبحرى فهى القصة البحرية الكاملة . ولقد أشرت إلى إخفاق مؤلف قصة « بنت الملك السمندل » فى الإيحاء بالوسط البحرى ، مع أن قصته تجرى أغلب حوادثها فى قاع البحر أما هنا فقد نجح المؤلف تمام النجاح فى هذا الإيحاء . فالبحر هو العنصر الغلاب فى القصة من أول لحظة ؛ تكاد تتنشق نسماته بجانب عبد الله البرى وهو يلقى شباكه فتخرج له الحصى والحسك ، وتشاهد بريق الماء فى ضوء الشمس الساطعة على جسم عبد الله البحرى .

وحين يغوص الصاحبان فى البحر تكتمل الصورة ، كأن مؤلفها غاص فى الماء بنفسه . لأن من الصعب أن أتصور مؤلفاً لم يغطس تحت سطح ماء البحر يستطيع أن يقول عن عبد الله البرى أول ما غاص فى الماء وفتح عينيه : "ورأى ماء البحر مخيما عليه مثل الخيمة" . ثم وصف الوهاد والجبال والكهوف تحت سطح البحر ، ولم أر ما يشبه هذا الوصف إلا فى كتاب العالم الأمريكى وليم بيبى W. Beebe « نصف ميل تحت سطح البحر » يصف ما رآه سنة ١٩٣٠ حين هبط فى كرة معدنية ذات نافذة إلى نيف وتسعمائة متراً من عمق البحر . ولقد ورد فى تاريخ كلستينس المزعوم Pseudo-Callisthenes أن الإسكندر نزل فى بيت من الزجاج إلى قاع بحر الظلمات ، وجعل يتأمل بدائع الخالق أمام بيته الزجاجى ، فيعبر به تنين يستغرق مروره يوماً وليلة ، ثم تنين آخر يستغرق مروره يومين وليلتين ، ويأمر الملاك تنيناً ثالثاً أن يمر أمام الإسكندر بسرعة البرق ، فيستغرق مروره ثلاثة ليال وثلاثة أيام . أما

المسعودى ، فيقيم علاقة بين هذه الحكاية و بناء مدينة الإسكندرية . حينما كانت تخرج فى الليل دواب من البحر فتأتى على البنيان . وهى صيغة أخرى من أسطورة إنشاء الإسكندرية كما وردت فى « **مختصر العجائب** » ، عن الراعى والوليد العمالقى ، والجنّية بنت الماء ، التى علمت الراعى كيف يصنع الطلاسم [انظر صفحة ١٢٩] . قال المسعودى فى « **مروج الذهب** » :

" فسنحت للإسكندر الحيلة فى ليلة عند خلوه بنفسه و إيراده الأمور وإصدارها . فلما أن أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتاً من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة . وجعل فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارته ، وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء حذراً من دخوله إلى التابوت . وقد وضع فيه مواضع للحبال . ودخل الإسكندر التابوت هو ورجلان من كتابه ممن لهما علم بإتقان التصوير وأمر أن تسد عليه الأبواب وتطلى بما ذكرنا من الأطلية . وأمر فأتى بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر ، وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والأحجار لتهوى بالتابوت سفلا ، إذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو ولا يرسب فى أسفله . وجعل التابوت بين المركبين فألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا ، وشد حبال التابوت إلى المركبين . وطول حباله فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر ، فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر ، فإذا بصور شياطين على مثال الناس ورؤوسهم على مثال رؤوس السباع ، وفى أيدى بعضهم المناشير والمقامع ، يحكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما فى أيديهم من آلات البناء .

فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور ، وحكوها بالتصوير من القراطيس على اختلاف أنواعها وتشويه [تسوية ؟] خلقها ، وقدودها وأشكالها . ثم حرك الجبال فلما أحس بذلك من فى المركبين رفعوا التابوت " .

وإذا كانت حكاية كلستينس المزعوم والمسعودى قيدت ذا القرنين فى بيت زجاجى ، فقد أطلق المؤلف العربى بطله يطوف فى البحر كيفما شاء بفضل دهان الدندان ، ويشهد غرائبه كما طالعها المؤلف أو سمع بها فى كتب الجغرافيا والعجائب . فالأسماك التى تشبه الجاموس والبقر والكلاب والآدميين يتوارد ذكرها فى تلك الكتب . وما زالت جميع اللغات تسمى أحياء البحر بأسماء الحيوانات والنباتات الأرضية ، بل والأجرام السماوية . معتمدة فى هذه التسمية على التشابه القريب أو البعيد : سباع البحر ، ونجوم البحر ، وزهور البحر الخ .

ويغلب أن يكون الدندان هو البال . أما إنه يخاف صياح ابن آدم فالمؤلف هنا واضح التأثر بما سمع به من أن البحريين يضربون بالنواقيس والأخشاب ، ويتصايحون لإبعاد هذه الدابة عن المراكب . ولست أعرف لكلمة الدندان أصلا إلا فى كلمة أوردها الإدريسى اسماً للبال وهى « السان » وردت فى المخطوط غير منقوطة ولا مشكولة . وسمعت أحد شيوخ الصيادين بالسويس يسمى دابة العنبر « البِتَّان » . ولعلها الكلمة نفسها التى وردت فى جغرافية الإدريسى ، وربما حرفت فى مخطوطات قصة عبدالله البرى والبحرى فصارت « الدندان » .

بيد أن ما يعنينا هنا أكثر من البحث عن مصادر القصة ، وهى واضحة كل الوضوح بعد كل ما ذكرناه من الأساطير البحرية ، هو التوفيق الفنى

فى الإيحاء بالوسط البحرى ، فهذا كاف وحده ليجعل من قصــة « عبد الله البرى وعبد الله البحرى » عملاً أدبيًا فذا فى اللغة العربية . ولم يعمد الكاتب إلى الأسلوب الشعرى توسلا لهذا الإيحاء . فهو يكتب بأسلوب سهل ، ويتدرج من عالم الواقع حيث الصياد كثير العيال يكدح لقوته وقوتهم ، إلى عالم بين الواقع والخيال حين يقع عبد الله البحرى فى شباك الصياد ، إلى عالم كله خيال إذ ينزل الصاحبان إلى أغوار البحر ، يتجولان فى أرجائه ، دون أن يغير المؤلف فى أسلوبه ، كأن الأمر عادى ، وكأن الصاحبين غادرا البصرة أو سـيراف إلى سُفَالة الزنج ، أو سواحل المَلَيْبار . ودخل عبد الله البرى منزل صاحبه البحرى فعرض له منظر عائلى كله أنس وبهجة . فهذه أسرة عبد الله البحرى تتندر بالضيف الأزعر . ويدخل ولداه "وفى يد كل ولد فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان فى الخيار" .

ومع كل هذا ترتفع القصة لا إلى المستوى الفنى العالى فحسب ، بل إلى ما يجعل منها قصة من أقدم القصص الرمزية فى آداب العـالم . وذلك حين تكشف لنا فى ثناياها عن فلسفة دينية عميقة ؛ فليست قصـة عبد الله مجرد حكاية بحرية حسنة السرد ، إنما هى صورة للإيمان والاستسلام كأساس فلسفى للحياة ، إنها أصدق صورة لتلك الفلسفة الشرقية القديمة التى يسلم فيها المخلوق نفسه ليد الخالق ، لا يناقش إرادته ولا يسأله رد القضاء . وإذا كنت أخفيت هذه الناحية فى سرد القصة فلِأَرَكِّز العناية بها فى هـذا التعقيب ، وأنا أصدر فيه لا عن خيال ، بل عن النص الأصلى للقصـة فى الجزء الرابع من كتاب ألف ليلة طبع القاهرة .

فهذا رجل معدم كثير العيال تقول القصة بأنه لا يملك إلا شبكته يروح بها كل يوم إلى البحر ، فإن اصطاد قليلا باعه وأنفق على أولاده بقدر ما رزقه الله ، وإن اصطاد كثيراً "طبخ طبخة" واشترى فاكهة ، ومازال يصرف حتى يأتى على آخر ما معه وهو قائل فى نفسه : "رزق غد يأتى غداً" . ويوم تضع زوجته مولودها العاشر يخرج "على بركة الله تعالى إلى البحر ليرمى شبكته على بخت المولود الجديد" ، فتقول امرأته : "توكل على الله" .

يمارس هذا الرجل الفقير وامرأته فضيلة من الفضائل الدينيه بإيمان كامل ؛ ولكن التجربة فى الولد العاشر كانت شديدة الوقر على الصياد ، فقد مضى عليه أربعون يوما لا يجد فى شبكته رزقا .

وتكون القصة قد انتقلت إلى طبقة اجتماعية أرقى قليلا من طبقة الصياد ، لتقدم لنا مثلا جديداً من أمثلة الطيبة والورع فى صاحب المخبز الذى يتكفل بأود الصياد وأسرته أربعين يوما — وأكثر إذا لزم الأمر — دون تململ بل وفى لباقة مؤثرة إذ يؤكد للصياد بأنه لا يعطيه إحساناً ، وإنما هو محاسبه يوما على ما قدم من خبز وأنصاف فضة ، ولكن "عندما يأتيه الخير" لا قبل ذلك ، "فالله كريم" .

وحينما يشكو الصياد لامرأته أمره مع الخباز تقول له : "الحمد لله الذى عطف قلبه عليك . هل آذاك بكلام ؟" ، فيجيبها : "كلا ، وهو يقول لى دائماً : انتظر حتى يأتيك الخير . وأنا أسألك ، متى يجىء الخير الذى نرتجيه ؟" ، فترد الزوجة : "الله كريم" ، ولا يتردد زوجها فى القول : "صدقت" ويحمل شبكته إلى البحر فى اليوم الأول بعد الأربعين .

فإذا بها تصيد حماراً ميتاً "منفوخا ورائحته كريهة" فيقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم"، ثم يكاد إيمانه يتزعزع، وهو يخاطب نفسه: "قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة ما بقى لى رزق فى البحر، دعينى أترك هذه الصنعة، وهى تقول: «الله كريم سيأتيك بالخير»، فهل هذا الحمار الميت هو الخير؟". كلا، لم يكن الحمار الميت هو الخير، ولكنه كان بشيراً بالخير، كل الخير، فقد صادت الشبكة صديقه البحرى يبادله فاكهة البر بجواهر البحر.

ويقينى أن صاحب القصة لم يختر اسم عبد الله اعتباطا، وهذا الاسم يعزز ما أنا بسبيله من أن القصة يحركها روح دينى، ويسرى فى أعطافها إيمان عميق. فلم يختص عبد الله البرى وعبد الله البحرى بذلك الاسم، لأن السلطان يسأل صهره الصياد عمن يكون صديقه الخباز، فيجيبه: "اسمه عبد الله الخباز، واسمى عبد الله البرى، وصاحبى عبد الله البحرى" فيقول السلطان: "وأنا أيضاً اسمى عبد الله، وعبيد الله كلهم إخوان". هل عرف صاحب القصة بما ورد فى الأثر: "خير الأسماء ما عُبِّد وحُمِّد"؟

وها نحن أولاء نرى شخصا آخر من أشخاص القصة — وليس من الطبقة العاملة كالصياد، ولا من البورجوازيه كتاجر الخبز، بل هو السلطان نفسه — مفعما إيماناً وثقة بالله. فهو قائل لشيخ الجوهرية، ولمن جاءوا يتهمون الصياد بالسرقة: "يا قبحاء! أتستكثرون النعمة على مؤمن؟ لماذا لم تسألوه أولا؟ ربما رزقه الله من حيث لا يحتسب. اخرجوا لا بارك الله فيكم".

ثم هو القائل بعد سماع قصة الصياد: "يا رجل، هذا نصيبك؛ ولكن المال يحتاج إلى جاه، فأنا أسندك بجاهى."، ويزوجه الأميرة ابنته. فما هو

اسم هذه الأميرة يا ترى ؟ اسمها «أم السعود» ، السعود الذى يلمع فى طالع المؤمن القانت . لو أن كاتباً رمزيا كتب قصة الإيمان والتوكل لما اختار للأميرة اسماً أفضل من هذا .

يسأل عبد الله البحرى صاحبه عن قبر النبى ثم يقول : "هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة النبى الكريم" ، ويدعو عبد الله البرى أن يغوص بصحبته فى أغوار البحر ليحمله هدية يضعها على قبر النبى . وتتجه القصة بعد ذلك اتجاهاً فلسفيا واضحاً لمن يطالع بين السطور . فهذا البحر مظهر من مظاهر الكون تتضاءل حياله الأرض التى نعرفها . وكان نزول ذى القرنين إليه صورة من صور العبادة . وها هو ذا الدندان أكبر أحيائه طرا يأكل من دواب البحر "أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر ، القوى يأكل الضعيف" ، حكمة الخالق يصدع بها المخلوق .

ويؤكد عبد الله البحرى أن الدندان يموت لساعته إذا أكل ابن آدم ، بل إن صيحة الإنسان وحدها قاضية عليه ، وكأن المؤلف يقول : تأمل ما تميز به الإنسان الضعيف بجسمه ، القوى بعقله ، يتغلب به على كافة المخلوقات . وهذا عبد الله البرى يسبح فى أمواه البحر فيرى جميع أحيائه تهرب منه ، فإذا سأل صاحبه عن هذا أجابه : "مخافة منك ، لأن جميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم" .

ومع أن المؤلف واضح التمييز لابن آدم على سائر المخلوقات ، فإنه لا يتركه حتى يلقى عليه درساً دينيا كبير المعنى ، على لسان المخلوقات البحرية الشبيهة بالإنسان . وذلك حين يغضب عبد الله البحرى إذ يسمع بأن ابن آدم يبكى

موتاه ، وهم فى البحر يفرحون إذا ما استرد الله أمانته ، أى « الروح التى أودعها الجسد » .

لم يأت صاحب القصة بهذه الحادثة من خياله ، وأرجح كل الترجيح أنه تأثر بحديث عن ابن عباس قال فيه :

" بأقصى المشرق مدينة اسمها جابَرْس [جابَرْسا] أهلها من ولد ثمود ، وبأقصى المغرب مدينة اسمها جابُلْق أهلها من ولد عاد ؛ فنى كل واحدة بقايا من الأمتين . يقول اليهود إن أولاد موسى عليه السلام هربوا فى حرب بخت نصر فسيرهم الله تعالى وأنزلهم بجابرس ، وهم سكان ذلك الموضع ، لا يصل إليهم أحد ، ولا يحصى عددهم . ولقد قال النبى لجبرائيل عليه السلام فى ليلة أسرى به : إنى أحب أن أرى القوم الذين قال الله تعالى فيهم « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . فقال جبرائيل : بينك وبينهم مسيرة ست سنين ذاهباً وست سنين راجعاً ، وبينك وبينهم نهر من رمل يجرى كجرى السهم لا يقف إلا يوم السبت . ولكن سل ربك . فدعا النبى ، وأمن جبريل ، فأوحى الله إلى جبرائيل أن أجبه إلى ما سأل . فركب البراق وخطا خطوات فإذا هو بين أظْهُر القوم ، فسلم عليهم فسألوه : من أنت ؟ فقال : أنا النبىّ الأمّىّ . فقالوا : نعم ، أنت الذى بشر بك موسى ، وإن أمتك لولا ذنوبها لصافحتها الملائكة . قال رسول الله : رأيت قبورهم على باب دورهم فقلت لهم لم ذاك ؟ قالوا : لنذكر الموت صباحا ومساء ، وإن لم نفعل ذلك ما نذكر إلا وقتاً بعد وقت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالى أرى بنيانكم مستويا ؟ قالوا لئلا يشرف بعضنا على بعض ، ولئلا يفسد

بعضنا الهواء عن بعض . فقال صلى الله عليه وسلم : مالى لا أرى فيكم سلطاناً ولا قاضياً ؟ فقالوا : أنصف بعضنا بعضاً ، وأعطينا الحق من أنفسنا ، فلم نحتج إلى أحد ينصف بيننا . فقال صلى الله عليه وسلم : مالأسواقكم خالية ؟ فقالوا : نزرع جميعاً ، ونحصد جميعاً ، فيأخذ كل منا ما يكون ويدع الباقى لأخيه . فقال صلى الله عليه وسلم : مالى أرى القوم يضحكون ؟ قالوا : مات لهم ميت . قال . ولِمَ يضحكون ؟ قالوا : سروراً بأنه قبض على التوحيد . قال صلى الله عليه وسلم : وما لهؤلاء يبكون ؟ قالوا : ولد لهم مولود ، وهم لا يدرون على أى دين يقبض . . . . "

لا مراء إذن فى أن قصة «عبد الله البرى وعبد الله البحرى» ، وهى القصة البحرية الكاملة ، تختلج من أولها إلى آخرها بروح دينى عميق ، هو روح استكانة المخلوق للخالق ، واعتباره الخضوع لأحكامه صورة مثلى للإيمان .

رحلات السندباد البحرى

قصة السندباد هى القصة البحرية الكبرى فى الأدب العربى ؛ وهى فوق هـذا واحدة من أهم قصص البحار فى آداب العالم . ولو لم يحتو كتاب ألف ليلة على قصة عبد الله البرى والبحرى لكانت قصة السندباد هى القصة البحرية الكاملة الوحيدة فى اللغة العربية . بيد أن البحر فى قصة عبد الله كان وسيلة إلى غاية العرض الفلسفى ؛ أما البحر فى قصة السندباد فهو الغاية التى تنتهى إليها القصة . البحر هو ممثلها الأول [للبروتاجونست] أو أنها حوار بين اثنين : البحر والسندباد . حوار يتطور من الهدوء إلى العنف ، ومن تبادل الود إلى تداول اللكمات ، والمناجزة والصراع . لن نحاول أن نستخرج عبرة أو فلسفة من ثنايا القصة ، إلا أن تكون عبرة المقابلة بين السندباد البحرى وبين السندباد البرى [أو الهندباد كما يسمى فى بعض مخطوطات القصة] . فالسندباد البرى رجل حمال فقير عاش فى زمن هرون الرشيد ولم يغادر بغداد . بينما السندباد البحرى « من أولاد الذوات وأكابر الناس » أضاع ثروة أبيه ، ثم خرج يطوّف فى البحار حتى توفرت له أسباب الثراء والنعمة . وقد بدأ المؤلف قصته بالجمع بين الرجلين فى ظروف تكشف عن غرضه الفنى فى هذه المقابلة ، قالت شهرزاد :

” بلغنى أيها الملك السعيد أنه كان فى زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له السندباد الحمال “ ، تعب من أحماله ذات يوم شديد الحر ، فألقى بها إلى مصطبة عريضة بباب بيت عظيم ” أمامه كنس ورش ، وهواء

معتدل". وما إن استقر به المقام، وهب عليه عبير رائق منعش، حتى سمع في البيت نغم أوتار وأصوات مطربة، وتغريد طيور تناغى، من قمارى وهزار وشحارير وبلابل وفاخت وكروان. فتقدم ينظر إلى داخل البيت فوجد بستانا عظيما، وفيه خدم وحشم، وشىء لا يوجد إلا عند الملوك والسلاطين. ثم استروح رائحة أطعمة شهية، وأشربة طيبة، فرفع طرفه إلى السماء وقال: "سبحانك يا رب، يا خالق يا رزاق، ترزق من تشاء بغير حساب. اللهم أستغفرك من جميع الذنوب، وأتوب إليك من العيوب. لا أعترض عليك فى حكمك وقدرتك، فإنك لا تُسأل عما تفعل، وأنت على كل شىء قدير. سبحانك تغنى من تشاء، وتفقر من تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء. أنعمت على صاحب هـذا المكان بنعمائك، فهو سعيد فى عيشه بلا عناء. وتركتنى أشقى وأنوء بأحمالى فى حمّارة القيظ أليف الشقاء. شتان ما بينى وبين صاحب هذا الدار، وكلنا عبيدك. لا إله إلا أنت ما أعظم شأنك، وأقوى سلطانك". وإذ هو يهم بأحماله ليواصل سيره، جاءه رسول من قبل صاحب الدار يدعوه إليه. فرأى مجلساً عظيما فيـه "من السادات الـكرام، والموالى العظام، وفيه من جميع أصناف الزهر كافة أنواع المشموم، والنقل والفواكه، وشىء كثير من الطعام وأطايب بنت الـكروم، وفيه من آلات الطرب، والجوارى والحسان. والكل فى مكانه من المجلس الذى يتصدره رجل عظيم محترم، وكزه الشيب فى عارضيه، مليح الصورة، حسن المنظر، عليه هيبة ووقار، وعز وافتخار".

يكرم العظيم وفادة الحمال، ويسأله عن اسمه وصناعته. فإذا عرف بأن

اسمه السندباد ابتسم وقال :

اعلم يا حمال أن اسمك مثل اسمى ، فأنا السندباد البحرى . وأرجو أن لا أثقل عليك إذ أسألك أن تردد شكواك التى كنت تبثها إلى الله ببابى .

فخجل الحمال وقال : بالله عليك لاتؤاخذنى ، فالتعب والشدة ، وقلة ما فى اليد تعلم الإنسان السفه وقلة الأدب . فأجابه السندباد البحرى :

لا يأخذنك الحياء ، فلست ألومك على شكواك . بل أنا أرثى لك وبنفسى أن أصطفيك خلا . إنما أردت أن أصحح من شعورك نحوى ، وأعدل من حكمك علىّ . فلم أصب كل هذه الثروة إلا بعد جهاد شاب له فوداى ، ونصب نال من روحى وجسدى كل منال ، على مضى السنين والأعوام .

والتفت إلى من فى المجلس واستطرد : أجل ياسادتى ، لم تتساقط علىّ الثروة منا من السماء . وإن ما قاسيت من تعب ومشاق فى حياة المخاطرات التى عشتها ، لتحدو بأشد الناس حرصاً على جمع المال وجريا وراء الغنى ، أن يتجنب ركوب البحار حتى لايعانى الأهوال التى عانيت . ولقد ترامى إليكم ولاشك بعض خبرى ، وسمعتم طرفا من مغامراتى البحرية ، والمصائب التى حاقت بى فى رحلاتى السبع . وما دامت الفرصة التى أتاحها لنا أخى السندباد البرى قدسنحت ، فإنى محدثكم بحديثى ، لعلكم واجدون فيه بعض التسلية .

بهذا يقدم لنا صاحب القصة بطله . بالمقابلة بين الرجل القابع فى داره ، القانع بالكفاف ، وبين الرجل بعيد الهمة ، متوثب الروح . لايستنيم لمصيبة ولا يخضع لصروف الحدثان .

وهذه المقابلة يمكن أن تكون أيضاً بين قصة عبد الله وقصة السندباد .

قصة عبد الله البرى كانت قصة الاستكانة والإيمان بقضاء الله ، وقصة السندباد البحرى قصة العزم والجهاد ، ومجالدة الأحداث ، ومحاولة التغلب عليها . قصة عبد الله هى قصة الرجل الخامل الساذج تحمله الأقدار إلى مراتب العز ، وتهيئ له دون عناء أسباب الثروة والجاه ، لا فضل له فى كل هذا غير حسن إيمانه ، وقوة اتكاله . وحكاية السندباد هى قصة جميع الرحالين المستكشفين ، أولئك الذين يتركون السبيل المطروق السوى إلى المسالك الوعرة المجهولة رغبة فى المعرفة وتحقيقاً لأحلام نفوسهم الغلابة .

خرج السندباد من المراهقة إلى الشباب يتيما ورث عن أبيه ثروة طائلة . فانكب على الملذات ، وأضاع أغلب ثروته فيما يضيع فيه مال أهل الفراغ والجدة . ثم لم تهدأ نفسه العامرة إلى هذه الحياة الفارغة ، وقد مل توالى الأيام والليالى على وتيرة واحدة . ولم تك أمامه وسيلة للتغيير غير بيع ما تبقى من عقاره وأملاكه ، وشراء بضاعة والسفر بها إلى البصرة ، حيث استقل مركباً مع جماعة من التجار . فساروا فى البحر أياما وليالى ، ومروا بالجزيرة بعد الجزيرة ، وعبروا من بر إلى بر ، يبيعون ويشترون ويقايضون .

وليس فيما فعل السندباد موضع للغرابة ، فهو إما عرف البصرة غلاماً سافر إليها بصحبة أبيه ، واجتمع فيها بالتجار والبحريين ، واستمع إلى حكاياتهم العجيبة ؛ أو أنه التقى بهم على ضفاف الدجلة ، بحكم الصلة بين والده وبينهم .

وقد أشرنا فى الكتاب الأول إلى ما حدّث به أبو زيد حسن السيرافى عن المدعو ابن وهب ، من نسل هُبّار بن الأسود القرشى ، وكيف غادر البصرة إلى سيراف فى سنة ٨٧٠ م ، حينما خربها الزنج ، وسافر من سيراف إلى الصين .

ولم يكن أول من ذهب إليها من العرب ، ولكنه كان من القلائل الذين توغلوا فى داخلها ، وجاهد حتى وصل إلى ملكها الملقب بالبغبور .

وذكر الإصطخرى فى كتابه « **المسالك والممالك** » أن من بين سكان سيراف وسواحل بحر فارس من يجوبون البحار ، فربما غاب أحدهم عامة عمره فى البحر . وبلغه أن رجلا من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحو أربعين سنة . وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه بقضاء حوائجه فى كل مدينة . وكان يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت وتشعثت فاحتاج إلى إصلاحها .

ونحن لا نتخيل للسندباد رغبات لم تقم فى نفسه ، حينما نتكلم عن نزوعه إلى الأسفار . فلو أن الرجل سافر للكسب وحده لاكتفى بما أصابه منه فى الرحلة الأولى ، خصوصاً بعد أن قاسى ما قاساه . ولكن الرجل نسى بعد تلك الرحلة أهواله وتحرق للسفر ، بل هو ينسى عقب كل سفرة مصائبه ليعود إلى الرحيل . وإنّا لنسمع منه وهو يسرد أخبار رحلاته أمثال هذه الجمل قبل كل رحلة : "واشتاقت نفسى للتجارة والتفرج فى البلدان والجزائر" . أو "وتشوقت إلى السفر والفرجة والفوائد" ، "فحدثتنى نفسى الخبيثة بالسفر إلى بلاد الناس ، واشتقت إلى مصاحبة الأجناس" . بل هو يبدأ حكاية رحلته السادسة بهذه الجملة التى تبدد كل شك فى نزعته الغلابة : "وبينما أنا جالس ، وإذا بجماعة من التجار وردوا علىّ ، وعليهم آثار السفر . فعند ذلك تذكرت أيام قدومى من السفر ، وفرحى بلقاء أهلى وأحبابى ، وسرورى بدخول بلادى ؛ فاشتاقت نفسى إلى السفر والتجارة" . فهى رغبة مستحكمة ، ونفس

أمارة ، ولذة نادرة ينسى فى سبيلها المشاق والأهوال ، ويعود إليها كما يعود المدمن إلى خمره أو أفيونه . فإذا قال بعد آخر رحلاته بأنه "تاب إلى الله من السفر فى البر والبحر ، بعد هذه السفرة التى هى غاية السفرات وقاطعة الشهوات" فهو إيذان بأن روح الشباب المتوثب فيه قد خبا . ولقد حدثنا بأن رحلته السابعة استغرقت وحدها سبعة وعشرين عاما ، ونرجح أن مجموع غيابه فى كل أسفاره كان ذلك القدر . وكانت غيبة عبد الله بن بطوطة عن طنجة أربعة وعشرين عاما . فإذا حسبنا للسندباد فترات إقامته فى بغداد ما بين عام وعامين ؛ وقدرنا أنه بدأ رحلاته فى سن العشرين ، يكون انصرافه عن السفر فى العقد السادس من عمره ، وقد وصفه السندباد البرى بأنه "رجل عظيم محترم وكزه الشيب فى عارضيه" .

لن نحاول إذن فى هذه القصة أن نستخرج درساً غير الدرس الذى ذكرنا ، ونكتفى بسرد رحلات السندباد والتعقيب عليها ، فنختتم كتابنا بقصة طبقت شهرتها الخافقين ، هى خلاصة المعارف البحرية الجغرافية عن البحر الشرقى الكبير فيما قبل عصور الاستكشافات الأقيانوسية فى مبدأ القرن الخامس عشر ، كما أنها واحدة من روائع الأدب الخيالى فى الشرق والغرب .

الرحلة الأولى

الجزيرة المتحركة والخيول البحرية

حينما أحس السندباد بأن ثروته على وشك الضياع تذكر ما رواه أبوه عن سليمان الحكيم: "ثلاثة خير من ثلاثة، المات خير من الولادة، وكلب حى خير من أسد ميت، والقبر خير من الفقر". فسارع إلى ما بقى له من متاع وعقار وباعه بمبلغ ثلاثة آلاف ذهبا، وانحدر إلى البصرة برفقة تجار، وركب السفينة إلى "البحر الشرقى الكبير، وطوله من القلزم إلى الوقواق أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخا". وكان أول إحساس له أن "تغير مزاجه قليلا من الموج والاضطراب" ثم اعتدل، أو "جلس مزاجه" كما يقول.

وساروا من بر إلى بر، ومن جزيرة إلى جزيرة، يبيعون ويشترون ويقايضون حتى أشرفوا على جزيرة لطيفة منبسطة، أرضها كالريحان الأخضر. فطوى الريس الشراع ورمى بالأناجر. ونزل الركب إلى الجزيرة فانتشروا فوق بساطها يستريحون ويأكلون ويشربون. وإذا أرض الجزيرة تميد بهم وتضطرب، والربان ينادى بالناس أن يعجلوا بالرجوع إلى المركب أو يهلكوا، فليست هذه جزيرة، وإنما هى حوت كبير يستريح فوق الماء.

فلحق بالمركب من لحق، سباحة أو فى الزوارق، وأقلعت السفينة وقد غاصت "الجزيرة"، والسندباد متشبث ببعض الأخشاب مما جاء بها السفار إلى البر لغسل ملابسهم. وبقى معلقاً يومه وليلته يقذفه العباب من جهة إلى جهة حتى رأى الموت بعينه ألوانا. ورمت به الأمواج إلى بر منخفض تتدلى فوقه شجرة غريبة تعلق بها، وتحامل حتى بعد عن مرمى البحر، وانطرح

على الرمال أقرب إلى الممات منه إلى الحياة . وظل مطروحا حتى صباح اليوم التالى ، ثم قام يسعى فى أنحاء الأرض التى هو عليها ، وكانت جزيرة . تارة يمشى وتارة يستريح ، يتقوت من أوراق الشجر وحشيش الأرض حتى ورد عين ماء فشرب منها ، وبدأ يسترد روعه وقواه . واصل سيره على غير هدى حتى خرج من أجمة إلى سهل منبسط رأى فيه عن بعد فرساً مربوطا فاتجه إليه بين الأمل والرهبة . وإذا رجل يصرخ عليه من سَرَب تحت الأرض ، ثم خرج إليه واقتاده عاجلاً إلى السرَب وقدم له بعض القوت ، وسأله عن حاله وطيب خاطره . ورأى السندباد جماعة فى السرب علم منهم أنهم ساسة خيل الملك الملقب بالمَهرَاج صاحب الجزيرة ، وأنهم يفدون إليها فى موسم معلوم ومعهم حجرات المهراج يربطونها متفرقة فى السهل المنبسط . فيخرج إلى كل منها حصان من البحر ينزو عليها ، ثم يحاول اقتيادها فيخرجون عليه صارخين يضربون بالأخشاب والنواقيس فيهرب إلى البحر . ويقتادون الأفراس إلى حاضرة الملك ، حيث تلد أمهاراً نادرة يعنى المهراج بتربيتها عناية كبرى .

وبينما هم فى الكلام يسمعون صهيلا عاليا ، ويخرج من البحر حصان يعلو الحجرة ، ثم يهم بقتلها حين لا يجد وسيلة لاقتيادها ، فيخرج الساسة من الأسراب فى جلبة عظيمة يهرب منها الفرس عائداً إلى مقره فى البحر .

واجتمع الساسة جماعة كثيرة مع كل منهم حجرة . وسافروا إلى مدينة المهراج ومعهم السندباد ليقدموه إلى ملكهم . فرحب به وأمر له بكساء وقرى ومنزل . ثم عينه عاملا على الميناء وكاتبا على المراكب . وكان السندباد يجتمع بمن يمر بها من البحريين يسألهم عن بلاده وأين تكون من بلاد المهراج.

والتقى من بينهم بكثير من الهنود سألهم عن بلادهم . فعرف أنهم أجناس مختلفة . منهم "الشاكرية" وهم أشرف أجناسهم لا يظلمون أحدا ولا يقهرونه ، ومنهم البراهمة وهم لا يشربون الخمر ، أهل صفاء ولهو وطرب .

وسمع من أهل بلاد المهراج بأمر جزيرة يقال لها « كاسل » يسمع فيها دق الطبول الليل كله ، "والبحريون يقولون إن الدجال فيها" .

ورأى فى بحرهم سمكا طوله مائة ذراع يخاف منه البحريون فيقرعون على بعض الأخشاب فتهرب فى البحر . ورأى سمكا طول الواحدة ذراع ، وجهها كوجه البوم . كما رأى كثيراً من العجائب لم يذكرها .

وذات يوم أقبلت سفينة تشكك السندباد فى أمرها ، وكأنه عرفها . وأخذ بحارتها يخرجون متاعها ، والسندباد يقيد ذلك فى أزمته باسم صاحبه ، حتى أخرجوا أحمالا كتب عليها كارِنِ السفينة « هذه وديعة السندباد البغدادى » . فدخل السندباد على الربان يسأله عن صاحب تلك الأحمال ، فقال له : رجل كان معنا منذ زمان فنزلنا بظهر دابة بحرية فحسبناها جزيرة ، فلما شعرت بدفء النار التى أوقدناها على ظهرها لطهى طعامنا تحركت وغاصت فى البحر . وغرق بعض الناس ومنهم هذا السندباد . وقد اتجرنا بتجارته ، وفى عزمنا أن نوصل ودائعه إلى أهله فى بغداد !

فصرخ السندباد وعرف الربان بنفسه ، وحكى حكايته . وبعد لأى تحقق الربان من أنه السندباد بعينه ، فعانقه وقبله وأعاد إليه ماله مضاعفاً . وعرض عليه السندباد أن يهدى إليه بعضه فأبى وقال : تكفينا سلامتك . فتخير هدية للمهراج ، ودخل عليه يطلعه على جلية الخبر ، ويستأذنه فى العودة

إلى بلاده. فقبل الملك الهدية وأذن له بالسفر وأنعم عليه بالكثير من متاع بلاده.

وسافروا حاملين من جزائر المهراج و بلاد الهند العود والصندل والكافور والقرنفل والكبابة والزنجبيل وأمثالها ، حتى انتهوا إلى البصرة . وانتقل السندباد منها إلى بغداد ومعه من المال ما يزيد على مائة الف دينار ذهبا غير المتاع والتحف . واجتمع بأهله وخلانه ، واقتنى الدور والعبيد ، وأهدى ووهب ، وقضى أوقاته هانئاً مسرورا .

* * *

ليس فى رحلات السندباد إلا القليل لم أجد له أصلا أو مقابلا فيما فحصته من كتب الجغرافيا العربية ، أو كتب العجائب . ومهمتنا فى هذا التعقيب أن نتقفى أثر تلك الأصول لنبين كيف جمعت قصة السندباد طائفة من المعارف البحرية كانت ذائعة بين العرب وغيرهم فى القرون الوسطى .

ونحن لا نلزم فى سرد القصة نصا من نصوصها بعينه ، بل نسردها على أساس النص الذى نشره لانجليس سنة ١٨١٣ بباريس ، ونصوص طبعات برسلاو ، وكلكتا ، والقاهرة . ويتبين من مجموعة هذه النصوص أن صاحب القصة ألفها وفى رأسه صورة جغرافية للبحر الشرقى الكبير ، إن لم تكن شديدة الوضوح ، فهى ليست أكثر إبهاما من الصورة التى تنطبع فى أذهاننا من مطالعة كتب الرحلات والعجائب والمسالك والممالك .

ويظل لمؤلف القصة بعد هذا فضل السرد المحكم والتصوير البارع دلالة على موهبة قصصية نادرة ، وفن قوى . وهو يذكرنا بقصة فرنسية عن رجل لم يغادر قريته إلى أكثر من الأسواق المجاورة ، ولكنه أوتى قدرة على

سرد الحكايات جعلت الناس يلتفون حوله ويستمعون لقصصه الخلابة عن رحلاته المزعومة فى القارة الإفريقية حتى أصبح معروفا فى قريته باسم « باڤا الإفريقى » . فإذا جاءهم رجل جاب إفريقيا ، وحاول أن يثبت كذب صاحبهم بأن يحكى لهم ما رآه حقا فى القارة المظلمة ، أغضوا عنه ، وانصرفوا إلى صاحبهم يستمعون لقصصه . فلما أصر الرحالة المنطوى الأسلوب على تكذيب قصاصهم المحبوب ، وضايقهم فى إصراره ، اتهموه بالكذب ، واعتبروه ، وهو الرحالة الحقيق ، أفاقا . وتألبوا عليه حتى طردوه من القرية .

فلم يكن يعنى سكان القرية بالحقائق عن إفريقيا ، إنما هى الصورة التى رسمها باڤا للقارة المجهولة ، كانت بمثابة نافذة فتحت لهم على العالم الفسيح ، فى حياتهم الضيقة . وقد عرف مؤلف قصة السندباد قراءة أو سماعا بالكثير من أخبار البحر الشرقى الكبير ، وأوتى موهبة القصاص النابغ . فأخذ فى وضع قصته عن ذلك البحر فى أسلوب بارع خلاب . وأخرج صورة لذلك البحر ، إن كان للخيال فيها نصيب أكثر من الواقع ، فإنها منسقة تنسيقاً فنيا لا نجده بسهولة فى الكتب العربية الأخرى التى تتكلم بلسان العلم .

جاء فى « *مختصر العجائب* » : "وبحر آخر يقال له هِرْكَنْد فيه جزائر كثيرة ، وفيه سمكة ربما نبت على ظهرها الحشيش والصدف وربما رسا عليها أهل المراكب يظنون أنها جزيرة ، فإذا فطنوا أقلعوا عنها" .

وقال القزوينى : "السلحفاة حيوان برى وبحرى . أما البحرى فقد يكون عظيما جدا حتى تظن أصحاب المراكب أنه جزيرة . وحكى بعض التجار قال : وجدنا وسط البحر جزيرة مرتفعة عن الماء ، فيها نبات أخضر ،

نخرجنا إليها وحفرنا للطبخ . وإذا الجزيرة تحركت ، فقال الملاحون : هلموا إلى مكانكم فإنها سلحفاة أصابتها حرارة النار ، لئلا تنزل بكم . قال وكان من عظم جسمها ما شابه جزيرة واجتمع التراب على ظهرها بطول الزمان حتى صار كالأرض ونبت " .

وقال يصف فرس الماء : " قالوا هو كفرس البر إلا أنه أكبر عرفاً وذنباً ، وأحسن لوناً . جثته دون فرس البر ، وفوق الحمار بقليل . وربما يخرج هذا الفرس من الماء ، وينزو على فرس البر ، فيتولد منهما ولد فى غاية الحسن . حكى أن الشيخ أبا القاسم ، ويعرف بكركان ، نزل على ماء وكان معه حجرة . نخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض كالدراهم ، ونزا على الحجرة . فولدت مهراً شبيها بالذكر عجيب الصورة . فلما كان ذلك الوقت ، عاد إلى ذلك المكان ، والحجرة والمهرة معه ، طمعاً فى مهر آخر . نخرج الفحل وشم مهره ، ثم وثب فى الماء فوثب المهر بعده . فكان الشيخ يعاود ذلك الموضع مع الحجرة ، فسمى أبا القاسم كركان " .

فلنفتح ذلك الكتاب الجغرافى القيم الذى ألفه عبيد الله بن خرداذبة صاحب بريد الخليفة المعتمد على الله ، وعنوانه « **المسالك والممالك** » لنطالع ما جاء به عن جزائر الزّابَجْ Javaga [جزائر الهند الشرقية] : " وملك الزابج يسمى المَهراج . وفى مملكته جزيرة يقال لها بَرطَايِل ، يسمع فيها العزف والطبول الليل كله ، والبحريون يقولون إن الدجال فيها . ويخرج من البحر خيل مثل خيلنا ، لها أعراف تجرها على الأرض " . وقال فى موضع آخر " وطول البحر الشرقى الكبير أربعة آلاف فرسخ من القلزم إلى الوقواق " .

لا نريد أن نجزم بأن صاحب قصة السندباد قرأ كتاب ابن خرداذبة ، أو القزويني . فلسنا بحاجة إلى كتاب بعينه من هذه الكتب . وقد نقلت أغلبها عن بعضها البعض ، ونسخ ابن الفقيه فى جغرافيته «**مختصر البلدان**» صفحات كاملة عن مذكرات التاجر سليمان دون أن يذكر اسم صاحبها . وثمت فقرات ترد بصيغة واحدة فى أكثر هذه الكتب ، منها الفقرة التى نقلناها عن ابن خرداذبة خاصة بجزيرة « برطايل » . وقد وردت بعينها فى نص الحكاية الأولى من حكايات السندباد . ولا عبرة بأن تكون كلمة برطايل تحولت فى مخطوط القصة إلى كاسل . فأنا أكاد أوقن بأن النساخ قرأ « جزيرة برطايل » فحذف الحرفين « ب ر » وقد حسبهما كلمة « بر » مكتفياً بكلمة جزيرة ، وكتب جزيرة طايل . ويكفى أن تنقل هذه الكلمة بلا نقط ، وأن تكتب الطاء بشىء من الميل حتى يقرأها النساخ التالى كاسل .

وقال السندباد بمجرد ركوبه البحر الشرقى الكبير بأن "طوله من القلزم إلى الوقواق أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخا" ، وهى الفقرة التى نقلناها عن ابن خرداذبة ونقلت بنصها أو ما يكاد فى كتب أخرى .

غير مجد أن نسعى وراء أصول القصة فى كتاب دون غيره . وأهم من هذا أن نفهم بأن مصادر كتب الجغرافيا العربية ، وكتب العجائب ، ومصادر قصة السندباد واحدة . هى مجموعة المعارف [lore] المتداولة عن البحر الشرقى الكبير فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر .

يقول ابن خرداذبة عن البحر الشرقى الكبير : "وفيه سمك طول السمكة مائة باع ومائتا باع يخاف منها على السفن فتنفر بضرب الخشب على

الخشب . وفيه سمك مقدار الذراع يطير . وجوهه كوجوه البوم ". وورد كل هذا بنصه فى قصة الرحلة الأولى للسندباد .

ويتحدث ابن خرداذبة عن أجناس الهند بهذه الصيغة : "الشاكثرية وهم أشرافهم ، منهم الملك ، تسجد الأجناس كلها لهم ولا يسجدون لأحد . والبراهمة وهم لا يشربون الخمر والأنبذة " . وترد هذه الفقرة فى الحكاية الأولى ، بما فيها من خطأ . فقد حسب عبيد الله أن طبقة الشاكثرية Kchatrya هى أرفع طبقات الهند لأن الملك منهم . ولكن تتبع الملوك والفرسان لهذه الطبقة لا يغير من الحقيقة الواقعة ؛ وهى أن البراهمة [البرَهمَان] ، أو طبقة الكهنة والفقهاء ، هى أرقى الطبقات الهندوسية . ويبدو أن ابن خرداذبة أصلح خطأه دون أن يعلم . إذ ذكر بعد البراهمة طبقة "الكسترية" لا تزوجهم البراهمة ويتزوجون منهم . والكسترية والشاكثرية واضحة الأصل فى Kchatrya وهى طبقة الملوك والفرسان . فيكون ابن خرداذبه قسم هذه الطبقة إلى الملوك وميزهم على البراهمة ، وإلى غير الملوك وميز البراهمة عليهم . وهو قائل بعد هذا "وملل الهند اثنتان وأربعون ملة " . وقال السندباد : "وأعلمونى أن صنف الهندى يفترق على اثنتين وسبعين فرقة"، وفى بعض النسخ "اثنتين وأربعين" .

وحكاية الخيول الناتجة من حجر البر وأفراس الماء ، وهى التى فصل أمرها القزوينى فى القرن الثالث عشر ، لم يكتف معها ابن خرداذبة فى القرن التاسع بما نقلناه عنه آنفا ، بل ذكر عن رائض بن الحارث بن أسد أن "أصل البراذين الخُطَّلِيّة التى يحمد جنسها من عين نازـــكول [من ينابيع مدينة خُتَّلان ببلاد جَيْحون] وأنه كان فى زمن ملك هناك يسمى بيك له رمك كثيرة يرسلها

فى الكلاء ترعى فى المراعى وتأوى إلى تلك العين فى الهاجرة إلى ظل شجرة، تقيل هناك . ويجمع الراعى إليها دوابه ، وهى واسعة عريضة مقدار أربعمائة ذراع فى مثلها ، فيها ماء ساكن راكد صاف . فرأى الراعى يوماً وقد انتبه من نومه فى براذينه برذوناً طويلا كأطول ما يكون . فظهر له برأى العين شىء هائل . فطفق يرصده أى شىء هذا إذ دنا وقت العصر فغاص فى العين فبقى الراعى مترصداً حتى إذا كان ذات يوم خرج ذلك البرذون بعينه ومعه مهره وبراذين سواه كثيرة . واختلطوا ببراذينه دائما فى المرعى حتى اعتادوا مع براذينه . وألقح البرذون مهراً من مهارة ذلك الملك التى مع الراعى فنتجت مهراً كباراً جياداً حسان القامات . فلما رأى ذلك الراعى سرّ واستبشر وأخبر بذلك سيده فعظم سرور الملك . وخرج مع قهارمته للصيد مائلا إلى مرعى براذينه وكلائه ، فوافى حظيرة راعيه ، وأمر رائضه بأن يَتَوهَّق مهراً من تلك المهر التى من نتاج الفحل الذى فى العين . فرمى بالوهق مهراً منها فأسرجه وركبه . فإذا هو كأنه يطير بين السماء والأرض سلس فى اللجام ، خفيف فى النهوض. فلما نزل وحط سرجه ، إذا أولئك البراذين خرجوا من المرعى مع ما قد توالد فيما بينهم سوى التى نتجن أمهاراً ، فعادوا إلى العين بأجمعهم . ولم يخرج منها دابة إلى هذا الوقت ولا ظهر . فبقى جنس البراذين الخُطُّلانية منها" .

تقصينا إذن حوادث الرحلة الأولى فى مجموعة الجغرافيا العربية وكتب العجائب . وعرفنا بأن السندباد وصل فى رحلته الأولى حتى جزيرة من جزائر المهراج ، ربما كانت سومطرة أو واحدة من مجموعة الجزائر التى كانت تعرف فى القرون الوسطى باسم بلاد الزابَج Javaga .

الرحلة الثانية

رحلة جوية إلى وادى الماس

يحكى ابن بطوطة كيف سافر الجُنك بمتاعه وجواريه من دونه فى أحد المرافىء الهندية . وشىء من هذا حدث للسندباد فى رحلته الثانية ، فبعد أن سافر من جزيرة إلى جزيرة ، ومن بر إلى بر ، نزل والسفار بجزيرة "كثيرة الأشجار ، يانعة الثمار ، مترنمة الأطيار . وليس بها ديار ولا نار" . وحمل الرحالة وطابه وغذاءه وشرابه وجلس وحده على ضفة عين ماء صاف ، يستظل بوارف ظلال أشجار باسقة ، وأكل وشرب والنسيم يداعب وجهه . ثم أخذته سنة من النوم . فلما استيقظ لم ير أثراً لأصحابه فى البر ، وإن شاهد شراعات منشورة فى الأفق . ففهم أن السفينة أقلعت ونسيته .

نزل بالرجل القهر والغم حتى كادت "مرارته تنفقع" ، وذكر حياة الدعة فى بغداد ، وتأسف على هجره عيشة الاستقرار والهدوء إلى حياة السفر والتنقل فوق ظهر العباب . والسندباد لا يتنصل من تبعة عمله ، فهو المسؤول الأول عن مصائبه . وربما لم يكن يفهم سر هـذا بقدر ما نفهمه . فهو ضحية روحه المغامر . هو الرجل الفرد يرفض أن يتبع المجموع حتى فى تجواله بالجزيرة الغامرة التى نزل إليها ركب السفينة . إنا لنتصوره يسلك بنفسه مسالكها غير المطروقة ، ويتوغل فى أحراجها توقاً إلى المعرفة ، ومثلا من أمثلة الطموح البشرى إلى تعرف المجهول .

قام السندباد يتجول فى أرجاء الجزيرة غير المسكونة ، فلم ير غير السماء والماء والأشجار والرمال . فصعد إلى شجرة يستكشف سبيله فيها ، فلاح له

شبح أبيض . فتقدم إليه حتى بدا كأنه قبة بيضاء ، دار حولها يبحث عن باب فلم ير غير حوائطها الملساء ، وقدر محورها بما لا يقل عن خمسين خطوة .

وأشرفت الشمس على المغيب رويداً ، ثم إذا هى تغرب فجأة . ورفع السندباد رأسه فرأى طيراً هائل الخلقة ، غطى وجه الشمس . فتذكر ما سمعه على ألسنة البحريين من أن هناك طيراً يقال له الرخ ، "يزق أولاده بالأفيال" .

فلما رأى الرخ يحط فوق القبة البيضاء أدرك أنها بيضته ، فألهمه ذكاؤه ، وشجعه روحه المغامر على أن يحل عمامته ويفتلها كالحبل ، ويربط نفسه بمخلب الطير العظيم . حتى إذا ما تنفس الصبح رفرف الطائر بجناحيه ، ثم صاح وارتفع فى الجو حاملا السندباد . وبذلك دخل الرجل فى زمرة الطيارين من القدماء : « إيكار » اليونانى وقد وقع صريعاً ، ثم « هيلا » الإغريقية التى طارت على ظهر كبش وسقطت فى مضيق الهِيلِسْبُونت ، و« بِلّيرُوفون » الذى امتطى صهوة الفرس الطائر « بِيجَاسُوس » ، وسليمان وقد ركب بساط الريح . ولم يكن السندباد على أى حال الأول ولا الأخير فى طيارى ألف ليلة ، ولا فى الخرافات الإيرانية ، أو الكلدانية والأشورية . ممن حملهم الجن فوق أكتافه ، أو الرخ بين مخالبه ، أو الفرس الطيار فوق ظهره .

حط الرخ بالسندباد على ربوة فأسرع بفك رباطه ، ونزل يتمشى فى الأرض الجديدة . فإذا هو أسوأ حالا مما كان فيه . فلقد هجر جزيرة نضرة ، جارية الماء ، إلى ربوة تشرف على واد واسع عميق ، تحيط به جبال شاهقة جرداء ملساء . والوادى مقفر جدب ، لا خضرة فيه ولا ماء . وهذا الرخ قد غادر الربوة وانقض على الوادى لحمل بين مخالبه حية عظيمة الخلقة وطار

بها إلى أعلى الجبل . والوادى يلمع لمعاناً شائقاً ، ويبرق بريقا يخطف الأبصار . انحدر إليه السندباد حذراً فاكتشف أرضاً حصباؤها من الماس ، ولكنها تموج بحيات كأنها جذوع النخيل .

قضى السندباد أيامه ولياليه فى وادى الماس والحيات لا يستقر له قرار ، ولا تغمض له عين . هربا من حيات سمع بأنها تبلع الأفيال ، وبحثا عن قوت غير موجود ، وماء لا أثر له فى ذلك الوادى المحرق . وإذا شاة مذبوحة تسقط عليه من السماء ، أو من أعلى الجبل . ثم غيرها وغيرها . فتصاعد من أغوار ذكرياته ما سمعه فى صغره من أخبار البحريين وحكاية تجار الماس ، وكيف يسافرون إلى الجبال المحيطة بوادى الماس . ومعهم الأغنام يذبحونها ويسلخون جلدها ، ويشرّحون لحمها ثم يلقون بها من أعلى الجبل ، فيعلق بلحمها بعض حصى الماس . وتأتى النسور والعقبان فتنقض على الأغنام المذبوحة ، وتحملها إلى قمة الجبل . وهناك يتلقاها الجلابون بالضجيج ، والضرب على الصفائح والخشب ، فتهرب تاركة اللحم وقد علقت به حجارة الماس .

ويضع السندباد معارفه البحرية موضع التجربة كما يفعل فى كل مأزق . فيجمع من الماس ما يملأ به جيوبه ، وعبه ، وحزامه ، وقلنسوة عمامته . ويربط نفسه بشال العمامة العتيدة إلى ذبيحة من الذبائح ، ويستلقى على ظهره ، والذبيحة فوق صدره . فيجئ نسر أو عقاب يحمل الذبيحة والسندباد ، ويرتفع بهما إلى قمة الجبل . ثم يطير عنهما لدى سماع جلبة التجار . فإذا تقدم صاحب الذبيحة فوجدها نظيفة من الماس ، عالقة بِرَجُل ، صاح وولول ، واشتكى وحوقل ، وتعوذ من الشيطان الرجيم ، وقرع الكف بالكف .

فأسرع السندباد إليه يلوّح له ببعض ما حمل من الماس . ثم قص عليه قصته ، وقاسمه ثروته من الحجارة النادرة ، وهى أكبر مما يعلق بلحوم الأغنام .

ويعود جلّاب الماس بصحبة الرحالة ، ويمرون بجزيرة « الرُّها » وبها شجرة الكافور كل شجرة تظل مائة رجل وأكثر ، فينقبون أعلى الشجرة ، ليسيل منها ماء الكافور يملأ عدة جرار . ثم تظهر قطع الكافور وهو كالصمغ ، وتبطل الشجرة وتجف . وبتلك الجزيرة وحش يسمى الكَرْكَنْد [أو الكَرَكَدّن] وهو دون الفيل وأكبر من الجاموس ، يرعى نبات الأرض كالبقر ، له قرن واحد وسط رأسه طوله ذراع وعرضه قبضة ، وفيه صورة من أوله إلى آخره إذا انشق ، وهى بياض فى سواد تشبه صورة إنسان ، أو بعض الحيوان . وتصنع من هذا القرن مناطق ، كل منطقة تساوى ألف دينار . وهذا الكركدن يضرب الفيل بقرنه فيشق بطنه ويحمله على رأسه ويسير به ، فيسيل دهنه على عينى الكركدن ويعميه ، فيرقد الكركدن ويأتى طير الرخ فيحمل الفيل والكركدن معاً فى مخالبه ويطير فى الجو إلى أفراخه يزقها بفريستيه سوياً .

ورأى السندباد بجزيرة « الرها » عجائب كثيرة تحير العقول . وسار مع التجار من جزيرة إلى جزيرة يبيعون الماس ويبادلون به أمتعة وتحفاً ، حتى وصلوا إلى البصرة . وعاد السندباد إلى دار السلام يحمل ثروة طائلة . ودخل داره ثم تصدق ووهب ، وأعطى وأهدى . وأمسى منزله مقصد الأهل والخلان ، الكل يسأل عما رأى من عجائب ، والكل مستمع إلى أحاديثه كما يستمع لها السندباد الحمال والضيوف الكثيرون .

***

إذا كان مؤلف السندباد قد احتاج إلى بعض الجهد فى كتابة الرحلة الأولى لينشئ قصة كاملة من الفقرات القليلة التى قرأها عن الحيول البحرية، وعن السلاحف التى تبدو فى البحار كالجزائر، فإنه فى كتابة الرحلة الثانية وجد حكايات كاملة عن الرخ، وعن طريقة الحصول على الماس فى وادى الحيات، لم ير حاجة إلى أكثر من وضعها على لسان بطله. أما ما ذكره عن شجرة الكافور والكركدن، فقد نقله بنصه من كتب الجغرافيا العربية، ومجموعات العجائب التى انحدرت إلينا من القرون الوسطى.

ومنذ أشار ابن خرداذبة إلى شجرة الكافور فى القرن التاسع، وجميع الكتاب العرب يحذون حذوه، وينقلون عنه حتى بعد القرن الرابع عشر. فهى "شجرة كبيرة تظل مائة إنسان وأكثر وأقل. ينقب أعلاها فيسيل ماء الكافور منها ما يملأ عدة جرار. ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فتنساب منها قطع الكافور وهو صمغ ذلك الشجر. ثم تبطل الشجرة وتجف".

وقال ابن خرداذبة إن بجبال الزابج حيات عظاما تبلع الرجل والجاموس، ومنها ما يبتلع الفيل. وهو ما يذكره السندباد حين يرى الحيات فى وادى الماس.

ووصف الكركدن فى جزيرة الرامى [سومطرة] بأنه دابة دون الفيل وفوق الجاموس، تأكل الحشيش وتجتر كما يجتر البقر والغنم [كلام غير صحيح، فالكركدن لا يجتر] لها قرن واحد فى الجبهة طوله ذراع، وغلظه قبضتان، فيه صورة من أول القرن إلى آخره، فإذا شق رأيت الصورة بيضاء فى سواد، فى صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاووس أو غيره من الطير. فيتخذه أهل

الصين مناطق تبلغ المنطقة ما بين ثلثمائة دينار إلى ثلاثة أو أربعة آلاف دينار.

وقال القزوينى فى « عجائب المخلوقات » : " وإذا رأى الكركدن الفيل ، يأتيه من ورائه ، ويضربه بقرنه ، ثم يريد أن يتخلص فلا يمكنه ، فيخرج على الأرض ويموت هو والفيل أيضاً " . ولا حاجة بنا إلى سرد أسماء المؤلفين الجغرافيين وأصحاب كتب العجائب ، فكل ما جاء بكتبهم عن الكركدن شبيه بما جاء فى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة .

أما قصة تعلق السندباد بمخالب الرخ ، فتصف طريقة فى الانتقال كثيرة التوارد فى القصة العربية . وقد جاء فى « عجائب الهند » ما يلى :

" وحدثنى أحمد بن على بن منير الناخوداه السيرافى ، وكان أيضاً من النواخذة الذين سافروا فى البحار ، ومضى لهم الاسم والصيت فى البحر ، أن بعض شيوخ الهند حدثه بسرنديب أن مركباً كسر له فسلم نفر من أهله فى القارب ، ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند . فبقوا بها إلى أن مات أكثرهم ، وبقى منهم سبعة . وكانوا مدة مقامهم قد رأوا طيراً عظيماً يقع فى الجزيرة ويرعى ، فإذا كان وقت العصر طار فلم يدروا إلى أين يمضى . فأجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه ليحمله لما ضاقت صدورهم ، وعلموا أنه لا بد من الموت ، وتعلقت نفوسهم بأمر الطائر . وإن كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذى يتمنونه ، وإن قتلهم فهو الذى يتوقعونه . فطرح واحد منهم نفسه بين الشجر ، وجاء الطائر على الرسم فرعى . فلما جاء وقت انصرافه تلطف الرجل فى الدنو منه ، وتعلق آخذاً برجليه ، وشد نفسه على ساقيه بقشور الشجر ، فطار به فى الهواء ، وهو متعلق بفخذيه ، وقد جعل رجليه

مشتبكة برجليه . فعبر بحراً وطرحه وقت غروب الشمس على جبل . فحل نفسه وسقط كالميت مما تعب وكلّ ، ومرّ به وعاين من الأهوال . فمكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد ، فقام ينظر فإذا راعى غنم فسأله بالهندية عن الموضع ، فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبناً ، فتحامل حتى دخل القرية . ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم فى القرية . وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التى يوجد فيها المراكب ، وركبوا فى مركب . وأنهم حدثوا بأمر مركبهم والجزيرة التى وقعوا إليها ، ومقدار مسافة ما حملهم الطائر إلى تلك القرية ، فوجدوه زيادة على مائتى فرسخ " .

وحدث القزوينى عن رجل من إصفهان أنه بذل نفسه فى سبيل نجاة رفاقه من إحدى الملمات البحرية ، فغادر المركب إلى شاطئ مجهول ، قال :

" فلما كان آخر النهار أحسست بهزة شديدة ، فإذا طائر لم أر حيواناً أعظم منه ، جاء ووقع على سطح تلك الشجرة ، وبقى حتى الصباح ، ثم نفض جناحيه وطار . فلما كانت الليلة الثانية جاء ووقع على عشه ، وكنت أيضاً آيساً من حياتى ... فدنوت منه . فلم يتعرض لى بشىء ، وطار مصبحاً . فلما كانت الليلة الثالثة قعدت عنده من غير دهشة إلى أن نفض جناحيه عند الفجر ، فتمسكت برجله ، فطار أسرع طيران إلى أن ارتفع النهار . فنظرت نحو الأرض فما رأيت سوى لجة البحر ، فكدت أترك رجله من شدة ما نالنى من الهلع . فحملت نفسى على الصبر ، إلى أن نظرت نحو الأرض فرأيت القرى والعمارات . فدنا من الأرض وتركنى على صبرة تين فى بيدر لبعض

القرى ، والناس ينظرون إلىّ ، ثم طار نحو الهواء وغاب عنى ، فاجتمع الناس إلى وحملونى إلى رئيسهم ، فأحضر لى رجلا يفهم كلامى . فحدثته بحديثى كله وهم يتعجبون . . . وبقيت عندهم أياما . ومشيت ذات مساء إلى طرف البحر ، فإذا قد وصل المركب الذى كنت فيه . فأسرعوا يسألون عن حالى ، فقلت لهم ياقوم ، إنى قد بذلت نفسى لله تعالى ، فأنقذنى بطريق عجيب وجعلنى آية للناس ".

وهنا يضيف القزوينى ، وبنفسه غبار من الشك ، أو على الأقل إدراك لصعوبة تصديق القراء لها : " فهذه حكاية عجيبة ، وإن كانت غير بعيدة من لطف الله ".

ويلاحظ فى الحكاية اجتماع الرجل بالمركب نفسها التى غادرها ، ولنا أن نتساءل عما إذا كان مؤلف قصة السندباد قد انتفع بهذا الحادث فى حكايته الأولى عندما جمع فى جزيرة المهراج بين السندباد ومركبه ومتاعه ، بعد أن سافرت المركب بدونه ، واعتبرته من الهالكين .

فهذه حكايات عن الرخ ، من الصعب أن لا نرى فيها أصلا من أصول رحلة السندباد الثانية .

والحادث البارز الآخر فى هذه الرحلة هو وصول السندباد إلى وادى الماس ، وهى أسطورة نطالعها لا فى كتب الجغرافيا العربية والعجائب وحدها ، بل فى رحلة ماركو پولو وفيما أورده الرحالة الصينيون .

قال ماركو پولو فى الفصل التاسع عشر من الكتاب الأول عن رحلته ، يصف مملكة «مُوتْفِيلِي» حيث الجبال الشاهقة تحيط بمعادن الماس : " وبتلك الجبال حيات عظام من أشد الحيات سموما . ويذهب التجار إلى تلك الجبال

ومعهم اللحوم يلقون بها فى الأودية والموات بين الجبال ، فتأتى نسور بيضاء ، وتنقض عليها ، وتحملها إلى قنات الجبال . فيجرى التجار ويتصايحون ، حتى تنفر الطيور ، تاركة قطع اللحم وقد علقت بها حجارة الماس " .

وقال الرحالة الصينى « تشانج تى » Ch'ang Te فى كتاب « سى شى كى » Si Shi Ki ، وهو وصف رحلته من منغوليا إلى غرب آسيا حيث أرسله « مانجوخان » إلى أخيه « هولاجو » فى سنة ١٥٢٩ م ، بعد أن استولى الأمير التترى على بغداد وقضى على آخر الخلفاء العباسيين :

" والماس يأتى من بلاد الهند ، ويأخذ الناس اللحم ويلقون به إلى الأودية العظيمة ، فتأتى الطيور وتأكل اللحم ، ويوجد الماس بعد ذلك فى روثها " .

وجاء فى كتاب « عجائب الهند » : " وحدثنى بعض من دخل بلاد الهند أنه سمع أن الأدماس الجيد النادر المرتفع يجلب من نواحى قشمير ، وأن هناك واديا بين جبلين فيه نار توقد طول الدهر ليلا ونهاراً ، وشتاء وصيفا ، والأدماس فيه . وليس يطلبه إلا طائفة من الهند سفلة ، يحملون أنفسهم على المهالك . فيجتمع جماعة منهم ويقصدون هذا الوادى ويذبحون الغنم الهزلة ، ويقطعونها قطعاً ، ويقذفون بالقطعة بعد القطعة فى كفة منجنيق يعملونه . لأن التقرب من المواضع لا يمكنهم لجهات شتى ، منها أن وهج النار يمنع من ذلك ، ومنها أن حول النار من الأفاعى والحيات مالا يوصف ، وفيها مالا يمهل حتى يتلف . فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور وهى كثيرة فتخطفه إن وقع بعيداً من النار فترفعه فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضى ، وربما سقط من قطعة اللحم التى أخذها شىء من الأدماس ، وربما انحدر فى

موضع فيأكلها ، فيجدون فى ذلك الموضع الأدماس . وربما سقطت القطعة اللحم فى النار فتحترق . وربما وقع بعض الناس على قطعة لحم بقرب النار فيحترق ويتشيط . وربما اختطفها النسر قبل وقوعها إلى الأرض حسب ما يتفق . فهكذا يؤخذ الأدماس ، وفى أكثر ما يتلف طالبه بالأفاعى والحيات والنار . وملوك الناحية يطلبون الأدماس ، ويشددون فى طلبه وطلب من يلتمسه ، ويفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الأدماس وعظم خطره" .

وفى هذا يقول القزوينى : "والموضع الذى فيه الماس لم يصل إليه أحد . وهو واد بأرض الهند لا يلحق البصر أسفله ، وفيه الأفاعى التى لا يراها أحد إلا مات . . . وقيل بأن الإسكندر راقب وقت غيبتها ، وألقى بالوادى قطع اللحم ، فتشبثت بقطع الماس . وجاءت الطيور من الجو ، وأخذت اللحم ، وأخرجته من الوادى . فأمر الإسكندر باتباع الطير ، والتقاط ما ينتثر من ذلك اللحم . . ."

وذكر عمر بن الوردى فى « **خريدة العجائب** » كلاماً شبيهاً بهذا عن الياقوت ، وكيف يجلب من أرض خِرْخِيز [القِرْغيز] ، ويغلب أن يكون قد نقله عن « **نزهة المشتاق** » للإدريسى وهو القائل :

" وبقرب المدينة التى يسكنها ملك خرخيز جزيرة الياقوت ، ولها طريق يتصل بالبر . غير أن هذه الجزيرة يحيط بها جبل مستدير صعب الصعود إلى أعلاه . لا يُقْدَر على الوصول إلى رأسه إلا بعد جهد ومشقة . ولا يقدر أحد على النزول إلى أرض الجزيرة بوجه . ويحكى أن بها حيات قتالة وبأرضها حصا الياقوت كثيرة . وأهل تلك الناحية يتصيدون هذه اليواقيت على

أصناف حيل يعرفون صنعها".

ونطالع حكاية الماس فى « **مختصر العجائب** » على أنها بجبال سرنديب.

ولم أجد لهذه الأسطورة أساساً ثابتاً من الواقع، غير أن التفسير الفوكلورى يرجعها إلى طقوس دينية نشأت عن الاعتقاد بالروح الذى يحمى الكنز، والطلسم الذى يمنع الوصول إليه. فكان جلابو الماس يقدمون الذبائح قربانا للطلسم أو للروح الحارس قبل البدء بعمليات التنقيب، فتجتمع الطيور الجارحة وتتخاطف الذبائح مما يحتمل التفسير الشعبى المتأخر لهذه الطقوس على الوجه الذى ذكره كتاب العرب، والصينيون من قبلهم. وقد لا يبعد أن يكون تجار الماس أنفسهم هم الذين شجعوا على رواج الخرافة و بالغوا فى وصف أخطار البحث عن الماس إبعاداً للمزاحمين، و إرهاباً لمن تحدثه نفسه أن يشاركهم فى تجارتهم الرابحة.

هذه إذن حكاية الرحلة الثانية من رحلات السندباد مشتقة بحذافيرها من الكتب العربية. وهى تردد بدورها أقوالا سجلها الرحالة والملاحون فى مختلف أنحاء المحيط الهندى و بحر الصين. وقد تمكن صاحب القصة من أن يلائم بين أسطورتين وردتا فى كتب علمية أو شبه علمية، و يؤلف منهما حكاية واحدة متناسقة سهلة، ترد على لسان الرحالة الخرافى كأنها تجارب شخصية يتحرى فى وصفها الدقة، وصدق التعبير.

الرحلة الثالثة

الغول الأسود

سافر السندباد فى رحلته الثالثة بريح طيبة ، وعبرت مركبه من بر إلى بر ، وجزيرة إلى جزيرة ، وهو ورفاقه يبيعون ويشترون ويقايضون . ثم أصابتهم العاصفة أياما طوالا ضل فيها الربان سبيله . فلما هدأت أخذ يجرى مجرى الرياح بحثاً عن علامة يستدل بها على موضعه من البحر دون جدوى . وقد لاحظ الركاب حيرته ، وتعلقت نفوسهم بما يبدو على سيماه . وإذا أرض ظهرت والربان ينظر إليها نظرة الفزع ، ثم يأمر بالشراع فتطوى والأناجر فتلقى فى البحر ، ويتساءل الناس عن سر فزعه فيخبرهم بأنهم وقعوا فى أرض الزغب . وهم قوم كالقرود ، لا قبل لهم بمحاربتهم لكثرة عديدهم . ويحيط الزغب بالمركب من كل جانب وقد جاءوا إليها سابحين ، فإذا هم من الأقزام لا يتعدى طول الواحد منهم أربعة أشبار ، عرايا يغطى جسمهم زغب أحمر ، ويتكلمون بكلام غير مفهوم . وصعدوا مئات وآلافاً إلى المركب يتسلقون صواريها وأخشابها بأذرعتهم الطويلة ، كأنهم القرود . ونشروا الشراع وقطعوا الأناجر وساروا بالسفينة إلى جزيرة أنزلوا فيها جميع الركاب ، واتخذوا بالمركب سبيلهم فى البحر .

مشى ركاب المركب فى الجزيرة يقتاتون بما فيها من عشب حتى بان لهم بيت من بعد فقصدوا إليه ، ورأوا أمامهم قصرا عالى البنيان له بابان عظيمان من الأبنوس ، فدفعوا الباب ودخلوا فإذا هم فى باحة كبرى يتصدرها إيوان رفيع وبجانبه آثار نار وسفافيد ، وعظام كثيرة . ولم يكن فى المنظر ما ينزل

الطمأنينة بقلوبهم ، خصوصا وقد توهج واحمر إذ مالت الشمس إلى المغيب .

وزلزلت الأرض تحت وقع خطوات عملاق أسود ، عيناه تلمعان كالجمر ، وأنيابه بارزة من فم كفم البعير ، شفته السفلى مدلاة على صدره ، وآذانه كآذان الفيلة ، منبسطة على أكتافه ، أظفاره طويلة كأظلاف الوحوش . فترامى الناس بعضهم على بعض رعباً ، والعملاق يتقدم بخطوات وئيدة إلى الإيوان حتى جلس عليه . ومد يده إلى السندباد فحمله قبالة وجهه ، وجعل يقلبه كالدجاجة . ثم ألقاه من يده وأخذ يتحسس من بين ركب السفينة أعظمهم لحماً حتى وقع على الربان ، وكان سميناً عريض الأكتاف فأعجبه . وأخذ سفوداً حديداً فأدخله فى حلقه حتى خرج من الجانب الآخر . وأوقد ناراً ركب عليها السفود وجعل يدير الربان على الجمر الموقد حتى نضج لحمه واستوى شيا . فأخرجه وأخذ يفسخ فى عضلاته ، ويفصص فى مفاصله ، ويتبلغ بلحمه ، ويمصمص فى عظمه حتى تركه هيكلا متناثراً ألقى به إلى جانب العظام الأخرى المبعثرة فوق الإيوان ، ونام وهو يشخر شخيراً هائلا .

وخرج مع الشمس فى شؤونه ، تاركا السندباد وأصحابه يودع بعضهم بعضاً ، ويحاولون عبثاً أن يجدوا فى مكان بالجزيرة مأوى أو منجى . وجاءهم الغول الأسود متخيراً أطراهم لحما وأكثرهم شحما ، فسيخه وشواه وفسخه ، وأكله كما فعل برفيقه . ونام وأرسل شخيره عاليا .

فصح عزم السندباد وأصحابه على إلقاء أنفسهم فى البحر تخلصا من الموتة الشنعاء ، إن لم يجدوا سبيلا إلى قتل العملاق . ونصح السندباد بأن يصنعوا أولا « كلكات » تحملهم فى البحر ، يعدونها ببعض الزاد والماء . فإذا نجحوا

فى قتل الغول أقاموا بالجزيرة ؛ وإذا أخفقوا وجدوا فى الكلكات أطوافا يتركونها للبحر والريح حتى يقيض الحظ لهم سفينة تنتشلهم .

فلما انتهوا من بناء الكلكات — والغول يلتهم منهم واحدا فى كل ليلة — جاءوا ببعض السفافيد ووضعوها فى النار حتى احمرت . فلما نام قاموا إليه وأدخلوا السفافيد حامية فى عينيه ، واتكأوا عليها يدفعونها إلى أعماق محاجره دفعاً . فقام العملاق يصيح صياحا عظيما ، ويخبط ويتخبط باحثاً عن الرجال وهم يتهاربون منه يمنة ويسرة ، ولما ظن أنهم خرجوا من القصر تحسس سبيله إلى بابه وهم يتبعونه ، ثم تسللوا إلى ناحية الشاطىء وصعدوا إلى كلكاتهم . وإذا بالعملاق يتجه ناحيتهم تقوده أنثاه ومعها عمالقة آخرون ، فدفعوا بالأطواف إلى البحر ، والعمالقة ترجمهم بحجارة كبار حتى غرقت جميع الكلكات إلا كلك السندباد ومعه رجلان ، وقد أسرعوا فابتعدوا عن الجزيرة . وجعلوا يجدفون آنا ، ويتركون طوفهم للريح والموج آنا آخر حتى انقضى الليل وطلع الفجر وهم بمرأى ساحل يقذفهم إليه العباب . فوقفوا على الساحل صرعى كالأموات . وبعد أن استراحوا قاموا يبحثون عن مأوى فلم يجدوا ، ولاحقهم المساء فألقوا بأنفسهم متعبين على رمال الشاطىء . وصحوا على صوت فحيح مرعب ، وإذا حية أحاطت بهم والتقمت أحدهم وابتلعته على دفعتين ، فى الأولى إلى أكتافه ، وفى الثانية اختفى الرجل بأكمله فى جوفها .

وبقى السندباد ورفيقه الليل كله ساهرين ، وقد أيقنا بالهلاك . ودارا نهارا يبحثان عن مأوى ، حتى أدركهما المساء فتسلقا شجرة عالية . وعادت الحية تنساب بين الأشجار وتتشمم سبيلها إلى الرجلين حتى عرفت موضعهما ،

فتسلقت الشجرة وأطبقت على رفيق السندباد فابتلعته حتى أكتافه . وسمع السندباد عظام صاحبه تتكسر ، ورأى الرأس تتبع الجسد مختفية فى جوف الحية . ثم رآها تنساب إلى حيث تهتضم فريستها ، وهو عالم بأن الدائرة لا شك تدور عليه ، ويفضل أن يلقى بنفسه فى الماء ليموت غرقا لولا « أن الروح عزيزة » . والسندباد واسع الحيلة وقد هداه يأسه إلى جمع عيدان الشجر وربطها حزما ، جعل منها حوله قوائم ربطها إلى حزم أخرى فوق رأسه ، وغيرها عند أقدامه .

وجاءت الحية بفحيحها ومثار غبارها فحاولت ابتلاعه ، وجعلت تدور حول العيدان المربوطة لتجد سبيلا إلى السندباد . ودامت محاولاتها طول الليل حتى إذا طلع النهار تركته نصف ميت من هول ما قاسى .

وتخلص السندباد من العيدان المربوطة ، وقام يجرى وهو على غير شىء يلوى حتى انتهى إلى الشاطىء ، ولاحت له فى الأفق سفينة عابرة فلوح لها بأغصان الأشجار وقد ربط فيها شال عمامته . واقتربت من الشاطىء وأرسلت له زورقا حمله إلى سطحها حيث ستر الربان عورته وقام بأوده . فثاب إلى رشده واطمأن إلى نجاته ، وحكى حكايته .

فلما سمعها شيوخ المركب قالوا بأن أمر السود العماليق معروف ، ذكره البحريون . وهم أمة كثيرة العدد يأكلون ابن آدم حيا ومشويا . وكذلك أمر الحيات التى تختفى بالنهار وتظهر بالليل ولا ينجو من شرها من وقع إليها .

وسافرت السفينة حتى جاءت إلى جزيرة سِلَاهِط ، وبها الصندل الكثير . فنزل التجار ومعهم السندباد ، وإذا الربان يستدعيه ، ويعرض عليه أن

يتجر فى بضاعة رجل فقد من المركب ، مقابل أجر يتفقان عليه . أما الأموال الأصلية وأرباحها فسوف يبحث الربان عن أهل التاجر المفقود يسلمها لهم .

ويكتشف السندباد ، كما اكتشف فى رحلته الأولى ، أن المتاع متاعه . ويؤيد كلامه واحد من تجار الماس كان ضمن ركاب السفينة .

وسافروا من جزيرة شلاهط عائدين . وقد حملوا منها السُّنْبُل والقَرَنْفُل والدار صينى وعبروا بسواحل الهند . وشاهد السندباد سمكا طوله عشرون ذراعا ، وسلحفاة عرضها عشرون ذراعا ، وسمكا على شكل البقر يلد ويرضع ، ويعمل من جلده الدرق ، وسمكا على خلقة الجمل أشكالا وألوانا . وما زالوا مسافرين حتى وصلوا إلى البصرة . وسافر منها السندباد إلى دار السلام ومعه الأموال والأحمال . فاجتمع بأهله وإخوانه ، وتصدق وأعطى ، وبقى مدة يستمتع بحياة الهدوء والدعة حتى نزعت نفسه إلى البحر مرة أخرى .

* * *

قال ابن خرداذبة : " وبعد سرنديب جزيرة الرامى . . . وبها ناس عراة فى غياض لا يفهم كلامهم لأنه صفير . وهم صغار يستوحشون الناس ، طول الإنسان منهم أربعة أشبار . . . شعر رؤوسهم زغب أحمر . ويتسلقون الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها " .

وجاء فى « مروج الذهب » للمسعودى : " بحر الصين ويعرف ببحر صَنْخَىْ وهو بحر خبيث كثير الموج والخب . وتفسير الخب الشدة العظيمة فى البحر . . . وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت منه أشخاص سود طول الواحد منهم الخمسة أشبار والأربعة . كأنهم أولاد الأحابيش الصغار

شكلا واحدا وقدًّا واحدا . فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر . فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ، فإن ظهورهم علامة الحب ... وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل المراكب والتجار من أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع البحار . وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب".

ونقل القزويني عن ابن الفقيه قوله : "وبجزيرة الزابج سكان شبه الآدميين ، إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه . ولهم كلام لا يفهم . وبها أشجار وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة".

فى هذه الفقرات ما يمكن أن يعد مصدرا من مصادر الرحلة الثالثة حينما تقع سفينة السندباد بأرض الزغب ، "وهم قوم كالقرود . . . لا يتعدى طول الواحد منهم أربعة أشبار . . . . . ".

وإذا كنا نترك الإيضاح الكامل لحكاية الغول الأسود حتى نسرد قصة الرحلة الرابعة ، فليس ما يمنع أن نشير هنا إلى ما جاء بكتاب « **مختصر العجائب** »: "وعن يمين جزيرة كَلَه جزيرة بالوس وأهلها يأكلون الناس". وبموسوعة الإدريسى : "وأهلها [جزيرة بالوس] قوم سود عراة يأكلون الناس . فإذا وقع لهم الغريب علقوه من أقدامه وشرحوه تشريحا وأكلوه ... وهم سود وحشو الخلقة ، مفلفلو الشعور . ولهم كلام لا يفهم . وبها أشجار وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة". "ومن وراء ذلك [يقصد وراء جزيرة النيّان] جزيرتان عظيمتان طولا وعرضا فيها قوم لهم خلق عادى [نسبة لعاد] أجسامهم عظيمة وشعورهم مفلفلة ، ووجوههم طوال ، وقدم أحدهم مقدار ذراع ، ويأكلون الناس أيضا".

هذا ومثله مما سيجيء فى تعقيبنا على الرحلة الرابعة ، يغلب أن يكون عرف به صاحب القصة ، ورتبه فى قصته أحسن ترتيب . حتى حكاية الحية التى بلعت رفيق السندباد ليست غريبة على ما ذكره ابن خرداذبة فى كتاب « المسالك والممالك » : "بجبال الزابج حيات عظام تبلع الرجل والجاموس ، ومنها ما يبتلع الفيل" . وهذا كلام نقله عنه أغلب المؤلفين العرب . فقال القزوينى مثلا فى كتاب « آثار البلاد » : "وبها [بجزيرة الزابج] جبل النصبان ، وهو جبل فيه حيات تبلع البقر والجاموس ، ومنها مايبتلع الفيل" . وورد فى « مختصر العجائب » : "وتخرج من بحر هِرْكَنْد حيات عظيمة تبتلع الفيل ... ويسمع لها فحيح مرعب" . وقال ابن الوردى : "ومنها [من عجائب بحر الصين] حيات عظام تخرج من البحر فتبتلع الفيل العالى الهائل ، وتنطوى على شجرة عظيمة تجذبها ، أو على صخرة فتتكسر عظام الفيل فى بطنها وتسمع قعقعة ذلك عن بعد" .

ورأى السندباد وهو يعبر بسواحل الهند سمكا على شكل البقر يلد ويرضع ، ويعمل من جلده الدرق . وهذا ما يذكره ابن الوردى فى خريدته : "ومن عجائبه [أى بحر القلزم] سمكة على خلقة البقر تلد وترضع كالبقرة" . وابن الفقيه فى « مختصر البلدان » : "وفى البحر سمك على خلقة القرود ، من جلوده تكون الدرق الذى تنبو عنه السيوف . ويقال إنها تحتضن وترضع" . حتى المتاع والتجارة التى جاء بها أهل مركب السندباد تظهرنا على تأثر مؤلف القصة بما طالعه عن جزائر الرامى [أو الرَّامْنى] وبَالُوس وشِلَاهِط وغيرها من جزائر الزابج ، قال ابن الفقيه : "والعنبر يؤتى به من جزيرة شلاهط . .

والقَرَنْفُل والصندل والجُوزْبُوا من الزابج". وقال المسعودى: "قد حاز هذا الملك [أى المهراج] أنواع الطيب والأفاويه... ومما يجهز من أرضه من ذلك الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوزبوا والقاقُلَة والكبابة وغير ذلك". وفى «**مختصر العجائب**»: "وجزيرة جابَة وشِلَاهِطْ.. بها نارجيل وموز وقصب سكر. وصندل وسُنْبُل وقرنفل". وقال الإدريسى: "وجزيرة شلاهط يخرج منها الصندل والسنبل والقرنفل". وفى «**معجم البلدان**»: "جزيرة الشلاهط. جزيرة فى بحر الهند يجلب منها الصندل والسنبل والكافور".

الرحلة الرابعة

السندباد يدفن حيا

سافر السندباد فى رحلته الرابعة ، وجاب أنحاء البحر الشرقى الكبير ، حتى خرجت على السفينة ريح غير مؤاتية طوى الربان على إثرها شراعه ، وألقى بمراسيه . وإذا ريح صرصر عاتية تهب عليهم فتغرق المركب ، ويتعلق السندباد وبعض رفقائه بأخشاب طافية تحملهم أياما وليالى إلى جزيرة مجهولة . يسدون رمقهم ويطفئون ظمأهم بما وجدوا فيها من نبات كثير وماء صاف . وينامون مطمئنين إلى اليوم التالى حين ينهضون ليتقصّوا حال الجزيرة . فإذا لاحت لهم عمارة عن بعد اتجهوا إليها فطلع عليهم قوم عراة سود مفلفلو الشعور قادوهم إلى ملكهم فأكرم مثواهم ، وقدم لهم حشيشة أكلوها باعتبارها من مراسيم الضيافة ، كأوراق التنبول وحبوب الفوفل عند الهنود . ولكن السندباد الشديد الحرص ، القوى الملاحظة ، الواسع المعرفة ، أوهم أنه يأكل فكان فى هذا نجاته . أما أصحابه فقد زاغت عيونهم وذهلت عقولهم . ثم جاءوا لهم بدهن النارجيل فسقوهم منه ودهنوهم به ، وقدم إليهم الأرز المطبوخ بدهن النارجيل فتناول السندباد منه القليل . بينما أصحابه راحوا يزدردون ما بالصحاف كالمجانين . والسندباد يختلس النظر إلى مضيفيه العراة فيمتلىء قلبه رعباً من سحناتهم المخيفة .

وسلم الملك ضيوفه إلى رجل سار بهم فى أنحاء الجزيرة يرعاهم كالسائمة ، والسندباد معهم نحيف هزيل لقلة أكله . مما جعل أهل الجزيرة يهملون أمره ، ويتركونه وحده يتجول حيث شاء . ولقى ذات يوم رجلا جالسا على

ربوة يشرف على خلق كثير يرعاهم وقد فقدوا عقولهم وا كتنز لحمهم وتضخم شحمهم . فلما لاحظ الراعى أن السندباد مالك لحواسه أشار إليه أن يدنو ، وسأله إذا كان يفهم معنى رعى هؤلاء المساكين . فأجابه السندباد بأنه يحسب مصيرهم منتهياً فوق مائدة الملك ورجاله المقربين ، وقبرهم موزعاً بين بطون أهل المملكة ، فقال الراعى : الأمر كما قلت ، الملك وحاشيته يفضلون أكلهم مطبوخين ، أما عامة الشعب فيأكلونهم بلا شى ولا طبخ . وما أنقذك إلا تعففك عن أكل الحشيشة التى قدمت لكم أول مجيئكم ، فانج بنفسك . ودله على معبر يسلك منه إلى طريق عام ، فسلكه السندباد وهو يجرى آنا ويمشى آنا آخر ويتقوت بنبات الأرض ، ولا ينظر خلفه حتى أقبل الظلام فاستراح قليلا وحاول النوم . ولكن حالة القلق باعدت بينه وبين النعاس ، فقام وقد انتصف الليل يسير على غير هدى حتى مضت عليه سبعة أيام ، وهو يسترق النوم كل ليلة فوق الأشجار . وفى صبيحة اليوم الثامن رأى أشباحا بعيدة تتحرك فاقترب منها حريصاً أن لا يرى . فلما لاحظ أنهم فئة من تجار الفلفل يشتغلون فى جمعه تقدم إليهم وحكى حكايته . فأبدوا أشد العجب لخلاصه من آكلى لحوم البشر ، من لم ينج منهم عابر بديارهم .

وعادوا به إلى بلادهم وأدخلوه على ملكهم فاحتفى به وهنأه على نجاته . وقدمه لوزرائه وكبرائه ، ودعاه للتجول فى حاضرته ، فوجدها مدينة عامرة أنس إلى أهلها وإلى أدبهم وحسن وفادتهم . ولكنه لاحظ ظاهرة لا تتفق وعمرانهم ، وهى ركوبهم الجياد الملاح عارية غير مسروجة ولا ملجمة . فلما سأل الملك فى ذلك تبين له أنهم لا يعرفون السرج واللجام ولا فائدتهما ،

فجاء بنجار وعلمه كيف يصنع هيكل السرج ، وأخذ صوفا فندفه وحشا به الهيكل وكساه بالجلد ، وصقله وصنع له سيوراً ولجاماً . وأمر الحداد فدق له ركابات حلاها وفضضها . وعلق بالسرج أهداباً من الحرير ، وشده إلى جواد من خيرة جياد الملك . وتقدم به إليه فركبه ، وأبدى أعظم السرور والارتياح وأمر له بالعطايا وقد كبرت منزلته عنده . وجاء الوزراء والعظماء يوصون بصنع أسرجة لخيولهم ؛ حتى راجت صناعة السندباد وجمع منها ثروة طيبة .

وذات يوم ناداه الملك ورغب فى أن يراه دائم المقام بينهم . وعرض عليه أن يعقد زواجه على امرأة مليحة من بيت طيب . فلم يحر السندباد جوابا لكثرة حيائه ، ولأنه لم يفكر بالزواج بعيداً عن أهله . وأعاد عليه الملك السؤال فلم ير مناصا من إجابته إلى ما طلب . فأرسل الملك من وقته وساعته فى طلب القاضى والشهود ، وزوجه بامرأة "شريفة القدر عالية النسب ، كثيرة المال والنوال ، صاحبة عفة وجمال" . وأعد له منزلا وخدماً وحشما ، ورتب له الجرايات والجوامك . فاستمتع بالراحة و بسط العيش ، ونسى شدائده السابقة . أما عن المستقبل فقد قال فى نفسه "إذا سافرت اصطحبتها معى" .

وحكاية الرحلة السندبادية الرابعة ، عند هذا الحد ، شبيهة فى هدوئها بما انتهى إليه أمر عبد الله البرى بعد زواجه بابنة السلطان . و بعض الفن فى القصتين هو فى الوصول بهما إلى شىء من الاستقرار ينذر بالختام ، ثم يقفز القصاص فجأة بالحوادث إلى ناحية غير متوقعة . وهو يُعِدُّنا فى حكاية الرحلة الرابعة لما يعتبر العقدة الكبرى فى قصة السندباد البحرى .

تذكر شهرزاد عرضا للملك شهريار أن جاراً للسندباد فقد زوجته

فذهب إليـه يعزيه . وطبيعى أن يلقى الرجل مهموماً فيقول له : أطـال الله بقاءك ، ورحم الله الفقيدة ، وعوضك عنهـا خير العوض . فإذا الرجل يسترسل فى بكائه ويقول له : وكيف يعوضنى عنها ، وقد أشرفت على الموت بوفاتهـا . يقدر السندباد فى جاره تلك العاطفة النبيلة والإخلاص الـكبير للمتوفاة ويقول له : تشدد ياصاحبى ولا تذكر الموت فإنك بخير وعافية . فيرد الأرمل وقد خنقته العبرات : ياصاحبى ، وحياتك إنك فى غد لا ترانى ، فتترحم علىّ كما أترحم الآن على نفسى مقدما . فى هذا النهار يدفنون زوجتى . ويدفنوننى معها فى قبر واحد . تلك عادتنا فى بلادنا ، إذا ماتت المرأة فإنهـم يدفنون معها زوجها بالحيـاة ، وإن مات الرجل دفنوا معه زوجته حيـة . فيرد عليه السندباد فى سذاجة : بالله ياأخى إن هـذه العادة رديئة جدا ، ولا يقدر عليهـا أحد . وفى نفسه أنه لا يقدر عليهـا لو قضى فى أمره بمـا يقضى به فى أمر أهل تلك المدينة .

وجاء الأصحاب والجيران أفواجا يقدمون العزاء للرجل عن نفسـه وعن زوجه . وخرج الجميع يشيعون الحى والميت حتى وصلوا إلى ربوة مشرفة على البحر ، وأزاحوا حجراً ثقيلا يغطى جبـا . وأنزلوا المرأة ومعها ثيابها وحليها . ثم جاؤوا بالرجل وربطوه بحبل تحت إبطيه وهو يبكى ويودعهم ، ودلّوه فى البئر ومعه قدر ماء وسبعة أرغفة . فلما بلغ قاع الجب فك الحبل عنه فسحبوه ، وغطوا فوهة البـئر بالصخرة الـكبيرة . وعادوا يترحمون على الزوجين رفيقى الحياة والموت . وعاد السـندباد معهم مطرقا واجما ، وبنفسه أن يسألهم سؤالا يخشى ، بل ينتفض فرقا ، مما قد يكون جوابه .

يدخل السندباد ذات يوم على الملك متجلدا ، ويسأله متكلفا الهدوء : يا سيدى ، كيف تدفنون الحى مع الميت فى بلادكم ؟ . قال الملك : تلك عادتنا توارثناها عن قدمائنا . فالزواج عقدة لا تحل ، وليس من الإنصاف أن يتمتع أحد الزوجين بالعيش بعد رفيقه . وبعد أن داور السندباد وحاور سأل الملك : يا ملك الزمان ، هل تعاملون الغريب فى دياركم بمثل هذه المعاملة ؟ فأجابه الملك : الغريب الذى يتزوج من نسائنا خاضع لطقوسنا .

خرج السندباد من حضرة الملك وقد انشقت مرارته ، وكاد يغيب عن وعيه . وتخيل فى تلك اللحظة أن زوجته ماتت ، أو فى طريقها إلى الموت . واستعاد صورة جاره وهو يُدَلّى بحبل إلى البئر العميق فوق جثمان زوجته ، فعرته قشعريرة شديدة . وأخذ منذ ذلك الوقت يدبر وسيلة للهرب ، ولم يكن أمر هذا سهلا . ثم ألهته الحياة وشئونها بعض الوقت ، مطمئنا إلى تمتع زوجته بصحة تامة ، مقدراً لها حياة أطول من حياته . ولكنها أصيبت فجأة بمرض قضى عليها فى أيام قلائل ، وجاء الناس يعزونه فى نفسه وفيها . وأعدوا المتوفاة بأفخر لباسها ، وزينوها بالقلائد والجواهر . وشيعوا جنازة الحى والمائتة إلى فوهة الجب حيث أنزلوا زوجة الرحالة . وجاءوا إلى السندباد يربطونه تحت إبطيه ، وهو يصرخ محتجا بأنه غريب عنهم لا قبل له بطقوسهم الرهيبة . فأحكموا وثاقه ، وربطوا معه سبعة أرغفة وقِدْرًا من الماء وأنزلوه إلى قاع الجب ، وهو صاخب لاعن ، يرفض أن يفك وثاقه ويترك لهم الحبل . فتركوه له وغطوا فوهة الجب ، وسمع وقع أقدامهم تبتعد وجلبتهم تهدأ . وهو واقف وحده فى ظلام القبر الموحش الرهيب ... وأدرك شهرزاد الصباح . فسكتت عن الكلام المباح ...

(فلما كانت الليلة الرابعة والخمسين بعد الخمسمائة) قالت الأميرة الساسانية موجهة كلامها إلى الملك شهريار :

بلغنى أيها الملك السعيد أن السندباد البحرى رأى وهو يدلّى فى الجب أنه كهف ملىء بالرميم البالى والجثث المتعفنة . فلما أطبق الحجر على فتحة القبر اشتمله الظلام الفاحم ، فجعل يتحسس سبيله حتى استطاع الابتعاد عن الموتى « الطريين » ويأوى إلى ركن يفكر بما آل إليه حاله ، ويتأسف على سابق الفرص التى آتته للموت ، وكان أهون من ميتته فى هذا الكهف الموحش اختناقا أو عطشا أو فزعا . وكلما جاع أكل كسرة من الخبز وشرب جرعة من الماء وهو يحسب حساب نفاذ زاده اليسير .

وتزحزحت الصخرة ذات يوم عن مكانها فاستضاء الكهف ، وإذا القوم واقفون على رأس الجب ينزلون رجلا ميتاً ومعه زوجته حية ، وهى تبكى وتولول . وقد أنزلوا معها شيئاً غير قليل من الزاد والماء . والسندباد ينظر إلى المرأة من ركنه المظلم ، يرمق خبزها وماءها وقد تعلقت بهما أسباب حياته . تنازعت السندباد ولا شك عوامل شتى ، ويغلب على الظن أن المرأة أغمى عليها بمجرد وصولها إلى قاع الكهف جزعا ورعباً ، وهى محكوم عليها بالموت البطىء مجاراة للتقاليد والطقوس ، فما ذنبه هو الرجل الغريب حتى يموت ؟ قد يكون السندباد فكر طويلا بموقفه ، أو قد يكون خوفه من الجوع والعطش انتزع منه ملكة التفكير . الغالب أنه ظل متجها بكل مشاعره فى الظلام الحالك إلى ما مع المرأة من خبز وماء ، وإلى تلك المخلوقة التى دفنت حية وسوف تموت على كل حال ، وأنه لم ير فارقا كبيراً بين أن تموت بعد

فراغ خبزها ومائها ، أو أن يعجل هو بموتها فيطيل فى حياته بقدر ما معها من قوت وماء . ولقد حكى الملاحون كثيراً من الحكايات اضطر فيها الناجون إلى أكل لحم الميتة ، بل والتضحية بواحد من بينهم ليعيش الباقون . وذكر بيرون فى قصيدته «دُنْ جوان» كيف غرقت سفينته وكيف ركب الناجون زورقا ولبثوا فى البحر أياماً دون طعام ، وكيف اقترعوا أخيراً على من يؤكل منهم فوقعت القرعة على مربى « دُنْ جُوَان » فأكلوه .

وهى ضربة واحدة يضرب بها رأس المرأة بقصبة ميت تخلصها من عذابها ، وتوفر للسندباد شيئا من الخبز والماء يبقى على حياته أياما أخر .

عاش السندباد فى الكهف الرهيب على خبز من دفنوا أحياء فعجل بموتهم . وقد تكون حياته امتدت أياماً أو أسابيع . ولكنها بدت له عمراً لا أول له ولا آخر . ولا أشك فى أن هذا الرجل الشجاع الذى رأى الموت بعينيه فى أشد الصور هولا ، لم يخط الشيب رأسه إلا من جراء حادث رحلته الرابعة . وقد عرف فى هذا الحادث أن الشجاعة كلمة جوفاء ، وأن غريزة حب البقاء هى المحرك لأعمال الشجاعة والجبن على السواء . كان السندباد شجاعا حيال الغول الأسود يفسخ فى مفاصل رفقائه ، شجاعا وهو ينصت إلى صوت عظام رفيقه تقعقع فى جوف الثعبان . كما كان جبانا نذلا وهو يضرب المرأة المدفونة حية على أم رأسها بقصبة ميت ليستولى على قوتها . ولكنه شعر فى محنته الحالية ، وهو يقتل المدفونين أحياء ، بأن لا فضل له فى شجاعته السالفة ، كما لا ذنب له فى نذالته الحاضرة . وأن لحظة بين الحياة والموت تمحو المعايير الأخلاقية أمام غريزة حب البقاء .

لسنا فى عرض تبرير عمله أو تخطئته . وما دمنا مطمئنين فى عقر دارنا فليس لنا أن نصدر حكما على ما يرتكبه إنسان فى ظروف لا يمكن أن نقدر قسوتها . لأبداننا أن تقشعر هولا ، ولنفوسنا أن تعاف ، ولعقولنا أن تثور . ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا هو معين لنا على إصدار حكم أخلاقى للرجل أو عليه .

إنما أنا معجب بسلامة فن القصة حين أقارنه بفن كاتب عظيم كإدجار ألان بُو Edgar Allan Poe يعالج الموضوعات الرهيبة . وأذكر له قصة ينتقم فيها أحد أبطاله من غريمه بأن يستدرجه إلى قبو مظلم فى قصره ، ويحبسه فى ركن منه ، ثم يبنى حول الركن جداراً أصم على صراخ الرجل الحى وأنينه ما أبقت فيه الحياة قدرة على الصراخ والأنين .

أدب الكاتب الأميركى العظيم أدب عقلية يشوبها المرض ، وشعور يعتوره الاعتلال . تكاد تحس وأنت تطالعه باللذة التى يجدها الكاتب فى سرد التفاصيل القاسية . أما صاحب قصة السندباد فسلامة عقله وصحة شعوره تنقذان فنه حتى فى أقسى المواقف . وآية هذا فى بساطته وسذاجته . وحينما يقص هوميروس حكاية دخول فريام الشيخ على أخيليس قاتل ابنه هكطور ، ومطالبته بجثة هذا الابن ، وهو منظر من أشد مناظر الإلياذة قسوة ، لا نحس بأن الشاعر راض أو غير راض بتلك القسوة . إنما هو يقصها على أنها ضرورة من ضرورات القدر ليس غير . وكذلك موقف مؤلف قصة السندباد البحرى من بطل قصته وهو سجين فى المقبرة .

وبينما كان السندباد نائما ذات ليلة ، أحس بزفير سمك زهم فوق وجهه .

فقام فزعا و إذا صوت حيوان يولى هاربا . فقام يتبعه حاملا سلاحه المرتجل من قصبة الأموات ، وكان الحيوان دليله إلى سرب ضيق حشر السندباد نفسه فيه حتى يعرف آخره . ورأى عن بعد بصيصاً من النور يتألق كالنجم ، فأيقن بوجود منفذ إلى الخارج نقبه ذلك الحيوان ليتسلل إلى المقبرة . فجرى إليه ، وتنشق الهواء البارد المنعش ، وحفر بيديه حتى أوسع المنفذ وخرج منه إلى لحف أكمة على شاطىء البحر ، قائمة بينه و بين المدينة . ورمى بنفسه على الأرض لاهثاً ، سعيداً بخلاصه من المقبرة . ثم عاد إليها يحمل منها زاده و بعض مافيهامن حلى وجواهر. ولبث ممددا فوق الأكمة يترقب مرور سفينة عابرة.

واجتاز به مركب كبير لوح له بعمامته . فأرسل له الربان زورقا حمله إلى السفينة . وهنالك حرص أن لا يحكى حكايته خشية أن يكون من ركاب السفينة واحد من أهل المدينة التى يدفن فيها الأحياء مع الأموات . فادعى أنه غرق بسفينته ، واستطاع أن ينجو و بعض متاعه . وقدم للربان هدية فرفضها الرجل معتذراً بأن تقاليد النواخذة تمنع أن يتقاضى مكافأة على إنقاذ الغرقى والضائعين ، بل هو متكفل بكسوتهم وأودهم حتى يعيدهم إلى ديارهم .

ولا ريب فى أن حادث المقبرة كان من أشد حوادث السندباد وقعاً على مشاعره. وكلما ذكر "قعوده فى المغارة مع جثمان زوجته" غاب عقله وتشتت فكره.

ووصلت السفينة إلى جزيرة كَلَا بعد ستة أيام . ودخلوا مملكة كَلَا ، "وهى مملكة فى جانب الهند ، بها معدن الرصاص ، ومنابت الخيزران ، وفيها كافور جيد ، وملكها عظيم الشان ، ويحكم على جزيرة الناقوس" .

وباع واشترى وتعوض وعاد إلى البصرة فبغداد . ودخل داره ومعه من

الأموال والجواهر مالا يعد ولا يوصف . فتصدق على المساكين بالعطاء الكثير ، وانصرف إلى ما اعتاد عليه من النعيم ، ولكنه قائل هذه المرة بأنه "تمادى فى أكل وشرب مع الندمان ، وانهماك فى اللذات ، وانتهاب للمسرات". ونظن أنه عاد إلى نزوات شبابه محاولا أن يغمر فى لجة اللهو الصاخبة آثار ما اقترفته يداه بحكم الضرورات القاسية . كذلك حال الكثيرين ممن يعودون من الحروب والمغامرات الخطيرة ، حيث تضطرهم جبرية الأحداث إلى إتيان أعمال وحشية تأباها نفوسهم المهذبة ، وتتقزز منها مشاعرهم الرفيعة .

* * *

أشار النص الجغرافى (*) للقصة إلى المكان الذى وصل إليه السندباد بعد خلاصه من القبر . فهو جزيرة كَلَا ، وقد بلغها بعد ستة أيام ، ودخل مملكة كلا وقال عنها : "وهى مملكة فى جانب الهند بها معدن الرصاص ، ومنابت الخيزران ، وفيها كافور جيد . وملكها عظيم الشأن ، ويحكم على جزيرة الناقوس" .

(*) نقصد « بالنص الجغرافى » صيغة القصة تبعا للمخطوط الذى ترجم عنه جالان ، ونشره لانجليس فى باريس . وذلك لنميزه عن نص طبعات القاهرة . وقد اصطلح بعض المستشرقين على تسمية النص الأول « النص السورى » ، والثانى « النص المصرى » ، باعتبار أن مخطوط النص الأول وجد فى سوريا ، والنص الثانى وجد فى القاهرة . ولايهمنى المكان الذى عثر فيه على نص من النصوص بقدر مايهمنى أسلوبه . فما يسميه المستشرقون « النص السورى » لايمكن أن يكون مؤلفه سوريا بأى حال ، لأن لغته أقرب ماتكون إلى اللغة الدارجة المصرية القاهرية . وتسميتنا للنص الذى نشره لانجليس « بالنص الجغرافى » يرجع إلى أنه أكثر النصوص ذكرا لأسماء الأعلام الجغرافية وأعظمها تعريفا بالمواضع التى سافر إليها السندباد ، أو رمته فيها المقادير .

ووقع السـندباد ومن نجا من ركاب سفينته بجزيرة قوم سود مفلفلى الشعور يأكلون الناس بطريقة خاصة ، يبدأون فيها بإطعام ضحاياهم «حشيشة» تذهب بعقولهم ، ثم يسقونهم « دهن النارجيل » ويدهنونهم به ، ويقدمون لهم صحاف أرز مطبوخ بذلك الدهن . ويرسلونهم مع حارس يرعاهم كالإبل.

وحينما هرب السندباد من السود المتوحشـين ، وصل إلى منابت الفلفل ورأى التجار مشتغلين بجمعه . ثم ساروا به إلى ملكهم ، وهنـاك لاحظ السندباد أن القوم يركبون الخيل بلا عدة . وجمع ثروة من صناعة السروج واللجم والركابات . وتزوج المرأة التى ماتت ودفنوه حيا معها .

كل هذه وقائع ذات أهميـة كبرى فى الاستدلال إجمالا على المواضع التى حدثت فيها .

فحكاية الخيل التى تركب غير مسروجة ، لم يتخيلها مؤلف السندباد . فهو إما طالعها أو سمع بهـا . وقد قال البيرونى عن الهنود بأنهم ”يركبون بغير سرج ، وإن أسرجوا ركبوا عن يمين الدابة“ . وتحدث رشيد الدين ووصاف عن الخيل فى بلاد المَعْبَر ، أى شاطئ كُورُومَانْدِل : ”وقال من يعتمد بكلامهم أن قد بلغ ما يصدر من الخيل سنويا إلى بلاد المَعْبَر وكَنْبَايَة والموانى الهندية الأخرى فى زمن أتابك أبى بكر الفارسى عشرة آلاف فرس ... ويأخذ الهنود هذه الخيل فيربطونها بحبال فى مرابطها أربعين يوما حتى تسمن ، ثم يركبها الجنود كأنهم المردة والشياطين دون ترويضها وبلا سرج ولا لجم ... فلا يمضى وقت طويل حتى يضعف أقواها ويبطئ سراعها ، ويهمد ناشطها ، فتصبح كلها خيلا خرقاء لا فائدة فيها“ .

وجزيرة « كلا » أو « كلَه » موضع بعينه ذكره الرحالون والجغرافيون العرب ، وأشاروا إلى معدن « الرصاص القلَعى » — وهو القصدير — بذلك الموضع . كما أشاروا إلى منابت الخيزران ، فقال ابن خرداذبة : " وبعد سرنديب جزيرة الرامى ... وجزيرة فيها ناس مفلفلون يأكلون الناس أحياء يشرحونهم تشريحا ... ومن أراد الصين عدل من بُلّين وجعل سِرَنْدِيب عن يساره . فمن سِرَنْدِيب إلى جزيرة اللَّنْجَبالُوس مسيرة عشرة أيام إلى خمسة عشر يوما . وأهلها عراة وطعامهم الموز والسمك الطرى والنارجيل وأموالهم الحديد . وهم يجالسون التجار . ومن جزيرة اللنجبالوس إلى جزيرة كله مسيرة ستة أيام . وهى مملكة جابة الهندى ، وفيها معدن الرصاص القلَعى ومنابت الخيزران . وعن يسارها جزيرة بالوس أو جالوس على مسيرة يومين وأهلها يأكلون الناس " .

وقال أبو زيد حسن السيرافى : " نبتدئ بذكر مدينة الزابج [Javaga] إذ كانت تحاذى بلاد الصين وبينهما مسير شهر فى البحر وأقل من ذلك إذا ساعدت الرياح . وملكها يعرف بالمهراج . ويقال إن تكسيرها تسع مائة فرسخ . وهذا الملك مملك على جزائر كثيرة يكون مقدار مسافة ملكه ألف فرسخ وأكثر . وفى مملكته جزيرة تعرف بسرِبُزَة ، تكسيرها على ما يذكرون أربع مائة فرسخ . وجزيرة أيضا تعرف بالرامى تكسيرها ثمانمائة فرسخ فيها منابت البَقّم والكافور وغيره . وفى مملكته جزيرة كَلَه ، وهى المنصف بين أراضى الصين وأرض العرب ، وتكسيرها على ما يذكرون ثمانون فرسخا . وبكَلَه مجمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص

القلعى والأبنوس والبقم والأفاويه كلها وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه".

وقال أبو دُلَف مِسْعَر بن مُهَلْهِل يصف رحلته وما شاهده فى بلاد الترك والصين والهند [انظر « معجم البلدان » لياقوت الحموى] : "خرجت إلى الساحل أريد كله وهى أول الهند وآخر منتهى مسير المراكب لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت . قال فلما وصلت إلى كله ، رأيتها وهى عظيمة عالية السور كثيرة البساتين غزيرة الماء . ووجدت بها معدناً للرصاص القلعى لا يكون إلا فى قلعتها فى سائر الدنيا ... وخرجت منها إلى بلد الفلفل فشاهدت نباته وهو شجر عادى لا يزول الماء من تحته . فإذا هبت الريح تساقط حمله فلذلك تشنجه . وإنما يجتمع من فوق الماء . وعليه ضريبة للملك . وهو شجر حر لا مالك له . وحمله أبداً فيه لا يزول شتاء ولا صيفاً . وهو عناقيد فإذا حميت الشمس انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق بالشمس ، فإذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق".

وقد انتهى تحقيق الجغرافيين والمستشرقين إلى أن « جزيرة » كله هى شبه جزيرة مَلَقّا [يلاحظ أن كلمة جزيرة عند العرب تطلق على الأرض المحاطة بالماء من كل جهاتها أو من أكثر جهاتها] . وكانت محط التجارة المنقولة بين بحر الصين وبحر الهند وفارس . لعبت فى القرون الوسطى دوراً شبيها بالدور الذى تؤديه سنغافورة فى العصور الحديثة . والرصاص القلعى هو القصدير الذى اشتهرت به ملقا حديثا كما اشتهرت قديما . ويظهر أن نسبة هذا « الرصاص الأبيض » ، كما يصفه المسعودى ، إلى « قلعة كله » خطأ نشأ عن سماع العرب بنسبته إلى كَلَه أو كَلَاه [كـلاهى] . ولم يتفق علماء الجغرافيا الحديثون على موضع

كله بالذات فى شبه جزيرة ملقا . وقد ذهب فَلْـكِينَابِر إلى أنها ربما كانت فيما يسمى اليوم « مقاطعة كيداه » .

وكانت « جزيرة » كله ضمن مملـكة المهراج ، أى من بلاد الزابج . وهذه تشمل على الأقل الجزيرتين العظيمتين سومطرة وجاوة . وإذا كان ابن بطوطة قد ذكر أمر نزوله إلى مدينة سَمُطْرة فى جزيرة « جاوة » فليس ذلك عن خلط بين الجزيرتين . لأن إطلاق اسم سومطرة على الجزيرة التى تعرف الآن بهذا الاسم جاء بعد ابن بطوطة وماركو بولو بزمن طويل . وكان اسمها فى عهد ابن بطوطة « جاوة » بينما كان اسم ما تعرف اليوم بجاوة ، هو « مُلْ جاوة » . وعرف ماركو بولو الجزيرتين باسم Java major وهذه هى جاوة حالا و Java minor وهذه هى سومطرة حالا . أما جزيرة الرامِى أو الرَّامْنِى فقد أثبت الكولونيل يول Yule أنها موضع فى الطرف الشمالى من جزيرة سومطرة . وإلى الغرب من شاطئ سومطرة موضع اسمه باروس وهو الذى يرد فى الجغرافيا العربية تحت اسم بالوس . وفى بحر بنغالة مجموعتان من الجزائر ، أولاهما جزائر النكوبار ، وهذه تسمى فى كتب العرب اللنج بالوس أو اللنكبالوس . وثانيتهما جزائر الأندمان ، وهذه ترد فى تلك الكتب بهذا الاسم ، وقد تكتب الأنجومان .

المهم أن نكون أولا صورة واضحة من الجغرافيا الحديثة لتلك المنطقة حتى نستطيع فهم الفقرات التى نقلناها عن كله [انظر الخريطة فى صدر الكتاب] والفقرات الأخرى التى سنوردها توا . وهذه وتلك فى مجموعها سوف توضح لنا المواضع التى فرض مؤلف القصة وقوع بطله فيها . وتكشف لنا من جهة

أخرى عن المصادر التى استرشد بها ، أو بما يعد فى حكمها ، لينشىء حكاية الرحلة الرابعة فى مجموعها ، وحادث الغول الأسود فى مطلع الحكاية الثالثة .

قال التاجر سليمان : "وفى هذا البحر [هِرِكَنْد] إذا رُكِبَ إلى سِرَنْدِيب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تضبط . فيها جزيرة يقال لها الرامنى ، بها عدة ملوك ، وفيلة كثيرة ، وفيها البقم والخيزران ، وفيها قوم يأكلون الناس . وهى تشرع على بحرين : هِرْكَنْد وشِلَاهِطْ . وبعد هذه جزائر تدعى لَنْجَبَالُوس ، وفيها خلق كثير عراة ، الرجال منهم والنساء ، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر . فإذا مرت بهم المراكب جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد . . . ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له أندمان وأهلهما يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مفلفلو الشعور ، منا كير الوجوه والأعين ، طوال الأرجل ، قدم أحدهم مثل الذراع ، عراة ليس لهم قوارب . ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم . وربما أبطأت المراكب فى البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح ، فينفذ ما فى المركب من ماء ، فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء . وربما أصابوا منهم ، ويفلتون أكثر . . . وذكروا أن فى جزيرة يقال لها ملحان فيما بين سرنديب وكله ، وذلك من بلاد الهند فى شرق البحر ، قوما من السود عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكساً ، وقطعوه وأكلوه نيا . وعدد هؤلاء كثير فى جزيرة واحدة ، وليس لهم ملك ، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر ، ولهم شبيه بالغياض والآجام " .

وجاء فى « نزهة المشتاق » للإدريسى : " وبالقرب من جزيرة الرامى فى جهة الجنوب . . . جزيرة جالوس [باروس] . . . وأهلها قوم سود عراة يأكلون الناس . . . . ومن جزيرة لنجبالوس إلى جزيرة كلّه مسير ستة أيام . . . . وهى مدينة كبيرة يسكنها ملك يقال له جابه الهندى . وبها معادن كثيرة للرصاص القلعى . . . وفى هذه الجزيرة عجائب يقع واصفها فى فى حد التكذيب [لا أشك فى أن الإدريسى هنا لا يقصد كَلَه ، وإنما يقصد بلاد الزابج كلها] . ويلى هذه الجزيرة جزيرة جابة وجزيرة شلاهط وجزيرة هَرْلَجْ . وبين كل منها وأختها فرسخان وأكثر وأقل . وهذه الجزائر كلها إلى ملك واحد يسمى جابة " [وهو المهراج ملك جابة ، أو جابَجَا Javaga أى زابج]

لا بد وأن يكون مؤلف السندباد فكر بهذه الجزائر وهو يكتب حكايته الثالثة والرابعة . فقد عرفت من قديم الزمان بأنها مسكن قوم سود مفلفلى الشعور يأكلون الناس سواء فى ذلك جزائر اللنجبالوس [النكوبار] أو الأندمان . أو النيان [نياس Nias] أو بعض مواضع من جزيرة سومطرة مثل الرامنى ولامرى وبالوس أو باروس . والواضح أن بطل القصة وقع بإحدى جزائر العراة آكلى لحوم البشر ، وهرب منها إلى مكان رأى فيه الناس يجمعون الفلفل ، ثم سافر معهم إلى حاضرة ملكهم وهناك انتهى بأن يدفن حيا . فلما تخلص من المقبرة سافرت به المركب ستة أيام إلى كَلَه معدن الرصاص «القلَعى» . وقد يشير كل هذا إلى أنه وقع فى أول أمره بين أيدى جماعة من آكلى لحوم البشر القاطنين بجزيرة سومطرة — وما تزال قبائل البتاك Bataks معروفة إلى هذا اليوم بجبال سومطرة ، وكانوا إلى عهد حديث

جدا يأكلون الناس — ثم هرب إلى منابت الفلفل . ومنها سافر مع تجار الفلفل إلى مقر ملك من ملوك الجزيرة . وقد يكون وقوعه بين أيدى سكان جزيرة المنجبالوس [النكوبار] ، أو الأندمان . كما لا نستبعد أن تكون جزيرة الناقوس التى أشار مؤلف القصة إلى أن ملك كله «يحكم عليها» ، هى «بالوس» وحرفها النساخ إلى ناقوس كما حرفوا جزيرة «بر—طايل» إلى جزيرة كاسل.

ولقد أشار ماركو بولو فى رحلته إلى جزائر النكوبار [نكوفيران] والأندمان [أنجامانيان] ، فقال عن هذه الأخيرة : "وصدقنى ، إن لسكان هذه الجزيرة رءوساً كرءوس الكلاب ، وأسناناً وعيوناً كذلك . وفى الحق إن سحناتهم كسحنات نوع من الكلاب . . . وهم قوم قساة يأكلون من يقع لهم من الناس من غير قومهم" .

وسكان الأندمان سود شرقيون من أوضع وأوحش المخلوقات . ويؤكد الكولونيل يُولْ بأنهم كانوا يقتلون ويأكلون البحارة الضالين قبل احتلال البريطانيين للجزيرة سنة ١٨٥٨ . وما زالوا — على الأقل إلى عهد يُولْ ، أى فى أواخر القرن الماضى — يسيرون عرايا ، إلا النساء فيغطين سوآتهن بأوراق الشجر . وتشبيه وجوه بعض المتوحشين بوجه الكلاب ، تشبيه قديم يرد على لسان قدماء الجغرافيين حتى كوتزياس . والأصل فيه تقزز الناس من السحنة الزنجية . وقد وصف أهل كوبا لكولومبوس سكان الكاريب بأنهم آكلو لحوم البشر ، ولهم أفواه الكلاب . وكذلك شبه ابن بطوطة أفواه بعض أهل سواحل أركان بأفواه الكلاب .

وقال السائح الصينى هوين تسانج Huien-Tsang بأن سكان النكوبار

— وهى لَنْجَبَالوس العرب — لايتعدى طولهم ثلاثة أقدام ، ولهم أفواه كمناقير الطير ، ويعيشون على النارجيل . وسمى الصينيون هذه الجزائر « الراكشاه » ، أى « الشياطين » لاعتقادهم بأنهم يأكلون الناس . وقال توـين Tu-yen إن سكانها مهولو الخلقة ، حمر الشعور ، سود الجلود ، أسنانهم كأسنان الوحوش ، وأظلافهم كأظلاف الصقور . ووصفهم الكولونيل مان للكولونيل يول : « وسكانها متوحشو الهيأة ، بأذرع طويلة ، وأنياب بارزة » .

والحشيشة التى أضاعت عقول أصحاب السندباد يغلب أن تكون حشيشاً خالصاً [hemp] ، أو خليطا من « الحشيش » والداتورة والأفيون والخِرْبَق [hellebore] والبنج [henbane] . وذكر السائح ديفيس الذى زار سومطرة سنة ١٥٩٩ م أن بتلك الجزيرة "حباً إذا أكل منه الإنسان انقلب مجنونا ، وتغيرت له معالم الأشياء" . وقال دامپير Dampier "إن سكان سومطرة يستعملون حشيشة يسمونها جَنْج أو بَنْج ، إذا نقعت وشربت ، أثرت فى شاربها حسب مزاجه . فالبعض يصبح كالمعتوه ، والبعض الآخر يستولى عليه النعاس ، أو ينتشى فرحا ، أو يصاب بمس فى عقله" .

وننتقل الآن إلى حكايات بعينها يبدو فيها شبه غريب بما حدث للسندباد فى رحلتيه الثالثة مع الغول الأسود ، والرابعة مع السود المفلفلى الشعور .

أورد القزوينى فى كتابيه « **عجائب المخلوقات** » و « **آثار البلاد** » حكاية عن جزيرة سِكْسَار وهى "جزيرة بعيدة عن العمران فى بحر الجنوب" [آثار البلاد] ، وإحدى جزائر بحر الزنج [عجائب المخلوقات] ، قال :

"حكى يعقوب بن إسحاق السرّاج قال : رأيت رجلا فى بعض الأسفار

بوجهه خوش ، فسألته عن ذلك فقال : ركبت البحر فألقتنا الريح إلى جزيرة لم نستطع أن نبرح عنها . فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب ، وسائر أبدانهم كأبدان الناس . فسبق إلينا واحد منهم بعصا ، ووقف الآخرون . فساقنا إلى منازلهم فرأينا هناك الجماجم والسيقان وأذرع الناس ، وأدخلونا بيتاً رأيت فيه إنساناً . فجعلوا يأتوننا بالفواكه والمأكول . فقال ذلك الرجل : يطعمونكم لتسمنوا ، ومن سمن منكم أكلوه . قال : فكنت أقلل المأكول حتى لا أسمن . وكل من سمن من أصحابى أكلوه حتى بقيت أنا وذلك الرجل ، لأنى كنت هزيلا والرجل عليلا . فقال ذلك الرجل إنهم قد حضر لهم عيد يخرجون كلهم إليه ثلاثة أيام . فإن أردت النجاة فانج بنفسك ، وأما أنا فقد ذهبت رجلاى لا يمكننى الهرب . واعلم أنهم أسرع شىء طلبا ، وأشد استنشاقا وأعرف بالأثر ، إلا من دخل تحت شجرة كذا فإنهم لا يطلبونه ، ولا يقدرون عليه . قال : فكنت أسير ليلا وأكمن نهاراً ، فلما رجعوا وتفقدونى جعلوا يقصون أثرى فأدركونى وكنت تحت الشجرة فانقطعوا عنى ، ورجعوا فأمنت ” .

ليس بعيداً أن تكون هذه الحكاية مصدر حادث أكلة البشر فى الرحلة الرابعة . خصوصاً وأن مؤلف القصة قد انتفع فى حادث من حوادث الرحلة الخامسة ببقية ما ذكره القزوينى عن جزيرة سِكْسَار .

على أن الحكاية التى نوردها فيما يلى نقلا عن كتاب « عجائب الهند » — والأغلب أنه أقدم تأليفاً من كتب القزوينى — تثبت فى أقل ما يمكن إثباته أن مصادر القزوينى وبزرك بن شهريار ومؤلف قصة السندباد هى

حكايات البحريين . فحادث جزيرة سكسار بالذات شبيه بما جرى للسندباد وأصحابه فى رحلته الرابعة ، وكلاهما وحادث الغول الأسود فى الرحلة الثالثة قريب الشبه بما نورده توًا من كتاب « عجائب الهند » ، وبما جاء فى النشيد التاسع من « الأوديسية » عن العمالقة العور « السكيكلوبى » Cyclopae .

قال بزرك بن شهريار الناخداه فى « عجائب الهند » : "وسمعت من حكى أن رجلا من أهل البصرة خرج منها قِبَل الزابج أو ما قاربه . . . . . فتخلص ووقع إلى جزيرة . قال : فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواريت شخصى بين أوراقها و بت ليلتى . فلما أصبحت رأيت غنما قد أقبلت نحو مائتى رأس فى قدر العجاجيل ، يسوقها رجل لم أر مثله ، عظيم الخلقة ، طويل عريض ، بشع المنظر ، ومعه عصاة يسوق بها الغنم . فقعد على ساحل البحر ساعة ، والغنم ترعى بين ذلك الشجر . ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار . ثم قام فرمى نفسه فى الماء واغتسل ، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه . . . . . ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها فى فيه ومصه إلى أن أشرب ما فيه . ثم فعل ذلك بعدة من الغنم ، ثم استلقى فى ظل شجرة . فنى تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التى أنا فيها . فأخذ حجرا ثقيلا وحذف الطائر فلم يكذب ، فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب منى ، فأومى إلى بيده أن أنزل . فلخوفى منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا . وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض ، فقدرت أن وزن الطائر نحو مائة رطل . ثم نتف ريشه وهو حى يضطرب ، وأخذ حجرا قدر عشرين رطلا فضرب به

رأسه ، وتركه حتى مات ، ثم لم يزل يضرب به بالحجر حتى فسخه ، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه ولم يبق إلا عظامه . فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتنى . فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد ، وأوردهم خليجا فى الجزيرة فيه ماء عذب ، فسقاهم ، وشرب وشربت وقد أيقنت بالموت . ثم ساقنا جميعا حتى جئنا موضعا قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طولا وعرضا ، وله شبه باب . ودخلت الغنم ودخلت معها ، وإذا وسط ذلك الموضع مثل الغزالة فى ارتفاع نحو عشرين ذراعا ، على خشب وثيق ، والغزالة شبه بالبيت . فما عمل شيئاً دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فوق رأسها بحجر ثم أجج نارا وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ، ويرمى اللحم مع الجلد والصوف فى النار . فأكل كل ما فى جوف الشاة نيا . ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة . . . ثم أخذ شيئاً كان يشرب به ، ثم نام فجعل يغط كما يغط الثور . فلما انتصف الليل جعلت أدب قليلا قليلا إلى موضع النار وتتبعت ما بقى من اللحم ، فأكلت ما يمسك رمقى ، وخفت أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلنى مثل الطائر أو كالشاة . وبقيت مطروحا إلى الغد . فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقنى معهم ويومى إلىّ بكلام لا أفهمه ، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم منى . وقد صار علىّ شعر عظيم ، وأظنه لما رآنى على هذه الصورة عافتنى نفسه . وكان ذلك سبب تأخير أكلى . ولم أزل معه فى تلك الحالة عشرة أيام يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله ، ولا يمشى يوم إلا ويصطاد الطير والطيرين . فإن حصل له من الطيور

ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم ، وإن اقتصرت الطيور أكل شاة . وصرت أعاونه فى وقيد النار ، وجمع الحطب ، وأخدمه وأدبر الحيلة لنفسى إلى أن مضى لى عنده شهران وصلح جسمى ، ورأيت فى وجهه آثار السرور ، وفهمت أنه عزم على أكلى . وكان يأخذ من شجر فى الجزيرة له ثمر ينقعه فى الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل . وكنت أرى فى تلك الجزيرة طيورا كباراً كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر ، ومنها شىء قد أكل بعض غنمه . وإنما يبيت هو وغنمه فى تلك الحظيرة خوفاً من تلك الطيور ، لأنها [أى الحظيرة] بين شجر كبار ، وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب . والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق فى الأشجار . فلما كان فى ليلة من الليالى صبرت حتى سكر ونام فقمت وتعلقت بشجرة ، ودليت غصناً من أغصانها إلى الأرض ، ومضيت على وجهى أطلب صحراء قد كنت أشرفت عليها من تلك الشجرة . فلم أزل أمشى إلى الصباح ، ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعى خشبة قد أعْدَدْتُها . وعملت على أنه إن لحقنى ضربت رأسه ، فإما أن أدافع عن نفسى ، وإما أن يقتلنى ، فالموت لا بد منه . فمكثت يومى فى شجرة فلم أره . وقد كنت أخذت معى قطعة من اللحم . فلما أمسيت أكلتها ونزلت فمشيت ليلتى إلى الصباح فوجدت نفسى فى صحراء ، وفيها أشجار متفرقة . فمشيت وما أرى أحداً إلا الطيور ، ووحوشاً لا أعرفها ، وحيات . ورأيت ماء عذبا ، فأقمت بمكانى ، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل وأشرب ، والطيور تطوف بالغوطة . فعاينت طيراً منها ، فأعددت شيئاً من قشور الشجر مثل الحبال ، ولم أزل

أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى . ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى فشددت نفسى . فلما فرغ من أكله شرب ماء وحلق فى الهواء فأشرفت على البحر ، فاستبسلت للموت على أى حال كان لا محالة ، فانحط على جبل فى جزيرة فخلت نفسى من ساقه وأنا ضعيف ، فجعلت أجر نفسى خوفا منه ، ونزلت من الجبل وتعلقت بشجرة وأخفيت شخصى فيها . فلما أصبحت رأيت دخانا فعلمت أن الدخان مع الناس ، فنزلت أمشى إلى ناحية الدخان . فما مشيت قليلا حتى استقبلنى جماعة فأخذونى وكلمونى كلاما لم أعرفه فحملونى إلى القرية ، فأدخلونى إلى منزل ، وحبسونى مع ثمانية أنفس ، فسألونى عن خبرى فحدثتهم . وسألتهم ، فخبرونى أنهم أهل مركب فلان ، وكان قد خرج من الصَّنف إلى الزَّابج ، فوقع عليهم الخب ، فتخلصوا فى قارب المركب نحو عشرين رجلا ، فوقعوا إلى هذه الجزيرة ، فأخذهم قوم فاقتسموهم ، فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت . فنظرت وإذا مقامى عند صاحب الغنم كان أصلح ، فجعلت أتأسى بالقوم وإن كنت أؤكل فقد هان علىّ الموت ، وبعضنا يتأسى ببعض . فلما كان من الغد جاءونا بسمسم أو شىء يشبهه ، وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا . فقالوا هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا ، فأكلنا مقدار ما يسد رمقنا . ثم جاءوا فنظروا إلينا ، وأخذوا أحسننا حالا فى جسده ، فودعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض ، فأخرجوه إلى وسط المنزل ، ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ، ثم أقعدوه فى الشمس مقدار ساعتين ، ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعا ، ونحن نرى . ثم شووه وأكلوه وطبخوا بعضه ، وأكلوا بعضه نيا مملوحا . ثم شربوا شرابا

وسكروا ، فناموا . فقلت لهم قوموا نقتل هؤلاء فإنهم سكارى ، ونخرج على وجوهنا ، فإن سلمنا فالحمد لله ، وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذى يحل بنا ، وإن لحقنا أهل القرية فهى موتة واحدة . فاختلف رأينا بقية يومنا ، وأضعنا الليل . وأصبحنا فجاءوا بما نأكل على الرسم المعتاد ، ومضى أول يوم وثانى يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة . فلما كان فى اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا واحداً ففعلوا به مثل الأول . فلما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم . وأخذ كل واحد منا سكيناً وشيئاً من العسل والسمن والسمسم . فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل . وقد كنا ميزنا النهار فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية ، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة خوفا من القوم . فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب ، وأخذنا نمشى على الساحل يومنا . ثم أمِنَّا القوم فكنا الآن نمشى ونستريح ، ونأكل من ثمار الغيضة وهى كثيرة الموز زمانا طويلا . إلى أن وقعنا فى غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب فعزمنا على البقاء بها أبداً إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها . فمات منا ثلاثة ، و بقينا أربعة . فبينما نحن فى بعض الأيام نمشى ، وإذا بقارب خلق قد قذف به الموج وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب فى الطين ، والموج يضرب به وهو مطروح . فاحتلنا فى رميهم إلى البحر ، وغسلنا القارب ، وأخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغرى ، وأصلحنا فيه دقلا من الشجر ، وسوينا حبالا من خوص النارجيل وشراعا ليفا ، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة ، وملأنا معنا ماء ، وبعضنا يدرى سفر البحر . وسرنا نحو خمسة عشر يوما ،

ووقعنا بقرية من قرى الصَّنْف بعد أهوال وعجائب مرت بنا . وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف ، وخبرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زوادا وخرج كل واحد منا يقصد بلدا ، ورجعت إلى البصرة بعد أربعين سنة .

وقد مات أكثر أهله، ووجد لوالده ولداً فأنكروه . فقد كانوا لما انقطع خبره قسموا ماله وكان موسراً ، حسن الحال فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك " .

جمعت هذه الحكاية بين ما يشبه أن يكون قصة الغول الأسود فى رحلة السندباد الثالثة ، وقصة المتوحشين فى الرحلة الرابعة . وإذا لم يكن صاحب حكاية « **عجائب الهند** » قد أعمى الغول كما فى حكاية السندباد ، فإن ما يحدث لأصحابه مع المتوحشين كثير الشبه بما جرى لأصحاب السندباد فى الرحلة الرابعة من دهنهم بالسمن [دهن النارجيل فى قصة السندباد] قبل أكلهم . فهذه ، إلى ما جاء بكتب الجغرافيا والرحلات والعجائب مما أوردناه ، آثار ما كان يترامى إلى الناس على ألسنة الرحالين والبحريين من حوادث المتوحشين على شواطئ الزابج [سومطرة] ، وجزائر الأندمان واللنجبالوس [النكوبار] والنيان [نياس] . ولكن هذا لا يفسر التشابه العجيب بين حكاية الغول الأسود فى رحلة السندباد الثالثة ، وبين حادث العملاق الأعور [الكيكلوب] فى « **الأوديسية** » .

وأُودِسيُوس بطل ملحمة هوميروس الذائعة الصيت هو سندباد يونانى أقدم بكثير من السندباد العربى ، جاب أنحاء البحر الأبيض تائها ، كما طوف السندباد فى البحر الشرقى الكبير . ولقد خرج أودسيوس من بلاده إيثاكا مع العشائر اليونانية التى أخذت بناصر مينلاوس الأتريدى

ضد فاريس بن فريام خاطف زوجته هيلانة الجميلة . خرجت جحافل اليونان ونزلت بأرض « إليون » ، وحاصرت المدينة المنيعة عشر سنوات . لم تتغلب عليها إلا حينما اصطنع أودسيوس الواسع الحيلة حصانا خشبياً كبيراً ، اختبأ فى باطنه نخبة من محاربة اليونان ، وجاء الطرواديون فسحبوا الفرس الخشبي إلى داخل أسوار مدينتهم ، على اعتبار أنه مرسل من الآلهة . فخرج أبطال اليونان تحت ستار الليل وهجموا على أبواب المدينة وفتحوها لأصحابهم . وهكذا سقطت إليون الحصينة ، وأعمل فيها الإغريق التقتيل والسبي والنهب ؛ ثم عادوا إلى ديارهم ، إلا أودسيوس فقد ركب البحر الأخضر يشيعه غضب الإلهة الحامية لطروادة ، التى استنجدت بإله البحر فوسيذون ، واستطاعت أن تؤخر عودة ملك إيثاكا سنوات طويلة يجوب فى البحر تائهاً ، ويجتاز شتى الأهوال قبل أن يعود إلى أحضان زوجته الوفية فنيلوفا .

يتحدث أودسيوس ، وهو فى بلاط الملك ألـكِنُوس ، عما جرى له فى جزيرة العمالقة العور مع رئيسهم بُولِيفِيمُوس ، وحديثه يكوّن النشيد التاسع من أناشيد الأوديسية ، وهذا مجمله :

كان پوليفيموس كالطود الشامخ ، دخل إلى كهفه يسوق غنمه . وكان أودسيوس قد لجأ ورفاقه إلى ذلك الـكهف ، فلما رأوا العملاق الأعور سارعوا إلى الاختباء فرقا ورعباً . وإذا الـكيكلوب يدحرج صخرة هائلة على باب الـكهف فيحبسهم .

ثم يتخير اثنين منهم فيضرب بهما الأرض ، ويفسخهما فسخاً ، ويأكلهما لحما ، ويمصمصهما عظما . ويكرر ذلك ليلة إثر ليلة حتى يهتدى

رب الحيل أودسيوس إلى غصن شجرة زيتون يحميه فى النار ، ويقوم ورفاقه إلى الكيكلوب النائم يحملون العود المتوقد . ويدفعونه فى محجر عين العملاق الوحيدة وسط جبهته ، ويدير أودسيوس العود كالمثقاب حتى لايقصر عن غرضه . وينهض العملاق الأعمى يطارد غرماءه ، فيختبئون تحت بطون الغنم متشبثين بفرواتها . ويقف العملاق بباب الكهف ويفتحه مترقباً هروب أودسيوس ورفاقه ، ولكنهم أفلتوا من بين يديه محتمين ببطون الغنم ، وركبوا مراكبهم وأقلعوا سراعا . ونادى أودسيوس على پوليفيموس يتندر به ، ويعرفه بنفسه ، وكيف انتقم لرفاقه . فاقتلع پوليفيموس شطراً من جبل ، وألقاه فى البحر فأخطأ السفينة ؛ وواصل أودسيوس سخريته والتفاخر بانتصاره ، فاقتلع الكيكلوب قطعة جبل آخر وألقاها على سفينة البطل اليونانى دون جدوى .

وكان أودسيوس قبل هذا قد قص على الملك ألكِنُوس قصته فى « جزيرة اللُّوتُس » ، حين قدم أهلها لأصحابه ثمار « اللوتس » فأكلوا منه ، وإذا هم يفقدون رشدهم ، وينسون ماضيهم وأهلهم وأوطانهم .

فنى الحكايتين شبه غريب بما جرى للسندباد مع العملاق الأسود ، ثم مع المتوحشين الذين قدموا لرفاقه حشيشة غشيت على بصائرهم فعادوا كالبهائم . وفى إحدى القصص الفارسية المعروفة ، يحكى البطل « أبو الفوارس » كيف وقع بين يدى راعى غنم عملاق يغرر بالسفار الضالين ، ويدعوهم إلى حظيرته . وهناك يسمنهم ويأكلهم ، وينجو أبو الفوارس وبعض الأسرى بعد أن يعمى العملاق بالسفود المحمى ، ولكنه بدل أن يتعلق ببطن شاة ، يذبحها ويخرج

مع قطيع العملاق وقد غطى بفروتها ظهره .

ليس من المهم ، ولا من الممكن فى ظنى ، التحقق من أن صاحب السندباد قرأ أو عرف بالأوديسية . وليس ببعيد أن يكون سمع طرفا من حكايات أوديسيوس . فمما لاشك فيه أن العرب عرفوا هوميروس . وقد ذكره أبو الريحان البيرونى فى « الآثار الباقية » ، ويعتبر المستشرق النمسوى فون هامر ملاحم هوميروس من مصادر كتاب ألف ليلة . ومن الثابت أن تاوفيلوس الرهاوى رئيس الفلكيين ببلاط المأمون ترجمها إلى السريانيـة . وقد ذكر ابن أبى أصيبعة فى تراجم الأطباء عن يوسف بن إبراهيم معتوق إبراهيم بن المهدى ، أن يوسف هذا دخل على صاحب له مريض ، فوجد عنده رجلا يتمشى فى الحجرة ذهاباً وجيئة وقد غطى وجهه ، "وهو يرتل أشعاراً يونانية لهوميروس أعظم شعراء اليونان" . وعرف يوسف أن هذا الرجل هو حنين بن إسحق المشهور بتراجمه العربية لكتب الطب والفلسفة اليونانية .

ولو أخذنا بالنص القديم لقصة السندباد ، وهو النص الذى نشره لانجليس Langlès بباريس سنة ١٨١٣ ، وترجم عنه جالآن Galland قبل ذلك بمائة عام ، لوجدنا أن الغول الأسود ربما كانت له عين واحدة : "ودخل من الباب صورة إنسان لونه أسود وطوله أعلا من نخلة وعينه تلمع كالجمر" .

ليس عجيبا على أية حال ، فى قصة ألفت فيما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر الميلادى ، أن يكون صاحبها قد سمع بحكاية أوديسيوس . وليس غريبا أن يتداول غرب آسيا أساطير يونانية ، كما تداول شرقها الأساطير

العربية فى القرون الوسطى . ويتضح ذلك لكل من يعنى ببحث النصوص التى تركها الرحالة والحجاج الصينيون . أو ماجاء بالموسوعات الصينية واليابانية. وقد رأينا أمثلة على هذا التداول فيما أوردناه عن أسطورتى الوقواق والرخ . ويريد بعض أهل الذكر أن تكون قصة العملاق بوليفيموس منقولة عن الشرق . وربما كان الأقرب والمعقول أن تكون القصة قد انتقلت من اليونان إلى العرب إما مباشرة ، وإما عن البهلوية أو السريانية .

وما دمنا بصدد انتقال قصص إغريقية إلى الشرق ، فلنذكر على سبيل المقاربة ماجاء فى التاريخ اليونانى عن القائد أريستوميس Aristomenes حين أسره الإسبرطيون ، وألقوا به وبخمسين من رفاقه فى جب عميق ، ومات رفاقه ، وبقى أريستوميس حيا بين الرمم حتى رأى ثعلبا فاتبعه ، وعرف منفذه إلى الجب . وكان هذا سببا فى خلاصه ، كما تخلص السندباد من المقبرة مقتفيا أثر حيوان يغلب أن يكون ابن آوى .

ولم نجد لحكاية دفن السندباد حيا مع زوجته المائتة أثرا واضحا فى كل ما اعتدنا الرجوع إليه من الكتب العربية ، إلا أن يكون المؤلف قد انتفع بما قرأه فى تلك الكتب ، أو سمع به ، من عادة الهندوس فى إحراق الزوجة مع جثمان زوجها . ولقد ذكر أبو زيد حسن السيرافى أن ملك سرنديب إذا مات وأحرق تدخل نساؤه النار فتحترقن معه ، ثم أضاف : " وإن شئن لم يفعلن " . ووصف أحمد بن فُضْلان بن العباس بن راشد ، رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة ، كيف يُدْفَنُ ملوك الروس وخاقاناتهم . وهو وصف طويل نقله ياقوت الحموى فى معجمه « استعجابا به » وألقى على ابن فضلان عهدة

ما حكاه . وورد فى هذا الوصف خبر دفن بعض جوارى الملك ونسائه معه . وفى قصة حاتم طى التى ترجمها فور بس Forbes ، يدفن الزوج حيا مع جثمان زوجته فى مدينة عبر دهاس إلى الشمال من حدود الهند . فلا يبعد أن يكون مصدر هذه الأخبار طقوسا جنائزية عند قبائل التُغزْغُز والـكِيماكية والخَرْلُوك وغيرهم من شعوب آسيا الوسطى . وقد أشار القديس جيروم Jérome إلى عادة دفن الأحياء مع الأموات عند شعوب الإسقوتيين Scythes . وكلمة إسقوتيا كانت تطلق قديما على مجموعة الشعوب التى تقطن شمال البُنْطُس [البحر الأسود] وإلى الشرق من بحر الخزر [قزوين] .

وإذا عجزنا أن نجد فى الكتب العربيـة إشارة صريحة إلى دفن الرجل حياً مع زوجته إذا ماتت ، فلا أقل من الإشارة إلى الأفاق الملقب نفسه سير جون مونديفيل . وقد وصف هذه الطقوس فى مذكرات رحلته التى ادعى القيام بها فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، بجزيرة سماها « كالونك » ، لا تبعد كثيراً عن جاوه ، قال :

And Zif a man that is maryed dye in that contree, men buryen his wif with him all quyk, For men seyn there that it is resoun that sche make him companye in that other world as sche did in this.

وطقوس دفن بعض الأحياء من الأقارب والعبيد والخدم مع الأموات لم تكن قاصرة على آسيا ، بل عرفها الرحالون والمرسلون ، ووصفها علماء الأنثر بولوجيا عند كثير من الشعوب البدائية فى بقية القارات .

شيخ البحر

عاود السندبادَ الحنينُ إلى البحر ، أو ما يسميه "السفر والتفرج فى بلاد الناس والجزائر" . ولكنه ، وهو عارف بأمر البحر الغادر ، اشترى مع ذلك سفينة ، واكترى لها الملاحين والربان . ولم يعد مرة أخرى إلى هذه التجربة فيما تلا من رحلاته . وبعد سفر طويل موفق ، ووقوف بالبرور والجزائر ، وبيع وشراء ، ألقت السفينة مراسيها أمام جزيرة جرداء . فنزل فريق من التجار إليها ، وخالف السندباد عادة له فى الخروج إلى البر . وإنّا لنتصوره فى هذه المرة جالساً فى بِيلَنْكِه ، أو فوق سطح سفينته ، كبير العمامة ، منتفخ الأوداج ، وحوله الربان ومساعدوه ، وخدمه قائمون بين يديه . وهو بطر بملكيته للسفينة وتعاليه عن النزول إلى تلك الجزيرة ، « وكم رأى ، وكم شاهد من مثلها ، وهو ذلك الرحالة القديم » . ولكنه لم يكن يعلم ما يكلفه هذا التعالى ! فلو أنه تابع رغبته الأصلية فى تعرف المجهول ، ونزل مع السفار إلى الجزيرة ، لحال بينهم وبين ارتكاب حماقة كلفتهم حياتهم وبضاعتهم ، وكلفته هو مركبه بمتاعها وجهازها ، وجميع المتاعب التى عاناها فى هذه الرحلة الخامسة .

فبينما يتحدث إلى من حوله ، عاد من البر رجل وقال له : قم ياسيدى إلى الجزيرة ، فقد وجدنا فيها بيضة كبيرة الجرم ، دخل فى روعنا أنها قبة بيضاء . فتذكر السندباد بيضة الرخ التى رآها فى رحلته الثانية ، وقام مسرعاً ليشاهدها وهناك رأى منظرا لاينذر بخير . فقد دار التجار بالبيضة يكسرونها ، وأخرجوا

منها فرخ الرخ وأخذوا منه لحما كثيراً . فصاح بهم أن يقلعوا عما يفعلون ، وأن يسرعوا إلى السفينة قبل عودة الطائر الهائل ، واكتشافه ما حل بفرخه . فصدقه البعض وجرى معه ، وتريث آخرون . وإذا وجه الشمس يختفى ، والنهار قد أظلم . فلحق المتلكئون بإخوانهم ، وقد رأوا الرخ ناشراً أجنحته بعرض الأفق . وركبوا السفينة ، وأمر الربان بالشراع فنشرت ، وأقلعت السفينة مسرعة . ولم تمض عليهم ساعة فى عرض البحر حتى رأوا الرخ طائراً فى أثرهم ، ومعه أنثاه . ولصوت أجنحتهما هزيم كهزيم الرعود ، وبمخالب كل منهما جلمود صخر . فلما وصل الطائران إلى سمت السفينة رمى الرخ بجلموده فأخطأ المرمى . ولكن الصخرة إذ سقطت فى البحر أثارت أمواجا اهتزت لها السفينة اهتزازها بالإعصار ، وخيل للسندباد أن قد رأى من البحر قراره . ثم قذفت الأنثى بجلمودها فوقع على مؤخرة السفينة فهشمها "وأطار دفتها عشرين قطعة" .

غرقت السفينة ، وتعلق السندباد ببعض أخشابها ، وجعل يجدف برجليه حتى "رمته المقادير بإذن الله تعالى" إلى بر انطرح عليه ساعة يستريح مما عاناه . وقام يتمشى فإذا هو فى جزيرة يانعة الأشجار ، دافقة الأنهار ، مترنمة الأطيار . فأكل من ثمارها ، وشرب ماءها ، واستراح ليلة وهو يحمد ربه ويثنى عليه .

وقام فى الصباح يتجول بين الأشجار حتى ورد غديراً جلس إلى جانبه شيخ مليح الوجه ، يأتزر بإزار من ورق الشجر . فدنا منه يقرئه السلام ، والشيخ يرد عليه بإيماءة . فلما سأله السندباد عن حاله ، وسبب جلوسه فى

هذا المكان ، هز الشيخ رأسه أسيفاً . وأشار إلى ساقيه بما يحمل معنى الرجاء أن يحمله السندباد على أكتافه ، وينقله إلى مكان آخر . وإنها النخوة تهز الرحالة ، والثواب يلتمسه شكراً لله على نجاته ، فيتقدم إلى الشيخ ويحمله على أكتافه ، ويسير به إلى حيث يريد ، ثم يحاول أن ينزله عنه . ولكن الشيخ كان قد لف رجليه حول رقبته لفاً ، وإذا ساقاه يغطيهما شعر كث ، كأنهما سيقان الجاموس خشونة وسواداً . فحاول السندباد أن يلقيه عنه فى عنف ، ولكن الشيخ ضغط على رقبته بقوة حتى جحظت عيناه ، وكاد يغيب عن وعيه . والشيخ يضربه بيديه ورجليه ضرباً مبرحا ، ويأمره أن يدخل بين الأشجار . فصدع السندباد بأمره كالبهيمة الذلول . والشيخ يمد يديه إلى الثمار فيقتطفها ويأكل ، ويأمره أن يبرك على ضفاف الغدران ليشرب . وكلما بدا للسندباد أن يقاوم ضربه برجليه وكفيه ضربا كالسياط . فإذا جاء وقت النوم لف الشيخ رجليه لفاً عنيفا على رقبة السندباد ، ونام قليلا ثم قام ليضربه ويسوقه فى معابر الجزيرة .

وللشيخ المربوط بأكتاف السندباد حاجات وضرورات جثمانية لايتورع عن تأديتها فوق أم رأس الرحالة الكبير . وقد لبث راكباً كتفيه زمانا لايرى السندباد له نهاية ، ولايعرف من محنته خلاصاً . وقد لاحظ أن بالجزيرة بعض اليقطين ، وكثيراً من الكروم . فاختار يقطينة جافة ، وعصر فيها شيئاً من العنب وترك العصير حتى اختمر . وجعل يحتسى منه إغراقا لهمومه ، واستعانة به على عنائه . ولاحظ الشيخ الكسيح ما يكسبه الشراب صاحبه من نشاط وجذل . فأشار كمن يسأل عن ذلك الشراب ، فأجابه السندباد :

" هـذا شيء مليح يقوى القلب ويشرح الخاطر " ، ثم جرى ورقص بين الأشجار ، وجعل يغنى ويصفق بيديه طربا طرباً . فتناول الشيخ اليقطينة وجرع ما كان باقياً فيها ، وأشار بالمزيد . فجعل السندباد يسقيه قرعات دهاقا ، من شراب عنى أن يبلغ به أقصى درجات التخمر . والشيخ يكرع دراكا ، وقد سرت حميا العقار فى عروقه ، فأخذ يرقص فوق أكتاف السندباد ويترنح ، حتى أصيب بالغثيان وغيره ، وتراخت عضلاته ، وتفككت مفاصله . فانتهزها السندباد فرصة وقمد بالرجل ، وخلص رقبته من بين ساقيه ، فمال الشيخ المخمور وسقط على الأرض فاقداً وعيه . وجاء السندباد بصخرة كبيرة نزل بها على رأسه فهشمها ، وجرى إلى ساحل البحر . فانتظر حتى عبرت به سفينة وأنقذته . وهناك علم من بعض رجالها بأن الشيطان الذى امتطى أكتافه ، يعرف عند النواتية باسم « شيخ البحر » ، وأنهم لم يسمعوا بإنسان وقع فى قبضته ونجا .

ووصل ركب السفينة إلى مرفأ كبير ، نزل إليه السندباد بصحبة واحد من التجار أعطاه مخلاة ، وجاء به إلى جماعة من أهل المدينة ، وأوصاهم أن يساعدوه على كسب قوته ، وما يستطيع العودة به « مستوراً » إلى بلاده . وخرج السندباد من المدينة مع أهلها فى الصباح الباكر ، وكل يحمل وطابا . وأخذوا يجمعون الحصى والحجارة من أرباض المدينة . ثم واصلوا السير حتى جاءوا وادياً فسيحا به أشجار عالية تشبه النخيل ، ولكنها أرفع قامة وأدق جذعا ، ملساء لا سبيل إلى تسلقها . وكان بالوادى قرود كثيرة هربت إلى أعالى ذلك النخيل بمجرد رؤيتها للناس . وجاء كل رجل إلى شجرة يحصب القرود

فوقها بالحجارة ، والقرود ترد عليهم بإلقاء ثمار ذلك الشجر . فإذا الثمار هي النارجيل . وجمع السندباد منــه قدراً تزايد على مدى الأيام ، وكان يبيع منه للمراكب العابرة حتى ادخر مالا غير قليل . ثم استقل مركباً حمّلها ما تبقى له من جوز الهند ، وسافر بها إلى جزيرة الفلفل . ثم إلى جزيرة قِمار حيث ينبت العود القماري والصنفي . ووجد أهل قمار يحرمون الشرب والزنا . وبعد أن باع واشترى وقايض سافر عائداً . ومرت سفينته في عودتها بمغاصات اللؤلؤ ، فاستأجر الغاصة على نصيبه ، وأخرجوا له من اللؤلؤ كماً وفيرا .

وعاد إلى بغداد ، وإلى صلاته وهداياه ، وخلانه وندامه .

***

كان عبد الرحمن المغربي يحدث بالغرائب . وقد سافر إلى الصين وأقام به وبجزائره مدة طويلة حتى عرف بالصيني . ونقل عمر بن الوردي خبره عن الحافظ ابن الجوزي مؤلف كتاب الحيوان . قال ابن الوردي في « خريدة العجائب » :

" ذكر عبد الرحمن المغربي أنه سافر في بحر الصين ، فألقتهم الريح في جزيرة عظيمة كبيرة واسعة . فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب ومعهم الفوس والحِبال والقرب وهو معهم . فرأوا في الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لامعة براقة ، أعلى من مائة ذراع . فقصدوها ودنوا منها ، فإذا هي بيضة الرخ . فجعلوا يضربونها بالفوس والصخور والخشب حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل راسخ ، فتعلقوا بريشة من جناحه واجتذبوها ، فنتفت تلك الريشة من أصل جناحه ولم تكمل خلقة الريش ، فقتلوه . قال وحملوا ما أمكنهم من لحمه ، وقطعوا أصل الريش من حد القصبة ورحلوا . . . قال فلما طلعت

الشمس والقوم فى السفينة وهى سائرة بهم إذ أقبل الرخ يهوى كالسحابة العظيمة ، وفى رجليه قطعة جبل كالبيت العظيم . فلما حاذى السفينة من الجو ألقى ذلك الحجر عليها وعلى من بها ، وكانت السفينة مسرعة فى الجرى ، فسبقت الحجر . فوقع الحجر فى البحر ، وكان لوقوعه هول عظيم " .

ولنعد إلى حكاية يعقوب بن إسحق السراج عن الرجل المخموش كما جاءت بكتابى القزوينى . وقد نقلنا أولها فى تعقيبنا على الرحلة السابقة ، ووصلنا إلى هرب الرجل المخموش من آكلة لحوم البشر واختبائه تحت شجرة حتى انقطعوا عنه ، قال :

" فلما أمنت منهم جعلت أسير فى تلك الجزيرة إذ رُفِعَت إلى أشجار كثيرة فانتهيت إليها فإذا بها من كل الفواكه ، وتحتها رجال أحسن صورة . فقعدت إليهم لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامى . فبينما أنا جالس معهم إذ دنا واحد منهم ووضع يده على عاتق ، فإذا هو جالس على رقبتى ، ثم لوى رجليه علىّ فأنهضنى . فجعلت أعالجه لأطرحه عن رقبتى فخمشنى فى وجهى ، وسخرنى كما يسخر أحدكم مركوبه . فجعلت أدور به على الأشجار وهو يقطف ثمارها ، يأكل ويرمى لأصحابه ، وهم يضحكون . فبينما أسير به وسط الأشجار إذ أصاب عينيه بعض عيدان الأشجار فعمى ، فعمدت إلى شىء من العنب ، وأتيت نقرة فى صخرة عصرته فيها . ثم أشرت إليه أن اكرع ، فكرع منه ، فتحللت رجلاه . فرميت به فأثر الخموش من ذلك فى وجهى " .

هاتان هما الحادثتان اللتان أنشأ عليهما صاحب السندباد أهم ما جاء بحكاية الرحلة الخامسة . وقد أتعب نفسه ريتشارد هُولْ ، ومِنْ بعدِه إدِوَارْدْ لِينْ ،

فى تفسير أصل هـذه الحكاية . فاعتبر كلاهما أن شيخ البحر لا علاقة له بإنسان الماء ، ويغلب أن يكون قرداً من نوع الأرانج — أوتان .

وأسطورة الرجال « ذوى السيقان الرفيعة الطرية » أو « ذوى الأرجل الجلدية » أسطورة هندية قد تكون المصدر الذى ادعاه لنفسه يعقوب بن إسحق السراج . وقد وصف ريتشاردسون فى قاموسه أولئك الرجال بأنهم "من أهل الهند ، لهم سوق رفيعة مرنة كشرائط الجلد ، يدعون الكساح ، ويلتمسون من السفار أن يحملوهم . فإذا استجابوا إليهم لفوا سيقانهم حول رقاب السفار وخنقوهم" .

وحكاية استفزاز القردة لترمى الناس بالنارجيل ، شبيهة بما ذكره بعض الرحالين فى وصف طريقة جمع أوراق الشاى بنواحى الصين ، وبما نقش المصريون القدامى على حوائط قبورهم بما يبدو كأنه يمثل طريقة فى جمع الثمار بواسطة قرود مستأنسة ، ولم أعثر على فقرات بعينها فيما بين يدى من الكتب تشير إلى المصدر الذى استقى منه مؤلف قصة السندباد حكايته الطريفة عن جمع النارجيل . ولكنى رويت فى كتاب « **سندباد عصرى** » ما حدث لى مع « القردة الخطافة » بإحدى محطات السكة الحديدية بجنوب الهند ، وكيف تآمرت على سبط موز ادخرته لغذائى فى عربة القطار . فشاغلتنى من إحدى ناحيتى العربة ، بينما استعد فريق منها للوثوب من نوافذ الناحية الأخرى واختطاف الموز . وفى الكتب العربية حكايات عديدة عن ذكاء القردة وانصياعها لكبير منها يسمى الهزار . وربما وقع لمؤلف قصة السندباد كتاب فى طبائع الحيوان استخرج منه حكاية القردة والنارجيل ، كما استخرج حكاية

مقبرة الأفيال فى الرحلة السابعة .

وصل السندباد فى رحلته الخامسة إلى « جزيرة قمار » . وقمار هذه هى البلاد التى تعرف اليوم باسم كامبوچيا أو بلاد « قمير » Khmer حيث معبد « أنكور » Angkor وهو تحفة فنية رائعة من آثار الفن القمارى القديم . كأن حوادث القصة فرض حدوثها فى بحر الصَّنْف ، أى فيما يعرف فى العصور الحديثة باسم خليج سيام . وبلاد الصَّنْف [Tsiampa] تصاقب بلاد قمار ، وهى صقع مما نسميه حالا سيام وكوشين صين . وقد اشتهر البلدان من قديم الزمان بخشب العود *Aquilaria agallocha* . والعود الصنفى ، وهو أفضله ، ناشىء عن مرض الشجيرة البقولية المسماة *Aloexylon agallochum* .

وجد السندباد أهل قِمار يحرمون الشراب والزنا . وأمر هذا مشهور فى كتب الجغرافيا والرحلات العربية ، قال فيه ابن خرداذبة : "وملوك الهند وأهلها يبيحون الزنا ويحرمون الشراب ، إلا ملك قِمار فإنه يحرم الزنا والشراب . . . . وبقمار العود القمارى . . . . ومن قِمار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلاثة أيام . وبها العود الصَّنْفى وهو أفضل من القمارى لأنه يغرق فى الماء لجودته" .

ومر السندباد فى عودته بجزيرة سِرَنْديب مجتازاً أغبابها ، حيث اكترى الغواصين ليجمعوا له بعض اللآلئ من المغاصات التى اشتهر أمرها منذ أقدم العصور .

رحلة نهرية فى كهف

لا غرو إذا كان السندباد ، بعد تجاربه القاسية فى المقبرة ، وفيما جرى له قبل هـذا الحادث وبعده ، أصبح أقل جرأة على السفر . وفى نصوص القصة دلائل على أن قد قارب العهد الذى ينفذ فيه السندباد عزمه على الاستقرار ببغداد . فإنه فى مآزق الرحلة التى نحن بصددها يبدى من لوم نفسه ، ومن معاهدتها ، ما يمكننا من الحكم على نيته الجدية فى التوبة عن الأسفار .

فهو قائل فى أزمة من أزمات الرحلة السادسة : " وصرت ألوم نفسى على قلة عقلى ، وسفرى إلى البلاد بعد الذى قاسيته أولا وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً ، ولا سفرة من الأسفار إلا وأقاسى أهوالا وشدائد أشق وأصعب من الأهوال التى قبلها . ولست محتاجا لمال وعندى شىء كثير لا أقدر أن أفنيه أو أضيع نصفه فى باقى عمرى " .

ويقول فى محنته أثناء الرحلة السابعة ، وهى خاتمة رحلاته : " أستحق جميع ما يجرى لى حتى أرجع عما أنا فيه من الطمع . والآن قد رجعت لعقلى ، وتبت إلى الله تعالى توبة نصوحا عن السفر ، وما بقيت عمرى أذكره على لسانى ولا على بالى " .

ومع هذا فقد سبق له أن لام نفسه فى محناته السابقة . ولـكن اللوم فى رحلته السادسة يتخذ صيغة أشد إلحاحا ، والتوبة فى الرحلة الأخيرة تتخذ شكل العهد أمام الله .

ثم إن النص الذى ترجم عنه جالّان قصة السندباد فى القرن السابع عشر

يشير إلى أنه فى عودته من الرحلة السابعة لم يصل بالسفينة إلى البصرة ، بل غادرها فى ميناء على الشاطئ الغربى للهند ، وسافر منه براً إلى بغداد عبر بلاد فارس .

بيد أن حادثين حدثا للسندباد فى بغداد جعلاه لا يقوى على مغالبة حبه للسفر والمغامرة ، بعد عودته من الرحلة الخامسة . أولهما كان باعثاً له على القيام بالرحلة السادسة ، والثانى على السفر للمرة السابعة والأخيره ، وسنذكره فى حينه .

أما الحادث الأول ، فهو رؤية السندباد ، بعد عام من استقراره ، لجماعة من التجار مروا عليه وعليهم آثار السفر . مما أعاد إلى ذكراه أيام قدومه من رحلاته ، وفرحه بلقاء أهله وأصحابه ، وسروره بدخول بلاده . فلم يستطع أن يكبح جماح الحنين والتحرق إلى الرحيل . وهى ظاهرة نفسية عرفها ووصفها كل من ركب البحار طويلا وذاق أهوالها . هى نوع من « النوستالچيا » أو الحنين إلى الأوطان . ولكنها « نوستالچيا » أصعب تفسيراً من نزوع الوجدان إلى بقعة من الأرض تفتحت فيها عيوننا أول مرة على ضوء النهار ، وأرهفت أسماعنا إلى ألحان الطبيعة وأغانى الروائم ، ونشقت صدورنا واستروحت أريجاً آخذاً سحارا . هى حنين إلى ممتد واسع من الزرقة تضرب إلى الخضرة آنا ، وإلى لون رصاصى عابس فى أشد الآوان ، موشى بالزبد الناصع البياض ، حنين إلى عبير خاص وطعم لا ينسى ؛ وأصوات يختلط فيها اصطخاب الموج بهدير الرياح وهزيم الرعد وقعقعة أخشاب السفينة وهمهمة متصاعدة كأنها من الأعماق هى فى الواقع اصطفاق الحبال والشراع وتذبذب أطراف الصوارى . حنين غير مفهوم ؛ وأقل ما يفهم منـه أن تعود إلى البر متبرما بالبحر ، كارها له ، راغباً عن العودة إليه ؛ فتدق الباب عليك فى عقر دارك

المطمئن الدافئ ، فى أقل اللحظات ترقباً لها ، جِنَّة زرقاء العينين سوداء القلب ، وتطبع على شفتيك قبلة مالحة الطعم ؛ ثم تختفى وقد سلبتك هدوءك ، وأشاعت فى جنبات نفسك القلق ، وأوقدت سعيراً لا يطفئه إلا أن تنزع نفسك من كل من تحب وما تحب ، وتعود إلى امتطاء صهوات الجياد الشهب الجموح ، أعرافها الزبد الأبيض وأفواهها ذات الرغاء .

سئل رجل من رجال البحر أثناء الحرب العالمية الأولى عما اعتزم عمله إذا عاد السلام إلى الربوع والبحار ، قال : "سوف أغادر سفينتى حاملا مجدافا ، وأضرب فى البر إلى ركن يتساءل الناس فيه ما هذا الذى أحمل . وهناك أعرف أنى وجدت مستقرى ومثواى" . ووضعت تلك الحرب أوزارها ، وبقى الرجل يذرع البحار حتى هرم واشتعل منه الرأس شيبا ، وقد نسى حكاية البر والمجداف . وفى قصة « البحر » للكاتب اليونانى العصرى أنتريا كركافيتساس Antrea Karkavitsas يحذر الأب البحار ابنه : "باعد ما بينك وبين « تالاسا » [البحر] يا بنى . إياك أن تصدق ابتساماتها الغادرة ، وهى تعدك بالثروة الطائلة . عاجلا أو آجلا سوف تحفر لك فى جوفها قبراً ، أو هى تلفظك على البر حطاما لا تملك غير جلدك وعظمك . البحر والمرأة . . . . سيان !"

ولكن الفتى ، مع ما عرف من الدعة فى البر ، بين أحضان زوجة ناعمة بضة ، كحيلة العينين سوداء اللمة ، وتحت ظلال أشجار الزيتون والليمون ، يعود إلى ذات الأعين الزرقاء ملبياً نداء « تالاسا » !

سافرت السفينة بالسندباد فى رحلته السادسة . وعبر التجار إلى البرور

والجزائر ، يبيعون ويشترون ويتفرجون على المدائن وقد "طاب لهم الوقت والسعد أشهراً طوالا" . إلى أن جاء اليوم المحتوم فى حياة كل مسافر بالبحر الشرق فى العصور الوسطى . حين يزعق الربان ويرمى عمامته ، ويلطم وجهه وينتف لحيته ، وينذر السفار بأنهم تنكسوا فى لجة مجهولة . وجنح المركب بهم ثم جلس على ترش من التروش حيال جبل قائم وحده فى الماء على بعد فراسخ منهم . فصعد الربان إلى أعلى الدقل ونفذ ببصره إلى ما تحت الماء ثم اصفر وجهه ، وزر عينيه يطالع الأفق ، ثم حملق وهبط وقد رأى نذر الإعصار ، وطلب من الركاب أن يتوادعوا فقد حم القضاء . وهجمت الزعازع تطارد أمامها موجا كالجبال ، ارتفع بالمركب الجالس ثم نزل به متحطم فوق الأقاصير ، وتناثر السفار فى الماء ومتاعهم ؛ ولبثوا بعض يوم والبحر يتراجع عن خبه ، وينحصر عن تلك التروش والأقاصير فى جزر هائل ، يكشف عن ساحل يمتد حتى أقدام الجبل الذى استوقف أبصارهم . وإذا هم فوق جزيرة مستطيلة ، حفلت بعظام الأموات البيضاء ، وبقايا جهازهم ، وحطام سفائنهم . يتجولون فوق شاطئها المنبسط مبتعدين عن متناول البحر الغشوم فى مده . أذهلتهم الرزية ، بقدر ما أذهلهم ما بدءوا يلحظونه فى حصباء الجزيرة من البلور واليواقيت . ثم وردوا عيناً تنضب مادة كالقير . وذكروا ما سمعه أكثرهم من أن العنبر يخرج من عيون على سواحل البحار ، أو فى قيعانها . فإذا ابتلعته دواب البحر ، أو « الهوايش » ، حمى فى بطونها فعادت وقذفت به ، فكان منه العنبر السمكى . أما ما يخرج من القيارة فهو العنبر الخام . وأشجار الجزيرة من أفخر أنواع العود . كيف يبلغ السفار هذه الجزيرة ولا مرفأ إليه

يرفأون . وما السبيل إلى الخروج منها ، أو الوصول إلى داخلها وقد أحاط بها الجبل مستديراً حولها كالسور ؟

وكان الناجون يتماوتون جوعا بعد أن أتوا على ما ملكوا إنقاذه من أقوات سفينتهم ، وإن وجدوا الماء جاريا فى نهر عجيب ، يتهدر على لحف الجبل . ولكنه بدل أن ينحدر إلى البحر ، يجرى داخلا فى فوهة كهف واسع المنفذ . وكل من مات منهم كفنوه ببواقى ما قذف البحر من قماش وملابس . وبقى السندباد آخر من ينتظر الموت منهم ، ولا من يسجيه فى كفن أو يهيل عليه رمال . فحفر لنفسه قبراً يتمدد فيه إذا دنا أجله ، وهو دان قريب .

ولست أعرف رجلا تنفتق حيلته على ذكر الموت ، وينفتح له باب الأمل وهو على باب الفناء أكثر من هذا السندباد . فقد خطر له أن النهر ذاهب إلى مكان غير هذا المكان ، ما دام داخلا فى بطن الجبل . فلماذا لا يحاول أن يركبه ويتبع مجراه ؟ اصطنع كَلَكاً من حطام السفن ، وقيل من خشب العود أو الصندل ، وحشد فوق الكَلَك من العنبر الخام والجواهر والعود ما يحتمل ، ثم جَلَس فوقه وتركه للتيار يحمله ، فما لبث أن نفذ إلى داخل الكهف ، وانعقدت الظلمة وادلهمت كلما أوغل فيه . وقد يضيق مجرى النهر ويطبق سقف الكهف فوقه حتى يضطر السندباد إلى أن يستلق على وجهه ، ويغطى رأسه بذراعيه توقياً من الاصطدام بسقف الكهف ، وهو يتوقع أن ينحشر فيه طرفه فلا يملك إلى الأمام حراكا ، ولا إلى الخلف دفعاً . وقد يتسع المجرى فجاءة ، ويرتفع السقف ، فيجرى الطوف وهو يتخبط

بين الشطين . ولكن الذى لا ينقشع هو الدجنة الدائمة ، مما أفقد السندباد ملكة تقدير الوقت وتمييز النهار من الليل . وما يتزايد هو جوع السندباد ، وضيق صدره بالغياهب ، وتعبه وفزعه ، مما أنهك أعصابه ، وفت فى عضده حتى نام أو فقد وعيه إعياء . ولم يعرف السندباد كم قضى فى الكهف صاحياً ونائماً . كل ما يعرفه أنه عاد إلى نفسه فى ضوء ساطع ، وما زال ممدداً فوق الكلك ، والكلك مربوط بشط فسيح ، وحوله جماعة من « الهنود » كلموه بلسانهم فلم يفهم . وكأن ما يراه أضغاث أحلام . ولكنه وهو يهذى ببيت من الشعر السخيف ، ربما كان : "ما بين غمضة عين وانتباهتها" أو شيئاً من هذا الطراز ، انبرى له واحد من الجمع يخبره فى لغة عربية سقيمة بأنهم وجدوه يتقاذفه النهر ، فربطوه وانتظروا أن يثوب من غيبوبته . ثم يسأله عن حكايته فيقول السندباد ، وهو يفرك عينيه : بالله عليك يا سيدى ، جئنى عاجلا بشىء من الطعام أولا ، ثم سلنى بعد ذلك ما شئت .

وأكل وشبع وهدأ روعه ، وحكى ما جرى له . فأخذوه والكلك بما فيه إلى قصر منيف على شاطئ النهر ، وأدخلوه على صاحب القصر ، حيث عرف بأنه بحضرة ملك سرنديب . وقص على الملك حكايته ، فأطل هذا على الكلك وقدر ما فيه من الجواهر والعنبر والعود . فتقدم إليه السندباد يرجوه أن يتقبل هديته ، ولكن الملك أجابه : "حاشا يا سندباد أن نطمع فيما رزقك الله ، بل حقت علينا معونتك حتى تعود إلى ديارك" .

وأنزله ملك سرنديب أحسن مكان ومكانة ، إذ عرف أنه من تجار بغداد ، عاصمة الخليفة العظيم هرون الرشيد . وكان السندباد بعد أن ينفض

مجلس الملك يدور فى المدينة . كما استطاع أن يتجول فى الجزيرة ، وعرف ”أنها تحت خط الاستواء“ ، ليلها اثنتا عشر ساعة ، ونهارها كذلك . طولها كعرضها ثمانون فرسخاً . بها جبل شاهق يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، وفيه ألوان الياقوت والمعادن المختلفة ، وأشجاره أصناف الأفاويه والطيب . وأرضه ومن السنباذج الذى يعالج به الجوهر . وسمع بأن اسم ذلك الجبل « الرَّهُون » أن آدم هبط عليه من الجنة . فلما عرف بأن فى قمته أثر قدم أبى البشر ، » تسلق إليها ليتبرك بها . ورأى الماس فى أنهار الجزيرة . وعرف بأن اللؤلؤ فى أغبابها .

وعاد إلى الملك يستأذن فى الرجوع إلى بغداد . فأذن له بعد أن أنعم عليه بشىء كثير من خزائنه ، وسلمه رسالة للخليفة هرون الرشيد كتبت باللازورد على صفحة من جلد الخاوى [الجادى ؟ أى الجلد المدبوغ بالزعفران ؟] وهو أحسن من الرق ، مائل إلى الصفرة . وقد جاء فى الرساله : ”من ملك سرنديب ، الذى يسير فى موكبه ألف فيل ، ويرصع شرفات قصره ألف حجر من الجوهر وبعد ، فقد أهدينا إليك القليل فاقبله عربوناً على أخوتنا لك ، ومحبتنا فيك ، وإقرارنا لك بالفضل . ووجهنا إليك كتاب « **صفوة الأزهار** » ، وهديتنا وكتابنا دون قدرك ، نسألك أيها الأخ أن تتنازل بقبولها والسلام“ .

والهدية جام ياقوت أحمر ارتفاعه شبر وسمكه إصبع . وهو مملوء بالدر ، كل درة مثقال . ومعها فراش من جلد حية تبلع الفيل ، وهو جلد منقط كل نقطة كالدينار ، من جلس عليه لا يمرض أبداً . ومائة ألف مثقال من العود المندى . وثلاثون حبة كافور كل حبة بقدر الفستقة . وفوق هذا جارية

بحليها ، كأنها القمر الزاهر .

وسافر السندباد وقد ودعه الملك وأوصى به التجار والربان . ووصل إلى بغداد ودخل داره واجتمع بأهله ، ثم حمل الرسالة والكتاب ، ومعه الهدية ، ودخل على الخليفة فقبل يده ، ورفع الجميع إليه . فسر الخليفة بها سروراً عظيما ، وسأل السندباد عمن يكون هذا الملك ، فحكى له الرحالة عما رآه من عظمة ملك سرنديب . إذ ينصب له فى الأعياد سرير فوق فيل عظيم ، ارتفاعه أحد عشر ذراعاً . ويقف بين يديه صفان من خواصه وحاشيته وغلمانه . ويتقدمه رجل بيده رمح ذهبي ، ويقوم فوق رأسه حارس ممسك بقضيب من ذهب ، تعلوه زمردة طولها شبر وسمكها إبهام . فإذا ركب سار فى موكبه ألف فيل عليها سروج الذهب المزركشة ، وفوقها الركبان يرفلون فى الدمقس والجوهر . ويتقدم الموكب مناد يصوغ للملك آيات المديح تنتهى بهذه الجملة التقليدية : "هذا الملك صاحب التاج ، الذى لم يملك مثله سليمان ولا المهراج" فيرد عليه مناد آخر يسير وراء الملك قائلا : "يموت ثم يموت ، ثم يموت" فيقول المنادى الأول : "سبحان الحى الذى لا يموت" . وليس فى مدينته قضاة . لأن أهل بلاده يعرفون ما لهم وما عليهم .

وأنعم الخليفة على السندباد ، وأذن له بالانصراف إلى منزله . وهناك أخرج الزكاة والصدقات ، ووزع الهدايا ، ولزم داره راضياً مسروراً . فقد سمع الخليفة به وبحكايات رحلاته ، فأمر أن تكتب وتحفظ فى خزانته ، إذ عرف بأن من بين رعاياه رحالة فذا ، حمل إليه هدية ملك من ملوك الجزائر النائية . هذا الاعتراف الرسمى برحلاته قد توج به مغامراته ، وضمن بذلك

لاسمه البقاء ، ولرحلاته أن تطلع عليها الأجيال القادمة .

***

كانت جزيرة سرنديب فى ذهن مؤلف القصة منذ البدء بحكاية الرحلة السادسة . ولا يبعد أن يكون قد فكر بأغباب سرنديب موضعاً لتحطم مركب السندباد . قال أبو الريحان البيرونى : "الغُبّ وهو كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ، ويكون للسفن منه مخاوف ، وخاصة من جهة المد والجزر . والخَوْر هو شبه الغب ولكنه ليس من جهة دخول البحر . وإنما هو من مجىء المياه الجارية ، واتصاله بالبحر ساكناً . ومخاوف السفن من جهة العذوبة التى لا تستقل بالأثقال استقلال الملوحة بها" . وقال أبو زيد حسن السيرافى : "ويحاذى هذه الجزيرة [سرنديب] أغباب واسعة . ومعنى الغب الوادى العظيم إذا أفرط فى طوله وعرضه ، وكان مصبه إلى البحر . يسير المجتازون فى هذا الغب المعروف بغب سرنديب بين شهرين وأكثر فى غياض ورياض وهواء معتدل . وفى فوهة هذا الغب البحر المعروف بهرْكَنْد" . وقال الشريف الإدريسى : "ويحاذى هذه الجزيرة من أرض الهند أغباب وهى أجوان تقع فيها أنهار ، وتسمى أغباب سرنديب ، وتدخلها المراكب السيارة وتمر فيها الشهر والشهرين" .

وجاء فى رحلة ماركو بولو إذ يتكلم عن بلاد المَعْبَر [شاطىء كُورُمَانْدِل] : "واعلم أن البحر هنا يكون غبا بين جزيرة سيلان والأرض . ولا يزيد عمق الماء فى هذا الغب عن عشرة أو اثنى عشر باعاً ، وفى بعض المواضع لا يتجاوز باعين" .

وسِرَنْدِيب هى الجزيرة التى تعرف اليوم باسم سيلان . ومعنى الاسم « جزيرة الأسد » [أسد = Sinhal ، جزيرة = dvipa باللغة السنسكريتية . وينطق بكلمة أسد فى اللغة البالية Sihalan . فيكون اسم الجزيرة بتلك اللغة Sihalan-dvipa رسيلانديب ، أى جزيرة سيلان أو سرنديب] . وتعد من أجمل جزائر البحر الشرقى الكبير . وعن النبى أن "خير بقعة ضربت إليها آباط الإبل مكة ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى ، وجزيرة سرنديب" . وقال التاجر سليمان : "وآخر هذه الجزائر سرنديب فى بحر هركند ، وهى رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الدِّيبَجَات [أرخبيل المجلاديب واللكاديب حالا] . وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ بحرها كله حولها . وفى أرضها جبل يدعى الرُّهُون [روهانا فى اللغة السنسكريتية] ، وعليه هبط آدم عليه السلام وقدمه فى صفا رأس هذا الجبل منغمسة فى الحجر قدم واحدة . ويقال إنه عليه السلام خطا خطوة أخرى فى البحر . ويقال إن هذه القدم التى على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعاً . وحول هذا الجبل معدن الجوهر والياقوت الأحمر والأسمانجونى . وفى هذه الجزيرة ملكان . وهى جزيرة عظيمة عريضة فيها العود والذهب والجوهر ، وفى بحرها اللؤلؤ والشنك [Chank ، وهى المحارة المقدسة التى تستعمل فى المعابد الهندوسية والبوذية صوراً ينفخ فيه] وهو هذا البوق الذى ينفخ فيه مما يدخرونه" .

وقال ابن خرداذبة : "وسرنديب ثمانون فرسخاً فى ثمانين فرسخاً . وبها الجبل الذى هبط عليه آدم . . . وهو جبل ذاهب فى السماء يراه من فى مراكب البحر من مسيرة أيام . فذكرت البراهمة ، وهم عباد الهند ، أن على

هذا الجبل أثر قدم آدم مغموس فى الحجر . وهو نحو سبعين ذراعا قدم واحدة ، [يعتقد البراهمة حتى اليوم بأن الأثر القائم على رأس ما يعرف فى سيلان باسم Adam's Peak ، هو أثر قدم براهما ، رأس الثالوث البرهمانى المقدس . كما ينسبه البوذيون إلى جُوتاما سَاكيَامُونى الملقب بالبوذا . ويحج إليه المسلمون باعتباره قدم أبى البشر] . وأن آدم خطا الخطوة الأخرى فى البحر ، وهو منه على مسيرة يومين أو ثلاثة . وعلى هذا الجبل وحوله الياقوت وألوانه كلها ، والأشباه كلها . وفى واديه الماس . وعلى الجبل العود والفلفل والعطر والأفواه ودابة المسك ودابة الزباد وبسرنديب النارجيل ، وأرضها السنباذج الذى يعالج به الجوهر . وفى أنهارها البلور ، وحولها فى البحر غوص اللؤلؤ " .

وفى نص صينى تركه أحد الحجاج البوذيين : " وبالجبل اليواقيت الكثيرة من جميع الأنواع ، وأحجار كريمة أخرى . وهذه الجواهر تغسل من الأرض بالأمطار ، ويحملها السيل فيبحث عنها الناس فى الرمال التى يجرفها السيل من أعالى الجبال إلى الأودية . ويقول الناس إن هذه الجواهر هى دموع البوذا وقد تجمدت " * .

واضح أن مؤلف القصة كان يفكر بكل ما قرأ أو سمع عن سرنديب حينما ألف حكاية السندباد السادسة . وفى ظنى أنه فرض وصول المركب إلى أغباب سرنديب ، وجلوسها على أحد التروش وتحطمها . وليس فى حكاية المتاع وحطام السفن وجماجم الناس ما يستغرب له . ففى بحار العالم حول

(*) البوذية هى الديانة الغالبة بين سكان سيلان ، ولها فى الجزيرة أماكن مقدسة أهمها « معبد الضرس » فى كاندى . وشجرة البودى فى آنورادَاپُورا .

بعض الجزائر جونات يقذف الريح والتيار المراكب إليها فتتحطم . ولقد قيل عن سكان جزيرتى « سان بيير وميكلون » أمام شواطىء أمريكا الشمالية إنهم يوقدون بالليل مصابيح فى موضع أقاصير ، تتجه إليها السفن العابرة فتصطدم بالصخور وتتكسر ، ويأتى القوم ليغنموا ما بها . وسمعت فى إحدى الجزر الواقعة إلى الشمال الغربى من الشاطىء الفرنسى بأمر جونة تحمل التيارات إليها المتاع والحطام عقب الزعازع . وأن بعض متاع أهل الجزيرة من تلك الحطام وما يقذف البحر .

والمؤلف ، مع تفكيره بسرنديب ، يترك القارىء أو السامع جاهلا بأمر الجزيرة حتى يحمل تيار النهر بطل القصة فوق الكلك عبر الكهف ، ويأتى قوم من « الهنود » يصحبون السندباد إلى قصر يعرف أنه قصر ملك سرنديب عندئذ ينقل المؤلف معارفه الجغرافية عن الجزيرة ، ومنها أنها تحت خط الاستواء . وقد كان هذا اعتقاد الجغرافيين الخاطىء منذ بطليموس القلوذى . وأن بها جبل آدم ، وفى واديه الماس والياقوت وألوانه كلها إلى آخر ما جاء فى كتب الجغرافيا العربية مما أوردناه .

حتى هدية ملك سرنديب لخليفة بغداد ، نرى فيها أثر اطلاع المؤلف على هذه الكتب . فالياقوت والدر والعود الهندى مما ذكرته عن سرنديب . وجلد الحية التى تبلع الفيل ، لا يمرض من يجلس عليه ، أشارت إليه إشارات عديدة . منها ما قاله الدمشقى فى كتاب « **نخبة الدهر** » ، عند كلامه عن جزائر بحر الزنج : "وجزيرة جانا وبها حيات قتالة ، وجلودها بالخاصية تبرى من علة الدق والسل لمن يجلس عليها إذا اتخذها مفرشا . وهذه الحيات تصاد

بدخان حصى اللُبان . وهو أن الصيادين لها يجمعون ما أمكنهم من حصى اللبان مما يجلبه التجار إليهم . ثم إذا كان وقت مهب الريح الأزيب أو الشمال العاصف ، دخنوا بالقرب من بقاع تلك الحيات ، فيحمل الهواء ذلك الدخان ويمر به إلى الحيات ، فيسكرن منه ، والصيادون يتتبعونهن بالقتل والجمع ... ذكر ذلك أحمد الوراق فى كتاب المباهج ".

وجاء فى « **مختصر العجائب** » : " وفيه [أى بحر هركند] حية يقال لها الملك لا تطعم إلا مرة فى العام . وربما احتال فيها ملوك الزنج فأخذوها وطبخوها حتى يخرج ودكها ، ويدهن به فيزيدهم فى قوتهم ونشاطهم . ولهذه الحية وبر إذا قعد على جلدها صاحب السل أمن من السل وبرئ فلا يصيبه أبدا . **وربما وقعت عند ملوك الهند فاستعملوا جلدها وكان فى خزائنهم** ".

رأى السندباد ملك سرنديب ، ومكث ضيفاً عنده مدة من الزمن . وحينما عاد إلى بغداد وسأله هرون الرشيد عن ذلك الملك ، وصفه بكثير من الصفات الطيبة . هل يمكن إلا أن يكون مؤلف القصة قرأ ما قاله الإدريسى عن ملك سرنديب أو قرأ بعض مصادره ؟ قال الشريف الإدريسى فى « **نزهة المشتاق** » : " وملك هذه الجزيرة يسكن من هذه المدن أغنا ، وهى مدينة القصر ، وبها دار ملكه . وهو ملك عادل كثير السياسة يقظان الحراسة ، ناظر فى أمور رعيته ، حافظ لهم ، وذابّ عنهم . وله ستة عشر وزيرا ، أربعة منهم من أهل ملته ، وأربعة نصارى ، وأربعة مسلمون ، وأربعة يهود . وقد رتب لهم موضعاً يجتمع فيه إليهم ويكتب حججهم وأخبارهم

ويجتمع إلى علماء كل منهم ، أعنى الهندية والرومية والإسلامية واليهودية ، جمل من الناس وعدة طوائف ، فيكتبون عنهم سيرة أنبيائهم وقصص ملوكهم فى سالف الأزمان ، ويعلمونهم شرائعهم ويفهمونه ما لا يعلمونه . وللملك فى يده صنم من ذهب لا يُدْرَى لما عليه من الدر والياقوت وأنواع الأحجار أثمان ، وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من الدر النفيس والياقوت الجليل ، وأنواع الأحجار . لأن أكثر ذلك موجود فى جبال جزيرته وفى أوديتها وبحرها . وإليها تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له . . . ويُجْلَب من سرنديب الحرير والياقوت بجميع ألوانه كلها ، والبلور والماس والسنباذج وأنواع من العطر كثيرة . وبين هذه الجزيرة والبر المتصل بالهند مجاز صغير" ، ثم يصف الإدريسى أغباب سرنديب بمثل ما اخترناه من كتب أخرى .

بقى خبر حكاه السندباد للخليفة وقد جاء فى الكتب العربية بوضع نكاد نلمس فيه طريقة تحوير مؤلف القصة لمثل هذه الأخبار خدمة لأغراضه القصصية ، ذلك هو خبر موكب ملك سرنديب ، وما يقوله المنادى الذى يتقدم الموكب ، وما يردّ به عليه المنادى القائم على رأس الملك . فقد حكى التاجر سليمان فى مذكراته ، ونقل عنه الإدريسى بشىء من التفصيل هذا القول : "وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم . وإذا مات الملك صنعت له عجلة على قدره ، عريضة ، ارتفاعها عن الأرض مقدار شبرين أو نحوها . ويوضع على العجلة قبة مكللة ، ويوضع الملك على تلك العجلة ، ويطاف به على المدينة كلها يجره عبيده ورأسه مكشوف لمن يراه ، وشعره ينجر على تراب الأرض

وينادى عليه منادٍ بلسان الهندية ، بكلام تفسيره بالعربية : أيها الناس ، هذا ملككم فلان بن فلان ، عاش فى ملكه فارحاً قادراً كذا وكذا سنة وها هو قد مات وفتح يده بما معه بما لا يملك من ملكه شيئاً ، ولا يدفع عن جسمه أذى . ففكروا فيما أنتم إليه صائرون ، وإليه راجعون . كل هذا باللغة الهندية . فإذا فرغ من الطواف به ، أخرج إلى مكان النار التى من عادتهم أن يحرقوا بها موتى ملوكهم فيعلقونه فى النار حتى يحترق " .

وإذا كان الإدريسى قد أطلق الخبر على أهل الهند ، فقد خص به سليمان فى مذكراته ملك سرنديب قائلا : " وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صُيِّر على عجلة قريباً من الأرض ... " إلى آخر الخبر ، وأضاف سليمان إليه أن مرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادى : أيها الناس هذا ملككم بالأمس . . إلى آخر ما نقله الإدريسى . ويقول سليمان فى طريقة حرق جثمان الملك : " ثم يهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ، ثم يرمى برماده فى الريح . والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار . وسرنديب آخر الجزائر وهى من بلاد الهند . وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه ، وإن شئن لم يفعلن " .

أليس يبدو أن مؤلف القصة ، حينما قرأ أو سمع بهذا الخبر ، أراد أن ينتفع به فى قصته ؟ ولكنه وجد نفسه مضطرا أن يقصر حياة ملك سرنديب وفى ذلك ضياع لكل السياق بين الرحلة السادسة والرحلة السابعة . ففضل أن يغير موضع المناداة فيجعلها فى حياة الملك وفى موكبه ، كرد على كلام منادٍ يمتدح صفات " صاحب التاج ، الذى لم يملك مثله سليمان ولا المهراج " . فإذا

رد المنادى الثانى قائلا : "يموت ثم يموت ثم يموت" ، ثاب المنادى الأول إلى حقيقة الدنيا فقال : "سبحان الحى الذى لا يموت" .

وورد السندباد وأصحابه ، بعد تحطم سفينتهم وطلوعهم إلى الجزيرة ، عيناً تفيض مادة كالقير أو كالقار . وذكروا أن هذا هو العنبر ، وما أرانى بحاجة أن أعيد قليلا أو كثيراً مما سبق لى بحثه فى الكتاب الأول . ولكنى هنا أبحث عن مصادر قصة ، وأحاول أن أجد فى كتب الجغرافيا العربية دليلى إلى أن مؤلف تلك القصة لم يكن يخبط خبط عشواء ، وينتقل من مغالاة إلى مبالغة لا أساس لها إلا تخريفاته وأخيلته . فحينما كان يتكلم المسعودى فى «مروج الذهب» عن جزائر الديبجات قال : "وبين البحر الثالث وهو هِرْكَنْد ، والبحر الثانى وهو لاَرْوِى على ما ذكر ، جزائر كثيرة هى فرز بين هذين البحرين . ويقال إنها نحو من ألفى جزيرة ، وفى قول المحق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامرة بالناس . وملكة هذه الجزائر كلها امرأة ... والعنبر يوجد فى هذه الجزائر يقذفه البحر ، ويوجد فى بحرها كأكبر ما يكون من قطع الصخر . وأخبرنى غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرها من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر . ويكون كتكون أنواع القطر [الفُطر ؟] من الأبيض والأسود والكماة ونحوها . فإذا خبث البحر واشتد ، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر ... وهذه الجزائر تعرف جميعاً بالدايبهات [الديبجات] وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب" .

أما حكاية الرحلة النهرية فى الكهف فلم أر لها أثراً فى الكتب التى بين

يدى ، ويظن إدوارد لِينْ أن مؤلف القصة طالعها أو عرفها من قصة سيف بن ذى يزن . ولكنى أرفض الاعتقاد بأن هذه القصة أقدم من قصة السندباد . ويرجح ريتشارد هول R. Hole أن يكون مصدر الحكاية فى وصف نهر زندرود الذى يجرى تحت الأرض بين إصْفهان وكِرْمان . ولا يبعد أن يكون قراءة أو سماع شىء من هذا القبيل قد أوحت إلى مؤلف القصة بفكرة الرحلة النهرية فى باطن الجبل .

وربما كان أهم من ذلك أن نشير إلى القصة الألمانية التى ألفها الشاعر هنرى فون فلدك H. von Weldeck حوالى سنة ١١٦٠ م ، وجعل بطلها دوق إرنست الباڤارى . وفى هذه القصة رحلة هوائية تشبه رحلة السندباد الثانية ، وحكاية الغول كما فى رحلة السندباد الثالثة ، والرحلة النهرية كما فى الحكاية التى نحن بصددها . ولم يَثْبُت أن هنرى فون فِلْدِك نقل عن ألف ليلة — وإذا ثبت هذا فسوف يكون حجراً هاما فى الطريق إلى تحديد تاريخ تأليف الكتاب أو بعض قصصه — ولهذا يمكننا أن نفرض بأن قصة الرحلة النهرية واحدة من القصص التى كانت شائعة فى القرون الوسطى كغيرها من الحكايات والأساطير التى ذكرناها .

وحكاية خطاب ملك سرنديب إلى هرون الرشيد تشبه شبهاً غريباً حادثاً حكاه المقريزى ، وهو أن رسولا من ملك سرنديب الوثنى وصل إلى القاهرة سنة ١٢٨٣ م يحمل إلى السلطان خطاباً بالخط السرنديبى ، على لحف شجرة التوز ، فى صندوق ذهب جاء فيه : "والجواهر كثيرة فى بلادى ، وعندى مراكب فى البحر ، وفى أسواق الفيلة ، ونسيج الكتان والحرير ، والقرفة

والدارصينى وغيرها من الأفاويه ، والرماح التى تستعمل فى الحرب . فإذا جهز السلطان عشرين سفينة إلى بلادى ، استطعت أن أوسقها له سنويا . وفى بلادى سبعة وعشرون قصراً بها الدر والياقوت الأحمر . ومغائص للؤلؤ تحت حكمى".

لست أدرى إلى أى مدى نستطيع أن نعلق أهمية على هذا الحادث . لأن حكاية تبادل الرسائل والهدايا بين ملوك الهند وسيلان وشرق آسيا ، و بين الخلفاء المسلمين وردت فى كتب الأخبار العربية ، ورددها مؤرخو الفرس إبان اشتداد الحركة الشعوبية . وسنعود إلى موضوع سفارة السندباد فى التعقيب على الرحلة السابعة .

وقد اعتمدت فى سرد حكاية الرحلة السادسة فى الأكثر على نص لانجليس Langlès . لأن نص القاهرة لم يرد فيه أى ذكر لاسم الجزيرة التى حمل السندباد هدية ملكها إلى الخليفة . وهو إلى هذا نص مقتضب يقف عند حد رفع الهدية إلى هرون الرشيد ، وعودة السندباد إلى أهله ، ثم تحرقه للسفر مرة أخيرة ، وقيامه بالرحلة السابعة .

أما نص لانجليس ، وهو ما أسميه « النص الجغرافى » ، فإنه يذكر اسم الجزيرة ولا يترك مجالا للشك فى أن آخر رحلات السندباد — أى الرحلة السابعة — كانت بتكليف من الخليفة هرون الرشيد . وهذا التكليف «الرسمى» هو الحادث الثانى الذى أشرنا إليه فى صدر حكاية الرحلة النهرية لحافز للسندباد على القيام بآخر رحلاته .

الرحلة السابعة

مقبرة الأفيال

بينما السندباد يتمتع بحياة الرخاء والدعة ، طرق عليه الباب رسول الخليفة يستدعيه إلى حضرته . فإذا مثل الرحالة بين يدى هرون الرشيد طلب إليه الخليفة أن يمضى إلى ملك سرنديب ليحمل إليه الرد على كتابه ورسالته وهديته . ووجد السندباد فى نفسه القوة على معارضة الخليفة فى طلبه ، لأنه "ارتعد عند ذكر السفر . وحلف بالله العظيم أنه انصرف عنه ، وأنه يغشى عليه من الجزع كلما فكر بما وقع له فى أسفاره" . فيرد عليه الخليفة العباسى بذلك الأسلوب المصرى « البلدى » الذى يؤيد ما ذهب إليه بعض البحاثة من أن كتاب ألف ليلة ، كما نعرفه اليوم ، من تأليف قصاص مصرى فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلادى . يقول أمير المؤمنين هرون الرشيد : "والله العظيم يا سندباد ما سمعنا من قديم الزمان أحداً أصابه الذى أصابك ، وقد وجب عليك أن لا تذكر السفر أبداً . لكن لأجل خاطرى تمضى هذه المرة وتوصل هديتنا وكتابنا إلى ملك أرض سرنديب . وتعود عاجلا إنشاء الله تعالى ، حتى لا يبقى للملك علينا فضل ومنة" .

سافر السندباد إلى سرنديب حاملا هدية الخليفة العباسى ، ومعها كتاب ورسالة . ودخل على ملك سرنديب ، فتلقاه بترحيب « بلدى » مصرى أيضاً : "أهلا بك يا سندباد ، والله العظيم لقد اشتقنا إليك ، ويوم مبارك الذى نظرناك فيه تانى مرة" وأجلسه إلى جانبه . ثم أمر السندباد ، باعتباره سفيراً مفوضاً فوق العادة ، ورئيس بعثة دبلوماسية ممتازة ، بالهدايا فخمات إلى

الملك ، ومن بينها فرس بكامل عدة ذهبية ، وخمسة أصناف من الكسوة ، ومائة صنف من البياض المصرى ، وخز السويس والكوفة والإسكندرية ، وفرش قرمز وفرش طبرى ، ومائة نصفية من حرير وكتان ، وجام من زجاج فرعونى فى وسطه صورة رجل قد برك على ركبتيه وأغرق السهم فى القوس وصوبه إلى أسد ، ومائدة نقش عليها خاتم سليمان . ثم رفع السندباد رسالة الخليفة ومعها كتاب عنوانه « **ديوان الألباب ، وبستان العقول** » . ونص الرسالة : "سلام من الملك الرشيد ، إلى السلطان المؤيد السعيد . من عبد الله بن الرشيد بالله ، الذى وهب الله له ولآبائه مقام أهل الكرم عليهم السلام ، وتحت يده مراتب البيع والشراء (؟؟) قد وصل كتابكم إلينا وسررنا به . ولقد أرسلنا كتاب « **ديوان الألباب ، وبستان العقول** » لتطالع ترجمته ، وتتحقق عندك فضيلته . وقد جعلنا لك عنوان الكتاب وقبولك له لطف منك والسلام"

وبعد انقضاء مدة الضيافة ، استأذن الرحالة ملك سرنديب فى العودة إلى مدينة السلام . وسافر محملا بالعطايا ، على مركب به عديد من التجار ، وكثير من الأحمال والمتاع . وآتتها الرياح فسارت ميممة شطر بحر فارس ، وإذا بقوم كالأباليس ، عليهم الزرد والعدد ، ومعهم القسى والنبال يعترضون بمراكبهم سفينة السندباد ، وينزلون إليها ينكلون بمن فيها ويقتلون من قاومهم ثم يسوقون الباقين إلى البر ويبيعونهم فى سوق النخاسة .

وكان السندباد من نصيب رجل غنى أطعمه وكساه ، ثم سأله عن صناعته فلما علم بأنه تاجر ، سأله إذا كان يرمى بالنبال . ورد السندباد بالإيجاب ، فأحضر له قوساً وكنانة ملأى بالسهام ، وأردفه معه على فيل . وخرجا عن

المدينة إلى الأدغال . ووافى الليل وهم يخترقون الآجام سيراً حثيثاً حتى أتيا شجرة باسقة ، فأمره سيده بتسلقها ، و بأن يلبث فوقها حتى الصباح ، وسوف تمر به الأفيال رائحة غادية ، فيطلق عليها سهامه ليصيب منها ما يصيب . وهكذا حتى يرخى الليل سدوله .

ثم ترك السندباد وحده فوق الشجرة وعاد إلى داره . وجاءت الفيلة فى الصباح فجعل يضربها بالنبال حتى أصمى منها واحداً ، وذهب فى المساء ليخبر سيده . فجاء معه ودفن الفيل المقتول . ودام الحال على هذا زمناً غير قصير .

وذات يوم والسندباد يترقب فريسته اليومية ، أقبلت الأفيال من كل صوب وحدب ، لا يملك لها السندباد حصراً ولا عدا ، وهى تزمجر وتدمدم ، ولوقع أقدامها دبيب ووجيب ، وأحاطت بالشجرة ، وجعلت تصوب خراطيمها نحوه . ثم جاء فيل عظيم الخلقة ولف خرطومه على الشجرة ، وتحامل عليها حتى اقتلعها ورمى بها . فسقط السندباد من فوقها كالثمرة الناضجة ، وحوله الأفيال هائجة مائجة . ثم دنا الفيل الكبير فلف عليه خرطومه وحمله ، وألقى به على ظهره . وسار والأفيال تتبعه فى سير حثيث تهتز له الأرض كأن قد زلزلت زلزالها . وغاب السندباد عن وعيه فلم ينتبه إلا حين وصلت به الفيلة إلى فرجة واسعة وسط الأدغال ، وألقى به الفيل الكبير على الأرض ، ومضى والأفيال فى طريقها بين الأشجار . وقام السندباد كأنه فى حلم مزعج ، فرأى أمامه أكمة تبينها فإذا هى عظام كثير من الفيلة . فتذكر السندباد عندئذ ما كان قد سمعه عن مقبرة الأفيال ، وكيف يتخذ الفيل سمته إليها حين يشعر بدنو أجله ، وهناك يتوارى عن الأعين ، ويموت هادئاً حيث مات أقران له

من قبل . وفهم السندباد أن الفيلة وقد ضاقت ذرعاً بصياديها رأت فى نقل السندباد إلى مقبرتها وسيلة لإشباع جشع الإنسان حين يجد فى المقبرة من السن والعظام ما يكفيه ، ويكفى الفيلة شر صياديها .

وقام السندباد يتبين الطريق إلى دار مولاه ، فسار يوماً وليلة حتى بلغه زائغ العينين جائعاً ، وحكى حكايته . وعادا على ظهر فيل إلى مقبرة الأفيال ، وحملا الكثير من أنياب الفيلة ، وأعتق السيد عبده السندباد ، فرجاه أن يتم عليه جميله بإعادته إلى بلاده . فوعده بهذا عندما يوافى موسم العاج ، فيوجهه بصحبة تجاره إلى دياره . وجاء التجار يوسقون مراكبهم بأنياب الفيلة ، ونزل السندباد معهم مزوداً من مولاه بهدية عظيمة من العاج . وسافروا من جزيرة إلى جزيرة ، يبيعون ويشترون حتى أوصلتهم السفينة إلى بر السلامة . فما عتم السندباد أن غادرها وقد اعتزم أن يتم رحلته براً . فاكترى الجمال وسافر إلى بغداد فى قافلة عظيمة . ودخل على الخليفة فقص عليه حكايته ، وفرح هرون الرشيد بنجاته وعودته . وأمر فكتبت قصته بماء الذهب . ثم رجع الرحالة العظيم إلى منزله ، واجتمع بأهله وإخوانه ، وتاب عن السفر .

***

إلى هنا يكون السندباد البحرى قد أتم سرد حكايته على ضيوفه ، فيلتفت إلى السندباد [أو الهندباد] الحمال ويقول له : أعرفت الآن يا أخى كيف وصلت إلى ما أنا فيه من رخاء ؟ وما قاسيت من شدائد وأهوال حتى أسبغ الله علىّ من نعمائه ومنه ؟ . فيتقدم السندباد البرى إلى السندباد البحرى ويقبل يديه ، ويعتذر له عما بدر منه ، ويدعو له بدوام العز والهناء .

***

أهملت نص القاهرة تماما فى سرد حكاية الرحلة الأخيرة ، لأن هـذا النص يتضمن حكاية واضح فيها تلفيق بعض وقائع خرافية ترد أشباهها كثيراً فى كتاب ألف ليلة ، كما أن بها واقعة منقولة عن حكاية الرحلة السادسة ، وهى واقعة الرحلة النهرية فى باطن الجبل . وقصة السندباد قصة مؤسسة على بعض المعارف الجغرافيـة عن البحر الشرقى العظيم ، كما ترد فى كتب المسالك والممالك ، وكتب العجائب ، ومذكرات البحريين . فإذا كان السندباد قد حـدثنا بالطيور التى تزق أولادها بالأفيال ، والحيات تبتلع الجواميس ، ودواب البحر تبدو وسط المحيط كالجزائر ، فقد عرفنا بكل هذا فى الـكتب العربية التى رجعنا إليها طوال مطافنا . وبعضه نقله العرب عن بطليموس ونيارخوس و بلينيوس وكلّيستينس المزعوم . بينما حكاية الرحلة السابعة فى نص القاهرة شذت عن هـذا واحتوت على عنصر الخوارق . فالسندباد ينزل بجزيرة يقطنها الجن ، وجن طائر فوق هـذا ، يحملونه على كواهلهم فى أطباق الجو العليا حيث يسمع تسبيح الأملاك فى الأفلاك ، ثم يقع إلى جزيرة يرى فيها حية تخرج من جبل وفى فمها رجل بلعته إلى فوق خصره ، فيهوش عليها بعود ذهبى كان أهداه إليه أحد العباد ، فتلفظ ضحيتها وتهرب . و يتقدم الرجل نصف المبلوع إلى السندباد يشكره على صنيعه ، ويسير به إلى موضع الجن الطائر ، وهم رهط من الشياطين الـكفار نفاهم سليمان إلى أقصى المعمور .

مثل هذه الحكاية غير جديرة برحلات السندباد ، وفيها خروج واضح على الوحدة الفنية للقصة . ولا يفوتنى مع هذا أن أشير إلى وصف غرق

السفينة فى أول هذه الحكاية ، وربما كان بقية قصة بحرية ضاعت . وذلك حين ترتج سفينة السندباد ارتجاجا عنيفا ، ويسمع الركاب زئيراً كالرعد القاصف . فإذا بحوت كالجبل العالى ظهر فى الأفق متخذاً سمته إلى السفينة ، وإذا بحوت ثان أعظم خلقة وأشد نكيراً طلع عليهم من ناحية أخرى . وجاء حوت ثالث سد عليهم الأفق من ناحية ثالثة . واجتمع ثلاثة الحيتان وجعلوا يدورون حول المركب ويطاردونها ، حتى أفلت قيادها من يد الربان رعباً ، وأصابت ترشا فتحطمت ، وغرق جميع ركابها ونوتيتها ، إلا السندباد الذى أصبح خبيراً بهذا النوع من المصائب ، بارعاً فى التعلق بألواح السفن الغارقة .

وحكاية الرحلة السابعة ، كما سردناها حسب نص لانجليس ، بسيطة فى تصميمها ، قليلة الحوادث . ولكنها كاملة من الوجهة الفنية ، متناسقة والحكايات الست الأخرى فى وحيها وإيحائها ، وفى أسلوب سردها . ومن الواضح أن سفينة السندباد فى عودتها وقعت فريسة بين أيدى القراصنة الذين كانوا يخرجون من سواحل المَلَيبار فى سفن عرفت عند العرب باسم البوارج ، ويقطعون مسالك التجارة البحرية . وقد ظلوا يعيثون فساداً فى بحر الهند عند مدخل الخليج الفارسى حتى القرن الثامن عشر ، حين وضع الأسطول البريطانى حداً لشرورهم .

ولكنى لم أعثر فى مراجعى العربية على أصل أسطورة مقبرة الفيلة ، مع ما يرد فى هذه المراجع من أخبار عن ذكاء الأفيال . وحكاية السندباد تشير إلى هذا الذكاء ؛ إذ تدرك الفيلة أن عداوة بنى الإنسان لها مسببة عن رغبته فى اقتناء أنيابها . أى أنها تدرك القيمة التى يعلقها الناس على تلك

الأنياب ، فتحاول أن تدل السندباد على مقبرتها علها تجد فى هذه الوسيلة ما يجعلها فى مأمن من شر ابن آدم حين يعرف طريقه إلى « معدن » العاج .

ولقد بنى رديارد كبلنج واقعة من وقائع « **كتاب الأدغال** » The Jungle Book على أسطورة مقبرة الفيلة . فذكر كيف حملت الأفيال الغلام « موجلى » وذهبت به إلى تلك المقبرة التى يعد مكانها سراً من الأسرار .

فلنفحص الآن سفارة السندباد إلى ملك سرنديب بأمر الخليفة هرون الرشيد ، رداً على رسالة الملك إليــه وهديته . فهذا الحادث الهام تحمس له المستشرق كازانوفا تحمساً بالغا ، وأراد أن يكون نواة للأساطير البحرية التى انتشرت فى أول عهد العباسيين . بل ذهب إلى حد الافتراض بأن مؤلف السندباد بدأ قصته بحكاية هذه السفارة ثم جعل ينشئ حولها ، أو يفرّع عنها الحكايات الأخرى . وهذا فرض جرئ لا سند له إلا من فكرة « فوكلورية » تغلبت على ذهن كازانوفا يسميها « تفرع الأساطير » .

والحادث نفسه ، كما قلنا فى التعليق على الرحلة السابقة ، يكتسب صبغة شبه تاريخية لوروده فى بعض كتب الأخبار العربية . فالجاحظ يروى حدوثه بين معاوية الأموى وملك الصين . والكامل المبرد ينسبه إلى عمر بن عبدالعزيز وملك الهند . وغيرهما يضعونه فى عهد هرون الرشيد أو المأمون . ويظهر أن الصورة الأصلية لهذا الحادث ، أو الأسطورة ، هى التى أوردها المسعودى من خبر سفارة ملوك الصين والهند والتبت إلى كسرى أنوشروان . وقد أشار أبو القاسم الفردوسى إليها فى الشاهنامة .

ويعنينا من أخبار هــذه السفارات أن نبحث عن أقربها إلى ما ورد

بقصة السندباد . وهى سفارة بين المأمون وملك الهند ، ورد تفصيلها فى نص نشره المغفور له أحمد زكى باشا فى مجلة « ريفوديجبيت » سنة ١٨٩٤ عن مخطوط بدار الكتب المصرية . ويجدر بنا أن نعيد نشره هنا لأنه يلقى ضوءاً باهراً على المصدر الذى نقل عنه مؤلف السندباد حكاية سفارته .

" وكتب رُهْمى ملك الهند إلى المأمون مع هدية أهداها : بسم الله الرحمن الرحيم . من رهمى ملك الهند وعظيم أركان الشرف صاحب بيت الذهب ذى الأركان الياقوت وفرش الدر ، والذى قصره من العود الرطب الذى إذا ختم عليه قَبِلَ الصورةَ قبول الشمع ، والذى توجد رائحة قصره من عشرة فراسخ ، والذى فى خزائنه ألف تاج من الجوهر لألف أب كانوا له ذهبوا ، والذى يسجد له أمام البد الأكبر الذى وزنه ألف ألف مثقال من الذهب الأحمر ، وعليه ألف حجر من الياقوت الأحمر والدر الأبيض ، الذى يركب يوم السعادة وعلى رأسه التاج فى ألف مركب له راية مكللة بالدر وتحتها ألف فارس معلم بالخز والذهب ، والذى يأكل فى صحائف الجوهر على موائد الدر المنظوم ، والذى يستحى من الله أن يراه خائناً فى رعيته بعد استكفاء الأمانة عليهم والرياسة فيهم . إلى عبد الله المأمون ذى الشرف والرياسة على أهل مملكته . أما بعد ، فإنه لم يذهب علينا أن ما تقدم من ذكرنا أيها الأخ فيما انتسبنا إليه من الشرف وعلو الحال غير حائل لزواله ، وأنه كان الأولى بنا أن نبدأ بذكر الله تعالى جل اسمه وتعالى ذكره . غير أننا أجمعنا أن لا نبتدئ بذكره إلا فى موضع المناجاة له ، عائذين به . وأخبارك ترد علينا بفضيلتك فى العلم لم نجدها لغيرك من أشكالك . ونحن شركاؤك فى الرغبة

والمحبة ، وقد افتتحنا باب المكاتبة وتحبب الفائدة بأن أنفذنا إليك كتابا ترجمناه « **صفوة الأذهان** » ، والتصفح له يشهـــد على صواب التسمية . وبعثنا إليك لطفاً بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له ، وإن كان دون قدرك . ونحن نسألك أيها الأخ أن توسع أخاك عذراً فى التقصير .

" وكانت الهدية جام ياقوت أحمر فتحه شبر فى غلظ إصبع مملوءاً دراً وزن كل درة مثقال ، والعدد مائتا درة . وفراش من جلد حية فى وادى الزيراح [الزنج أو الزابج ؟] تبلع الفيل ، وشى جلدها دارات سود على قدر الدرهم . وفى وسطها نقط بيض مقرونة بالدلا [؟] ينجو من جلس عليها من مرض السل ، ومن كان بالسل وجلس عليهـا سبعة أيام دب . ومصليات ثلاث وسايدها على جلد طائر يقال له السمندل ، موشاة إذا طرحت فى النار لم تحترق ، فراوزها در وياقوت أحمر . ووزن مائتى ألف مثقال عوداً هنديا رطباً إذا ختم عليه قَبِلَ الصورة . وثلاثة وثلاثون ألف مَنٍّ كافوراً محبباً كل حبة منه مثل الفستقة ، وأكبر من اللؤلؤة . وجارية سندية طولها خمسة أذرع ، تسحب شعرها ، حسنة البشرة ، لها أربعة ضفائر تعقد منها ضفيرتين على رأسها تاجا ، وضفيرتان مسبلتان يبلغان الأرض من خلفها . وطول كل شفر من أشفار عينيها إصبع ؛ يبلغ ، إذا مدته ، إلى نصف خدها . وكأن بين شفتيها برقا من بياض أسنانها . لها نهدان ، وثمان عكن .

" وكان الـكتاب فى لحا شجرة يقال لهـا « الـكادى » [يرى دوزى أن هذه شجرة *Pandanus odoratissimus* ويسميها البيرونى فى كتاب الهند « تارى »] أحسن من الكاغد . لونه إلى الصفرة ، والخط لازوردى مفتتح بالذهب .

" فجاوبه المأمون : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله الإمام المأمون بالله أمير المؤمنين ، الذى وهب الله له ولاية الشرف بابن عمه نبيه المرسل صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والتصديق بالكتاب المنزل .

« إلى دُهمى ملك الهند ، وعظيم من تحت يده من أراكنة الشرف . سلام عليك ، إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . وصل كتابك فسررت لك بالنعمة التى ذكرت ، ووقع إتحافك إيانا بالموقع الذى أملت من قبول ذلك . وكنت ما ابتدأت به من البر محمودا موجها ذلك لك إلى الشكر عليه وحسن الذكر له . ولولا السنة جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة مواليا ، وبها آخذا ، ماتركنا ماتحسن من ميزتك بالتقديم ، والاعتذار لما ذكرنا أحد التقديمين ، وأنت له منا أهل . وقد أهديناك العلم بمودتنا لك ، وهى أوفر حظ المؤملين . وأنفذنا إليك كتابا ترجمته **«ديوان الألباب، وبستان نور العقول»**. ومطالعتك ترجمته تحقق عندك فضيلة أنعمه ، ومشاهدتك له تحقق عندك ما سميناه به . وجعلنا لذلك عيونا من الهدية ، وهو لطف استقللنا قدره لك . ولو كانت الملوك تتهادى على أقدارها لما اتسعت لذلك خزائنها ، وإنما يجرى ذلك بينها على قدر ما يدل على حسن النية ، وجميل الطوية ، وبالله تعالى التوفيق .

" قال وكانت الهدية من المأمون رحمه الله فارسا بفرسه ، وجميع آلاته من عقيق . قيل بل فارس بفرسه وجميع آلاته من عنبر شِحْرِىّ أشهب . ومائدة من الجزع أرضها بيضاء ، وفيها خطوط سود وحمر وخضر ، وسعتها ثلاثة أشبار ، وغلظها إصبعان ، وأركانها ذهب مما أخذ من خزانة مروان بن

محمد الأموى . وخمسة أصناف من الكسوة ، ومائة ثوب من كل فن من قباطى مصر وخز السوس ، ووشى اليمن والإسكندرانى وسلجم خراسان وديباج خسروانى . وفرش قرضوى [قرمزى ؟] وفرش سنجردى . ومائة طنفسة حبرية بوسائدها . وكل ذلك خز سوس مائة قطعة من كل صنف . وجام زجاج غلظ إصبع وفتح شبر ونصف ، فى وسطه صورة أسد ثابت ، وأمامه رجل قد برك على ركبتيه ، وقد فوّق السهم نحو الأسد . والجام والمائدة من الذى أخذ من خزانة مروان بن محمد الأموى . والكتاب فى طومار ذى وجهين" [طومار Τομάριον أى ملف من ورق البردى] .

لم يخترع مؤلف قصة السندباد حكاية تبادل الرسائل والهدايا بين ملك سرنديب والخليفة هارون الرشيد . وإنما اقتبس ما طالعه من أخبار السفارات بين ملوك شرق آسيا وغربها ، فجعل منه ببراعة ملحوظة حادثاً هاماً فى رحلات بطله ، بل باعثاً رسمياً على قيام السندباد برحلته السابعة والأخيرة .

تعقيب عام على قصة السندباد

استطعنا أن نضع إصبعنا على مصادر قصة السندباد البحرى فى الرحلات العربية ، وكتب العجائب ، التى انحدر إلينا بعضها من مؤلفات العرب فى القرون الوسطى بين القرن التاسع الميلادى والقرن الخامس عشر . وقد يضاف إليها بعض الأساطير اليونانية التى انتقلت إلى الشرق مع جيوش الإسكندر وسمع بها المؤلف ، أو بعض ما جاء فى التاريخ الخرافى لذى القرنين الذى وضعه كلستينس المزعوم فى مدينة الإسكندرية ، وانتقل إلى الآداب العربية والسريانية والقبطية والإثيوبية .

وعالجنا أنواعا من المعارف البشرية والنباتية والحيوانية ، يتقدم بها السندباد على أنها مشاهدات شخصية وتجارب ، وهى واردة فى الكتب العربية بمعناها ، وبما يكاد يكون لفظها . كذكر الفلفل والقرنفل والعود والنارجيل والكافور ، والعنبر واللؤلؤ والماس والياقوت ، والكركدن والفيل ، والأحياء البحرية الغريبة ، ونظام الطبقات عند الهندوس ، وعادات أهل قمار والزابج وسرنديب .

ولا يدع كل هذا مجالا للشك فى مصادر القصة ، ولا فى أهميتها كقصة جغرافية تُلَخِّص المعارف البحرية عند العرب فى القرون الوسطى . ولا نود أن نغالى فى تعقب السندباد عبر البحر الشرق الكبير إلى مواضع بعينها . فلم يعن المؤلف بتحديد هذه المواضع دائماً ، ولا هى متخذة فى ذهنه وضعاً واضحا . على أن ما يظهر من اختياره للحوادث هو عنايته بكل ما يمكن أن يخدم غرضه فى التنقل ببطله من مغامرة إلى مغامرة ، وهو يشبه أن يراعى فى هذا الاختيار أمكنة تبدو أكثر صلاحية لأغراضه . وقد اتضح لنا على الأقل أن المؤلف سافر بالسندباد إلى جزيرة سرنديب ، وسومطرة وكَلَه ، وقمار ، وساحل المَلَيْبَار ، وربما إلى جزائر النجبالوس أو الأندمان . ولا يبعد أن يكون قد نقل متاعه فى رحلته الأخيرة إلى إحدى المرافئ بشط السند ، أو على شاطئ مكران . ومن هناك سافرت قافلته إلى بغداد مخترقة بلاد مكران وفارسستان وما يعرف بالعراق العجمى . وفى الحكاية السابعة بطبعة القاهرة يغرق المؤلف سفينة السندباد ببحر الصين . فقد أحاطت الحيتان بالسفينة فتكلم الربان كلاما يفهم منه أن المؤلف كان يفكر بذلك البحر ،

إذ قال : " اعلموا يا ركاب أننا وصلنا إلى إقليم الملوك حيث قبر سليمان بن داود " . فنى بعض الأساطير العربية ما يشير إلى قبر سليمان بجزائر فى شرق الصين ، تجاور الجزائر التى نفى إليها ابن داود بعض المردة العصاة . ولكننا نفضل أن لا نعتد بهذا النص لأنه يقضى على الوحدة الفنية للقصة .

ولهذه الوحدة أهمية كبرى ، لأنها دليلنا على أن مؤلف القصة شخص واحد ، قد يكون مسؤولا عن بعض قصص أخرى فى كتاب ألف ليلة . ولكنه لا يمكن أن يكون مؤلف الكتاب بأجمعه . بل نحن نشك فى أن يكون مؤلف كتاب ألف ليلة شخصا واحدا . فالكتاب فى رأيى مجموعة بدأت تتكون حول أصل فارسى ، ربما كان مؤسسا على أصل هندى . فأضاف الرواة والمخرفون إلى المجموعة شيئا فشيئا قصصا أجنبية ، وقصصا مصرية ، وحكايات من تأليفهم ، وروايات منقولة عن أخبار العرب . وهذا على أى حال يخرج بنا عن نطاق البحث الذى تناوله كتابنا .

ولا نحسب أن مراجعة تواريخ كتب الجغرافيا العربية وما إليها تساعدنا كثيرا على الجزم بأن مؤلف السندباد قد اطلع على كتاب منهادون الآخر . هذا إلى أن غير قليل من هذه الكتب قد ضاع ، ولا يبعد أن تكون الحوادث التى لم نجد لها ذكرا فيما بين أيدينا من الكتب كحادثة مقبرة الأفيال ، وطريقة جمع النارجيل بواسطة القرود ، قد عرف بها المؤلف من بعض الكتب التى ضاعت

ولقد أراد بعض المستشرقين — وعلى رأسهم البارون فون هامر von Hammer فى القرن الماضى — أن يروا فى إشارة أبى الحسن المسعودى إلى كتاب السندباد بأنه منقول عن " الفارسية والهندية والرومية " ، دليلا على

أن قصة السندباد البحرى من أصل غير عربى . ولـكن بحوث الهندولوجيين وغيرهم أدت إلى الـكشف عما يكون هذا الـكتاب الذى أشار إليه المسعودى . فهو قصة هندية وردت ضمن المجموعة التى تعرف باسم « پانشا تانترا » Pancha Tantra . وقد نقلت هذه القصة فى كتاب « ألف ليلة وليلة » باسم « حكاية تتضمن مكر النساء » ، ووضعت بالجزء الثالث من طبعة القاهرة . وهى قصة الملك وولده والوزراء السبعة والحـكيم سندباد . وربما كان نقلها إلى العربية عن الـكتاب الفارسى المسمى « بختيار نامه » . وقد كشف الباحثون عن العلاقات الوثيقة بين الأدب الهندى والأدب الفارسى ، كما يظهر ذلك من مقارنة الـكتاب الهندى « هيتوپاديشا » Hitopadesa بالـكتاب الفارسى « توتى نامه » . وحكاية السندباد الهندية انتقلت إلى الآداب العبرانية باسم الحـكيم « سندبار » وإلى اليونانية باسم « سنتباس » .

كانت إذن إشارة المسعودى إلى كتاب السندباد تنصب على الـكتاب الهندى . وهو مجموعة حكايات لا تخلو من خلاعة مكشوفة تتضمن مكر النساء .

ونحن من جهتنا لا يقوم لدينا أدنى شك أن قصة « السندباد البحرى » عربية مستحدثة لا يرجع تأليفها إلى ما قبل القرن الحادى عشر الميلادى . وأسلوبها ، ولغتها الدارجة ، كما تبدو فى النص الذى نشره لانجليس ، قد تنزل بتأليفها إلى القرن الرابع عشر أو بعـد ذلك . ولا نستبعد أن يكون مؤلفها مصريا ، أو على الأقل عارفا باللهجة القاهرية .

وأيا كان مؤلف السندباد ، فقد استطاع أن ينشىء قصته الخلابة من أشتات المعارف الجغرافية وحكايات الرحالين المتداولة فى عصره دون أن ينتقص

هذا من قدره كفنان بارع . فالقصة تخرج على لسان بطلها مفعمة بالحياة ، تتدافع أحداثها بعضها فى أثر بعض ، كأنها أمواج البحر الزاخر الذى لجج فيه السندباد ، وعرف مُرَّه أكثر من حُلْوه ، ورضى مع هذا بأن يكون أسير سحره . تخرج القصة من فمه متناسقة متلائمة ، قديرة على إبراز صور البحر وجزائره ، وألوان الطبيعة الاستوائية ، بطريقة إيحائية ، تعنى بالجو الفنى أكثر مما تعنى بالتفاصيل . تنبض بالحياة ، وتفيض بالحركة ، وتتوهج ألوانا وأنوارا ، وتتشكل أوضاعا وأجراما ، وهى على طولها ، تستأثر بمشاعر قرائها أو سامعيها .

فلا سبيل إلى العجب أن احتضنتها آداب العالم منذ نشر جالان ترجمتها الفرنسية فى مطلع القرن الثامن عشر ، وتنشأت عليها أجيال من الشباب ، وتأثر بها كبار الكتاب الخياليين أمثال ديفو وسويفت وهوفمان ، وإدجار آلان بو ، ولاموت — فوكيه ، وهانس أندرسون ، وجريم . ولا أحسبنى مبالغا إذ ألاحظ أثرها فى طائفة كبرى من الأدب البحرى فى العالم . وقد رفعها الناقد ريتشارد هول إلى مكانة الأوديسية ، قياسا مع الفارق . ولم تقف هذه القصة عند حد أن تكون سمرا للصغار والكبار على السواء ، ولا مصدر وحى لمشاهير القصاصين ، بل كانت موضوع دراسة العلماء المستشرقين والجغرافيين أمثال ڤالكنار Walckenaër ورينو ودى خوى وريتشارد هول ولين وكازانوڤا وجبرييل فرّان . واستشهد بها مؤرخو علم تقويم البلدان كما عرضوا لجغرافيا القرون الوسطى . وفى ذلك يقول ڤيڤيان دى سان مارتان فى « تاريخ الجغرافيا » : "وقد احتفظت تلك المواضع القاصية [أى شرق آسيا] عند قدماء العرب [يقصد عرب القرون الوسطى] بخصائص المعجب الغريب ،

وهى الخصائص التى تتصل بالمجاهل البعيدة . فمن لم يطالع بكتاب « **ألف ليلة وليلة** » حكايات السندباد البحرى العجيبة ؟ هـذه الحكايات التى تغلو فى التصور ، وتتمادى فيها الأخيلة الشرقية ، لا تعدم أهميتها لدى المؤرخ الجغرافى " .

ولم يقف نجاح صاحب القصة عند قوة السرد والعرض والإيحاء بالجو البحرى الصادق ، بل تعداه إلى إبراز صورة واضحة لبطل القصة نفسه . فهذا السندباد بدأ شبابه وقد ورث عن أبيه مالا كثيرا أضاعه بين الكاس والطاس ، والخلان والخليلات . وهو شبيه فى هذا بالأغرار فى مثل سنه ، يغلبهم نزق الشباب وحب المغامرة ، فيترددون فى مصارع الشهوات . ولـكن نفس السندباد العامرة لم تركن إلى حياة الفساد والانحلال ، فأصيب بنوبة روحية عرفها الشعراء والفنانون ، أمثال بَيْرُون وشِيللِّى ورَامْبُو وجُوجَان ، وهى نوبة عاودت الشباب بعـد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعرفت حينئذ باسم التملص évasion . وكانت وسيلة السندباد إلى التملص هى ركوب البحر الشرقى الـكبير . وقد سمع ولا شك بالـكثير من حكاياته على ألسنة الملاحين والتجار الذين يملأون موانى البصرة وسيراف وهرمز ، ويتنقلون بينها وبين بغداد .

وعاد السندباد ، بعد رحلات استغرقت على الأقل سبعة وعشرين عاما من عمره ، رجلا وقورا مهيب الطلعة ، وكزه الشيب فى عارضيه ، يحدث عن رحلاته وأهواله بصوت موسيقى متزن ، لا تكاد تبدو فى نبراته آثار جهاده الهائل ، ولا هو يحاول أن يؤثر فى سامعيه بأكثر من سرد الوقائع سردا منظما محكما ، لا أثر للتعمل فيه ، ولا للافتعال الفنى .

والصورة الفنية التى تبرزها القصة للسندباد صورة رجل بعيد الهمة ،

متوثب الروح ، تواق إلى المعرفة ، متوقد القريحة ، واسع الحيلة ، لا يستنيم لمصيبة ، ولا يجثو لصروف الحدثان . والسندباد فى هذا علم على جميع الرواد والمستكشفين ، من يَازُونُسْ الأرجونوتى وأودسيوس ، إلى ابن بطوطة وماركو بولو و بارتولوميو دِيَاز ، ومن ڤاسْكودَاجاما وكولومبوس ومَاجِلان إلى الكابتن كوك وسكوت ونَانْسِن وأَمُنْدِسْن . فإذا كان هؤلاء المكتشفون قد ضاعفوا من كنوز المعارف البشرية ، ومهدوا للإمبراطوريات العظيمة ، فقد أوسع السندباد للخيال آفاقه ، ونشر للكتاب خيوطا فضية ، وللشعراء أشعة ذهبية ، توسلوا بها إلى التحليق ما شاء لهم الشعر والنثر .

والقصة تبدأ سهلة السرد هادئة ، لا تنم على ما تخبئه من روائع : " . . . كان فى زمن الخليفة هرون الرشيد بمدينة بغداد رجل حمال يقال له السندباد . . . " ، ثم تترادف أحداثها وتتشعب حتى تصل إلى عقدتها الكبرى عند ما يدفن السندباد حيا . وهى تعود بعد ذلك رويدا إلى هدوئها ، كما تعود حياة السندباد سيرتها الأولى بين خدمه وأعوانه ، وأهله وخلانه . وكأنى بها مقطوعة سمفونية تبدأ هادئة اللحن . ثم ترتفع أنغامها ، وتتفرع عن لحنها الأساسى شتى الألحان ، تتلقفها آلات «الأركسترا» أفرادا وجماعات حتى تدوى بها كافة الآلات الوترية والهوائية والنحاسية ، و يعلو لحن البحر والعاصفة ، وصوت الأمواج المضطربة ، وقعقعة السفينة ، وشرعها تضرب ممزقة فى صواريها وحبالها تلهب ظهرها كالسياط . ثم هى ترتد إلى هدوئها الأول ، لتنتهى فوق الأوتار دبيبا وحفيفا ، لا تلبث أن تحمله على أجنحتها أخف النسمات .

خاتمة الكتاب

هذا آخر المطاف ونهاية التجوال . لحظة يتوادع فيها السفار على لقيا ، والأغلب أن يتوادعوا على غير لقاء .

عدتم إلى الديار وعدنا ، من بطون العصور السالفة إلى أواننا ، ومن آذى البحر الشرق القديم إلى بحرنا الأوسط . رفأتم ورفأنا بهذا الثغر الجميل ذات يوم صحو من مطالع الربيع ، وقد غادرناه سوياً منذ نحو عامين في بواكير الخريف ، لا هجرة ولا هجرانا ، بل هروبا من الحاضر تبرما به ، إلى الماضى ملاذ ذوى الهوى ، وضيقا بأرض قسى أهلها بعضهم على بعض ، وبحر امتنع علينا ركوبه ، إلى بحار وأراضين فرز بين الواقع والأساطير .

شفينا غلة ، وأطفأنا لظى ، وحققنا حلم صبا . آلفنا بين نوازع نفوسنا إلى البحار وركوب الجوارى المنشآت ، وأمان لنا قديمة فى فهم سر علينا استغلق ، وفك سحر آخر من أسحار الطفولة والمراهقة . ولاءمنا بين حاضرنا المادى الموضوعى ، وماضينا الخيالى الوجدانى ، ومزجنا القديم والحديث ، وجهدنا أن نحبس روحنا الجياشة وراء أسوار عتيقة ، تنزف منها الرطوبات ، وتكسوها خضراء الطحالب . لا كلفا بالقديم ، ولا قلى للجديد . بل ترويضاً للروح ، وإسلاساً لقيادها الجموح ، ومرانا لها على ركوب السهل والحزن .

لم يكن ليقدرنى على هذا غير السندباد ، معلمى البحرى الأول . فقد كان بطبعه وطبيعته من زمن غير زمنى . يمت بصلة إلى آل كابُولِيت وأنا من مونتاجو . ولكنْ بيننا حب مشترك أشد من أواصر القربى ، وأقوى من

وازع العصبية . حب أضاع فيه معلمى شبابه وكهولته ، وأصرف فيه شبابى ومايقدر لى من كهولة وما بعدها . ذلكم هو حب البحر ، قيعانه وأمواجه وبروره وجزائره .

بيد أن أستاذى لم يعلمنى من حب البحر أن أدوّن فيه الكتب ، أو أنشىء القصص . بل أن أركبه ملججاً ، وذلك أصدق الهوى .

فلما أقام أوار الكريهة بينى و بين البحر حواجز مستعرة ، وباعد بينى وبين ركوبه ، بل والأمل فى ركوبه قبل ردح ربما طال من الزمن ، عدت إلى معلمى الأول أستوحيه ، وأنقب عن سره ، وأطوّف فى البحار التى طوّف فيها ، لابساً لبوسه ، عائشاً حياته ، متجاهلا ما جهل ، عارفا ما كان يعرف . رحلة خيالية فى الزمان والمكان ، لم أقم بها إلاّ بين الطروس والمحابر ، وصفحات المجلدات القديمة . فكان هذا الكتاب .

لا هو من العلم كله ، ولا هو من الأدب كله . صفته من صفة مادته ، وإقليمه نوعا كإقليمه موضوعا . هو بين العلم والأدب كموضوعه بين الواقع والأساطير . للعلماء أن يقذفوا به إلى مجامع أهل الأدب ، وللأدباء أن يلقوا به فى أنابيق العلماء . هو عيال عليهم جميعاً .

لو أردته بحثاً علمياً لفاتنى من العلوم كثير : تقويم البلدان ، والتاريخ ، و « الفوكلور » ، وعلم اللغات المقارن ، وفحص المخطوطات ، ومقابلة النصوص ولو أردته بحثاً أدبياً لأعوزنى ما يتحصن به بحاثة الأدب من دراسة اللغة ، تاريخها وأجروميتها وبيانها وبديعها ، واضطلاع كامل بآدابها ، وفهم للهجات ، وموازنة للأساليب .

لم يبق لى بين هذا وذاك غير شىء من العلم بالبحر وأحيائه وأمواجه وتياراته وقيعانه وجوه وشواطئه ، وحب صادق له ، واطلاع عام على الأدب الخاص به ، وخبرة شخصية ببعض أرجاء البحر الشرقى الكبير ، موضع عناية البحريين والجغرافيين وكتّاب العجائب وأرباب القصص ممن ألفوا فى العربية بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادى .

ليس زيفاً فى التواضع أن أقول ما أنا قائل . هى الحقيقة الصراح أن من يتصدى لمثل موضوع هذا الكتاب لا يمكن أن يكون رجلا واحداً ، إلا أن يجمع فى واحد ما عددناه من أبواب العلم والمعرفة . واتساع المعارف فى عصرنا لم يعد يسمح بالشخصيات الإنسيكلوبيدية . ولقد أقررت فى المقدمة بفضل المستشرقين . ولا أحسبنى ، بالغاً ما بلغ هذا الإقرار ، قادراً أن أفيهم حقهم من المديح ، وأن أعبر لهم عما يخالج نفسى من تبجيل وإعجاب . ولكنى أترك الإطراء والإعجاب إلى الأمل بأن يكون خلفاؤهم أعرف الناس بالتحرج الذى يبدو فى هذه الخاتمة ، وأول من يفهم معنى إقرارى بعجزى عن أن أتمكن من الوفاء وحدى بما يستحقه موضوع هذا الكتاب من استعداد ودراسة واستقصاء وتأليف .

منهم ألتمس العذر إذ جازفت فى بعض المواضع من كتابى بآراء شخصية ، أرجو أن تؤخذ على أنها جرأة طبيعية لا تجرؤ ، وحسن اجتهاد لا صفاقة .

وقد يقدر لبعض موضوعات هذا الكتاب أن تفحص من أساسها بمعاهد البحث بالجامعتين المصريتين الحديثتين ، وأن يؤخذ فرادى ما أخذته جماعة ، وتفصيلا ما حققته إجمالا . فإذا أدت البحوث إلى تأييد بعض ما ذهبت إليه ،

فلست أرجو أن يكون لى من الفضل أكثر من البدء والمحاولة . أما إذا أثبتت فساد زعمى بعضه أو كله ، فأنا أول من يتقدم لأصحابها بالشكران على ما أسدوا . فكلنا نعمل خالصين لوجه الحقيقة والعرفان . وأنا راض على الحالين ، لأن لى فى كل منهما أعظم مكافأة أطمع فيها وأطالب بها ، هى اليقين بأن عملى فى هذا الكتاب لم يكن عبثاً ، وجهدى فيه لم يضع سدى .

الإسكندرية فى ٧ أبريل سنة ١٩٤٢ .

انتهى

المراجع

مراجع عربية

عصر تأليف الكتاب (بالسنة الميلادية)	
٧٧٦	ابن حيان (جابر): مختار رسائل. نشر كراوس. القاهرة ١٩٣٥.
٨٤٤ — ٨٤٨	ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله): كتاب المسالك والممالك. نشر وترجمة دى خوى. ليدن ١٨٨٩.
٨٥٠	الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): كتاب الحيوان.
٨٥١	التاجر سليمان: سلسلة التواريخ. طبع بإشراف لانجليس سنة ١٨١١. ونشره وترجمه رينو بباريس ١٨٤٥. جزءان.
٨٧٥ — ٨٨٠	ابن واضح اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر): كتاب البلدان. نشر دى خوى. ليدن ١٨٨٥.
	اليعقوبى: تاريخ ابن واضح. نشر هوتسما. ليدن ١٨٨٣.
٩٠٢	ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر): كتاب الأعلاق النفيسة نشر دى خوى. ليدن ١٨٩٢.
٩١٦	السيرافى (أبو زيد حسن): تعقيب على مذكرات التاجر سليمان. نشر رينو. باريس ١٨٤٥.
٩٤٣	المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على): مروج الذهب ومعادن الجوهر. نشر وترجمة باربييه دى ميناردى كورتى. باريس ١٨٦١ — ١٨٧٣، ٩ أجزاء.
٩٥٥	المسعودى: التنبيه والإشراف. نشر دى خوى. ليدن ١٨٩٤.

عصر تأليف الكتاب (بالسنة الميلادية)	
٩٦٦	المقدسى (مُطَهَّر بن طاهر) : البدء والتاريخ . نشر وترجمة كليمان هوار . باريس ١٩٠٧ . أربعة أجزاء .
٩٧٧	ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : المسالك والممالك . نشر دى خوى . ليدن ١٨٧٠ .
	الإصطخرى (أبو اسحق الكرخى الفارسى) : مسالك الممالك نشر دى خوى . ليدن ١٨٧٠ .
٩٨٨	أبو يعقوب النديم (محمد بن اسحق ، أبو الفرج الوراق) : كتاب الفهرست . نشر فلوجل . ليبزج ١٨٧١ .
١٠٠٠	المقدسى البشارى (شمس الدين بن عبد الله) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . نشر دى خوى . ليدن ١٨٧٧ .
١٠٣٠	البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد) : الآثار الباقية من القرون الخالية . نشر وترجمة زخاو . لوندرة ١٨٧٩ .
	البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة فى العاقل أو مرذولة نشر وترجمة زخاو . لوندرة ١٩١٠ . جزءان .
١١٥٤	الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى ، الملقب بالشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مختصر طبع روما ١٥٩٢ .
	الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . عن « نزهة المشتاق » . اختيار دوزى فيما يختص بالأندلس . ودى خوى فيما يختص بالمغرب والسودان ومصر . ليدن ١٨٦٦ .

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

١١٨٥ ابن طفيل (أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسى الأندلسى) :
حى بن يقظان . ترجمة جوتييه . الجزائر ١٩٠٠ .

١١٧٩—١١٢٩ ياقوت الحموى (بن عبد الله الرومى) : معجم البلدان .
نشر ڤوستنفلد . ليبزج ١٨٧٠ — ١٨٨٦ . ستة أجزاء .

١٢٤٨ ابن البيطار (ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد الأندلسى المالقى العشاب) : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .
طبع القاهرة ١٨٧٤ . جزءان .

١٢٠٣—١٢٨٣ القزوينى (زكريا محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد.
نشر ڤوستنفلد . جوتنجن ١٨٤٨ .

القزوينى : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . نشر ڤوستنفلد . جوتنجن ١٨٤٩ .

١٢٦٩ ابن أبى أصيبعة (موفق الدين ، أبو العباس بن القاسم الخزرجى) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . نشر موللر — القاهرة ١٨٨٢ .

١٣٢٥ الدمشقى (شمس الدين أبو عبد الله الصوفى) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر . نشر وترجمة ميرن . النص فى بطرسبرج ١٨٨٦ ، والترجمة فى باريس ١٨٧٤ . جزءان .

١٣٣٢ النويرى (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب . القاهرة ١٩٢٣ — ١٩٣٨ . ثلاثة عشر جزءا صدرت حتى عام ١٩٣٨ .

١٢٧٣—١٣٣١ أبو الفداء (اسماعيل بن على ، الملك المؤيد عماد الدين

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

صاحب حماة) : تقويم البلدان . نشر وترجمة رينو ودى سلان وجيار . باريس ١٨٤٨ — ١٨٨٣ . ثلاثة أجزاء .

١٣٤٠ ابن الوردى (زين الدين أبو حفص عمر) : خريدة العجائب. القاهرة ١٨٦٣ .

١٣٥٥ ابن بطوطة (أبو عبد الله بن محمد المغربى اللواتى الطنجى) : تحفة النظار فى عجائب الأمصار . نشر وترجمة ديفريمرى وسانجينتى . باريس ١٨٥٤ — ١٨٧٩ . أربعة أجزاء .

١٣٧٥ ابن خلدون (عبد الرحمن بن يحيى) : مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر .

١٣٨٠ — ١٤٠٥ الدميرى (كمال الدين) : حياة الحيوان الكبرى . القاهرة ١٨٥٧ .

١٣٨٨ — ١٤٤٦ الأبشيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد) : المستطرف فى كل فن مستظرف . القاهرة ١٨٥١ .

١٤٩٠ ابن ماجد (شهاب الدين أحمد) : الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد . نشر جبريل فرّان . باريس ١٩٢١ — ١٩٢٣ .

١٥١٦ ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد) : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار .

ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

عصر تأليف الكتاب
(بالسنة الميلادية)

١٦٦٠ حاجي خلفه (ملا كاتب چلبي) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . القاهرة ١٨٥٧ جزءان .

؟ ؟ كتاب ألف ليلة وليلة . نشر ماكنوتن بكلكتا . وهابخت فى برسلاو . وطبعات القاهرة .

؟ ؟ قصة السندباد البحرى . نشر وترجمة لانجليس فى كتاب ساڤارى (انظر المراجع غير العربية) باريس ١٨١٣ . نشر الشيخ شروانى بكلكتا فى ذيل المائتى ليلة الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة .

؟ ؟ بُزُرْك بن شهريار (الناخداه الرامَهُرْمُزِى) : عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره . نشر فون دير ليت . وترجمة مارسل ديڤيك . ليدن ١٨٨٦ .

؟ ؟ سيرة فارس اليمن ، سيف بن ذى يزن .

مراجع غير عربية

عصر تأليف الكتاب

? ? La Bible (Ancien Testament : le Livre des Rois).

XI°-X° S. Av. J.-C. Homère : L'Iliade et l'Odyssée.

326 B. C. Nearchus : An Account of the Voyage made by the Fleet of Alexander the Great; under the Command of Nearchus, from the mouth of the river Indus, up the Persian Gulf. From his Journal, preserved by Arrian. Harris' Collection of Voyages, 2Vols. London. 1764.

325 B. C. Herodotus : History. Rawlinson's Translation, London 1858 — 1860.

I° Century A. D. The Periplus of the Erythraean Sea : Translation and Notes by W. Schoff. New York 1912.

I° Century A. D. The Book of Alexander. Transl. from the Ethiop. by W. Budge. London, 1933.

77 Pliny : Natural History. Transl. by H. Rackham. 10 Vols. London, 1938.

851 Relations des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine dans le IX°S. de l'Ere chrétienne. T. I. Trad. M. Reinaud; Paris 1845.

851 Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine. Trad. G. Ferrand; Paris 1922.

933—1021 Firdousi (Aboul'Kasim) : Le Livre des Rois (Chah-nameh). Trad. J. Mohl. 7 Vols; Paris 1877.

? ? L'Abrégé des Merveilles. Trad. Baron Carra de Vaux; Paris 1898.

1160—1173 Rabbi Benjamin : The Travels of Rabbi Benjamin ben Jonas of Tudela, through Europe, Asia, and Africa, from Spain to China; Harris' Complete Collection of Voyages; 2 Vols. London, 1764.

1253 Rubruquis : The Remarkable Travels of Willam de Rubruquis, a monk, sent by Louis IX, Ambassador into different ports of the East. Harris' Complete Collection of Voyages; 2 Vols. London, 1764.

1254—1324 The Book of Ser Marco Polo, the Vene-

tian. Transl. & ed. by Sir H. Yule; IIIrd. Ed. by H. Cordier; London 1903.

1357—1371 Mandville's Travels. Transl. from the French by Jean d'Outremeuse, 2 Vols. London 1919.

? ? Mille et une Nuits. Trad. Galland; Paris 1704.

? ? Arabian Nights Entertainments. Transl. By Ed. Lane. N. E. in 3 Vols; London, 1889.

? ? Cent et Une Nuits. Trad. Gaudefroy-Demombynes; Paris 1911.

1524 A. Pigafetta : Premier Voyage autour du Monde. Paris 1925.

1650—1663 Pietro della Valle : Voyages. 8 T ; Paris 1745.

1697 W. Dampier : A New Voyage round the World. The Argonaut Press; London 1927.

1709 J. A. Dubois : Hindu Manners, Customs and Ceremonies. Transl. by H. K. Beauchamps ; Oxford 1928.

1810 Malte-Brun: Précis de Géographie Paris 1810.

1812 H. Weber : Tales of the East. 3 Vols; Edinburgh 1812.

1813 Savary : Grammaire de la Langue Arabe. Paris 1813.

1845 M. Reinaud : Discours préliminaire dans T. I. de la Relation des Voyages (voir plus haut); Paris 1845.

1848 M. Reinaud : Introduction à la Géographie des Orientaux. T. I. de la Géographie d'Aboulféda; Paris 1848.

1851 Herman Melville : Moby Dick, or the White Whale. New York 1851.

1871 E. Tylor : Primitive Culture. 2 Vols. London, 1920.

1873 Vivien de Saint-Martin : Histoire de la Géographie. Paris 1873.

1886 F. Maynard : Les Baleiniers. Paris 1886.

1887 E. Bretschneider : Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources. 2 Vols. London 1887.

1885 T.P.Hughes: Dictionary of Islam. London 1885.

1889 M. J. de Goeje: De Reizen van Sindebaad. De Gids, No. 8, 1889.

1903 Chauvin : Bibliographie des Ouvrages arabes; Tome VII (les Mille et Une Nuits) Liège et Leipzig 1903.

1905 Cl. Huart : Documents persans sur l'Afrique. Rec. de mém. publiés par les Prof. de l'Ec. d. Langues Orient. Ve. Série, Vol. V, Paris 1905.

1912 E. Galtier : Mémoires et Fragements inédits. Mém. Institut Français d'Arch. Orient.; T. XXV II ; Le Caire 1912.

1913 E. H. Blakeney : A Smaller Classical Dictionary. London 1913.

1913 W. J. Dakin : Pearls. Cambridge 1913.

1913—1914 G. Ferrand : Rel. de Voyages et Textes géogr. arabes, persans et turks relatifs à l'Extrème-Orient du VIII° au XVIII°S. Paris 1913—1914.

? ? L. G. Seurat : L'Huître Perlière. Paris s. d.

1922 P. Casanova : Notes sur les Voyages du Sindbad le Marin. Bull. I. F A. O. T. XX., Le Caire 1922.

1923 D. K. Tessler : Marine Products of Commerce. New York 1923.

1924 R. Basset : Mille et un Contes, Récits et Légendes Arabes. 3 Vols., Paris 1924.

1925 L. Boutan : La Perle. Paris 1925.

1926 L. Rosenthal : Au Royaume de la Perle.

1926 Encyclopaedia Britannica : *Apud* Sindbad.

1928 G. Ferrand : Introduction à l'Astronomie nautique Arabe. Paris 1928.

1930 A. Berget : Leçons d'Océanographie physique. 2 Tomes, Paris 1930.

? ? Clerc-Rampal : La Mer. Paris s.d. (Larousse)

1930 Great Sea Stories of all Nations. Ed. by Tomlinson, London 1930.

1935 W. Beebe : Half Mile Down. New York, 1935.

1936 T. Regan : Natural History. London 1936.

1937 M. Edwards & L. Spence : A Dictionary of Non-Classical Mythology. London 1937.

1937 J. Norman & F. Fraser : Giant Fishes, Whales & Dolphins. London 1937.

1942 E. Kraus : Jabir ibn Hayyan : Contribution à l'Histoire des Idées scientifiques dans L'Islam. Vol. II. Mém. à L'Inst. d'Egypte, T. XLV. Le Caire 1942.

تصحيحات : بالسطر ١١ صفحة ٢٠٨ تستبدل كلمة « جغرافى » بكلمة « خرافى »
وبالسطر ٩ صفحة ٢١٨ تستبدل كلمة « مخلوقات » بكلمة « آدميات »

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

ا — تقارير رسمية : تقارير المصايد المصرية عن السنوات ١٩٣١و١٩٣٣و١٩٣٤ و١٩٣٥ بالعربية والفرنسية .

Mém. s. l'Org. d. Rech. d. Pêcheries. N. et Mém. No. 1, le Caire 1933.
Rapp. s. les Trav. accomplis par le Gouvern. Egyptien. Rapp. et Proc. Verb. de la Comm. Internat p. l'Explor. Sc. de la Méditerranée. Vols. VII, IX, X et XI. Ann. 1932, 1935, 1936, 1937 et 1938. Paris.
Organisation Scientifique et Technique des Pêcheries d'Egypte. Congrès Internat. d'Aquiculture et de Pêche, à Liège en 1939. Bruxelles 1940.

رحلة الباخرة مباحث إلى المحيط الهندى . كتاب تذكارى — القاهرة ١٩٣٩

ب — محاضرات : البحار وأحياؤها وقيمة دراستها للعمران — القاهرة سنة ١٩٣٦
تربية الأسماك وقيمتها للمهندس الزراعى — القاهرة سنة ١٩٤٢ .

ج — مباحث علمية : Epithelium folliculaire et Membranes ovocytaires chez *Solea vulgaris*. C. R. de la Soc. de Biol. T. CIV, Paris 1930.
Tube Formation in *Pomatoceros Triquetri* L. J. of the Marine Biol. Assoc. of the U. K. Vol. XVII, No. 2, Plymouth 1931.
Repeuplement Poissonnier des Sources à Siwa. Direction des Rech. s. les Pêcheries — Notes & Mém. (No. 7), Le Caire 1935.
Breeding of Grey Mullet (*Mugil capito* Cuv.) in Lake Qaroun, Egypt. (with R. S. Wimpenny). Nature. Vol. 135, London. 1935.
Occurrence of Leathery Turtle (*Dermochelys coriacea* Linn.) in Egyptian Waters. Proc. of Zool. Soc., P. IV, London 1936.
Successful Stocking of Lake Qaroun with Mulletes (*Mugil cephalus* Lin. & *Mugil capito* Cuv.) from the Mediterranean. Internat. Rev. d. gesamt. Hydrobiol. ud. Hydrographie, T. 33 Leipzig, 1936.
Lacs en rapport avec le Delta du Nil. Rapp. et Proc. Verb. de la Comm. Internat. p. l'Explor. de la Méd. vol. X Paris 1937.
Vitellogenèse chez *Solea vulgaris* et quelques espèces voisines. Dir. des Rech. s. les Pêcheries, Notes & Mém. (No. 27) Le Caire 1937.
Quelques Aspects de la Biologie des Muges en Egypte. Rapp. et Proc. Verb. Comm. Internat. Explor. de la Méd. Vol. XI Paris 1938.
Whale-Shark (*Rhineodon typus*) in Suez Canal. (sous-presse)
Régime des courants dans le Canal de Suez. (sous-presse).

قناة السويس وأثرها الهيدروغراف والبيولوجى فى الوصل بين مياه البحرين المتوسط والأحمر . المجمع المصرى للثقافة العلمية — المجلد السادس (مؤتمر سنة ١٩٣٦) .

بعض النتائج العلمية لبعثة السيرجون مورى ، المجلد العاشر (مؤتمر سنة ١٩٤٠)

د — أعمال أدبية : سندباد عصرى ، جولات فى المحيط الهندى ، القاهرة ١٩٣٨ .

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE

C28(946)M100

893.783 F276

893.783 F276

Fauzi

Hadith al-sindibad al-quadim.

APR 30 1948

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58889205
893.783 F276 Hadith al-Sindabad a